

الدكتور محمود اسماعيل عبدالرازق

أستاذ بكلية الآداب — فاس

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

رسالة دكتوراة

نشر وتوزيع



32-34 شارع فكتور هيكو

الهاتف 30.76.44 / 30.23.75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري



الطبعة الثانية 1406 — 1985
جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

لعب الخوارج دورا بارزا في تاريخ بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واثروا في احوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت بلاد المغرب اكثر بقاع العالم الاسلامى تقبلا لعقائد الخوارج واكثرها حماسا لنصرتهم . فباعثناق المغاربة مذهب الخوارج ، رفعوا علم الثورة على الامويين والعباسيين ، وانتهى بهم الامر الى اقامة امارتين مستقلتين هما امارة بنى مدرار وامارة بنى رستم .

وبقيامهما شهدت بلاد المغرب عصرا من الاستقلال السياسى والازدهار الاقتصادى والثقافى كان لها عوضا عن فترة القلاقل والاضطرابات السياسية والازمات الاقتصادية التى صحبت عصر الثورة . ثم تاهت الدولة الفاطمية ، وقضت على دول المغرب المستقلة ، نهب الخوارج من جديد ضد الفاطميين وسياستهم القائمة على التعصب للمذهب الشيعى ، وهددوا بازالة النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب . حقيقة لم يقدر لثوراتهم النجاح ، الا انها ارجعت الفاطميين على التحول من سياسة العنف والتعصب الى اللين والاعتدال .

تصارى القول — ان تاريخ المغرب الاسلامى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى تأثر بحركات الخوارج تأثرا كبيرا . وعلى الرغم من ذلك ، نفتقر الى دراسة متكاملة عن الخوارج فى المغرب واثروهم فى تطوره السياسى ، ودورهم فى تاريخه من بدء الثورة الى تحقيق الاستقلال ، ثم العودة الى الثورة مرة اخرى . لا ننكر انه ظهرت بعض الدراسات الخاصة بثورات الخوارج ، لكنها عولجت فى ثنايا التاريخ العام للمغرب الاسلامى ، او فى ثنايا الحديث عن سياسة عمال الخلافة فى البلاد . كما ظهرت كتب تعرض لدول الخوارج فى المغرب لكنها لم تتناول اكثر من ظروف قيامها فقط . هذا هو ما قررته ثقة الدارسين من امثال

جوثيه (1) وفورنل (2) وجوليان (3) وبيكيه (4) وجورج مارسيه (5) .

والواقع أن عديدا من المصاعب تعتور سبيل من يتصدى للتاريخ لهذا الموضوع ، ففى بعض الاحيان تنذر المادة التاريخية كما هو الحال بالنسبة لظهور الخوارج فى المغرب ، وكذلك دولة بنى مدرار بسجلماسة ، فعلى الرغم من كثرة ما دون عن تواريخ الخوارج لم يصل اليها منها الا القليل النادر (6) .

وما وصلنا من معلومات كان أغلبها من مصادر معادية للخوارج دأب أصحابها على تشويه سيرهم والطعن فى مبادئهم وأفكارهم ، وليس أدل على ذلك من افتعال الاحاديث النبوية واصطناعها لخدمة أغراضهم فى تسفيه الخوارج وتحقير شأنهم (7) .

ومن ناحية أخرى فإن ما وصلنا من تواريخ الخوارج يقتصر فقط على الإباضية منهم دون الصفرية ، وتنطوى على التعصب الشديد للمذهب الإباضى وأئمة ، وتتجاهل على الفرق الأخرى من الخوارج ، ناهيك عن عدائها المقيت للمذاهب والفرق الإسلامية من غير الخوارج . فضلا عن ذلك تمتلئ بالأساطير والخوارق والكرامات التى لا تستقيم مع منطق التاريخ .

ولا مناص للباحث عن دراسة مصادر هذا التاريخ وتقييمها والكشف عن ميولها واتجاهاتها قبل الاقدام على استقاء معلوماته منها .

ولما كان تاريخ الخوارج فى المغرب قاسما مشتركا بين الخلافة السنية والشيعة ، فمن المفيد أن ندرس مصادر هذا التاريخ ونصنفها الى مصادر سنية وشيعية وخارجية .

أولا : المصادر السنية :

المادة التاريخية المتعلقة بالخوارج فى المصادر السنية متفرقة

(1) Les siècles obscurs du Maghreb. P. 292.

(2) Les Berbers. Vol. 2. P. 4.

(3) Histoire de l'Afrique du Nord. P. 339.

(4) Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 67.

(5) مادة بنى رستم بدائرة المعارف الإسلامية ص 93 .

(6) انظر ابن النديم : الفهرست ص 258 .

(7) راجع : البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 106 .

ومبعثرة في الحوليات العامة أو التواريخ الاقليمية . وأقدم التصانيف في تاريخ المغرب عبثت بها يد الدهر ، فلم يصلنا منها سوى شذرات متفرقات نقلها المتأخرون . لعل من أهمها كتاب مسالك افريقية وممالكها ، والمؤلفات الخاصة بأخبار تيهرت وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية ، تلك التي نسبت الى محمد بن يوسف السوراق (291 — 362 هـ) « الحافظ لأخبار المغرب » كما ذكر ابن حيان (8) . والوراق مؤرخ اندلسي نشأ بالقيروان وتوفي بقرطبة (9) ، وقد فقد تاريخه كله ، وان وجدت فقرات منه عند البكري .

وينسحب نفس القول على ابن القطان (ت 628 هـ) صاحب كتاب نظم الجمان ، وان كان بروفنسال قد عثر على جزء منه خاص بنهاية عصر المرابطين وأوليات سني الموحدين ، وكذلك الحال بالنسبة لكتاب « العبر » لابن أبي الفياض (ت 459 هـ) (10) . والى عهد قريب كان تاريخ الرقيق القيرواني (ت أوائل القرن الخامس الهجري) في حكم المفقود ، لكن لحسن الحظ قدر لنا الوقوف على جزء منه عثر عليه الأستاذ محمد المنوني المكناسي سنة 1965 م بالخزانة العامة بالرباط ، استفدنا منه أيما فائدة في دراسة ثورات الخوارج في بلاد المغرب .

وهذا الجزء الذي يقع في مائة وخمسين صحيفة حققه الأستاذ المنجي الكعبي التونسي ونشره سنة 1968 م بعنوان تاريخ افريقية والمغرب . ومؤلفه هو أبو اسحق عمر بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني . ولا نعلم كثيرا عن نشأته ، انما نعرف أنه تولى رئاسة ديوان الرسائل في البلاط الصنهاجي ، ومن ثم فقد أتيح له الاطلاع على كثير من الوثائق والتواليف في تاريخ المغرب قل أن توافرت لغيره ، بفضلها كتب تاريخه المشهور ابتداء بالفتح الاسلامي للمغرب حتى أوائل القرن الخامس في عدة مجلدات لا نعلم عنها شيئا قط .

ولا شك في أن الرقيق كان سني المذهب بدليل اشتغاله في بلاط بني زيري ، لكن اتجاهاته المذهبية — والحق يقال — لم تنعكس على كتاباته بشكل يسترعى النظر . وقد نقل عنه معظم من صنف بعده في

(8) المعقبين في أخبار بلد الاندلس . تحقيق الحجى ص 33 .

(9) بغية الملتبس في تاريخ رجال الاندلس ص 131 .

(10) انظر : عبيد الله ابن صالح : نص جديد من نسخ المغرب للمغرب . نشره بروفنسال ص 198 .

تاريخ المغرب الاسلامى كآبن عذارى والنويرى وآبن خلدون وغيرهم وعلى الرغم من ذلك فقد حفل الجزء الذى نشر بتفصيلات كثيرة لم توجد عند من نقلوا عنه ، كذلك التى تتعلق بمعركتى القرن والاصنام ، وثورة آبن عطاف الابدى على عبد الرحمن بن حبيب ، وامامة الحارث وعبد الجبار الاباضيين ، وحصار عمر بن حفص بطبنة سنة 152 هـ . وقد ر لنا اعتقادا على هذه المادة الجديدة ان نكون اول من استفاد بها فى التاريخ لثورات الخوارج ببلاد المغرب .

والراجع ان جزء آخر من تاريخ الرقيق وصل الينا عن طريق آبن حماد فى كتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبید وسيرتهم ، اذ ذكر فائدرهيدن (11) الذى نشره ان آبن حماد نقل النص برمته عن الرقيق . وجدير بالذكر ان هذا النص يتعلق بحركة آبى يزيد مخلص بن كيداد اساسا وليس تاريخا للخلافة الفاطمية فى المغرب كما يوحى العنوان . على كل حال ، فلو صح قول فائدر هيدن نكون قد استفدنا فى دراستنا للخوارج فى المغرب بمعلومات مستقاة من تاريخ الرقيق لم تتوفر للدارسين من قبل .

وثمة مصدر سنى آخر غاية فى الاهمية ، وهو سيرة الائمة الرستميين لآبن الصغير المالكى (12) ، والواقع انه ليس لدينا ثمة ما يشير الى اصل آبن الصغير او نشأته ، وكل ما نعرفه انه اقام بتاهرت فى العصر الرستمى الاخير ، كشيخ من شيوخ المالكية ، كان له نشاط بارز فى المساجلات والمحاورات التى شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة ، اذ يصور فى كتابه جدله فى المسائل الفقهية والدينية مع رؤساء الاباضية والمعتزلة ، كما نعلم من تاريخه انه كان يعمل تاجرا ويملك « دكانا فى الرهانة » ، (13) على ان اهميته كمؤرخ دقيق نابه امر لا يرقى اليه الشك . والراجع انه صنف تواليف اخرى لم تصل الينا ، فأسلوبه ومنهجه كما يتضح فى تاريخه للدولة الرستمية ينم عن طول باع فى ميدان التاريخ . على كل حال وقف المستشرق Motylinski على كتابه عن سيرة الائمة الرستميين ونشره سنة 1905

(11) انظر : Histoires des Rois Obeidides. P. 9.

(12) سننه الدكتور سعد زغلول — خطأ — ضمن مؤرخى الاباضية . انظر : تاريخ المغرب العربى ص 27 م .

(13) آبن الصغير : ص 46 .

تحت عنوان :

Chronique d'Ibn Sāghir sur les Imams Rostimides des Tahert. (14)

ويخيل إلينا أن تاريخ ابن الصغير أهم مصادرها عن دولة بنى رستم ، فهو معاصر لآحداث العصر الرستمي الأخير وشاهد عيان لها ، كما استمد معلوماته عن بنى رستم الأوائل من معاصريه من شيوخ الإباضية وغير الإباضية . ولكونه سنيا مالكا فقد كشف لنا عن كثير من أسرار عصره ، مما تغاضى عنه مؤرخو الإباضية ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التي تتعصب للإمامة الرستمية . ومن الانصاف أن نذكر أن ابن الصغير كان موضوعيا في تاريخه ، إذ كثيرا ما أبدى إعجابه بسيرة الراشدين من الأئمة الرستميين ، ولم يثنه خلفه المذهبي عن الإشادة بسياساتهم . ولم يقدر لابن الصغير أن يشهد نهاية دولة بنى رستم مما يرجح أنه مات في التسعينات من القرن الثالث الهجري إذ يقف تاريخه عند إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد (ت 294 هـ) .

أما ابن عذارى وتاريخه المعروف بالبيان المغرب ، فيجمع الدارسون (15) على أهميته كتاريخ عام للمغرب الإسلامي أقرب ما يكون إلى التكامل ، على الرغم من تأخره النسبي ، فقد ألفه ابن عذارى سنة 712 هـ . وهو لذلك من أكثر مراجع تاريخ المغرب الإسلامي تفصيلا ، وأثراها مادة ، وذلك راجع بطبيعة الحال إلى استفادته من تواريخ السابقين كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار إليهم فيما نقل عنهم ، ونحن في غني عن التعريف بابن عذارى وتاريخه على وجه العموم ، فقد تناول ذلك كثير من الدارسين . إنما نكتفي بتقييم ما أورده متعلقا بالخوارج في المغرب ، فالملاحظ أنه أفاض في حديثه عن ثورات الخوارج ، لكنه عزف عن التاريخ لدولهم في المغرب واكتفى بإشارات متناثرة عن أمرائهم وسنى حكمهم . ومع ذلك ، فقد أسدى خدمة طيبة بأثباته للتواريخ في دقة تامة ، وذلك أمر أغفلته تماما كل تواريخ الخوارج تقريبا .

Actes du 14 Congrès international des orientalistes Algiers, 1905. Vol. (14)
3. Part 2.

(15) انظر : بروغنسال : نص جديد من 195 ، حسين مؤنس : رياض النفوس .

المقدمة من 6 ،
Hopkins : Medieval Moslem government in Barbary.. P. xi.

ومعلوماتنا المستقاة عن ابن عذارى بخصوص الخوارج والفاطمين لا تختلف كثيرا عن نظائرها في سائر المصادر العامة التقليدية كابن الاثير وابن خلدون والنويرى ، اذ انها جميعا تنقل اساسا عن الرقيق فيما يرجح .

ولا مشاحة في ان جغرافيا مثل البكرى (ت 487 هـ) في كتابه المغرب ، فضلا عن قيمته الكبرى في دراسة البلدان ومواقعها والمسالك اليها .. الخ من المعلومات الجغرافية ، فقد زودنا بمادة تاريخية هامة — ان لم تكن فريدة في بعض الاحيان — عن خوارج المغرب . وحسبنا ان كثيرا مما كتبه الوراق عن صغرية سجلماسة ما كان ليصل الينا لولا البكرى . وتلك المعلومات — على ندرتها — عظيمة القيمة بالنسبة لدولة بنى مدرار ، فلولاها لظل تاريخ تلك الدولة في طى الابهام . على انه يؤخذ على البكرى افراطه في ذكر روايات ذات طابع اسطورى ، بالاضافة الى عدم دقة معلوماته الخاصة بتاريخ الرستميين .

ومن الاهمية بمكان ان نشير الى كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والاندلس » . وعلى الرغم من انه مؤرخ مصرى الف اساسا في المغازى ، فان كتابه حافل بفيض من المعلومات الخاصة بخوارج المغرب . وابن عبد الحكم المؤرخ في غنى عن التعريف فهو من خيرة مؤرخى الاسلام دقة وموضوعية ، ومن انضجهم اسلوبا ومنهجاً . وتبدو اهميته بالنسبة لموضوع البحث كمعاصر للاحداث من ناحية (توفي سنة 257 هـ) ، وكموثق يهتم باسناد رواياته الى من سمع منهم او اخذ عنهم . ولا غرو فقد اتيح له الاتصال عن كثب بكثير من مشاهير المغاربة الذين كانوا يفدون الى مصر لدراسة مذهب مالك ، واستفاد من معلوماتهم فيما يتعلق بأخبار بلاد المغرب . وحسبنا ما أورده من معلومات — فريدة — حول ثورات الإباضية ، فضلا عن تقديمه صورة واضحة لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور دعوة الخوارج .

اما الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب الذى حققه الدكتور احمد مختار العبادى ونشره بعنوان « تاريخ المغرب العربى في العصر الوسيط » فيحوى معلومات عن ثورات الخوارج استمدها — فيما يرجح — من ابن عذارى ، كما امدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن بنى مدرار . وعلى الرغم من أخطائه الكثيرة في أسماء الاعلام والتواريخ ، وبرغم اسرافه في ذكر روايات أسطورية ، فقد

زودنا بكثير من الاشارات عن بنى مدرار ، لا نجد لها نظيرا عند البكرى
او من نقل عنه كابن خلدون والقلقشندي ، مما يرجح اعتماد ابن الخطيب
في هذا الصدد على كتابات محمد بن يوسف الوراق مباشرة وعدم نقله
عن البكرى كما فعل غيره من المؤرخين المتأخرين .

ويقدم ابن الاثير في تاريخه « الكامل » مادة طبية مأخوذة عن
الطبرى فيما يتعلق بخوارج المشرق . اما ما يخص منها خوارج المغرب
فهى منقولة — فى تحقيق وتمحيص وتنسيق — عن تواليف المغاربة
كالرتيق والورق وغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن النويرى فى الجزاين الثانى
والعشرين والسادس والعشرين من موسوعته المعروفة بنهاية الارب .

ولا يفوتنا ان نعرض بايجاز لما ورد من اشارات الى خوارج
المغرب عند البلاذرى والمؤرخ الاندلسى المجهول صاحب كتاب « اخبار
مجموعة فى فتح الاندلس » ، وكذلك عند ابن حيان وابن سعيد وابن
بطوطة . فالبلاذرى فى انساب الاشراف يفيض بمادة وفيرة ويقدم وجهة
نظر مغايرة لرواية ابى مخنف المتحيزة ، التى نقل عنها الطبرى وغيره
فيما يتعلق بالخوارج فى المشرق . اما كتابه « فتوح البلدان » فلا يخلو من
اشارات عابرة عن بلاد المغرب تبيل ظهور الخوارج ، فضلا عن ثورات
الخوارج فى بلاد المغرب .

اما صاحب الاخبار المجموعة ، فهو مشايخ لبنى امية متحامل
على الخوارج ، لكنه اورد تفصيلات فريدة بخصوص ثورات الخوارج
الصفريّة فى بلاد المغرب .

وفى النصوص التى وصلتنا عن ابن حيان — شيخ مؤرخى
الاندلس — سواء تلك التى نشرها ملشور انطونيه او نشرها الحجى
ببيروت سنة 1965 ، نجد اشارات عابرة لكنها مفيدة فى توضيح علاقات
بنى مدرار وبنى رستم باموى الاندلس . ونفس الشيء يقال عن كتاب
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد .

اما « رحلة » ابن بطوطة فتحفل بمعلومات وفيرة عن علاقات دول
الخوارج ببلاد السودان .

ثانيا : المصادر الشيعية :

كان سقوط دولتى الخوارج ببلاد المغرب مرتبطا بقيام الدولة

الفاطمية ، لذلك عرض مؤرخو الشيعة لأخبار الخوارج — بطريقة عارضة — في ثنايا تاريخهم للدولة الفاطمية في المغرب ومع قلة المعلومات الخاصة بالخوارج عند مؤرخي الشيعة ، وبرغم تحاملهم على الخوارج لما بينهم من عداوة مذهبية ، فقد خلفوا معلومات طيبة عن علاقة الخوارج بالفاطمين .

ويعد أبو حنيفة النعمان المعروف بابن حيون المغربي (ت 363 هـ) من أهم من تناول هذا الموضوع ، مفضلاً عن معاصريه الأحداث ، كان على قرب منها أو معادين لها في أغلب الأحيان لعمله كقاضى قضاء المعز الفاطمى . ولابن حيون مؤلفات كثيرة عن الفاطميين وعقائدهم وتواريخهم ، أطلعنا على ثلاثة منها هى : أساس التاويل الباطنى وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ولا يفيد كثيراً في دراسة الخوارج ، أما شرح الأخبار فهو مخطوط أيضاً بدار الكتب المصرية نشر منه المستشرق الروسى ايفانوفنا مقتطفات جعلها ملاحق كتابه

Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids.

ويلقى من الاضواء عن حياة المهدي في سجله حتى الغزو الشيعى ما يفيد في معرفة احوال دولة بنى مدرار في عهد أميرها اليسع بن مدرار ، فضلاً عن أهميته في توضيح سقوط دولة بنى مدرار سنة 297 هـ على يد أبى عبد الله الشيعى .

وأهم ما خلفه ابن حيون كتابه المسمى بالمجلس والمسائرات ، وهو مخطوط من جزاين بمكتبة جامعة القاهرة ، عرض فيه ان حيون لاحاديث المعز في مجالسه مع معاصريه من الحكام وكبار الشخصيات . وقد أتيح لابن حيون حضور هذه المجالس ، واستطاع تدوين وتسجيل ما كان يدور فيها . وبرغم تحيزه الظاهر للفاطميين ، ومع أن الكتاب لا يعد تاريخاً بقدر ما هو مذكرات خاصة تقريبا ، فقيمتة عظيمة ففى التاريخ للمدرايين الاواخر وعلاقتهم بالفاطميين ، ونعتقد أنه أهم مصدر في هذا الصدد ، اذ يعرض ابن حيون لاعداد المعز حملته على المغرب الاقصى سنة 347 هـ التى كان من بين اهدافها تأديب الامير المدراى الشاكر لله الشاكر على الحكم الفاطمى ، كما يتناول تفاصيل وقائعها ونتائجها . ومن خلال عرضه لمجالس المعز مع الشاكر لله بعد أسره — تلك التى قصد المعز منها « معرفة أخبار سجناسه وأهلها وسيرته فيهم وما يقال عنه من قبوله » — أمكن الوقوف على كثير من أخبار تلك

الدولة التي نفتقر الى معلومات عنها . وجدير بالتنويه أن أحدا ممن درسوا تاريخ المغرب الاسلامي لم يقدر له من قبل الاستفادة من تلك المادة التاريخية في التاريخ لدولة بنى مدرار .

وثمة مصدران شيعيان آخران عظيمي الفائدة في تصوير مجتمع سجلماسة في أواخر العصر الدراري — من خلال تناول حياة المهدي في سجلماسة — وهما : «كتاب استتار الامام» لابراهيم بن أحمد النيسابوري (ت أواخر القرن الرابع الهجري) ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية نشر ايفانوفنا أجزاء منه بمجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول (مجلد 4 — ج 2) تحت عنوان مذكرات في حركة المهدي الفاطمي . وكتاب « سيرة جعفر الحاجب » التي رواها محمد بن محمد اليامني، وقد نشرها ايفانوفنا أيضا في نفس العدد من مجلة كلية الآداب . وسيرة جعفر تعد من قبيل المذكرات الخاصة ، إذ كان صاحبها حاجبا للمهدي ومرافقا له في رحلته الى المغرب ، وسجن معه في سجلماسة ، ومن هنا تبدو أهمية سيرته كشاهد عيان للأحداث .

أما أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد (ت 628 هـ) ، فكتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم غاية في الأهمية بخصوص ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد برغم تحامله الشديد على الخوارج والتعصب للفاطميين ، ولا غرو فابن حماد شيعي اسماعيلي ، إذ يذكر المهدي مسبوقا بعبارة « سيدنا الخليفة الاول أمير المؤمنين » (16) . وقد ذكر هاندر هيدن الذي نشر الكتاب وقدم له أن ابن حماد نقل مباشرة عن الرقيق نصه عن ثورة أبي يزيد . ومن هنا تبرز قيمة تلك المعلومات برغم نسبتها الى ابن حماد الذي عاش عصرا متأخرا عن الأحداث .

أما اليعقوبى المتوفى سنة 284 هـ فقد صنف في التاريخ والجغرافيا ، وتاريخه حافل بدراسة الخوارج في الشرق ، ويلقى بعض الضوء على دوافع نزوحهم الى المغرب . لكن جغرافيته المعروفة بكتاب البلدان أكثر أهمية من تاريخه ، إذ هي العمدة في دراسة مشاكل الحدود بين دول الخوارج وجيرانهم في بلاد المغرب ، ومعلوماته عن وضع تلمسان والنزاع عليها بين الدراريين والرسثيين والادارسة جد قيمة في دراسة العلاقات الخارجية لدول الخوارج ، وغير ذلك أمدنا اليعقوبى بمعلومات

(16) انظر : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص 10 .

هامة عن دولتي الخوارج على الرغم من اقتضابها ، ووجه الاهمية انه عاصر هاتين الدولتين وعانين بعض وقائعها عن كتب ، وقدر له الاتصال ببعض افراد البيت الرستمي ، وفي هذا الصدد يقول « . . . وحدثني ابو معبد عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم التاهرتي » (17) . كما عرف بالموضوعية وعدم الانحياز الى جانب الحرس في التحقق من مصادره ، ولا مبالغة البتة فيما ذكره عن منهجه الذي حدده بقوله : « . . . وقد اتصلت أسفاري ودام تغربي ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره وبلده وساكنتيه ودياناتهم ومقالاتهم .. ثم اثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم حتى سألت خلقا كثيرا من الناس . . . »

وفي كتاب المسالك والممالك للجغرافي المعروف ابن حوقل — وهو شيعي المذهب — نجد معلومات طيبة عن تاهرت وسجلها عاصمتي دولتي الخوارج ، اغلب الظن انه نقل كثيرا منها عن مصادر مغربية غير دقيقة اعتمد عليها ايضا ابو عبيد البكري بدليل وقوعه في نفس الاخطاء التي نجدها عند البكري فيما بعد . ومع ذلك فما أورده ابن حوقل عن الخوارج ، وصلاتهم ببلاد السودان يعد عظيم الاهمية لمعاصرتة الأحداث اذ توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

وابن خلدون سواء في مقدمته أو في تاريخه يبدي تعاطفا واضحا مع الشيعة الزيدية (الادارسة) والاسماعيلية (الفاطميين) . وما كتبه عن المغرب الاسلامي لا غنى عنه لاي دارس لذلك التاريخ ، فضلا عن استفادة ابن خلدون من مؤرخي المغرب السابقين ، كان لاشتغاله بالسياسة وتقلبه في خدمة الدول المعاصرة له ما اتاح له القدرة على الكشف عن القوى المحركة للتاريخ والاسباب والعلل الكامنة وراء أحداثه . ولا غرو فقد تفرد عن جمهرة مؤرخي الاسلام بفلسفته للتاريخ ، وله نظرية اقرب ما تكون الى نظرية « البيولوجية التطورية » في تفسير أحداثه وتعليل وقائعه . ولا حاجة بنا للخوض في تقييم ابن خلدون المؤرخ ، ويعتينا ما أورده عن الخوارج في المغرب . والذي لا شك فيه ان ابن خلدون أمدنا بمعلومات فريدة عن القبائل وانسابها ومذاهبها ومقالاتها أفادت كثيرا في دراسة انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب . وفي

(17) انظر : البلدان ص 358 .

تاريخه لثورات الخوارج ودولتهم وموقفهم من الفاطميين لا يختلف كثيرا عن غيره من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب العام كابن عذارى وابن الاثير والنويرى . لكن ابن خلدون ، فضلا عن عدم دقة تواريخه ، كثيرا ما تختلط معلوماته ، مثل خلطه بين الاباضية والصفرية في احيان كثيرة حتى ان مؤرخا ما سكرأى نبه الى ضرورة اتخاذ الحذر في تناول كتابات ابن خلدون في هذا الصدد . ويخيل اليانا ان اهتمامه بالتفسير والتحليل اوقعه في مزلق الخطأ ، اذ كثيرا ما نجد تناقضا واضحا حين يتناول موضوعا ما في تاريخه العام وبين ذات الموضوع حين يعرض له أثناء عرضه لتواريخ القبائل ، ومع ذلك فحسبه ان فصلا من فصول البحث لم يخل من كتاباته ، سواء في مقدمته او تاريخه .

ثالثا : مصادر الخوارج :

خلف الخوارج الكثير عن عقائدهم وسيرهم وتاريخهم وطبقاتهم ، لكن لم يصلنا منها سوى النذر اليسير ، وقد اورد البرادى في رسالته عن كتب الاباضية مديدا من هذه التصانيف للمشاركة والمغاربة على السواء ، كما اورد ابن النديم في « الفهرست » مزيدا منها ، وذكر انها « مستورة محفوظة » ، فلم نقف لها على اثر ، ومن هذه الكتب ما دونه اليمان بن الرباب ويحيى بن كامل والصيرفى وعبد الله بن زيد وابراهيم ابن اسحق الاباضى والهيثم بن الهيثم والربيع بن حبيب وغيرهم من المشاركة . كذلك نعلم من سير الشماخى ان مؤرخا اباضيا مغربيا شهيرا يدعى ابن سلام عاش حول منتصف القرن الثالث الهجرى وصنف كتابا في السير لم يصلنا بعد ، وقد اعتمد عليه الشماخى فيما يتعلق بثورات الاباضية وطبقات مشايخ المذهب حتى عصر ابن سلام .

ومن المغاربة الاباضية كذلك أبى الربيع سليمان بن يخلق السذى نقل عن أبى زكريا ومعبود بن افلاح ممن نقل عنهم الوسيانى .

ومن المحقق ان كثيرا من هذه الكتب أبيدت او أحرقت نظرا لما تعرض له الخوارج في الاشرق والغرب من اضطهاد ، فقد أخبرنا الدرجينى (18) ان مكتبة الائمة الرسنمين المعروفة « بالمعصومة » أحرقتا أبو عبد الله الشيعى سنة 297 هـ ، ومن المحقق ان كتب الصفرية

(18) طبقات الاباضية ج 2 ورثة 125 ظهر .

بسجلهاسة لاقت نفس المصير .

وجدير بالذكر ان كافة كتب الصفرية لم نقف لها على اثر ، بينما وصلنا بعض كتب الاباضية ، وتفسير ذلك ان ابا عبد الله الشيعي الذي اقام بسجلهاسة اربعين يوما ، اجهز على ما بها تواليف وتصانيف ، بينما لم تحلل اقامته بتاهرت ، اذ غادرها على التو لتحرير المهدي من سجنه بسجلهاسة ، فتسربت بعض كتب الاباضية مع بعض افراد البيت الرستمي الذين هربوا الى وارجلان ، ومعروف انها استعصت على الغزو الشيعي . كذلك سلم جبل نفوسة من عبث الفاطميين بديوان الاباضية الحافل بتصانيف المذهب ، ويخبرنا البرادي (19) ان ديوان نفوسة كان مشتملا على اكداش هائلة من الكتب بلغ ما ورد منها من الشرق فقط نحو ثلاثمائة وثلاثين الف جزء .

وبعد ان فتح المرابطون وارجلان رحل اباضيتها بكتبهم واقاموا بوادي ميزاب — جنوبي الجزائر — حيث لا تزال محفوظة لدى مشايخ المذهب الى الآن ، وقد ذكر ماسكراي ان ثروة جبل نفوسة من كتب الاباضية اكثر وفرة منها في وادي الميزاب . وقد حاول ليف من المستشرقين المهتمين بتاريخ المغرب زيارة مشايخ الاباضية بوادي الميزاب وجبل نفوسة ، والاطلاع على خزائن الكتب هناك ، ومن هؤلاء ماسكراي وموتايونسكي ولويسكي وباسيه وغيرهم . ونجحوا بالفعل في الوقوف على قدر ضئيل من تراث الاباضية ، اذ ان مشايخ المذهب يرفضون اظهار ما لديهم من الكتب المتعلقة بأسرار المذهب ولا يتيحون سوى الاطلاع على الكتب المتواترة الخاصة بالعموميات ، كما ذكر برسي سميث (20) وماسكراي (21) .

ومع ذلك فقد حصلنا على بعض تلك التصانيف الخاصة بالعقائد والنوازل والفتاوى ، وكذلك بعض التواريخ والسير وكتب الطبقات .

ومن اهم مصادرنا في كتب الفتيا رسالة في احكام الزكاة لابن عبيدة مسلم بن ابي كريمة (مت اواخر القرن الثاني الهجري) ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية غاية في الاهمية لأن صاحبها كان شيخا لاباضية

(19) رسالة في ذكر كتب الاباضية .

(20) The Ibadites. P. 267. The Moslem World. Vol 12, July ; 1922.

(21) انظر : Chronique d'abou Zakaria. P. VII.

البصرة ورئيسا لتنظيم المذهب السياسى بعد جابر بن زيد ، واليه يعزى الفضل فى بث دعاة المذهب الى أطراف الدولة الإسلامية ومن بينها بلاد المغرب . كما كان رؤساء المذهب فى المغرب يلتحقون بحضرته للفتحه فى المذهب والاعداد لاقامة الدولة الاباضية . وتكشف لنا الرسالة عن حقيقة تطور افكار الخوارج السياسية فى الشرق اواخر العصر الأموى ، ولجؤهم الى أساليب التنظيم والدعوة كبديل لاسلوب الثورات الهوجاء الذى أثبت فشلا ذريعا . وتهدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن صلة التنظيم الام فى البصرة بمشايع المذهب فى المغرب بعد قيام امامة ابي الخطاب عبد الأعلى بن السمح بطرابلس سنة 140 هـ .

ومن كتب العقائد والفقهاء ، نشر المستشرق موتايلنسكى (22) نصا للشيخ الاباضى عمرو بن جميع بعنوان « متن عقيدة التوحيد » ، يلقى بعض الضوء على الفكر السياسى عند الخوارج ، فضلا عن آراء الاباضية فى كثير من المسائل الفقهية . ونفس المعلومات نجدها فى « مقدمة اصول الفقه » للشهابى « ومدونة ابي غانم الصفرى » « وشرح السؤالات » للسوفى ، وهى جميعا مخطوطات بدار الكتب المصرية .

اما عن كتب التاريخ والسير ، فأهمها على الاطلاق « كتاب السيرة واخبار الائمة » لأبى زكريا يحيى بن أبى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . ولا يزال الكتاب مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وقد ترجمه ماسكراى الى الفرنسية وقدم له وعلق عليه ونشره تحت عنوان :
Chronique d'Abou Zakaria

وأبو زكريا من أهل وارجلان ، ولا نعلم شيئا عن نشأته ، بينما ندرك أنه اعتمد فى تاريخه لثورات الاباضية والرسثيين الاوائل على مؤرخ اباضى يدعى أبو الربيع سليمان بن يخلف ، ويبدو أنه عاصر العهد الرسثى الأخير أو استمد معلوماته عنه من الجيل السابق له ، بينما نقل عنه كل من لحقه من مؤرخى الاباضية ، وصدق فيه قول أبى الربيع (23) الوسيانى « أن ابا زكريا له الفضل فى السبق الى كتابة اخبار أهل الدعوة » . وقد أرخ أبو زكريا أساسا للدولة الرسثية ، لذلك

(22) انظر : Actes du 14 Congrès international des orientalistes. Algiers, 1905. Vol. 3, Part 2.

(23) سير أبى الربيع بن عبد السلام الوسيانى ورقة 1 وجه .

يسرف في تصوير فضل الفرس على الاسلام ، حتى أنه انتحل كثيرا من الاحاديث والمأثورات عن الصحابة والتابعين تمجيذا لنسب ائمة بنى رستم . وفي تاريخه لهم اتباع منها طيبا ، فمع حرصه على التسلسل الزمني للأحداث خلال عهود الائمة ، تصور خمسة مراحل للامامة تعرضت الجماعة الإباضية في كل منها لانشقاق مذهبي . وبعد ذلك يعرض لأخبار الإباضية بعد سقوط دولة بنى رستم ، أي علاقتهم بالفاطميين الذين أطلق عليهم « المسودة » . ومن خلال كتابات أبى زكريا عن إباضية المغرب نقف على معلومات خاصة بالخوارج الصفرية كذلك التي تتعلق بانتشار مذهبهم ببلاد المغرب ، وعلاقة بنى رستم ببني مدرار . . الخ وقد أمدنا بتاريخ شبه متكامل لدولة بنى رستم يعساب عليه فيه تعصبه التام للائمة وتحامله على الحركات المناوئة لهم ، وأغفاله ذكر أحداث كثيرة لأن فيها ما يشين سياسة الائمة وقد دفعه هذا التعصب أحيانا أخرى الى تزييف الوقائع والأخبار . كما يؤخذ على تاريخ أبى زكريا اسرافه في زيراد روايات خرافية وأسطورية ، وانماضته في نسبة اعمال خارقة ومعجزات الى من ترجم لهم من مشايخ المذهب . وفيما يختص بمعلوماته عن الخوارج والفاطميين ، ففضلا عن الشذرات المتفرقة التي تلقى ضوءا على ثورات الإباضية ، أمدنا بمادة طيبة تفيد في توضيح موقف الإباضية الوهبية من حركة أبى يزيد النكاري ، هذا بالإضافة الى معلومات عن سقوط دولة بنى مدرار الصفرية على الرغم مما تتسم به من طابع روائي .

وغير سيرة أبى زكريا ، وقفنا بدار الكتب المصرية على مخطوطة عن « سير أبى الربيع الوسياني » تلك التي اعتبرها لويسكي (24) في حكم المفقودة ، وعلق على النصوص التي أوردها الشماخي عن أبى الربيع بأنها « غاية في الأهمية » . ونعتقد أن أهمية سير أبى الربيع تكمن في كونه عائش قريبا من الأحداث إذ توفي سنة 418 هـ ، فضلا عن أقامته بوارجلان من أهم معاقل الإباضية بعد سقوط الدولة الرستمية . كذلك أثبت أبو الربيع مصادره ، فسمع عن شيخه أبى محمد عبد الله بن محمد العاصمي ، كما أخذ أيضا عن المؤرخ الإباضي معبد بن أفلح وغيرهما ممن

Une chronique ibadite "Kitab-as-Syar" d'As-Samachi. P. 74.
Revue des études Islamiques, Vol. VII, 1934.

(24)

لم نقف على كتبهما الاصلية ، فحفظ لنا قبسا مما دونوه . وجدير بالذكر أن سير ابي الربيع تلقى أضواء باهرة على أخبار الاباضية في العصر الفاطمي ، فضلا عما ورد بها من معلومات عارضة عن العصور السابقة ، بالإضافة الى مسائل واجوبتها في الفقه الاباضي جد مفيدة في معرفة فكر الاباضية وفلسفتهم في الحكم والادارة .

وثمة مؤرخ اباضي شهير هو أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي (ت 928 هـ) الذي ينتمي الى أسرة معروفة بجبل نفوسة أخرجت كثيرين من اعلام الاباضية . وله فضلا عن كتابه « شرح مقدمة اصول الفقه » — وهو مخطوط بدار الكتب المصرية — كتابه المعروف بالسير . وسير الشماخي تعد تاريخا شبه متكامل لاباضية المغرب ، فلكونه عاش في عصر متأخر ، قدر له الاطلاع على تواليف سابقيه كابن سلام وأبي زكريا والربيع بن حبيب والسوفي ومقرين بن محمد البغطوري الذي ألف عن سير مشايخ نفوسة سنة 599 هـ . وامتازت سير الشماخي عن غيرها من سير الاباضية بأخذ مؤلفها عن مؤرخين من غير الاباضية كالرتيق وابن الصغير . كما يلحظ الدارس حرص الشماخي على مناقشة وتحليل الروايات المختلفة والمفاضلة بينها وإثبات ما يراه صحيحا ومثمنا . ولا غرو فكثيرا ما خالف سابقيه من مؤرخي الاباضية ، ورجع روايات السنة الأمر الذي يجعله أكثر مؤرخي الاباضية حيادا وموضوعية في نظرنا .

أما كتب الطبقات ، فقد وقفنا على اثنين منها ، أولهما لأبي العباس أحمد الدرجيني (ت حوالي منتصف القرن السابع الهجري) ويسمى « طبقات الاباضية » ، وهو مخطوط في ثلاثة أجزاء بدار الكتب المصرية ، يعرض فيه الدرجيني تراجم لمشايخ المذهب الاباضي جيلا بعد جيل في المشرق والمغرب على السواء . وفيما يتعلق بالمشاركة اعتمد الدرجيني على كتاب الكامل لأبي العباس المبرد ، بينما نقل كثيرا عن أبي زكريا في أخبار المغاربة . ومن ثم فما تضمنه كتابه من معلومات في هذا الصدد مكررة ولا تقدم جديدا . أكثر من ذلك فإن الدرجيني ورث نفس مثالب سابقيه ولم يبذل ثمة محاولة لتحقيق معلوماته ، وان كان من الانصاف ان نثبت له أمانته في اسناد هذه المعلومات الى من نقلها عنهم . كما وقع في كثير من الأخطاء ، وأغفل كثيرا من مشايخ المذهب ولم يترجم لهم وهذا هو ما حدا بأبي القاسم البرادى الى تدارك ذلك الاغفال وتصحيح تلك

الاطّاء اللى فائت على الدرّينى .

فأبو القاسم البرادى (ت 697 هـ) سى طبقاته لذلّك « الجواهر المنقاه فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لآبى العباس الدرّينى » . وهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب عالّج ليه صاحبه كثيرا من الموضوعات وعرض لعدد من عيون المذهب واعلامه ممن اهلهم الدرّينى ، كما حل وناقش كثيرا من روايات سابقيه بطريقه نقدية من مؤرخى الاباضية وغير الاباضية على السواء . ومن الملاحظ ان نقل كثيرا عن ابن الصغير فيها يّعلق بالعهد الرستى الاخير . ومع ذلّك مكتب الطبقات تزخر بمعلومات هامة عن اثر الخوارج فى المجتمع المغربى . وعلى تلك المصادر الاباضية الاصلية اعتمد جبهة المحدثين من مؤرخى الاباضية فيما كتبوه عن تواريخ الاباضية فى المغرب . ومن هؤلاء البارونى والورجلانسى واطفيش والجربى والطاهر الزاوى . على ان كتاباتهم جميعا تنسم الى جانب التعصب للمذهب الاباضى بطابع الاسفاف والسطحية .

والى جانب تلك المصادر لم ندخر وسعا فى البحث عن المادة التاريخية التى تخدم موضوع الدراسة التى تمسه من قريب او بعيد فى المراجع التاريخية وكتب الجغرافيا والرحلات ، وكتب الطبقات والتراجم والتصانيف الادبية ، وكتب الفرق المختلفة . كما استفدنا بكتب السكة فى تحقيق كثير من الالتاب وتحديد عديد من التواريخ التى كان يشوبها الخلط ويكتنفها الابهام .

كذلّك لم نفعل دراسات المحدثين من العرب والمستشرقين فيما الفوه من مراجع او نشره بالموسوعات والدوريات العلمية ، فاطلعنا على كتابات الدكتور حسن محمود وحسين مؤنس ومحمود مكى ، وأحمد مختار العبادى وسعد زغلول عبد الحميد وغيرهم من المتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس . كما استفدنا كثيرا من دراسات جوتييه وبل وبروفنسال ودوزى وبرنشويج ولويسكى ومارسيه وباسيه وسبيث وغيرهم سواء ما تضمنته كتبهم او ما نشره بالدوريات والموسوعات

مثل : Actes du congres internationales des orientalistes,

Andalus, Islamic review, Moslem World, Journal

Asiatique, Revue des etudes Islamiques, Studia Islamica.

وغيرها .

وبفضل تلك المادة التاريخية التي توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع ولم شتاته في أبواب خمسة وخاتمة .

تناول الباب الاول دعوة الخوارج في بلاد المغرب . وتضمن ظروف الخوارج في الشرق الاسلامي التي دفعت بهم الى الهجرة والانتشار في بلاد المغرب . وعرض لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج وملامحتها لدعوتهم . ثم عالجت كيفية انتشار مبادئ الخوارج الصفرية والاباضية في بلاد المغرب واقبال البربر على اعتناق هذه المبادئ .

وخصص الباب الثاني لثورات الخوارج في بلاد المغرب ، حيث تضمن دراسة لاسباب ثورات الخوارج — صفرية واباضية — ووقائع تلك الثورات وتبيان نتائجها وآثارها .

اما الباب الثالث فقد تضمن تاريخا لدول الخوارج في بلاد المغرب ، تناولت فيه دولتي بنى مدرار الصفرية وبنى رستم الاباضية من حيث ظروف قيامهما وعرض سياستهما الداخلية ، وتحديد علائقهما الخارجية .

وافرد الباب الرابع لدراسة الخوارج والفاطيين ، حيث عرضت فيه لدور الفاطميين في اسقاط دولتي بنى مدرار وبنى رستم ، ثم ثورات الصفرية والاباضية على الحكم الفاطمي .

ونظرا لما أحدثه الخوارج من آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية فضلا عن آثارهم السياسية في بلاد المغرب ، ولما كانت تلك الجوانب تحتاج لدراسة مستفيضة متعمقة ، فقد أثرنا أن نفرّد لها الباب الخامس من البحث .

وفي الخاتمة أوجزنا ما انتهينا اليه من نتائج تمخضت عنها هذه الدراسة .

ولا يسعني في هذا المقام الا أن اتقدم بخالص شكرى وعظيم الامتنان لاستاذى الدكتور حسن احمد محمود الذى تولى الاشراف على هذا البحث وتمعهده برعايته وتوجيهه مذ كان فكرة حتى صار حقيقة . ويعلم الله — كم تكبدت من عناء ، وكم من جهد بذلت . . واسأله التسويق .

فاس في أغسطس 1976

الباب الاول

دعوة الخوارج في بلاد المغرب

أولاً :

أحوال الخوارج في المشرق الاسلامي حتى اوائل القرن الثاني الهجري

ارتبط ظهور مذهب الخوارج وانتشاره في بلاد المغرب بعاملين أساسيين :

أولهما : التطور السياسي الذي حدث للخوارج في المشرق الاسلامي في اواخر القرن الاول الهجري بعد فشل ثوراتهم واضطرابهم الى اتباع أسلوب الدعوة والتنظيم السياسي ، واختيار أطراف العالم الاسلامي ميدانا لنشاطهم بعد أن تعرضوا للمطاردة والاضطهاد .

وثانيهما : ملائمة الاحوال السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب في اواخر القرن الاول الهجري واولئل القرن الثاني لتقبل هذا المذهب وانتشاره .

وليس من شك في أن ما لحق بالخوارج من فشل في المشرق يعزى الى اسباب عدة ، منها تطرف عقائدهم وتصور فكرهم السياسي الظاهر من الثورات التي قاموا بها طوال العصر الاموي ، ثم يقظة الخلافة ورجالها في مناهضة هذه الثورات ومواجهتها في سرعة وحزم .

نعملى الرغم من كثرة الثورات التي قام بها الخوارج في المشرق

الاسلامى ، وما أبدوه فيها من ضروب الشجاعة (1) ، وبرغم ما انطوت عليه مبادئهم من دعوة الى العدل والحرية (2) ، فقد عجزوا عن تحقيق اهدافهم ، واصبحوا هدفا للبطش والاضطهاد . ومن امثلة تطرفهم ، اجماع كافة فرقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل والحكمين وكل من رضى بالتحكيم (3) ، واتفاقها في الخروج على الامام الجائر وتكفير مرتكبي الكبائر باستثناء النجدات (4) ، وكذلك الاجماع على جواز الامامة لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة (5) .

فاتفاقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل وضعهم في موقف العداء للجماعة الاسلامية برمتها (6) ، فتعرضوا لسخط كافة الحكومات الاسلامية ، اذ حاربهم على بن ابي طالب وفل شوكتهم في موقعتي النهروان والنخيلة (7) ، ولم يستمر تحالفهم مع الزبيريين ضد الامويين طويلا ، فقد انقلب ابن الزبير عليهم حين آتس من نفسه القوة على مواجهة بنى امية (8) . ولم يتوان الامويون في تعقب حركاتهم وقمعها بعد حروب طويلة وقف الشيعة في معظمها الى جانب بنى امية على ما بينهما من عداة متأصل (9) .

وبسبب تكفيرهم مرتكبي الكبائر ، انقسموا على أنفسهم اشد الانقسام في كثير من المسائل الفقهية ، واعتبرت كل فرقة ما عداها مارقة ، وعاملت انصارها معاملة الكفار في استباحة الدماء واستحلال الاموال والذرائع (10) .

(1) انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 172 ، المبرد : الكامل ج 1 ص 546 ، ج 3 ص 954 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 256 .
(2) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 42 ،

Dozy. Spanish Islam. P. 86.

Lammens : Etudes sur le siecle des omeyyades. P. 187.

(3) الاسفرائينى : التبصير في الدين ص 146 ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص 273 .

(4) البغدادي : نفس المصدر والصحيحة ، المسمودي : مروج الذهب ج 3 ص 145 ، جعفر بن عبد السلام : ابانة المناهج ورقة 154 مخطوط .

(5) النوبختى : فرق الشيعة ص 31 ، الاسفرائينى : المرجع السابق ص 46 ، جعفر ابن عبد السلام : المرجع السابق ورقة 166 .

(6) الاسفرائينى : نفس المصدر والصحيحة ، Gibb : Mohammedanism. P. 170.

(7) عن على والخوارج انظر : الطبرى ج 5 ص 76 وما بعدها ، الدينورى : الاخبار الطوال ص 210 وما بعدها .

(8) الطبرى : نفس المصدر ص 563 ، فلهون : الخوارج والشيعة ص 69 .

(9) ابن خلدون : المبرج ج 3 ص 142 .

(10) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 .

وكان من المتوقع أن يقبل الموالي على مذهب الخوارج لسماحة رأيهم في الإمامة ، فقد اعتبرت حقا متاحا لكل مسلم بغض النظر عن أصله وجنسه — وهو مبدأ تفرد به الخوارج دون سائر الفرق الإسلامية الأخرى — لكن أعداد الموالي في صفوف الخوارج كانت قليلة ، ولم يقبل بعضهم على مذهبهم إلا في أواخر العصر الأموي (11) . حين أسرف بنو أمية في اضطهاد الموالي واذلالهم . ويعزى هذا الاعراض عن مذهب الخوارج الى امرأته في التطرف (12) وأسراف انصاره في استخدام العنف ، وتشدد زعمائهم في قبول المهاجرة — وهم الاتباع الجدد — وذلك باجراء اختبارات قاسية للتأكد من صدقهم وحسن نواياهم . كما رفض الخوارج مبدأ التقية — باستثناء الصفرية (13) — ولم يعمدوا الى التنظيم والدعوة وما يرتبط بها من وسائل الترغيب وكسب الانصار ، ولم يفتنوا الى ذلك الا في وقت متأخر .

ولعل افتقار المذهب الى زعامة قريشية أو شخصية مرموقة يلتف حولها الانصار ويدعون لها دعوة منظمة كان سببا في تفرق كلمتهم وانقسامهم الى طوائف تلتف حول قيادات محلية أو قبلية لايجمعها رابط في العمل أو تشملها وحدة في الخطط والأهداف ، مما أن تجتمع جماعة منهم حتى يتواعدوا على اللقاء ، فاذا التفتوا اظهروا العصيان (14) . الأمر الذي سهل على الحكام ملاحقتهم واستئصال شأفتهم جماعة في اثر أخرى . ولعل هذا هو ما يعنيه فلهووزن بقوله (15) « أن سياسة الخوارج كانت غير سياسية » .

على أن من أهم أسباب اخفاق حركات الخوارج وفشل ثوراتهم ، تفشى الخلافات داخل جماعتهم وهي خلافات كان الباعث عليها في الغالب

(11) المبرد : الكامل ج 3 ص 1151 ، سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص 126 . وقد أسرف بعض الدارسين في تقدير الآثار الناجمة عن اعتناق الموالي مذهب الخوارج حتى ذهبوا الى أن عقائد الخوارج تنتمي الى أصول مسيحية ومجوسية . انظر : عمر أبو النصر : الخوارج في الاسلام ص 245 . فالواقع أن عقائد الخوارج تفردت بطابعها العربي الاسلامي الخالص وخلوها من أي اثر للفلسفة اليونان أو الفرس . انظر : أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 3 صفحة 335 ، 344 .

(12) المبرد : الكامل ج 3 ص 967 .

(13) الرازي : امتقادات فرق المسلمين والمشرىين ص 51 .

(14) الطبرى : ج 5 ص 211 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 113 .

(15) تاريخ الدولة العربية ص 372 .

الاختلاف في المبدأ والرأى (16) . فقد تباينت آراؤهم في مسائل جوهرية كمسألة القعدة والاستعراض (17) . وأدى ذلك الى انقسامهم الى فرق الأزارقة والاباضية والصفرية والنجديات وتشعبت هذه الخلافات لتشتت شمل المذهب في أكثر من عشرين فرقة (18) .

ومما زاد من خطورة هذا الانقسام انه كان يحدث في الأوقات العصيبة ابان حروبهم فكان يحرمهم من جنى ثمار النصر ويؤدى بهم الى الهزائم . ومن امثلة ذلك خروج عبد ربه الكبير على قطرى بن الفجاءة وهو يقاتل المهلب بن ابي صفرة سنة 77 هـ (696 م) لأن قطرى « تأول مأخطأ » (19) ، فانفصل عنه عبد ربه بمعظم الجيش بعد أن كان النصر وشيكا ، وأتيح للمهلب سحقها واحدا بعد الآخر (20) .

وقد انقسم النجدات على انفسهم كما انقسم الأزارقة ، مخالف عطية بن الاسود نجدة بن عامر الحنفى (21) وانفصل عنه وغادر البحرين الى المشرق وازداد الامر سؤا بخروج ابي فديك عبد الله بن ثور على نجدة وقتله ، وتفرق النجدات لذلك الى ثلاث شيع متناحرة ، مما ادى في النهاية الى اضحلالهم وزوال دولتهم في البحرين وحضر موت والطائف واليمن سنة 72 هـ (22) (691 م) .

ولم يسلم الصفرية كذلك من آفة الانقسام ، فقد خالف مصقلة بن مهلهل الضبى شبيب بن يزيد الشيباني سنة 77 هـ (696 م) وفوت عليه انتصاراته الحافلة على جيوش الحجاج الثقفى لانسحابه بمعظم الجيش احتجاجا على ما اعلنه شبيب من البراءة من سلفه صلاح بن مسرح (23) . وقد استغل خصومهم هذا الانقسام في ملاحقتهم والقضاء عليهم ، فلم

(16) نفس المصدر ص 61 ، ليفى ديلاميدا : مادة الصفرية — دائرة المعارف الاسلامية صفحة 229 .

(17) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 1 ص 15 ، مجهول : قطعة من كتاب فنى الاديان والفرق ورقة 97 — مخطوط .

(18) عن هذه الفرق ومعتقداتها انظر : الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 — 51 .

(19) ابن خلدون : المعبر ج 3 ص 161 .
من تفصيلات أسباب خروج عبد ربه الكبير على قطرى راجع : الطبرى : ج 6 صفحة 300 — 301 .

(20) الطبرى : ج 6 ص 300 ، ابن قتيبة : المعارف ص 411 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 30 .

(21) عن أسباب هذا الخلاف انظر : البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 144 .

(22) الطبرى : ج 6 ص 174 ، اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 18 .

(23) الطبرى : نفس المصدر ص 275 .

يدخر الخلفاء والولاة وسعا في مناهضتهم ، واتبعوا في ذلك شتى الوسائل من عنف وخداع واستنفار للجماعة الاسلامية لمواجهة ثوراتهم والتربص بآية حركة او نشاط لهم . كما استخدموا أسلوب اللين والافتناع والمحااجة ، واتبعوا سياسة الترغيب ، واغراء زعمائهم بالمراكز المرموقة والمناصب الرسمية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . فمعاوية بن أبى سفيان كثيرا ما استنفر اهل الكوفة للمشاركة في قتال الازارقة (24) كما أن عامله على الكوفة والبصرة — المغيرة بن شعبة وابن عامر — جندا كتائب من الشيعة من اهل المصريين لقتالهم (25) . وكان هذا العمل من البراعة بمكان ، اذ كلل ضرب الشيعة بالخوارج — وكلاهما عدو لبنى أمية — ليضعف بعضهما بعضا فيسهل بعد ذلك استئصال شأفتهم كل على حدة . والى المغيرة بن شعبة خاصة يعزى الفضل في تطبيق تلك السياسة بنجاح فكان يستخدم أسلوب التهديد والترغيب ويلزم القبائل نفسها بالقضاء على أى نشاط للخوارج داخلها (26) ليكنى نفسه مؤنة قتالهم .

وأثمرت تلك السياسة في عهد زياد بن أبيه « فكانت القبائل اذا أحست بخارجي فيهم أو ثقوه وأتوا به زيادا ، فمنهم من يحبسه ومنهم من يقتله » (27) كما انحلت سياسته في الترغيب والترضية ، فكان يستميل من يقبل عليه من زعماء الخوارج ويتخذهم صنائع وعمالا ، ويفقد عليهم الهبات والعطايا (28) . لكنه لم يتورع عن البطش والتنكيل بمن يعرض عنه ويتناوىء حكمه ، حتى النساء لم يسلمن من أذاه فكان يقتلن ويمثل بهن (29) .

وقد أسرف ابنه عبيد الله في سياسة العنف هذه وبالغ فيها (30) ، فكان القتل جزاء من يشتهه في ميله لمذهب الخوارج . ويذكر الدينورى (31)

(24) ابن خلدون : ج 3 ص 142 .

(25) ابن الأثير : الكامل ج 3 ص 171 .

(26) ورد في خطاب له في هذا الصدد قوله « . . أيها الناس ، انى لم ازل احب لجماعتكم العافية واكف منكم الاذى . وانى والله لقد خشيت ان يكون ذلك اذنب سوء لسفهاكم ، وأما الطباء الاتقياء فلا . وايم الله . لقد خشيت الا اجد بدا من ان يعصب الحليم التقي بذنب السفية » الجاهل « فكفوا ايها الناس سفهاكم قبل ان يشمل البلاء مواكم . وقد ذكر لى ان رجلا منكم يريدون ان يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف ، وايم الله — لا يخرجون في حى بين احياء العرب في هذا المصر الا ابدنهم ، وجملتهم نكالا لمن بعدهم . . » راجع الطبرى : ج 5 ص 184 .

(27) المبرد : الكامل ج 3 ص 985 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 259 .

(28) المبرد : نفس المصدر ص 1006 .

(29) ابن عبد ربه : المرجع السابق ص 259 .

(30) الطبرى : ج 5 ص 312 .

(31) الاخبار الطوال صفحة 270 .

أنه قتل تسعمائة رجل « بالتهمة والظنة » ، عدا ما لاقاه الآلاف في السجون من صنوف الارهاب والتعذيب (32) واستمر عبيد الله هذه السياسة وتفنن فيها ، حتى أنه كان يرغب المسجونين من الخوارج على قتل بعضهم بعضا امعانا في التنكيل والتشفي (33) .

ولما آل الأمر لعبد الله بن الزبير في العراق عول على القضاء على الخوارج واستئصال شأفتهم ، فرماهم بالمهلب بن أبى صفرة الذي كان « يسير في طلبهم من بلد الى بلد ويواتهم وقعة بوقعة » (34) .

على أن محنة الخوارج الشديدة كانت في عهد عبد الملك بن مروان ، فقد رماهم بالحجاج والمهلب في آن واحد . وتفيض المصادر بأمثلة عن قسوة الحجاج وعسفه ، فكان يأمر بقتلهم جماعات « بالتهمة لا بالخطيئة » (35) .

وكان سيفه يضرب أعناقهم في حضرته وبين يديه (36) ، ثم تصلب أجسادهم بعد التمثيل بها (37) . أما المهلب فقد اعتمد في حروبه مع الخوارج على الخداع والدهاء أكثر من اعتماده على السيف ، وحقق بذلك انتصارات لم يستطع احرارها في ميادين القتال ، فاستطاع أن يحدث تصدعا في جيوشهم عن طريق بث الخلاف والشقاق بين زعمائهم بما كان يثيره من مسائل فقهية يشغل بها الخوارج عن قتاله بقتال بعضهم البعض ، فإذا ما وهنت شوكتهم تمكن من هزيمتهم طائفة في اثر أخرى . وحسبه أنه استطاع بذلك أن يضع حدا لحركات الأزارقة في المشرق الاسلامي (38) .

(32) المبرد : الكامل ج 3 ص 1004 ، نلهوزن : الخوارج والشيعة ص 63 .

(33) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 203 ، ابن خلدون : المعبر ج 3 ص 144 .

(34) الدينوري : الاخبار الطوال ص 275 وفي هذا الصدد ارتجز أحد الخوارج هذا القول : حتى يتبعنا المهلب ، ليس لنا في الارض منه مهرب ، ولا السبا أين المذهب ؟ الدينوري : نفس المصدر ص 276 .

(35) ابن العربي : القواصم والعواصم ورثة 107 مخطوط .

(36) مجهول : الميرون والحدائق في أخبار الحقائق ص 22 .

(37) البلاذري : انساب الاشراف ج 11 ص 63 .

(38) المبرد : الكامل ج 3 ص 1064 ، سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص 121 - 123 . قال تطرى بن الفجاءة في هذا الصدد : « .. أما المهلب فهو من عرفته ، ان أخذتم بطرف ثوب ، أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه اذا أرسلتموه ، ويرسله اذا أمددتموه ، لا يبدؤكم الا أن تبدؤوه ، الا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو اللئيم المبرء والمهلب المراوغ ، والبلاء المقيم » . انظر : المبرد : الكامل ج 3 صفحة 1086 .

وانحسرت موجة العنف إبان خلافة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، فقد نجح عمر بن عبد العزيز في تجميد نشاط الخوارج في عصره بسياسة المجاعة والحسنى والاقتناع (39) . بينما عمد هشام الى أسلوب الاغراء بالأموال والمناصب ، وشراء زعمائهم بالمال إيثارا للعافية (40) . وذلك كان دليلا على فتور همة الخوارج واضمحلال شأنهم حتى أن مروان بن محمد لم يجد صعوبة في القضاء على حركاتهم في بلاد العراق والجزيرة ثم في مدن الحجاز واليمن « فركدت ريح الخوارج من يومئذ الى أن ظهرت الدولة العباسية » (41) .

هكذا وصلت أحوال الخوارج في المشرق الاسلامي في اواخر القرن الاول الهجري وأوائل القرن الثاني الى مثل هذا الضعف والانحلال ، بحيث لم يعد في وسعهم مواصلة نشاطهم في قلب العالم الاسلامي وكان عليهم أن يغيروا في أسلوبهم بنذ طريق الثورات السافرة واتباع أسلوب الدعوة والتنظيم السياسي ، والانتقال الى أطراف العالم الاسلامي بعيدا عن حاضرة الخلافة فاتجهوا الى بلاد المغرب .

(39) الطبري : ج 5 ص 409 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 صفحة 260 .

(40) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج 1 ص 251 .

(41) ابن خلدون : المعبر ج 3 ص 167 .

ثانياً :

بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج

نجم عن سياسة الامويين الاواخر موجة من السخط عمّت كافة الولايات الاسلامية ، وقد استغل الهاشميون والخوارج حالة السخط هذه في تأليب الجماعة الاسلامية ضد الحكم الأموي ، فبينما اتجه الهاشميون بدعوتهم نحو المشرق في فارس وخراسان عمد الخوارج الى بث دعائهم في بلاد المغرب التي كانت اذ ذاك ميدانا خصبا لتقبل مبادئهم .

فقد عانت بلاد المغرب كغيرها من الولايات الاسلامية من الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمانية حتى ليذهب بعض الدارسين (42) الى اعتبارها دافعا اساسيا لثورات البربر على الحكم الأموي . فالثابت ان غالبية عرب الفتح الذين استقروا بالمغرب كانوا من اليمانية (43) ، وهم الذين آزرُوا موسى بن نصير خلال ولايته استمرت حتى عام 96 هـ . ولما عزل موسى واستبدله الخليفة سليمان بن عبد الملك بمحمد بن يزيد — وكان قيسيا (44) — كان هم الوالي الجديد وشغله الشاغل تصفية نفوذ آل موسى ، فأخذ يقتبعمهم ويبطش بهم ويستولى

(42) انظر حسين مؤنس : فجر الاندلس ص 144 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

(43) ابن عذارى : ج 1 ص 39 ، البوعياشي : الريف بعد الفتح الاسلامي ص 15 .

(44) ابن القوطية : تاريخ المتاح الاندلس ص 38 .

على أموالهم بتحريض من الخليفة لنقمته على موسى بن نصير (45) . فأودع محمد بن يزيد عبد الله بن موسى السجن وفرض عليه من المغارم ما هو فوق طاقته (46) ، وما فتئ يعذبه حتى مات (47) .

وفي ولاية يزيد بن أبي مسلم (101 — 103 هـ) (720 — 723 م) عاد نفوذ اليمينية من جديد (48) ، وانتقم يزيد بن أبي مسلم من سلفه محمد بن يزيد ، فرمى به في السجن وأشبعه جلدا وتعذيبا انتقاما لما حل باليمينية على يديه من عسف واضطهاد .

وآلت ولاية المغرب الى بشر بن صفوان بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم ، وكان بشر من غلاة اليمينية (49) فأمعن في اضطهاد القيسية ، وبلغ به التعصب لعشيرته أنه استخلف على البلاد قبل موته نغاش بن قسروط الكلبي (50) ، فعاش فيها (51) وأسرف في اذلال القيسية .

وعاودت القيسية الظهور حين ولي هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن القيسي ، فبيت النية على البطش بعمال بشر بن صفوان (52) ،

(45) نقم الخليفة على موسى لعدم استجابته لطلبه قبل توليه الخلافة بأن ينتظر بما معه من هدايا المغرب حتى يموت الخليفة الوليد بن عبد الملك — الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة — فقد سلم موسى الهدايا للوليد الذي فارق الحياة بعد ثلاثة أيام . فلما آلت الخلافة الى سليمان ، نكب موسى وأودعه السجن وبعث في قتل ابنه عبد العزيز بالاندلس ومهد الله بالمغرب .

راجع : ابن القوطية : المرجع السابق ص 36 ، الرقيق : تاريخ البريقية والمغرب ص 294 .

(46) اليعقوبي : تاريخه ج 3 ص 255 .

(47) ابن عذاري : ج 2 ص 47 ، النويري : نهاية الارب ج 22 ورقة 13 — مخطوط .

(48) وثبة رواية للبلاذري وابن عبد الحكم تذهب الى أن عبد الله بن موسى قتل سنة 102 هـ في ولاية بشر بن صفوان . راجع : فتوح البلدان ص 273 ، فتوح مصر والمغرب ص 290 . ومن مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير انظر : ابن القوطية : ص 37 ، الرقيق : ص 295 .

(49) ابن الأبار : الحلة السراء ص 336 .

(50) اليعقوبي : ج 3 ص 59 .

(51) ابن عبد الحكم : ص 216 ، وأورد الرقيق بدلا منه العباس بن ناصمة الكلبي . راجع : تاريخ البريقية والمغرب ص 105 .

(52) ابن أبي دinar : المؤنس صفحة 34 .

(52) وقد استصرخ أحد زعماء اليمينية هشام بن عبد الملك لاتخاذهم من بطش عبيدة بن عبد الرحمن بهذه الإهيات :

اناءت بنو مروان نينا وما لنا
كانهم لم يشهدوا لى وقتلة
وقيناكم حر القنا بسيوننا
ملها تيقنتم نيل ما قد اردتموا
فما لنتم عنا كان لم يكن لكم
انظر : الرقيق : ص 105 — 106 .

وفي الله ان لم يعدلوا حكم عدل
ولم يعلموا من كان قبل له الفل
وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
وطاب لكم نينا. المشارب والاكل
صديقا وانتم ما علمتم لنا وصل

وامعن في اقتفاء أثر آل موسى بن نصير حتى استأصل شائتهم (54) . واستمرت محنة اليمنية في المغرب في عهد عبيد الله بن الحبحاب الذي تقلد الولاية سنة 116 هـ (735 م) ، ولأقضى أشياعهم على يديه عننا شديدا (55) .

والى جانب انشغال الولاة بالخصومات القبلية ، كانوا يتنافسون في جمع الاموال ارضاء للخلافة من ناحية ، وكسبا للانصار واشباعا لنهمهم من ناحية اخرى . فعكفوا على ارسال الحملات والجيش تضرب في اطراف المغرب او تهاجم الجزر البحرية في البحر المتوسط بغية السلب والنهب . فيزيد ابن ابي مسلم غزا صقلية سنة 101 هـ (56) (719 م) في وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا . وفي سنة 109 هـ (727 م) غزا بشر ابن صفوان نفس الجزيرة « واصاب منها سبيا كثيرا » (57) بعد أن « هلك من جيشه خلق كثير » (58) . وغرق الاسطول الذي بعثه عبيدة ابن عبد الرحمن الى صقلية في العام التالي بقيادة المستنير بن الحبحاب (59) . وغزا عبيد الله بن الحبحاب في بلاد السوس وارض السودان ، لكنه لم يجن من وراء غزواته سوى مغائم الذهب والفضة وسبايا البربر (60) . كما بعث بجنده الى جزيرة سردينية سنة 117 هـ (736 م) « فنهبوا وغنموا وعادوا » (61) ، ثم غزا صقلية وعادت حملته بالاموال والسبايا (62) . وفي كل تلك الجيوش كان البربر يشكلون غالبية رجالها ، فكانوا اداة لخدمة اطماع الولاة .

ويجمع كثيرون من المؤرخين (63) على سوء معاملة عمال العصر

-
- (54) ابن الأثير : صفحة 48 .
(55) ابن عبد الحكم : ص 293 ، مؤنس : ثورات البربر في المريفية والاندلس ص 165 .
(56) ابن عبد الحكم : ص 289 ، ابن عذاري : ج 1 ص 49 .
(57) الرقيق : ص 102 ، السلاوي : ج 1 ص 293 ، الباجي المسعودي : الخلاصة النقية صفحة 13 .
(58) ابن عبد الحكم : صفحة 191 .
(59) نفس المصدر والصحيحة .
(60) البلاذري : فتوح البلدان ص 273 ، الرقيق : ص 108 .
(61) ابن الأثير : ج 5 صفحة 69 .
(62) الرقيق : ص 109 ، السلاوي : ج 1 ص 95 .
(63) انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 23 ، الورجلاني ج 1 ص 27 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج 2 ص 204 ، مؤنس : ثورات البربر ص 147 ، دبور : المغرب الكبير ج 2 ص 234 ، 235 ،
Marçais : La Berberie Musulmane. P. 43, Hopkins :
Medieval Mulim government ; P. 27.

الاموى الاخير للبربر وارهاتهم بالمغارم والجبايات ، واعتبر بعضهم بلاد البربر دار حرب حتى بعد اعتناقهم الاسلام جريا على سياسة الخلافة الاموية فى سائر الامصار الاسلامية (64) . وحاول الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع حد لتسلط الولاة واستعادة ثقة البربر فى الحكومة الاسلامية ، فعين على المغرب واليا تقيا هو اسماعيل بن عبيد الله (65) . وامره باستقاط الجزية على من اسلم من البربر وتحرير من استرق من نسائهم ، كما امره « باقرار القرى فى يد غنائمها بعد اخذ الخمس » (66) ، لتتول الارض الى اصحابها فيجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم (67) . وقد حرص عمر بن عبد العزيز على ان يجمع اسماعيل بن عبيد الله بين اعباء الادارة والحرب الى جانب جمع الخراج والصدقات (68) ليحول دون جور الجباة واستبدادهم .

لكن هذه السياسة انتهت بوفاته ، وعادت الخلافة الاموية الى سيرتها الاولى . فقد استبدل الخليفة يزيد بن عبد الملك اسماعيل بن عبيد الله بيزيد بن ابي مسلم سنة 102 هـ 720 م ، فاستبد بالبربر ، وقضى على الاصلاحات التى انجزها سلفه ، وكان يزيد بن ابي مسلم ينفذ مشيئة الخلافة الاموية التى اعادت فرض الجزية على من اسلم من الموالى (69) ليتسنى لها الحصول على مزيد من الاموال والتوصل من دفع مزيد من الاعطيات للجند المسلمين من الموالى ومهما كان الامر فقد اشتط يزيد فى معاملة البربر ، ونسب اليه انه اهدر كبرياءهم بوشم حرسه من البربر فكان يشم الرجل فى يده اليمنى باسمه وفى اليسرى بكلمة « حرسى » ، وادى ذلك الى شعور البربر بالمهانة ، فأنفوا منه وأنكروه (70) .

وجرى عبيدة بن عبد الرحمن على سياسة العسف هذه حتى

(64) عن هذا الموضوع انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 275 وما بعدها .

(65) اخبار مجبوعة ص 23 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 .

(66) اخبار مجبوعة صفحة 23 .

(67) فلهوزن : المرجع السابق صفحة 280 .

(68) ابن عبد الحكم : صفحة 287 .

(69) الطبرى : ج 6 ص 617 ، ابن تعزى بردى : ج 1 ص 245 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية صفحة 235 .

(70) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، ابن عبد الحكم : ص 289 ، الرقيق : ص 99 ، مؤنس : نورات البربر ص 163 .

« جمع من الاماء والجوارى والعبيد والخصيان والدواب والذهب » (71) الشيء الكثير . وتفاقت الاحوال وازدادت سوءا ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذى اسرف فى سياسته فجنّد الجيوش لسلب البربر وسبيهم فى اقاصى المغرب (72) ، ونشر الهلع والرعب فى تلك الاصقاع . وعين ابنه اسماعيل عاملا على طنجة وجعل معه عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة واعتبرا البربر فينا — اسلموا ام لم يسلموا — وعاملوهم معاملة الرقيق (73) . وهكذا تسبب الولاة الامويون فى المغرب فى اثاره مشاعر الحقد والكراهية عند البربر على الولاة والخلفاء على السواء مما اوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج .

ويحاول بعض الدارسين الدفاع عن الخلافة الاموية وتبرئتها من تبعات ما حدث فى المغرب من مساوئ ، بالقاء اللوم على الولاة وحدهم . فيذكر دبوز (74) ان « سليمان بن عبد الملك انكر على موسى بن نصير سلوكه فى المغرب وانه كان حائقا عليه لبالغته فى السبى وعدم عدله فى البربر » . ويمضى الدكتور السيد عبد العزيز سالم (75) فى نفس الاتجاه فيقول « . . وكان سليمان بن عبد الملك يستهجن سياسة عبد الله بن موسى القائمة على العنف والتسلط فى معاملة البربر . . » ويستشهد بعبارة اوردها الرقيق (76) مدلا بها على نزاهة الخليفة وعدله اذ اوصى واليه الجديد على المغرب بقوله « يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وتم فيما وليتك بالحق والعدل » . ويظهر نفس هذا الاتجاه عند الدكتور مؤنس (77) اذ يقول « . . وليس الى الشك سبيل فى ان خلفاء بنى امية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن ابي مسلم

(71) ابن عبد الحكم : ص 292 .

(72) الرقيق : ص 108 البلاذرى : فتوح البلدان ص 223 .

(73) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ،

Marcier : Histoire de l'Afrique

septentrionale. vol. I.P. 71, Provençal : Histoire de l'Espagne

Musulmane vol. I.P. 29, Hopkins : Medieval Moslem government.

P. 28.

(74) المغرب الكبير ج 2 صفحة 165 .

(75) المغرب الكبير صفحة 288 .

(76) تاريخ افريقية والمغرب ص 63 ، النويرى : ج 22 ورقة 13 .

(77) فجر الاندلس ص 145 ، ثورات البربر ص 151 ، 152 .

وبشر بن صفوان في افريقية ، اذ انهم لم يكونوا يعلمون شيئا عن الوسائل التي كانا يلجأ اليها في عصف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حين علم بقتل البربر يزيد ابن ابي مسلم » (78) .

ونعتقد أن المحدثين قد تأثروا في هذا الصدد برواية لصاحب كتاب اخبار مجموعة في فتح الاندلس تقول « . . وقد يقول من يطعن على الائمة انهم انما خرجوا ضيقا من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون الى عمال طنجة في جلود الخرفان الصسلية . . وهو قول أهل البغض للائمة (يقصد الخوارج) » ومن المعروف أن هذا المؤرخ المجهول يعد الوحيد بين المؤرخين القدامى الذي تصدى للدفاع عن بنى أمية . ولا غرابة في ذلك اذا علمنا أنه كان اندلسيا يعيش في كثف الدولة الاموية بالاندلس ، ويدعي أن يتعصب لبنى أمية ضد أعدائهم .

أما ما ذكره دبور عن حنق سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير لعدم عدله في البربر ، فنقول يؤخذ بحذر . فمن الثابت أن حقه هذا يرجع لاسباب شخصية اوردناها سلفا . ونفس الشيء يقال في تفسير حنق سليمان بن عبد الملك على عبد الله بن موسى ، وليس الحال كما ذكر الدكتور سالم استهجانا لتسلط عبد الله على البربر . فما أورده من دليل في هذا الصدد لا يؤيد ما ساقه ، اذ أن نصيحة الخليفة لواليه الجديد باتباع « الحق والعدل » أمر تقليدي اصطلح عليه في تعيين الولاة والعمال . .

وتؤكد الوقائع هذا التفسير ، فقد أسرف الوالى الجديد في اضطهاد البيئية وتعقب آل موسى بن نصير واثباعهم ومصادرة أموالهم وسبى ذراريهم مرضاة للخليفة (79) .

ولا نشك في أن ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون سياستها ، وأن الخلفاء درجوا على اختيار عمال ياتهمون بأمرهم ، والا فما تفسير سنى الاصلاح والعدل التي شهدها المغرب إبان ولاية اسماعيل ابن عبيد الله ؟ ؟ لقد حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي عرف

(78) وقد ذكر الدكتور مؤنس في هذا الصدد قولا آخر هاك نمه : « اعتاد الخلفاء من عمال افريقية كثرة الهدايا والالطاف والاموال ، ولم يستطيعوا الامتناع عن الالتاح على العمال في طلبها . . » راجع لوراث البربر ص 144 ، 145 .

(79) ابن عذارى : ج 1 صفحة 47 .

بالورع والتقى على اختيار عماله من العدول الاتقياء ، وكان اسماعيل احدهم . والظلم الذى حاق بالبربر على يد يزيد بن ابي مسلم انما تم تحت سماع الخلافة وبصرها ، فالخليفة يزيد بن عبد الملك عرف بالطمع والجشع وحب المال « الذى جمع له عماله منه ما لم يجمع لاحد من قبل » (80) . ولا غرو فقد كان ممثنا لسياسة عامله في المغرب الذى اشبع له اطماعه فقال فيه عبارته الشهيرة « ما مثلى ومثل الحجاج وابن ابي مسلم بعده الا كرمل ضاع منه درهم فوجد دينارا » (81) . وتسليم الخليفة بما حدث من قتله سنة 102 هـ (721 م) واختيار محمد بن يزيد بدلا منه لا يؤيد وجهة نظر الدكتور مؤنس ، فقد كان عليه أن يسلم بالامر الواقع ريثما تهدأ الخواطر من جراء الآثار السيئة لحكم يزيد في نفوس البربر ، ثم رماهم بعد شهوور ببشر بن صفوان الذى انتقم من قتلة يزيد . وبعد موت يزيد بن عبد الملك تولى اخوه هشام الخلافة فأقر بشرا على المغرب لانه « بعث اليه باموال عظام وهدايا فاخرة » (82) . ولا يخامرنا شك في أن اشتطاط ابن الحبحاب في سياسته المالية بالمغرب كان مرضاة للخليفة ، فقد كان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون في طلبها الى عمال افريقية . ويذكر ابن عذارى (83) انه لما افضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير . ويخبرنا ابن خلدون (84) أن الخلفاء كانوا يطالبون الولاة بالوصائف البربريات والاردية العسلية، الالسوان وأنواع طرف المغرب ، فكانوا يتغالسون في جمع ذلك وانتحاله حتى « كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد منها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه » .

ولدينا من الروايات ما تؤكد أن الخليفة رفض السماح لوحد من البربر جاء اليه يشكو جور ابن الحبحاب وعسفه ، وعاد بعد أن تيقن رجاله من تواطؤ الخليفة مع عماله (85) ، وأن الخليفة بسبب جشعه

(80) ملهون : تاريخ الدولة العربية ص 337 . من صاحب كتاب الصلة الاسباني الذي

اكمل تاريخ ايزيدور .

(81) السلاوى : ج 1 صفحة 91 .

(82) اليعقوبى : تاريخه ج 3 صفحة 59 .

(83) البيان المغرب ج 1 صفحة 53 .

(84) المبرج ج 6 صفحة 119 .

(85) الطبرى : ج 4 صفحة 264 .

للحصول على الاموال « هو الذى يكره العمال على امتصاص دم الرعايا » على حد قول فلهوزن (86) . ولعل ما حدث فيما بعد من رفض عبد الرحمن ابن حبيب الازعان لمشينة المنصور قائلا عبارته المتواترة « ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انتقطع السبى منها والمال » (87) ما يشير الى ما كان سائدا في العصر الاموى الاخير من طمع الخلفاء في اموال البربر وسبائهم ، ويؤكد مسؤولية الخلافة الاموية عما كان يقوم به عمالها في بلاد المغرب .

كان الظلم الاجتماعى الذى استشرى في بلاد المغرب اذن من صنع الخلافة وعمالها ، وهو امر ساعد البربر الذين كانوا قد أسلموا واصلح اسلامهم على اعتناق مبادئ الخوارج التى تحض على الثورة على الجائرين من الحكام (88) .

لقد بدا انتشار الاسلام بين البربر منذ وطأت اقدام العرب بلاد المغرب ، وكان لعقبة بن نافع دور بارز في هذا الصدد (89) ، فقد بنى مدينة القيروان سنة 55 هـ (675 م) فدخل كثير من البربر في الاسلام وثبت الاسلام بها (90) وواصل ابو المهاجر سياسة عقبة في نشر الاسلام وتعريب البربر ، وحسبه اكتساب كسيلة وقومه الى الاسلام واتخاذهم حليفا (91) ، كما صالح عجم افريقية وادخلهم حظيرة الاسلام والعروبة (92) .

والى حسان بن النعمان يعزى الفضل في المؤاخاة بين البربر والعرب ، فقد جند من البربر اجنادا وعهد الى ثلاثة عشر فقيها من كبار التابعين بتعليمهم القرآن واصول الاسلام واللغة العربية ، وخدم هؤلاء في الجيش العربى جنبا الى جنب مع العرب المسلمين . ومنذ ذلك الحين اطردت حركة بناء المساجد في سائر ارجاء المغرب (93) ، واصبحت بمثابة مراكز

(86) تاريخ الدولة العربية صفحة 331 .

(87) ابن الاثير : ج 5 صفحة 117 .

(88) البغدادي : الفرق بين الفرق ص 273 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية صفحة 231 .

(89) ابن الاثير : ج 3 صفحة 234 .

(90) نفس المصدر صفحة 235 .

(91) ابن مغازي : ج 1 صفحة 28 .

(92) المالكي : رياض النفوس ج 1 صفحة 21 .

(93) عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ص 224 ، المالكي : ص 36 ، الدباغ ج 1 ص 61 .

ثابتة لنشر الاسلام والحضارة العربية بين البربر (94) . أما موسى بن نصير فقد بث الاسلام في بلاد المصامدة (95) وفقه البربر في تلك الانحاء في قواعد الدين واصول الشريعة (96) . كما اشرك البربر المسلمين في فتح الأندلس وجعل لاحدهم قيادة الجيش وهو طارق بن زياد (97) ، وفي ذلك دلالة على رسوخ الاسلام عند البربر وقيامهم بحمل رسالته الى اوروبا في اواخر القرن الاول الهجري (98) .

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز تعاضمت حركة اسلام البربر وتعريبهم ، اذ بعث الى المغرب واليه اسماعيل بن عبيد الله ، وجعل برفقته عشرة من كبار الفقهاء لتبصير المغاربة بأصول الاسلام وفروعه وتعليمهم اللغة العربية (99) واستجاب البربر لتعاليم الفقهاء وأقبلوا على الاسلام حتى « غلب على المغرب » (100) « ولم يبق يومئذ من البربر أحد الا أسلم » (101) ، باستثناء جماعات طفيفة العدد متاثرة من المسيحيين الذين ظلوا على دينهم (102) .

وهكذا جرى اسلام البربر وتعريبهم « في سرعة وعمق

-
- (94) نفس المصدر السابق ص 223 ، ابن عذارى ج 1 ص 27 .
 (95) ابن عذارى : ج 1 صفحة 43 .
 (96) ابن عبد الحكم : صفحة 204 .
 (97) مجهول : أخبار مجموعة صفحة 6 .
 (98) انظر : حسن ابراهيم : انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص 89 - 90 ،
 Brunschvig : La Tunisie dans le haut moyen age.
 P. 7, Drague : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, P. 17.
 حيث يعتقد أولئك المؤرخون ان اسلام البربر كان سطحيا حتى ذلك الحين .
 (99) المالكي : ج 1 ص 67 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 142 ، حسن محمود :
 الاسلام والثقافة العربية في افريقية ص 99 .
 (100) البلاذري : فتوح البلدان ص 273 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 185 ،
 النويري : ج 22 ورقة 14 .
 (101) ابن عبد الحكم : ص 87 ، الرقيق : ص 297 ، الدباغ : ج 1 ص 154 .
 ابن خلدون : ج 4 ص 188 ، السلاوي : ج 1 ص 90 .
 (102) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 31 ،
 Marçais : La Berberie musulmane, P. 36.
 وقد زعم بعض المستشرقين ان عمر بن عبد العزيز خير مسيحي المغرب بين الدخول
 في الاسلام أو الرحيل عن البلاد ، فأثر بعضهم اعتناق الاسلام بينما رحل البعض
 الآخر الى اوروبا . انظر :
 Bonte : l'Islamisme et le christianisme en Afrique, P. 72.
 وقد أنكر البعض الآخر هذا التجنى « فعمبر لم يكره النصارى على اعتناق الاسلام
 مهددا اياهم بالطرد والقتل ، وذلك لانه كان مسلما حقا متمسكا بها ورد في الشريعة
 الاسلامية في معاملة أهل الذمة ، وليس من المعقول أن يتجاهل أو يخرج عن هذه
 الشريعة » . انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 289 ،
 Mercier : Histoire de Constantine, P. 86.

وشمول « (103) على عكس دعاوى بعض المستشرقين (104) الذين ذهبوا الى ان حركة التعريب لم تسير انتشار الاسلام في المغرب ، وان البربر لم يتعلموا العربية الا في وقت متأخر .

ووجد البربر المسلمون تناقضا صارخا بين تعاليم الاسلام ومبادئه بما تنطوى عليه من عدل ومساواة وبين سياسة الأمويين الاواخر الجائرة ، فأقبلوا على اعتناق مذهب الخوارج وهو في جوهره مذهب « ثوري ديمقراطي اشتراكي » على حد تعبير ميور (105) .

وليس الى الشك سبيل في ان مبادئ الخوارج بما تنطوى عليه من تمسك بالشريعة في جانبها العتائدي (106) ، وثورية في قوامها السياسي وبساطة ووضوح في جوانبها الفكرية ، وجدت مناخا ملائما في ظروف المغرب الاسلامي وطبيعة سكانه .

فاذا كانت الديمقراطية هي محور مذهب الخوارج وقوامه على اعتبار ان الامامة حق متاح لكل مسلم (107) ، فبديهى ان يلقي ذلك المذهب قبولا لدى البربر الذين طال حرمانهم من المساواة مع العنصر العربي الحاكم ، ومن الطبيعي ان تتولد لديهم نزعة ثومية مغربية تتطلع لازاحة نفوذ الاقلية العربية عن مكان الصدارة والحكم في اطار شرعى يكفله الدين ، ولما كان مذهب الخوارج يقول بالثورة على الجائرين من الحكام (108) فقد وجد البربر في اعتناقه مبررا لانتفاضهم على الحكم العربى .

وبمعنى آخر ، اكتسبت نزعة الاستقلال عند البربر — بفضل مذهب الخوارج — طابعا ثوريا دينيا (109) ، فالتقى البربر مع الخوارج في موقفهم من عدو مشترك ممثل في السلطة الاموية .

Brunschvig : Op. Cit. P. 7.

(103)

(104) انظر

Marçais, W : Comment L'Afrique du Nord à été arabisée. P. 3, Hudas : Essai sur l'écriture Maghrébine, P. 86, Marçais, G : La Berbérie Musulmane, P. 41.

The caliphate, its rise, decline and Fall : P. 407.

(105)

(106) انظر : ابو زكريا : السيرة ورقة 8 مخطوط ،

Smith : The Ibadites. P. 279.

(107) الاسرائيلى : التبعير في الدين ص 46 .

(108) البغدادي : الفرق بين الفرق ص 273 .

(109) حسن مجبوع : الاسلام والثقافة العربية ص 164 ،

Vonderheyden : La Berbérie Orientale. P. 4.

ومضلاً عن ذلك فإن وضوح فكر الخوارج والتزامه بظاهر الدين وعدم ميله للفلسفة والتأويل (110) جعله يتلاءم مع عقلية البربر (111). وبعبارة أخرى كان فكر الخوارج متسقاً مع طبيعة البربر المعروفين «بإقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله» (112). ومن مظاهر هذا الاتساق أيضاً أن صفات الصلابة والقوة ممثلة في قول الخوارج بالاستعراض ورفض التقية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (113) يتقابلها عند البربر شدة المراس وقوة البأس والميل الغريزي للتطرف (114) .

وهكذا كانت مبادئ الخوارج متوائمة مع طباع البربر الفطرية وملتزمة مع أهدافهم السياسية ونزعتهم القومية . وهو ما عبر عنه السلوى (115) في إيجاز رائع بقوله : « . . وحسن موقعها (يعني مبادئ الخوارج) لديهم بسبب ما كانوا يعانون منه من وطأة الخلافة القرشية ، وجور بعض عمالها ، فلقتهم أهل البدع أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية بل ولا العربية . . ودسوا اليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم ، وأروهم ما هم عليه من التصلب في دينهم ، فظهر للبربر بباديء الرأي أن تعمقهم ذلك إنما هو من آثار الخشية لله والخوف منه ، وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعاً . . »

تصاري القول — ساعدت أحوال بلاد المغرب في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني على نزوح الخوارج المضطهدين في المشرق إلى بلاد المغرب (116) لنشر دعوتهم بين البربر وتحقيق ما فشلوا فيه من قبل من أهداف .

(110) انظر : الرازي : اعتقادات فرق المسلمين ص 40 وما بعدها ، أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 3 ص 335 .

(111) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ص 12 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 صفحة 72 — 73 ، Dozy : Op.cit. P. 131.

(112) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، Smith : Op. Cit. P. 279 ، ولذلك طلق عليهم دوزي « كلانة الاسلام » ودي بوا « بيوريتان الاسلام » Spanish Islam. P. 130, Le Djebel Nefousa. P. 137.

(113) انظر : الاسرائيلي : التبصير في الدين ص 142 وما بعدها .

(114) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ص 12 ، Cam. Med. hist. Vol. 2 P. 376, Draguge : Op. Cit. P. 23.

(115) الاستقصا ج 1 صفحة 123 .

(116) ابن خلدون : المعبر ج 5 ص 11 ،

Le Tourneau : La revolte, d'Abou-Yazid. P. 105 Mercier : Histoire de L'etablissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale. P. 70.

انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب

كان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم سببه أن حركاتهم كانت تقتصر على التنظيم السياسي (117) ، وتعتمد على القيام بثورات هوجاء دون تنظيم أو اعداد سابق (118) مما سهل على الخلافة الاموية وولاتها مهمة مناهضتها واستئصال شأفتها أولا بأول . وبانتهاء القرن الأول الهجري اختلفت فرقتا الازارقة والنجدات وهما من أهم فرق الخوارج . وكان من الطبيعي أن تلجأ فرقتا الصفرية والاباضية الى أسلوب مغاير

(117) ما يقال من الاتفاق السري بين ثلاثة من الخوارج لافتيال على معاوية ومبرو بن العاص لا ينفي صحة ما ذهبنا اليه . فهو تأمر انتقامي لا يخدم أهدافا بعيدة للخوارج . وأسلوب التأمر السري ليس تيارا أصيلا في فكر الخوارج السياسي بل انه « لا يتفق مع عادات الخوارج » على حد قول بعض الدارسين .
راجع : فلهوزن : تاريخ الدولة المربية ص 98 ،

Hitti : History of the Arabs. P. 182.

(118) تخالف ما ذهب اليه الدكتور سهر القلهاوي في تفسيرها اختلاف الخوارج على نافع بن الأزرق وظهور فرق الازارقة والنجدات والصفرية والاباضية بأنه خطة محكمة من الخوارج للهجوم على الدولة الاموية التي كانت تجتاز اذ ذاك أزمة خطيرة فيتجه فريق منهم الى الشمال وآخر الى الجنوب لتكوين خط هجوم شرقي يمتد من الجزيرة شمالا الى اليمامة والبحرين جنوبا ، بينما يتوغل فريق ثالث في فارس لاتخاذها ملجأ ساعة الشدة . انظر : أدب الخوارج في العصر الاموي ص 35 . والواقع أن المصادر لا تشير الى شيء من هذا البتة ، والذي ينهم من الروايات أن ما حدث كان محض خلاف فقهي انتهى الى انشقاق مذهبي وسياسي في جماعة الخوارج . ولم يحدث قط ثمة تعاون مشترك بين هذه الفرق في صراعها مع الدولة الاموية .

من ظهور فرق الخوارج راجع ، الاسفرائيني : التبصير في الدين ص 49 وما بعدها ، ابن عبد ربه : المقد الفريد ج 2 ص 191 وما بعدها ، البياسي : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام ج 2 ص 169 - مخطوط .

ثوامه تنظيم الدعوة السرية وبث الدعاة في أطراف العالم الاسلامي
لنشر تعاليم المذهب ، فاذا ما ازداد الانتصار عددا وأنسوا من انفسهم
قدرة على الثورة بادروا بالخروج .

كانت بلاد المغرب أهم أقاليم الاطراف التي اتجهت اليها جهود
دعاة الخوارج العراقيين (119) فمتى تم ذلك ؟ وأي فرق المذهب قدر
لها أن تنتشر في البلاد ؟

لا نستطيع أن نحدد في وضوح تاريخ بدء دعوة الخوارج بالمغرب
بسبب تضارب الروايات واختلاطها ، فابن حوقل (120) يرجع بداية
الدعوة الى معركة النهروان سنة 38 هـ (658 م) فيذكر أن « عبد الله بن
وهب الراسبي وعبد الله بن أباض لجأ الى جبل نفوسة منذ وقت
انصرافهم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بمن سلم معهم من أهل
النهروان . . وقاتلوا هذا الجبل دار هجرة » لكن المعروف أن الراسبي
قتل في النهروان (121) ، كما أن ابن أباض لم يرد له ذكر بين من نجوا
من القتل في المعركة (122) ، الامر الذي يشكك في صحة هذه الرواية .
ليس بعيد أن يكون بعض من فروا بعد معركة النهروان قد اعتصموا
بجبل نفوسة ، لكنهم لم يتركوا هناك أثرا يذكر . لكن الظهور الحقيقي
لمذهب الخوارج في بلاد المغرب يعود الى أواخر القرن الاول ، وأوائل
القرن الثاني الهجريين (123) .

أما عن فرق الخوارج التي انتشرت ببلاد المغرب ، فانه
قد اختلط امر تحديدها على بعض المحدثين الذين أرخوا للخوارج في
المغرب ، اذ زعم بعضهم (124) أن البلاد شهدت انتشار فرق الخوارج
جميعها ، وتشكك البعض (125) الآخر في وجود فرقتي الإباضية والصفورية

(119) ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 110 .

(120) المسالك والممالك ص 68 .

(121) المسعودي : مروج الذهب ج 2 ص 417 .

(122) نلس المصدر والصحيفة ، ابن خلدون : المعبر ج 3 ص 142 .

(123) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، السلاوي : ج 1 ص 123 ، عنان : دولة الاسلام

في الاندلس ج 1 ص 116 .

(124) انظر :

Basset : Recherches sur la religion des Berberes. P. 331,

الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص 118 .

Dozy : Op. Cit. P. 131.

(125) انظر :

ومؤنس : بجر الاندلس ص 148 ، ثورات البربر ص 154 — 155 .

على أساس « أن مبادئ الفرقتين ليست مما يجذب البربر ، فهما أكثر فرق الخوارج ميلا للمسالمة والتسامح مع المخالفين » ، علما بأن الصفرية من أكثر فرق الخوارج تطرفا ، لا ننكر أنهم اتخذوا موقفا وسطا بين الأزارقة المسرفين في التطرف والاباضية المعتدلين (126) لكن ثوراتهم اتسمت بالقسوة والعنف سواء في المشرق أو المغرب ، فلم يكونوا أقل حدة من الأزارقة في هذه الناحية (127) .

ونعتقد أن من أشرت اليهم من المؤرخين المحدثين إنما تأثروا بقول صاحب كتاب أخبار مجموعة (128) ، « فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان » . لكن الذى يؤكد أن الأزارقة قضى عليهم نهائيا بعد قتل قائديهما قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال سنة 77 هـ (696 م) على يد المهلب بن أبى صفرة واختلفوا نهائيا بعدئذ من مسرح السياسة (129) أما النجدات ، فقد هلك عمر بن عبيد الله بن معمر قائد عبد الملك بن مروان بزعمهم أبى هذيل سنة 72 هـ (691 م) وقتل معه ستة آلاف من أصحابه بالبحرين ، فتضاءل شأنهم بعد ذلك (130) .

معنى هذا أن فرقتين فقط من فرق الخوارج الكبرى ظهرتنا ظهورا واضحا في أحداث بلاد المغرب وهما فرقة الصفرية ، وفرقة الاباضية ، فما تاريخ ظهور الفرقتين ؟ ؟

ينتسب الخوارج الصفرية الى عبد الله بن الصغار (131) ، وان كانت كتب الفرق (132) ترجع بهذا النسب الى شخص يقال له زياد بن

(126) الشهرستاني : الملل والنحل ص 121 — 123 ، ذكر جولييان انه اذا كان الأزارقة يمثلون اليسار المتطرف في مذهب الخوارج والاباضية اليمين ، فان الصفرية يمثلون اليسار . بينما يشبه جوتيه الاباضية بالوثنيين والصفرية بالبولشفيك . انظر : Histoire de l'Afrique du Nord. P. 329. Les Siecles obscurs. P. 269,

Gautier : Loc. Cit. (127)

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 ص 288 .

(128) صفحة 32 .

(129) الطبرى : ج 6 ص 308 ، ابن خلدون : ج 3 ص 161 ، الاسفرائينى : ص 51 ، البغدادي : ص 87 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 109 .

(130) ابن الاثير : ج 4 ص 140 ، البغدادي : ص 90 .

(131) البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 83 .

(132) انظر : السرايزى : ص 51 ، الاسفرائينى : ص 52 ، البغدادي : ص 90 ، الشهرستاني : ص 123 .

الاصفر . وأيا ما كان الامر فلا محل لتصديق روايات أخرى ترجع تسميتهم لصفرة وجوههم من كثرة العبادة (133) ، أو لانهم أخرجوا من الدين صفرا (134) فكثرة العبادة من صفات الخوارج عموما وليست حكرا على الصفرية ، كما أن التفسير الثاني من نسج فقيه أباضى معاد للصفرية . ولا صحة للقول الذى ينسبهم الى المهلب بن أبى صفرة (135) أعدى أعداء الخوارج . ولا يمكن أن نقبل الروايات التى تنسبهم الى عبد الله بن وهب الراسبى وحرثوص بن زهير أو أبى بلال مرادس (136) ، فلم يكن الخوارج قد افترقوا بعد الى فرقهم المعروفة ، بل أطلق عليهم اذ ذاك « المحكمة الاولى » (137) انما ظهر الصفرية حين خالف عبد الله بن الصغار نافعا بن الازرق حول مسألة التعدة سنة 65 هـ (684 م) وهو خلاف فقهى بالدرجة الاولى (138) اتخذوا فيه موقفا وسطا بين الازارقة المتطرفين والاباضية المعتدلين ، « فلم يكفروا التعدة عن القتال اذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد » (139) .

والواقع ان عقائد الصفرية تمثل تطورا عمليا ملحوظا فى مكر الخوارج وعقائدهم ، اذ تجنح الى التخفيف من غلواء التطرف الذى افضى بحركاتهم الى الفشل من قبل فهم لم يسقطوا الرحم ولم يحكموا بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم كالأزارقة ، كما نادوا بجواز التقية فى القول دون العمل (140) ، وأجاز بعض زعمائهم تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية (141) . وقد كفل لهم ذلك معايشة الجماعة الاسلامية بدلا من اشهار عدائهم لها ، الامر الذى اتاح لهم القدرة على الدعوة السرية المنظمة ، وحقق لمذهبهم الانتشار . لكنهم كانوا اكثر تطرفا من الاباضية فى موتفهم من مرتكبى الكبائر ومن ثم من مسألة « الكفر والايمان » ، فبينما رأى الاباضية أنهم موحدون قتال الصفرية بتكفيرهم . (142) وفى ذلك تفسير لنزعة القسوة والعنف التى

(133) ابن عبد ربه : المعتمد الفريد ج 1 ص 216 .

(134) السوفى : شرح السؤالات ورقة 114 . مخطوط .

(135) ابن تغرى بردى : ج 1 ص 289 .

(136) البيرد : الكامل ج 3 ص 1006 .

(137) البغدادى : صفحة 91 .

(138) ليلى ديلانيدا : مادة الصفرية — دائرة المعارف الاسلامية ص 229 .

(139) الشهرستانى : صفحة 123 .

(140) الرازى : صفحة 51 .

(141) المرجع السابق صفحة 122 .

(142) نفس المصدر ص 121 .

لازمت سياسة الصفرية في معاملة اعدائهم .

وعلى كل حال — استفاد الصفرية من اخطاء الازارقة والنجدات ومن كان قبلهم من المحكمة الاولى ، فترثوا قبل دخولهم معترك الحياة السياسية ، فلم نسمع عن حركات لهم قبل ثورة صالح بن مسرح ضد الامويين سنة 76 هـ (143) (695 م) . كما امتازت ثوراتهم بالتركيز على منطقة الموصل والجزيرة وديار بكر ، واتخذوها مقرا تتجمع فيه قواتهم لتتجه في اعداد كبيرة نحو البصرة والكوفة ، وقد سقطت الكوفة نفسها في ايديهم مرتين الاولى ابان ثورة شبيب سنة 77 هـ (144) (696 م) والثانية اثناء ثورة بسطام بن يشكر المعروف بشوذب سنة 100 هـ (145) (718 م) ، الامر الذي يؤكد ان حركاتهم كانت تهدف الى اقامة دولة للخوارج

ان التطور الجديد في فكر الخوارج الصفرية بتجويز مبدأ التقية ، والاتجاه العملي في حركاتهم بالمشرق (146) يؤكد جنوحهم الى أسلوب الدعوة السرية المنظمة في المغرب . لا ننكر ان هذه الناحية اكثر وضوحا عند الاباضية بسبب وفرة المادة التاريخية المتعلقة بهم ، لكن تاريخ الصفرية لا يخلو من اشارات تؤكد الاتجاه الذي اشرت اليه ، هذا الاتجاه الذي يتجلى في جهود دعائهم في نشر مذهبهم ببلاد المغرب .

تذكر المصادر الاباضية (147) ان « أول من جاء بطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية سلمة بن سعيد قال ، قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس على بعير ، سلمة يدعو الى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية » .

معنى هذا ان القيروان كانت مركز الدعوة في المغرب (148) ، لكننا لا نعرف

(143) الطبرى : ج 6 صفحة 215 .

(144) من حركة شبيب بن يزيد الشيباني انظر : الطبرى : ج 6 ص 223 وما بعدها .

(145) من حركة شوذب راجع : الطبرى : ج 6 ص 556 وما بعدها .

(146) هذه الحركات هي : ثورة يهلول بن بشر الشيباني بالموصل سنة 119 . انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 77 وما بعدها .

ثورة الصحارى بن شبيب سنة 119 هـ . انظر : الطبرى ج 7 ص 137 وما بعدها

ثورة الضحاك بن قيس الشيباني : انظر : ابن قتبية : المعارف ص 412 .

ثورة الخبيري الصفرى سنة 128 هـ . انظر الطبرى : ج 7 ص 347 .

ثورة شيبان بن عبد العزيز سنة 129 هـ . وهى آخر ثورات الصفرية في العصر الاموى

انظر : الطبرى : ج 7 ص 349 .

(147) ابو زكريا : السيرة ورقة 2 . مخطوط ، الدرجيني : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 6 مخطوط .

على وجه الدقة متى حضر عكرمة — رأس دعاة الصفرية — الى امريقية .
والراجع انه وصلها خلال السنوات الخمس الاولى من القرن الثانى
الهجرى (149) .

كان عكرمة هذا من أصل مغربى (150) ، وكان من موالى ابن
عباس الفقيه ذائع الصيت وقد اتاح له ذلك مخالطة كبار الفقهاء والمحدثين
كأبى هريرة والسيدة عائشة ، فسمع منهم وأخذ عنهم حتى أضحى من
الأعلام الثقات فى الفقه والحديث (151) ثم أخذ بالمذهب الصفرى وصار
من محول مفتائه . ومن الغريب ألا نجد له ذكرا فى حركات الصفرية فى
شمال العراق ، وقد يفهم من ذلك انه مال الى تعاليم الصفرية فى وقت
متأخر . وقد عهد اليه بنشر المذهب فى بلاد المغرب بعد اتجاه الخوارج
الصفرية الى اتباع أسلوب التنظيم والدعوة .

ولا يستفاد من النص السابق أن الصفرية والاباضية التاما فى نظام
واحد أو أن دعائهما تلازما فى نشر تعاليمهما ، فلم نقف على ما يشير الى
مثل هذا العمل المشترك فى الجهود التى قاموا بها بين البربر . بل أن كلا
من الجماعتين اختطت لنفسها طريقا خاصا ، ولم تتورعا عن التنافس
والصراع الذى انتهى باقتتالهما فى بعض الاحيان . كما أن دعاة الفرقة
الاباضية اتجهوا الى الاقاليم الشرقية من بلاد المغرب بينما اتجهت الدعوة
الصفرية الى قبائل المغرب الاقصى (152) .

على كل حال نزل عكرمة بالقيروان حيث أمكنه الاتصال برؤساء
القبائل من أمثال ميسرة المطفرى — زعيم مطفرة — الذى تلقى العلم على
يديه مختفيا ، فقد اشتغل بالسقاية فى سوق القيروان حتى لا يكتشف أمره .
وعلى الرغم من كونه سيدا لعصبية لها خطرها لم يتورع عن الاشتغال
بتلك المهنة امعانا فى التستر والحيطة . وقد تسنى له بذلك أخذ تعاليم
المذهب عن عكرمة ، ثم عاد فنشرها بين قومه من بربر مطفرة (153) .

(148) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ،

Marcais : La Berberie Musulmane, P. 48.

(149) المعنى : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 46 — مخطوط .

Fournel ; Les Berbers. Vol I. P. 352.

(150) نفس المصدر والصحيفة

(151) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 ، المعنى : المرجع السابق ورقة 464 ، دبور :

Fournel : Op. Cit. P. 352.

المغرب الكبير ج 2 ص 279 ،

(152) ابن خلدون : المعبر ج 7 ص 11 .

(153) نفس المصدر ج 6 ص 118 .

كما اتصل أبو القاسم سمكو بن واسول شيخ مكناسة بعكرمة في القيروان (154) كذلك وليس بالشرق كما اعتقد البعض (155) . ولازمه حتى موته في سنة 105 هـ (723 م) أو سنة 107 هـ (725 م) حسبما يرجع (156)، وتبحر في أصول المذهب وفروعه حتى وصف بأنه من « مشاهير حملة العلم » (157) ، وبأنه « مقدم الصفرية » (158) بعد وفاة عكرمة . واستطاع أبو القاسم نشر المذهب بين قومه من مكناسة ، ثم اتجه نحو المناطق الصحراوية الجنوبية لبث الدعوة فيها ، وعهد — شأنه شأن ميسرة — إلى اتباع أسلوب التستر والتخفى ، فرحل إلى واحة تافيلت — وهي ملتقى القبائل الرعوية جنوبى المغرب الاقصى — وتظاهر بتربية قطعان الماشية وعكف على بث تعاليم المذهب بين الرعاة حتى تحولت خيمته إلى مجمع للخوارج الصفرية في تلك النواحي (159) .

ولم يقتصر انتشار المذهب الصفرى على بربر مطفرة ومكناسة ، ذلك أن بربر برغواطة اعتنقوا هذا المذهب في وقت مبكر على يد طريف ابن شمعون الذى لقي عكرمة بالقيروان كذلك (160) . وإذا كانوا قد تخلوا عنه بعد ذلك واتبعوا تعاليم صالح بن طريف (161) ، فلا يمكن اغفال دورهم البارز في ثورة الصفرية الكبرى بالمغرب الاقصى التى تزعمها مسيرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) .

-
- (154) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 76 .
 (155) مجهول : نبذ تاريخية ص 60 ، الطقشندى : صبح الامنى ج 5 ص 165 .
 (156) العينى : عقد الجبان ج 11 قسم 3 ورقة 464 .
 (157) ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 105 .
 (158) الشطيبى : الجمان في اخبار الزمان ورقة 203 — مخطوط .
 (159) البكرى : المغرب ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ،
 Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

- (160) ابن خلدون : ج 6 ص 107 .
 (161) تسكن برغواطة اقليم تانسنا بالمغرب الاقصى وأهم مدنه سلا وآزمور وآنى وآسلى ، وكان زعيمها طريف بن شمعون من تواد ميسرة ، وقد اختلف في نسبه فيها إذا كان مصوبيا أو يهوديا أو يمنيا وعلى كل حال — فقد خلفه بعد موته ابنه صالح الذى تزندق وشرع ديانة جديدة ، وأظهر قرانا جديدا وتسمى « بصالح المؤمنين » ولم يقدر لتعاليمه الانتشار في حياته ، فقد غادر البلاد إلى الشرق ، وادعى أنه المهدي المنتظر وكان قد أعد ابنه الياس للقيام بأمر دعوته بعد أن لقنه اسرارها ومفهمه بأصولها . وقد نشبت الدعوة في عهد الياس ، وحاول الادارسة القضاء عليها الا أنها ظلت قائمة حتى عصر الموحدين . راجع : ابن عذارى : ج 1 ص 61 ، ابن خلدون : ج 6 ص 207 ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 118 ، البوعياشى : الرينف بعد الفتح الاسلامى ص 15 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 417 ،
 Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 238.

والراجع أن ميسرة كان على صلة وطيدة بطريف بن شمعون « القائم بدعوة الصفرية » (162) في برغواطة قبل تقلده زعامة الحركة (163) ، فلما قام بثورته آزروه ووقفوا الى جانبه، لكنهم مالبثوا أن انسحبوا من الحركة الصفرية حين نحى ميسرة عن زعامتها ، فأنحازوا الى دعوة صالح بن طريف .

وانتشر المذهب الصفري أيضا في زناتة « فقد ضرب بنو يفرن فيه بسهم وانتحلوه » (164) ، كما أقبلت بعض بطونها في المغرب الأدنى على اعتناقه وساهمت في حركات الصفرية بعد ذلك بصورة محدودة .

ولم يقتصر انتشاره على البربر وحدهم بل تعداهم الى العناصر الأخرى ، فبعض العرب المقيمين بإفريقية دانوا بالمذهب الصفري وقد تسرب هؤلاء الى المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق ، حتي ذاع عن بعض الولاة اعتنائهم هذا المذهب أو على الأقل تعاطفهم مع معتنقيه (165) فقد اتهم يزيد بن أبي مسلم بأنه من الخوارج الصفرية (166) ، وإن كان لم يستطع الجهر بذلك خوفا وتقية حتى قيل بأنه « يعلم الحق ويكتبه » (167) .

كما انتشر المذهب الصفري بين جماعات الافارقة ، وهم أصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم ودخلوا في خدمتهم واعتنقوا ديانتهم أو من الأجانب المستوطنين الذين طال وجودهم في بلاد المغرب حتى أصبحوا افارقة (168) . وهؤلاء كان لهم نمط خاص في حياتهم باعتبارهم أكثر تحضرا من سكان البلاد الأصليين وكانت لهم لهجتهم الخاصة التي لا يعرفها غيرهم (169) . وقد أقبلوا على اعتناق الاسلام رغبة منهم في الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المرموقة ، لكن الولاة الأمويين الأواخر عاملوهم معاملة

(162) ابن خلدون : ج 6 صفحة 107 .

(163) مبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 48.

(164) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ،
Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. Lxxiii

(165) ابن الأثير : الكامل ج 5 ص 70 ،
Le Tourneau : Op. Cit. P. 439.

(166) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 .

(167) نفس المصدر صفحة 968 .

(168) حسن محمود : انتشار الاسلام ج 1 ص 167 .

(169) البكري : المغرب صفحة 6 .

البربر ، فلما انتشر المذهب الصفري بين بربر المغرب الأقصى لم يحجم الافارقة عن اعتناقه ، فقد تلقاه زعيمهم عبد الاعلى بن جريج عن عكرمة بالقيروان ثم نشره بين قومه (170) . وحسبنا دليلا على ذلك اشتراك الافارقة في ثورة هسيرة سنة 121 هـ (739 م) وتقليده عبد الاعلى واليا من قبله على طنجة بعد فتحها (171) .

وامتدت تعاليم الصفرية كذلك عن طريق ابي القاسم سمكو بن واسول الى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء . فمن المعروف ان قوافل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان كانت تمر عبر واحة تافيلت حيث اقام ابو القاسم واخذ يعمل على نشر المذهب الصفري . وكانت جماعات منهم تقطن هذه الواحة وتعمل في التجارة عبر الصحراء . وقد رحب هؤلاء بهداىء الخوارج لما تنطوى عليه من مساواة دون اعتبار للعنصر او اللون . ووجد ابو القاسم سمكو فيهم اتباعا مخلصين فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه . واخذت جموعهم تند وتستقر في اقليم تافيلت بصفة دائمة بعد اعتناقهم المذهب الصفري ، وليس ادل على ذلك انه ما ان شرع الصفرية في اقامة دولتهم بسجلماسة سنة 140 هـ (757 م) حتى اختاروا اول ائمتهم من السودان وهو عيسى بن يزيد الاسود (172) /

وهكذا تغلغل المذهب الصفري في سائر ارجاء المغرب الأقصى وبعض نواحي افريقية والمغرب الادنى بين البربر والعرب والافارقة والسودان على السواء . ولعل هذا الانتشار السريع وشموله كافة الاجناس والعناصر الموجودة ببلاد المغرب وتسربه حتى جنوبى افريقية هو الذى حدا بابن خلدون (173) الى القول بان « الصفرية قد فشت متألتها في سائر القبائل بافريقية » « وصار لهم فيها عدد كثير وشوكة قوية » على حد قول النويرى (174) .

اما المذهب الاباضى فينسب الى عبد الله بن ابي اسحق المرى

(170) السلاوى : ج 1 صفحة 97 .

(171) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن مغازى : ج 1 ص 52 .

(172) البكرى : المغرب ص 149 ،

Journal : Op. Cit. Vol. 2. P. 22.

(173) المبرج ج 4 ص 189 .

(174) نهاية الارب ج 22 ورقة 150 .

التميمى (175) ، وان كان بعض مؤرخى الاباضية ينكرون ذلك (176) .
ويجمع المؤرخون (177) على ان المذهب الاباضى ظهر — شأنه شأن
الصفورية والنجدات والازارقة — سنة 64 هـ (683 م) عندها خالف عبد الله
ابن اباض نافع بن الازرق فى تفكيره القعدة عن القتال واتخذ بذلك
موقفا معتدلا .

والواقع ان الاعتدال هو السمة الواضحة لعقائد الاباضية ، اذ
انهم يحرمون دماء المسلمين وسبى ذراريهم وغنيمة اموالهم (178) . كما
انهم اعتبروا دور مخالفيهم دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار
بغى (179) . واجازوا مناكلتهم وموارثتهم وغنيمة اموالهم من السلاح
والكراع عند الحرب ، وحرموا قتلهم وسبيهم فى السر غيلة الا بعد نصب
القتال واقامة الحجة (180) . وقالوا فى مرتكبى الكبائر انهم موحدون ،
وان كفروا كفر النعمة لا كفر الملة . وتوقفوا فى اطفال المشركين وجوزوا
تعذيبهم على سبيل الانتقام . ولعل طابع الاعتدال فى عقائد الاباضية هذه
هو ما جعلهم اقرب فرق الخوارج الى اهل السنة (181) .

والملاحظ ان الاباضية — كالصفورية — بداوا حركاتهم السياسية فى
وقت متأخر . فقد خرج عبد الله بن اباض على مروان بن محمد (182)
آخر خلفاء بنى امية ، فوجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بقتالة
وهزمه وقتله (183) معنى هذا ان ابن اباض لم يقدم على الثورة على اثر
انفصاله عن نافع بن الازرق سنة 64 هـ (683 م) انما اثر التريث حيث
وجد فى عصر مروان بن محمد الحائل بالاضطرابات فرصة مواتية للخروج .
لكن فشله وقتله دفع أتباعه الى اتباع اسلوب العمل فى الكتمان ونشر

(175) ابن قتيبة : المارء ص 622 ، ابن رسته : الاملاق النفيسة ص 217 ، مجهول :
قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 — مخطوط .

(176) انظر : ابو زكريا ورقة 8 ، 11 ، Masqueray : Op. Cit. P. xxx

(177) الطبرى : ج 6 ص 320 ، البغدادي : ص 105 .

(178) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 — مخطوط ، ابو غانم الصفري : مدونه ،
ورقة 43 — مخطوط .

(179) البغدادي : صفحة 106 .

(180) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 28 .

(181) الشهرستائى : الملل والنحل ص 122 .

(182) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 .

(183) نفس المصدر والمحيطة ، الشهرستائى : ص 121 .

الدعوة في الاطراف ، في خراسان (184) وجنوبى الجزيرة العربية (185) والمغرب .

وكانت البصرة مركزا للدعوة ، ومنها كان الدعاة — الذين عرفوا بحملة العلم — يتوجهون الى الأمصار بعد تلقيهم أصول الدعوة على أيدي نقهاء المذهب وشيوخه . والمعروف أن أنصار المذهب بالبصرة كانوا يمارسون مهامهم في طى السرية والكتمان ، فكانت مجالسهم في سرايب تحت الأرض ، وأمانا في التخفى « كان يجلس أمام باب السرداب رجل يعمل القفاف وعلى فمه سلسلة يحركها اذا ما رأى شخصا مقبلا لينبهه من بالداخل الى التزام الصمت ريثما يمر من يشتهيه في أمره » (186) . وغالبا ما كانت هذه المجالس تنقام في بيوت النسوة العجائز منعا للشبهة (187) ، بل ان روادها كانوا يتكفرون في ملابس النساء (188) .

وتطلق المصادر الإباضية على هذه المجالس اسم « الحلقة » (189).

(184) من دعاة الإباضية في خراسان محبوب بن الرحيل وبشر بن النير وهاشم بن عيلان . وإذا كان النبوض يكتنف محسّر هؤلاء الدعاة ، فالذى لا شك فيه أن جهودهم في نشر الدعوة بخراسان جاءت بالشل . انظر : اطيّش : بعض تواريخ أهل وادى ميزاب ص 115 .

(185) كذلك لا نعلم شيئا من جهود دعاة الإباضية . وكانوا أربعة — (اطيّش : الامكان ص 110) في ميان (Masqueray : Op. Cit. P. XLII) لكن أحدهم ويدعى أبا حمزة المختار بن موف — وكان يدعو لإمامة أبى عبد الله بن يحيى الكندى المعروف بطالب الحق — نجح في مهنته (المسمودى : ج 3 ص 257) . وكان دائب الصلة بجماعة الإباضية في البصرة الذين أسدوه بالمشورة والنصائح الى جانب الاموال والسلاح (مجهول : كشف الغبة ورقة 307 مخطوط) وانتشرت الدعوة لطالب الحق في ميان ، وخوطلب بأمر المؤمنين ، ثم دخل صنعاء ودانت له أعمالها (ابن تيمزى بردى : ج 1 ص 309) .

كما تمكن أبو حمزة من دخول المدينة المنورة سنة 130 هـ بعد هرب واليها الاموى الى الشام (الطبرى : ج 7 ص 394) ، وبطش بمن خالفه من أهلها (ابن الاثير : ج 5 ص 140) ، وخطب على منبر جامعها لطالب الحق (انظر نص الخطاب في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ص 144 — 147) . وظل بها ثلاثة شهور غادرها بعدها الى بلاد الشام لكن مروان بن محمد بعث قائده محمد بن عطية السعدى على رأس جيش للقائه ، وتمكن محمد بن عطية من هزيمة أبى حمزة وقتله في معركة وادى القرى سنة 130 هـ (ابن الاثير : ج 5 ص 146) . وواصل الجيش الاموى زحفه الى المدينة ، ومنها توجه الى اليمن حيث هزم طالب الحق وقتل الكثيرين من رجاله بناحية الطائف ، وفر بقية الخوارج الى خضر موت حيث تحصنوا بها . (انظر : المسمودى : ج 3 ص 258 ، سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص 129) .

(186) أبو زكريا : ورقة 5 ، الشهاخى : السير ص 124 .

(187) الشهاخى : نفس المصدر ص 108 ، 109 .

(188) الدرجينى : طبقات الإباضية ج 1 ورقة 107 — مخطوط .

(189) من حلقات الإباضية في مصور متأخرة راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 106 — 112 — مخطوط .

ولمبها يتلقى الاتباع الاصول والفروع والسير (190) والتوحيد والشرعة وآراء الفرق الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (191) . هذا فضلا عن تبصيرهم بفنون الحكم ، واساليب السياسة ، واعدادهم لتقليد المناصب والاضطلاع بأعبائها في مرحلة الظهور (192) . وبعد ذلك يرحلون الى الامصار يدعمون للمذهب ثم يشرعون في « المجاهرة بالعمل » (193) اذا ما توافر لهم « ما يوجب به التولية عليهم من العدة والعدد من الرجال » (194) .

ويرجع الفضل في تنظيم أسلوب الدعوة الاباضية الى جابر بن زيد الذي حظى بمنزلة عالية عند الاباضية حتى اعتبره بعضهم (195) اول الائمة . لكن الاجل لم يمتد به ليشهد نجاح جهوده ، فقد توفي سنة 96 هـ (196) (725 م) وخلفه احد تلاميذته ويدعى ابا عبيدة مسلم بن ابي كريمة (197) الذي قيل انه ظل يتلقى العلم اربعين عاما وبعدها نصب نفسه لتعليمه (198) . ومن هنا كانت شهرته الواسعة بتعمته في العلوم على اختلافها (199) . فكان ندا لاعلام المعتزلة كواصل بن عطاء ، وكان يحاورهم ويجادلهم (200) . وقد سجن زمن الحجاج ، وأفرج عنه بعد موته ليتصدى لتنظيم جماعة الاباضية في البصرة خلفا لجابر بن زيد . وساعده في ذلك كبار اعوانه من امثال ابي نوح ، وابى مودود حاجب والربيع بن حبيب (201) وفي عهده ارتفع شأن الدعوة واشتد ساعدها ، فقد تسنى له جمع الكثير من الاموال وتمكن من شراء الاسلحة ليستعين

-
- (190) الدرجيني : المرجع السابق ورقة 3 .
(191) البرادى : المرجع السابق ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IxL.
(192) ابو زكريا : ورقة 6 ، الشماخى : السير ص 124 .
(193) مجهول : كشف الغمة ورقة 307 - مخطوط .
(194) ابو زكريا : السيرة ورقة 5 .
(195) الورجلانى : ج 2 ص 72 ، دبوز : ج 2 ص 138 ، 408 ، على يحيى معمر : الاباضية صفحة 21 .
(196) اخلا البرادى حين ذكر انه توفى سنة 193 هـ . راجع : الجواهر المنتقا ورقة 79 .
(197) الدرجيني : ج 1 ورقة 102 ، Masqueray : Op. Cit. P. 8
(198) اطنيش : الامكان ص 113 .
(199) الشماخى : السير صفحة 83 .
(200) الدرجيني : ج 1 ورقة 105 .
(201) نفس المصدر ورقة 107 .

بها دعائه في الولايات على « إقامة دين الله » (202) .

وليس من شك في أن بلاد المغرب ظفرت من أبي عبيدة باهتمام كبير (203) ، إذ كانت ميدانا خصبا لنشر المذهب ، فبعث بداعيته سلمة ابن سعيد في بداية القرن الثاني الهجري لنشر الدعوة الاباضية بين المغاربة . وتجمع مصادر الاباضية (204) على حماس سلمة الشديد في نشر المذهب حتى أنه « كان يتمنى ظهوره يوما واحدا ويموت في آخره » . ويبدو أنه اتخذ من بلاد المغرب الأدنى ميدانا لنشاطه حيث استطاع أن يكسب انصارا في اقليم طرابلس وجبل نفوسة (205) . ولم يمتد به الاجل طويلا فحل محله أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الذي تتلمذ على أبي عبيدة بالبصرة (206) ، واشتهر « بشدة الشكينة وقوة العريكة » (207) . وفي أيامه تم انتشار المذهب بين بربر نفوسة في مستهل القرن الثاني الهجري (208) . ومنذ ذلك الحين أصبح جبل نفوسة « دار هجرة » للمذهب الاباضي في بلاد المغرب (209) .

وكان رسوخ قدم المذهب الاباضي في جبل نفوسة سببا في انتشاره

(202) الشماخي : السير ص 115 . وقد أورد الشماخي مثالا على ذلك نعه انه « لما خرج الامام عبد الله بن يحيى وأبو حمزة ، جع لها أموالا كثيرة يعينها بها . وكتب على كل مؤسر من المسلمين قدر ما يرى ، فما امتنع عليه أحد . ودعا أبا طاهر — وكان شيخا فاضلا — وقال له : عليك بالنساء وأوساط الناس ، فانا لكبره . أن نكتب عليهم ما لا يحملون . فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين ، فلم يأتوا امرأة ولا رجلا الا وجدوه مسارعا فيها سالوه . . فلم يمس الليل حتى جبع أبو طاهر عشرة آلاف درهم . فأخبروا حاجبا ، فسر بذلك فقال : ان في الناس لبقية بعد . فاشترى بتلك الاموال سلاحا فوجهه ، ووجه ما بقى » . انظر : السير صفحة 114 .

(203) بالفت المصادر الاباضية في ايراد كثير من الاحاديث المصطنعة والاتوال المأثورة من كبار الصحابة في مسائل البربر ، وما سيتم على أيديهم من العودة بالاسلام الى اصوله الصحيحة . وعلى الرغم مما يكتنف هذه الروايات من طابع أسطوري فلها دلالاتها على موثاق ظروف بلاد المغرب لنشر دعوة الخوارج . انظر : أبو زكريا ورقة 2 وما بعدها ، الدرجيني : ج 1 ورقة 7 وما بعدها .

(204) أبو زكريا : ورقة 2 ، الشماخي : السير ص 98 ، السوي : شرح السؤالات ورقة 147 .

(205) الدرجيني : ج 1 ورقة 6 .

(206) الوسياني : سير أبي الربيع ورقة 80 — مخطوط ،

Lowcki : Etudes, Ibadites, P. 39.

(207) الشماخي : السير صفحة 144 .

(208) الوسياني : ورقة 79 ، الدرجيني : ج 2 ورقة 140 ، ابن مديش : نزعة الانظار ص 40 ، السلاوي : ج 1 ص 123 ،

Despois, Op. Cit. P. 138.

(209) ابن حوتل : المسالك والممالك صفحة 68 .

بين القبائل الاخرى مثل هواره ولماية وزناتة وسدارته وزواغة ولواتة (210) اما مطماطة ، فلم تعتنق المذهب الا في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم (211) .

على كل حال — فان انتشار المذهب الإباضي على هذا النحو بين كثير من قبائل المغربيين الأدنى والوسط كان في حاجة الى مزيد من التبصير بتعاليم المذهب وأصوله الفقهية ، وحسب سلمة بن سميد وابن مغيطر انهما كسبا الانتصار وبثا الدعوة بين القبائل . ولذلك تم اختيار ممثلين عن الجهات التي انتشر فيها المذهب للتوجه الى البصرة لمزيد من الدرس ، فاختير عاصم السدراتي من قرب الاوراس ، وأبو داود القبلي النفزاوي من نفزاوه جنوبي افريقية ، واسماعيل بن درار من غدامس جنوبي طرابلس وانضم اليهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان (212) . وتوجه هؤلاء الذين عرفوا « بحملة العلم » الى البصرة حيث ظلوا في صحبة أبي عبيدة مسلم خمس سنوات (213) يتلقون العلم على يديه ويعدون العدة للظهور ويتعلمون أصول الحكم وفنونه .

وجدير بالذكر ان أبا عبيدة أشار عليهم بأحد أتباعه من العرب ويدعى أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري (214) ليتولى « إمامة الظهور » اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . كما أعد اسماعيل بن درار الغدامسي لتولى القضاء ، فعلمه أصول الفقه والافتاء (215) . وأوصاهم بديمومة الاتصال به واستفتائه فيما يعين لهم من مسائل وأخباره بنشاطهم أولا بأول (216) .

وعاد « حملة العلم » الى المغرب ، وواصلوا جهودهم في تثبيت دعائم المذهب ولما اشدت مساعدتهم عقدوا العزم على اعلان امامة الظهور

(210) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ، 121 ، Blquet : Histoire de l'Afrique septentrionale. P. 41.

(211) الجربى : مؤنس الاحبة صفحة 46 .

(212) أبو زكريا : ورقة 5 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 9 ، الشماخي : السير ص 124 ،

أطفيش بعض تواريخ اهل وادي ميزاب ص 188 .

(213) نئس المصادر والصحف ، أطفيش : كتاب الامكان ص 112 ، دبور : ج 3 ص 194 . واذا ما علمنا ان البعثة عادت الى المغرب سنة 140 هـ . فيكون رحيلهم الى البصرة حدث سنة 135 هـ . انظر : Lewcki : Etudes, P. 27.

(214) قيل انه كان من تواد الجند العربي بطرابلس انظر : حسن حسنى عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية ج 1 ص 425 .

(215) أبو زكريا : ورقة 5 ، الشماخي : السير ص 124 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 10 .

(216) ابن أبي كريمة : رسالة في احكام الزكاة ورقة 114 — مخطوط .

سنة 140 هـ (757 م) .

هكذا أصبحت بلاد المغرب مقعلا لنشاط الخوارج بعد انتشار المذهب الصفري بين بربر المغرب الأقصى وبعض نواحي المغرب الأوسط ، والاباضي في المغرب الأدنى والأوسط (217) . وبدأ الخوارج حقبة

(217) من المفيد أن نعرض لنظرية شائعة في تفسير انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب ، تربط بين هذا المذهب وبين نجلة الدونانية المسيحية . وهذه النظرية منسوبة الى المؤرخ جوتييه ، ونقلها عنه سائر مؤرخي المغرب الفرنسيين وبداىء ذى بدء نقرر أن جوتييه لم يكن أول من قال بهذه الفكرة ، انما سبقه اليها أبيل ماسكراى في مقدمته لكتاب السيرة لابى زكريا الذى صدر بالجزائر سنة 1878 م . وهو القائل بأن « الخارجية كالدونانية تعد انتسابا دينيا وليست زندقة » وأن « مذهب الخوارج يشترك مع الدونانية في التعبير عن روح الاستقلال عند البربر » واليه يمزى الفضل في الربط بين مذهب الخوارج في المغرب بشقيه الاباضي المعتدل والصفري المتطرف وبين الدونانية المعتدلة والسركونسليونية المتطرفة كذلك . انظر : (Masqueray : Op. Cit. P. IxVIII, LxxII).

وعلى هذه الخطوط نسج جوتييه نظريته تلك التى ضمنها كتابه عن المغرب في العصور الوسطى الذى صدر بباريس سنة 1927 . وأهم ملامح هذه النظرية ما يلى :
1 - اشتراك الخوارج والدونانيين في عديد من الصفات كالصلابة والالتزام الصارم بأصول العقيدة والتلطف والزهد والتسليم بالقضاء والقدر والاستشهاد في سبيل المذهب .

2 - ينطلق فكر كل من المذهبين من معين واحد هو نزعة التدين الشديدة الفطرية عند البربر .

3 - أن البربر امتنعوا مذهب الخوارج - كما ذكر ابن خلدون - كصلاح يناوئون به الحكام ، وهو نفس ما حدث بالنسبة لاعتناقهم المذهب الدوناني .

4 - ومن ثم ، فالمعامل الدينى في كلتي الحركتين أمر ثانوى بالتقاس الى المفزى السياسى والاجتماعى الذى يتبل في تحقيق الديمقراطية كهدف سياسى والعدالة ك مطلب اجتماعى .

5 - وينتهى جوتييه - كما انتهى ماسكراى - الى أن مذهب الخوارج عند البربر امتداد للدونانية « بعد أن خلعت لبوسها المسيحى لتتشع بثياب اسلامية » (راجع : Gautier : Le Siecles obscurs. P. P. 626, 63, 64.

وانبرى جبهة مؤرخي المغرب الفرنسيين للدفاع عن هذه النظرية وتصدوا لدعائها . فبروننسال يركز في دعمه على توافق جوهر عقائد الخوارج والدونانيين مع طبائع البربر وصفاتهم الفطرية (انظر Histoire de l'Espagne Musulmane Vol. I. P. 42. وانظر جوجورج مارسيه يؤكد أن اعتناق البربر للمذهبين وسيلة لا غاية ، فكلاهما « اسد البربر بالحائز الخلقى لتبرير ثورتهم على الحكام ، وكما هزت الدونانية وحدة الكنيسة الافريقية ، كانت الخارجية عند البربر نوعا من الهزيمة القومية التى شكلت خطرا على مستقبل الاسلام في بلاد المغرب » .

راجع La Berberie Musulmane et l'Orient. P. 140. وفي نفس الاتجاه يمشى مارسيه فيقول « أن عبارة لا حكم الا لله لها عند الخوارج - وكذلك الدونانيين - دلالة على اعلان الحرب السياسية » .

انظر : Histoire de Constantine. P. 86 أما ياسيه فيركز على المفزى الاجتماعى للحركتين اذ انهما « ما قامتا لمجرد خلاف في الراى حول تفسير للمعقيدة ، بل لاشعال حرب اجتماعية تحت رايات دينية

(Recherches sur la religion des Berberes. P. 331.

جديدة في تاريخ البلاد حيث عمت الثورات كافة ربوعها ، وهو ما سنفصله في الباب الثانى .

== ويشاركه جوليان نفس الراى فيقول « . . وكما كانت الدوناتية وسيلة لوضع حد لانتهازية الكاثوليكس ، وتحالف الحكام الرومان مع كبار الملوك ورجال الدين ، كان مذهب الخوارج في المغرب سلاح البربر في نضال هذه القوى ومظهرا من مظاهر مقت الاجانب ، وتعبيرا عن السخط والحد على السلطة القائبة » .

Histoire de L'Afrique du Nord. P. 328.

انظر :

ومن المفيد أن نعرف في ايجاز بحركة الدوناتية في بلاد المغرب ، وتلخص في أن دونات Donat اسقف نوميديا رفض الاعتراف باختيار سيسيليان Cicillanus اسقفا لقرطاجنة سنة 311 م . وكان يبعث رفضه أن التساوسة الذين اختاروه لهذا المنصب كانوا من المشكوك في ولائهم للمعتدة بعد اقدامهم على تسليم الكتب الدينية والاواني المقدسة الى السلطة الامبراطورية على اثر اغتيال الامبراطور ديكلتيان Diocletien انظر : Gautier : Op. Cit. P. 261 . وقد آزرت الكنيسة والسلطات الرومانية سيسيليان ، بينما ناصر البربر — وخاصة الطبقات الفقيرة منهم — دونات ضد أعدائه

(Bonet : L'Islamisme et le christianisme. P. 59).

ثم حدث انشقاق داخل الحزب الدوناتي ، فظل دونات على رأس المعتدلين بينما تزعم سيركونسليون جناح المتطرفين ونحا بالحركة منحى اجتماعيا فقام بالاغاره على املاء الاقضية والاستيلاء عليها تحقيقا لمبدأ العدالة والمساواة . انظر : مبارك الميلى : تاريخ الجزائر ج 1 ص 254 ، Bonet : Op. Cit. P. 60 . وقد تعرض هؤلاء واولئك للاضطهاد الشديد طوال القرن الرابع الميلادى ، الامر الذى جعلهم يقدمون على التعاون مع الواندال لغزو افريقية وتحريرهم من الكنيسة الارثوذكسية والسلطات الرومانية (بوفيل : الممالك الاسلامية ص 77 Bonet : loc. cit.) ومع تسليمنا بوجاهة نظرية جوتييه الى حد كبير ، نعتقد أنها تنطوى على شيء من المبالغة حين يزعم صاحبها أن مذهب الخوارج امتداد للدوناتية .

وحسبنا أن البربر الذين ناصروا الدوناتية لم يمتد بهم الاجل — بداهة — للالتفات حول دماء الخوارج ، وما حدث لا يعدو أن يكون محض تشابه في ظروف بلاد المغرب السياسية والاجتماعية والدينية التي ظهرت اibatها حركتان متباعدتان لا تمت أى منهما للآخرى بصلة . فاذا كانت الدوناتية ذات طابع مغربى صرف بمعنى أنها نشأت في بلاد المغرب ، ونسجت من واقع ظروفه ، فإن مذهب الخوارج ظهر في الشرق الاسلامى ثم وفد الى بلاد المغرب كسائر المذاهب الاسلامية الاخرى الامر الذى ينفى وجود رباط مكرى مشترك كان فيه مذهب الخوارج متأثرا بمعتقدات الدوناتية . ومن ناحية أخرى ، فإن ما ساقه جوتييه من حجج وقرائن دلل بها على هذه الصلة كصفات الاقدام والزهو والصلابة . . الخ انها هى صفات مميزة للبربر عموما في كل العصور وليست حكرا على معتنقى المذهبين فحسب .

وكذلك التقابل بين جناحى المعتدلين وجناحى المتطرفين في كل من المذهبين نجد له مثيلا في سائر المذاهب الدينية والسياسية .

ومع ذلك نظل للمقارنة بين الدوناتية والشارجية في المغرب دلالتها على أن الحركات الدينية أو المذهبية ليست مجرد خلاصات عقائدية فحسب انما تنطوى على دوافع اجتماعية يلعب العامل الاقتصادي فيها دورا فعلا ومؤثرا .

الباب الثاني

تورات الخوارج في بلاد المغرب
في عصر الولاة

انتهينا الى ان مذهب الخوارج بشقيه الصفري والاباضي انتشر انتشارا واسعا في بلاد المغرب حتى صار للخوارج « عدد كثير وشوكة قوية » (1) . وقد سبق ان اوضحنا ما اوصى به رؤساء المذهب في الشرق دعائهم في الغرب « بالظهور » بعد اتمام الدعوة ان استطاعوا الى ذلك سبيلا . ومرحلة الظهور هذه تعنى « الثورة على ائمة الجور » (2) حسبما تعنيه مبادئ الخوارج وتحض عليه ، وان اعتبرت تمردا « وتطاولا » (3) في نظر الخلافة وعمالها في بلاد المغرب .

والواقع ان ظروف المغرب كانت مواتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة 121 هـ (739 م) بعد تفاقم مشاكل البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب . فعلى الرغم مما عرف به من دربة ودراية بفنون الحكم والسياسة (4) كانت سياسته في بلاد المغرب « سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة » كما ذكر ابن عذارى (5) . ففى عهده احتدت الخصومات القبلية بين القيسية واليمينية ، ولما كان قيسيا ، فقد لاقى العرب اليمينية على يديه عنقا واضطهادا شديدا (6) . وولى على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادى ، « فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والقسم ، وأراد ان يخمس البربر ، وزعم أنهم فئء المسلمين وذلك ما لم يرثكه عامل قبله » (7) كما عهد الى

-
- (1) الرقيق : ص 109 ،
Provencal : Op. Cit. P. 41
(2) البغدادي : ص 273 ،
Provencal : Loc. Cit.
(3) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 111 ،
Julien : Op. Cit. P. 329.
(4) ذكر الرقيق عن عبد الله بن ابي حسان اليحصبي عن ابيه قال « رايت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر في دفتر العطاء ، ويملى رسالة ، ويامر بإحاجات في ناحية أخرى ، ويأمر في خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين » .
انظر : تاريخ إفريقية والمغرب ص 107 .
(5) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .
(6) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
(7) الرقيق : صفحة 109 .

ابنه اسماعيل بولاية السوس الاقصى ، فاستبد بالبربر هناك ، وكثر عبثه بنسائهم ، وجوره على اموالهم (8) . ولا شك أن ابن الحبحاب كان راضيا عن سيرة عماله ، فقد كان عليه أن يفى بوعوده للخليفة هشام بن عبد الملك بارسال المزيد من الاموال والسبايا (9) مما يجلبه هؤلاء العمال . ولعل حرصه على ذلك يفسر عهده الى حبيب بن ابي عبيدة بقيادة حملة ضخمة جابت بلاد المغرب حتى اقصاها . واصابت من السبي والذهب امرا عظيما ، وبثت الرعب والفزع في تلك الانحاء (10) .

وقد اتخذ ابن الحبحاب من البربر أداة لخدمة اطماعه خارج بلاد المغرب فرمى بهم في الحملات التي انفذها الى سردينية وصقلية (11) ، الامر الذي زاد في كراهيتهم للحكم العربى وتصميمهم على الثورة . وقد ساعد على ذلك غياب معظم الجيش العربى الافريقى خارج البلاد ففى الحملة التى قادها حبيب بن ابي عبيدة على صقلية سنة 121 هـ (739 م) (12) ، وانشغال الخلافة الاموية اذ ذاك بمشاكل الحكم (13) ، وبعد بلاد المغرب الاقصى عن مقر الولاية بالقىروان . لذلك كانت الظروف مواتية تماما لبربر المغرب الاقصى الذين اعتنقوا المذهب الصفرى لاعلان الثورة « والظهور » وهو ما عبر عنه ابن خلدون (14) بقوله « .. ان الخارجية حين رسخت في البربر عروق من غرائسها تطاول البربر الى الفتك بأمر العرب » .

(8) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 240 .

(9) ابن عذارى : ج 1 ص 53 .

(10) الرتيق : صفحة 108 .

(11) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(12) الرتيق : صفحة 109 .

(13) الحبيدى : جذوة المقتبس صفحة 8 .

(14) العبر : ج 6 صفحة 111 .

أولاً :

تورات الخوارج الصفرية

انتهينا الى أن المذهب الصفري انتشر بين قبائل المغرب الأقصى كمطغرة ومكناسة وزناتة وبرغواطة وعنصرى الامارقة والسودان . كما امتد نفوذه الى بعض جهات المغربيين الأدنى والوسط — وان كانت السيادة فيها للمذهب الإباضى عن طريق القبائل البدوية دائمة الترحال مثل هواره وزناتة . ونظرا لمواتاة ظروف الخوارج في المغرب الأقصى لقيام الثورة ، ولغلبة المذهب الصفري وسيادته بين قبائله ، كان الخوارج الصفرية سابقين الى تخطى مرحلة الدعوة الى « مرحلة الظهور » وعلان الثورة (15) بينما شغل الإباضية اذ ذاك باتهام نشر المذهب وتفقيسه معتنقيه وارسال بعوثهم الى البصرة للاعداد لمرحلة الثورة . وعلى ذلك فلا محل لتصديق الرواية المتواترة (16) القائلة بانضواء خوارج المغرب اباضية وصفرية تحت لواء ميسرة المطغرى في ثورة عام 121 هـ ، فتلك بلا شك كانت ثورة صفرية خالصة .

والروايات تختلف حول اصل ميسرة قائد الثورة ، فتذهب

(15) ينرد ابن خلدون برواية تنص على اغتيال الخوارج ليزيد بن ابي مسلم سنة 103 هـ والواقع انه قتل نتيجة للخصومات بين القيسية واليمينية وليس على يد الخوارج . فلم يكونوا قد قاموا بعد بثوراتهم على ولاية القيروان .
انظر : العبر ج 6 صفحة 108 .

(16) انظر : اخبار مجموعة صفحة 28 .

بعضها (17) الى انه من أصل عربي وتنسبه الى قبيلة الازد ، بينما تؤكد الأخرى (18) — وهى الأرجح — انتماءه الى قبيلة مطغرة من البربر . كما اختلفت أيضا حول كنيته ، فتيل ميسرة الحقير (19) أو الخفير (20) وقيل الفقير (21) ، ويخيل إلينا أن ذلك من نسج خصومه تحقيرا لشأنه ، أو لما عرف عن اشتغاله بالسقاية فى سوق القيروان (22) . والذي لا شك فيه أن ميسرة كان سيد قومه وشيخ قبيلته ، فابن خلدون (23) — العالم بأنساب البربر — يدعو « رئيس مطغرة » والسلوى (24) يصفه بأنه « مقدم الصفرية » . وما اشتغاله بالسقاية إلا بقصد التستر والتمويه على الخصوم حينما كان يتلقى أصول المذهب الصفري على عركة مولى ابن عباس فى القيروان ، ولما تتيحه مهنة السقاية من سهولة الاتصال بالاتباع والانتصار دون إثارة لشكوك الخصوم .

وقد سبق التعريف بدور ميسرة فى نشر المذهب الصفري بين قبيلته مطغرة ، ويبدو أن دعاة المذهب فى المغرب أجمعوا على زعامته بعد موت عكرمة مولى ابن عباس ، فتخبرنا المراجع أن مكناسة آزرتة واشتركت فى ثورته (25) ، كما انضوى الانفارقة بزعامه عبد الأعلى بن جريح تحت لوائه (26) ، وكذلك فعلت برغواطية وزعيمها طريف (27) ، وقد اتخذ ميسرة من ابنه صالح ناصحا ومشيرا (28) . وهكذا تسنى له توحيد القبائل الصفرية فى كافة ربوع المغرب الأقصى تحت زعامته (29) .

ويخبرنا الطبرى (30) أن ميسرة تزعم وفدا من البربر رحل به الى الشام ليشكو للخليفة هشام بن عبد الملك جور عماله ، وأن جوهر

-
- (17) ابن تمزى بردى : ج 1 ص 289 ، الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا صفحة 125 .
- (18) ابن عبد الحكم : ص 293 ، الرقيق : ص 109 .
- (19) ابن عذارى : ج 1 صفحة 52 .
- (20) دبور : المغرب الكبير .
- (21) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
- (22) ابن افوطية : صفحة 40 .
- (23) المعبر ج 6 صفحة 150 .
- (24) الاستقصا ج 1 صفحة 97 .
- (25) ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292 .
- (26) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى ج 1 ص 52 .
- (27) ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 207 ، Bel : Op. Cit. P. 175 .
- (28) ابن الخطيب اعمال الإعلام ج 3 ص 181 .
- (29) ابن الاثير : ج 5 ص 70 ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص 14 .
- (30) تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 224 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 331 .

الشكوى يكمن في حرمانهم من غنائم الحروب التي خاضوها في حملات ابن الحبحاب رغم حسن بلائهم ، وحيف عماله بهم بنهب أموالهم وسبى بناتهم . ونعتقد أن الهدف الحقيقي هو الوقوف على مسؤولية الخلافة عن سياسة عمالها في المغرب واخذ الحجة عليها تبريرا لقيامهم بالثورة حسبها ينص عليه مبدأ الخوارج في « الثورة على أئمة الجور » (31) وهو ما ذكره الطبري بأن الجماعة أرادت أن تعرف « أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا . » على كل حال ، حيل بين الوعد وبين لقاء الخليفة ، وأدرك ميسرة وجماعته أن الخلافة متواطئة مع عمالها فيما يحدث بالمغرب من ظلم وجور ، وعقدوا العزم على الثورة .

بويغ ميسرة بالامامة على اثر عودته (32) وزحف بجموع الصفرية الى طنجة ففتحها وقتل عاملها عمر بن عبید الله المرادی (33) ، وعين عبد الأعلى بن جريج الأفريقي واليا عليها (34) . واتجه بعد ذلك الى السوس فدانث له بعد أن قتل اسماعيل بن عبید الله بن الحبحاب (35) . وتمت له السيطرة على المغرب الأقصى واقتطاعه عن نفوذ القيروان بعد وقائع صغيرة بلغت من الكثرة ما جعل المؤرخون يعزّمون عن سردها . وقد وصفها ابن عذارى (36) بأنها « وقائع يطول ذكرها » . ومما سهل من مهمته أن القبائل الموالية له كفته مئونة امتتاح سائر أجزاء البلاد « فهب كل قوم من البربر على من يليهم ، فقتلوا وطرّدوا » (37) ، بينما اتجه بنفسه الى مكر الولاية في افريقية (38) .

وقد بادر ابن الحبحاب بمواجهة خطر الصفرية ، فبعث بها لديه من

« (31) البغدادي : صفحة 273 .

(32) ابن عبد الحكم : ص 293 ، أخبار مجموعة ص 28 .
ورد عند بعض المؤرخين أن البيعة تمت بعد قيام الثورة ، فابن الاثير ذكر أن ميسرة بويغ بالامامة بعد الاستيلاء على طنجة وقد اخذ عنه الانصاري روايته ، أما الدكتور مؤنس فذكر أنه بويغ بعد انتصاره على جيش خالد النهري . انظر : الكامل ج 5 ص 70 ، المنهل العذب ص 59 ، ثورات البربر في افريقية والاندلس ص 169 .

(33) الرقيق صفحة 109 .

(34) ابن عذارى : ج 2 صفحة 52 .

(35) نفس المصدر والمصحفة .

(36) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .

(37) أخبار مجموعة صفحة 29 .

(38) نفس المصدر والمصحفة .

جند بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهرى (39) ليحول دون وصول ميسرة الى القيروان . كما أسرع في استدعاء حبيب بن أبي عبيدة وجيشه الذى كان قد انفضه الى صقلية (40) وأمره بالتوجه في اثر خالد بن أبي حبيب . وعبر خالد بجيشه وادى شلف — وهو نهر بمقربة تاهرت — والتقى بميسرة على مقربة من طنجة . أما جيش صقلية الذى وصل على الاثر فقد رابط عند مجاز النهر (41) .

واقفل خالد وميسرة قتالا شديدا ، انصرف بعده ميسرة الى طنجة (42) ، والراجح انه هزم في تلك المعركة ، والا فما الداعى لانسحابه ولجؤه الى الدفاع بعد الهجوم (43) ؟ لعل ذلك كان سببا في تنحيته عن القيادة واختيار الصقرية خالد بن حميد الزناتى ليحل محله (44) .

على كل حال — لجأ خالد الزناتى الى الحيلة ، فقسم جيشه قسمين واجه أحدهما جيش خالد الفهرى بينما قام الآخر بحركة التفاف من خلفه ليعوق اتصاله بجيش حبيب بن أبي عبيدة الم رابط عند مجاز وادى شلف (45) ، وليحول بين جيش خالد الفهرى وبين الهرب . وبذلك وقع جيش الفهرى في « كمين البربر » كما ذكر ابن الاثير (46) وكانت النتيجة أن قضى عليه برمته قضاء مبرما (47) . وقتل في المعركة « حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها » فسميت من ثم « معركة الاشراف » (48) .

(39) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 . أما ابن الاثير فيسميه خالد ابن حبيب الفهرى . انظر : الكامل ج 5 ص 69 . وعند السلاوى خالد بن حميد الفهرى انظر : الاستقصا ج 1 ص 97 .

(40) الرقيق : صفحة 109 .

(41) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(42) نفس المصدرين والملحقين .

(43) تخالف بذلك ابن عبد الحكم الذى ذكر أن ميسرة انتصر في هذه المعركة ثم ائتمى من القيادة التى تولاهها عبد الملك بن قطن المحاربى . وبما ينهض على خطأ تلك الرواية من أساسها أن عبد الملك بن قطن كان من ولاية الاندلس وليس من ثوار الخوارج انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 55 .

(44) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير ج 5 ص 69 .

(45) الرقيق : ص 110 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 .

(46) الكامل ج 5 صفحة 69 .

(47) الرقيق ص 111 ، ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(48) نفس المصادر والصفحات ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

أما حبيب بن أبي عبيدة فقد لاذ بتلمسان حيث علم بتواطؤ واليهما موسى بن أبي خالد مع الصفرية ، فعاقبه بقطع أطرافه (49) .

وأُسفرت هزيمة الأشراف عن تمرد العرب بالقيروان على واليها عبيد الله بن الحبحاب وتنحيته عن الولاية (50) . وصادف ذلك هوى في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث في استدعائه ، فقبل اليه في جمادى الأولى من عام 123 هـ (741 م) (51) .

وقد غضب الخليفة (52) لما حل بالعرب في موقعة الأشراف ، فبعث جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري (53) الى المغرب وجعله على ولاية إفريقية (54) . كما عهد الى بلج بن بشر بالأمر من بعده ، فان قتل تولاه ثعلبة بن سلامة العاملي (55) . وبلغ جيش كلثوم ثلاثين ألفا من أهل الشام ومصر — عشرة آلاف من بنى أمية وعشرون ألفا من بيوتات (56) العرب — فضلا عن انضم اليه من المتطوعة وجند إفريقية وعدتهم أربعين ألفا (57) . وأمدّه بالأدلاء والمرشدين من أمثال مغيث مولى الوليد بن عبد الملك وهرون القرني لخبرتهما بمسالك المغرب وطبائع البربر (58) . كما أتاح له سلطات واسعة وحرية في العمل بما يتناسب وجسمامة ما عهد اليه من مهمة استرداد نفوذ الخلافة « فأباح له الإباحات ووضع له الأطوياء » (59) .

(49) ابن عبد الحكم : صفحة 294 .

(50) ابن عذاري : ج 1 صفحة 55 .

(51) الرقيق : ص 11 ، ابن عبد الحكم : ص 294 .

(52) عبر الخليفة من غضبه بقوله : « .. والله لاغضبني لهم غضبة عربية ، ولا يمتن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي . ثم لا تركت حصن بربري الا جعلت الى جانبه خيبة قيسى أو يميني » انظر : الرقيق : ص 111 .

(53) أخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية : ص 41 ، ويسميه ابن عبد الحكم كلثوم بن عياض القيسى ، وكذلك ابن القوطية . أما فلهوزن فيرى أنه كلثوم بن عياض القسري انظر : فتوح مصر والمغرب ص 294 ، تاريخ افتتاح الاندلس ص 40 ، تاريخ الدولة العربية صفحة 332 .

(54) يخطئ سكوت حين يذكر أن بلج بن بشر هو الذي عهد اليه بالولاية :
History : of the Moorish Empire in Europe. Vol. I. P. 313. انظر :

(55) أخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية ص 41 .

(56) ابن القوطية : صفحة 41 .

(57) أخبار مجموعة ص 31 ، السلاوي : ج 1 ص 98 ، القسري : ج 4 ص 19 ،
Scott : Op. Cit. P. 313.

(58) أخبار مجموعة صفحة 31 .

(59) نفس المصدر والصحيحة .

وبالرغم من ذلك كله ، كانت عوامل الضعف في جيش كلثوم تنذر بالفشل والهزيمة ، فقد افترق الى النظام والالفة بين عناصره من قيسية ويمينية ومتطوعة وأموية (60) . وكانت قيادته للقيسية (61) ، كما كان قائده طاعنا في السن قليل الهيبة ، في حين كان بلج بن بشر مقدم الخيل صلفا (62) ، فثارت الخصومات القبلية وتصدع الجيش العربى قبل التقائه بالثوار من البربر الصفرية . واحتدم الصراع بين كلثوم وحبيب ابن أبى عبيدة شيخ اليمينية بالمغرب ، ولم يتصالحا الا على مفض حين توجهوا لقتال الصفرية (63) بقيادة خالد بن حميد الزناتى (64) عند وادى نهر سبو (65) في موضع يقال له بقدورة (66) .

فلم يلبث الخلاف ان دب بينهما حول أسلوب القتال ، اذ أعرض كلثوم عن مشورة حبيب بن أبى عبيدة بمقاتلة الصفرية « الرجال بالرجالة والخيل بالخيال » (67) . كما أهمل بلج بن بشر نصيحة هرون القرنى ومغيث باحتماء الرجالة وراء الخنادق والكراديس في الوقت الذى يلتف فيه الخيالة خلف صفوف الصفرية لمهاجمة قراهم وذرايعهم ، وأصر على النزال وجها لوجه استهانة بهم لقلة ما لديهم من

(60) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 14 .

(61) أخبار مجموعة صفحة 36 .

(62) الرقيق ص 112 ، ابن عذارى : ج 1 ص 56 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .

(63) اشتط كلثوم وبلج — وهما من القيسية — في معاملة عرب المغرب من اليمينية وزعيمهم اذ ذاك حبيب بن أبى عبيدة . فقد انف كلثوم النزول بالقيروان ونزل في بلدة سببية على مقربة منها . وأمر أهل القيروان باخلاء منازلهم لجنده . فاستجاروا بحبيب بن أبى عبيدة وكان يتلمسان . فبعث الى كلثوم يأمره بالرحيل عن البلاد . فاعتذر له كلثوم عن مسلكه وتوجه اليه يتلمسان ليشتركوا جميعا في قتال الصفرية . وهناك ثارت الخلافات من جديد لصلف بلج واستعلائه في معاملة حبيب . وكادت الحرب ان تنشب بين الطرفين . وقد ذكر ابن خلدون انها اقتتلا بالفعل ثم اصطالحا على مفض .

انظر : الرقيق : ص 112 ، ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن خلدون ج 4 ص 189 . (64) اختلفت الروايات حول قائد الصفرية آنذاك فابن القوطية ذكر أن القيادة كانت لميسرة وخالد بن حميد معا ، وصاحب أخبار مجموعة ذهب الى أنها كانت لميسرة وحده ، وكذلك ابن عبد الحكم . لكننا نرجح رواية الرقيق لان ميسرة كان قد نحى من الزعامة كما سبق أن اشرنا .

انظر : ابن القوطية : ص 41 ، أخبار مجموعة ص 32 ، ابن عبد الحكم : ص 296 الرقيق : ص 114 ، ابن عذارى : ج 1 ص 57 .

(65) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .

(66) أخبار مجموعة ص 32 . وقد وردت عن ابن القوطية « نقدره » . انظر : تاريخ افتتاح الاندلس صفحة 41 .

(67) ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .

سلاح (68) هذا في الوقت الذي بلغ فيه حماس الصفرية ذروته ، فبرزوا ، عراة متجردين ليس عليهم الا السراويلات (69) واقتدوا بخوارج المشرق فحلقوا رؤوسهم وتعالّت أصواتهم بالتحكيم اذكاء للحماس (70) .

وامر كلثوم بلجا باقتحام صفوف الصفرية بخيله ايمانا بقدرتها على احراز النصر . لكن خاب ظنه حين رماها الصفرية « بالاوضاف » (71) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة (72) . كذلك عمد الصفرية الى « الرمك الصعبة فعلقوا في اذنانها القرب والانتطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم » ، فكانت خيله تنفر وتلوذ بالفرار (73) وهكذا ثل الصفرية تفوق العرب بما لديهم من خيل وأحبطوا آمالهم في احراز النصر (74) . وعبنا حاول كلثوم اقناع حبيب بن ابي عبيدة بتولى القيادة استنقاذا للموقف ، فقد ابي حبيب لتيقنه من حلول الهزيمة بالعرب (75) . وحاول بلج بن بشر ان يكسر صفوف البربر بخيله مرة أخرى ، ونجح بالفعل ، لكن الصفرية تمكنوا من الالتفات حوله وعزله عن الجيش العربى ثم فتكسوا بغالب خيله وفرسانه (76) . واختلط الجيشان في معركة رجالة (77) كان الصفرية فيها اكثر عددا (78) واشد مراسا واستبسالا وحلت الهزيمة بالجيش العربى بعد قتل كلثوم وحبيب بن ابي عبيدة (79) . اما بلج فقد تمكن من الفرار

(68) اخبار مجموعة صفحة 32 .

(69) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .

(70) اخبار مجموعة : صفحة 32 .

(71) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .

(72) اخبار مجموعة صفحة 33 .

(73) نفس المصدر والمصحفة . وقد ذكر كوندية أن الخيول العربية لم تستطع الصمود لحرارة الشمس .

انظر : History of the dominion of the Arabs in Spain. Vol. I. P. 120.

(74) ابن عذارى : ج 1 ص 57

(75) ابن عبد الحكم : ص 296 .

(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .

(77) نفس المصدر والمصحفة .

(78) اخبار مجموعة صفحة 32 .

(79) الحميدى : جذوة المقتبس ص 199 .

وقد أخطأ المقرئ حين زعم أن كلثوما لم يقتل في المعركة انما أصيب بجراح ولاذ بالهرب الى بلدة سببية قرب القيروان . انظر : نفع الطيب ج 4 ص 19 .

Scott : Op. Cit. P. 313.

نحو طنجة على رأس عشرة آلاف من جنده (80) . وعادت فلول الجيش المهزوم الى افريقية في نحو عشرة آلاف كذلك . وهكذا أسفرت معركة بقدورة سنة 123 هـ (81) (741 م) عن انتصار الصفرية (82) على جيش كلثوم الذى آل مصيره الى « ثلث مقتول وثلث منهزم وثلث مأسور » على حد قول صاحب الاخبار المجموعة (83) .

تهمت للصفرية بعد بقدورة السيطرة على بلاد المغرب الاقصى . وكان من الطبيعي ان يمتد نشاطهم الى المغربين الاوسط والادنى . ولما كان هدفهم الاستيلاء على القيروان مقر الولاية ، غدت بلاد افريقية واقليم الزاب بوجه خاص ميدانا لنشاطهم .

وتزعم هذه المرحلة عكاشة بن أيوب النفزاوى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى (84) . وهذا يعنى ان قبيلتي نفزة وهوارة بالمغربين الادنى والاوسط لعبتا دورا أساسيا في هذا الصدد مستعينتان بزنانة . لقد تخلت زنانة — التى كانت قد انتزعت زعامة الثورة من مطهرة — عن صدارتها لنشاط الصفرية في المغرب الاوسط ، ولم تسهم بطونها الضاربة بالمغرب الاقصى برئاسة خالد بن حميد في الثورة بافريقية بعد ان تمت له السيطرة على المغرب الاقصى . انما لعبت قبائلها بالمغرب الاوسط دورا قليل الاهمية في هذا الصدد الى جانب قبيلتي نفزة وهوارة ذات النفوذ والغلبة في افريقية . ومهما كان الامر فقد تولى قيادة ثورات الخوارج الصفرية ابتداء بميسرة شخصيات من البربر بترا وبرانسا ، فهوارة من بطون البرانس (85) .

(80) هيل بين بلج وبين دخول طنجة فاعتصم بسبته وتحصن بها . ومثلت جيوش الصفرية في الظفر به ، فشدوا عليه الحصار واحرقوا الزروع حول المدينة ليئوت وجيشه جوما . فكتب بلج الى والى الاندلس لانذا به ، فقبل بعد ان اشترط عليه تقديم الرهائن ، ومغادرة الاندلس بعد انقضاء عام يتاقل خلاله الى جانبه في تمع ثورات البربر بالاندلس .

انظر : اخبار مجموعة ص 35 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ، الحيدى : ص 180 ابن مغازى : ج 1 ص 58 ، المقرئ : فتح الطيب ج 4 ص 19 ،

Scott : Op. Cit. P. 313.

(81) اخطأ الطبرى حين ذكر ان المعركة وقعت سنة 121 هـ . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 7 صفحة 191 .

(82) ابن القوطية ص 41 ، ابن الاثير : ج 5 ص 71 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

(83) مجهول : اخبار مجموعة ص 34 .

(84) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 . وقد شذ ابن خلدون عن جمهور المؤرخين حين اعتبر عبد الواحد الهوارى اباضيا . انظر : المعبر ج 6 ص 124 .

(85) ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 139 ، السلاوى : ج 1 ص 101 .

بينما تنتمي زناتة الى البتر (86) وفي تعاونهما معا رغم ما كان بين البتر والبرانس من عدااء وصراع ما يدل على تغلب العامل المذهبي على النعرات العصبية والخلافات القبلية التقليدية ، وما يدل أيضا على التعاون والترابط بين حركات الصفرية في بلاد المغرب .

ففى الوقت الذى زحف فيه كلثوم بجيوشه لمواجهة صفرية المغرب الاقصى . قام عكاشة وعبد الواحد بالاستيلاء على قابس بعد ضربها بالمجانيق (87) . كما استمد عكاشة العون من صفرية زناتة بالمغرب الاوسط ، ونجح بفضلهم فى حصار سوق سبرت واقصاء عامل كلثوم عنها (88) . وكان من المتوقع أن يلتقى صفرية هواره بقيادة عكاشة وصفرية زناتة تحت زعامة اخيه لمحاصرة القيروان ، لكن المحاولة أبطت حين تمكن صفوان بن مالك عامل طرابلس من تبديد الجيش الزناتى والحيلولة دون انضمامه الى صفرية هواره (89) . وشجع ذلك مسلمة بن سودة الذى اسند اليه كلثوم بن عياض قيادة جيش القيروان على الخروج لقتال عكاشة، لكنه هزم وعاد من حيث أتى (90) . فثار عليه جنده وعقدوا اللواء لسعيد بن بجرة الغساني الذى آثر الاعتصام بالقيروان (91) ولم يغادروها الا لمهاجمة قابس بالاتفاق مع عامل طرابلس . وفوت عكاشة الفرصة عليهما ، فترك قابس ويهم وجهه شطر القيروان بعد خروج سعيد بن بجرة منها ، لكنه منى بالهزيمة على يد أمير صلاتها عبد الرحمن بن عقبة الغفارى (92)، وقتل كثيرون من رجاله وتفرق من بقى منهم (93)، فهرب بنفسه لانذا بالصحرَاء سنة 124 هـ (94) (742 م) .

وفى الوقت الذى حاول فيه عكاشة وعبد الواحد تنظيم الصفرية فى اقليم الزاب والاستعانة بصفرية زناتة بزعامة أبى قرّة (95) ، وصل حنظلة

-
- (86) ابن عبد الحكم : ص 294 .
(87) نفس المصدر : ص 294 .
(88) نفس المصدر والمحيطة .
(89) نفس المصدر والمحيطة .
(90) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(91) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(92) نفس المصدر : صفحة 298 .
(93) الرقيق : ص 114 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .
(94) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(95) الرقيق : ص 115 ، ابن عبد الحكم ص 298 . وقد آلت اليه زعامة صفرية المغرب الاوسط والاممى بعد خالد الزناتى .
انظر : ابن خلدون ج 7 صفحة 12 .

ابن صفوان الى القيروان على رأس ثلاثين ألف مقاتل من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك (96) سنة 124 هـ (742 م) وجدير بالذكر أن هشاما أبدى اهتماما فائقا بهذه الحملة لاهتمامه بتخرج مركز الخلافة في المغرب وخشيته من اقتطاع الصفرية افريقية بعد نجاحهم في سلخ المغرب الاقصى عن نفوذها ، فأشرف بنفسه على تدبير الخطط ، ولم يتوان عن ارسال الامداد (97) .

حاول حنظلة افساد جهود عكاشة وعبد الواحد في لم شمل الصفرية ، فبعث برسالة الى صفرية المغرب الاقصى والايوسط يحضهم على التزام الطاعة وينتفى عزمهم عن مؤازرة عكاشة وعبد الواحد (98) . كما باغت عكاشة في اقليم الزاب ، وتمكن قائد عبد الرحمن بن عقبة من هزيمته . وحاول عبد الرحمن معاودة الكرة ، لكن عكاشة ظفر به وقتله في نفس العام (99) . وكذلك كان مصير عامله على طرابلس معاوية بن صفوان الذي بعث اليه يحرضه على البطش بصفرية نفزة (100) ، فتمكنوا من اسره وقتله .

ثم توجه عكاشة الى القيروان عن طريق مجانة ، واستقر على بعد ستة أميال منها في مكان يعرف بالقرن (101) . كما نجح عبد الواحد الهواري في تعبئة صفرية تلمسان بقيادة ابي قره ، وانضم اليه كذلك بعض قبائل الصفرية في المغرب الاقصى (102) ، وزحف بجيشه البالغ ثلاثمائة ألف مقاتل الى القيروان وعسكر في مكان يقال له الاصنام (103) ، بعد انتصاره على جيش أنفذه حنظلة ليحول دون وصوله اليها (104) . وهكذا فشلت جهود حنظلة في تفتيت قوى الصفرية (105) ، واضحت القيروان

(96) من مظاهر الاهتمام نصيحته لحنظلة بأن يشرع في ضبط أمور افريقية قبل محاولة استرداد بلاد المغرب الاقصى التي اقتطعها الصفرية .
انظر : أخبار مجموعة صلحة 36 .

(97) أخبار مجموعة ص 36 .

(98) انظر ملحق رقم 2 .

(99) ابن عبد الحكم : ص 291 ، ابن عذاري : ج 1 ص 62 .

(100) ابن عبد الحكم : ص 300 .

(101) أخبار مجموعة ص 36 .

(102) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذاري : ج 1 ص 62 .

(103) الرقيق : ص 118 . وتقع على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .

(104) الرقيق : صفحة 118 .

(105) يذكر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن انشعابا وقع بين القائد الصفرين عكاشة وعبد الواحد بسبب الخلاف حول الرئاسة ، لكننا نرجح أن يكون ما حدث من قبيل احكام الخطط للاطباق على القيروان بحاصرتها من جهتين في وقت واحد . انظر : تاريخ المغرب العربي ص 273 ، ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 .

في متناول أيديهم .

ولجأ حنظلة بعد ذلك الى حفر خندق حول القيروان ، عساه ان يحول دون سقوطها ، كما عمل على تثبيط همة عكاشة ، فكتب اليه « يرغبه ويمنيه » دون (106) جدوى فلم ينتظر حتى يستشير الخليفة في الامر (107)، انما عول على مواجهة الخطر الصفرى توا ، فبذل الاموال والعطايا (108)، وعبا جيشه واحسن تنظيمه (109) ، ونجح في استمالة اهل القيروان على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم (110) . وتمكن من هزيمة عكاشة (111) . ويذكر ابن الاثير (112) انه كان نصرا خاطفا احرزه حنظلة قبل ان ينهض عبد الواحد لدخول القيروان . لكن الرقيق (113) يؤكد ان القتال ظل سجالا حتى حلت الهزيمة بالصفرية « وقتل منهم خلق كثير » واسر عكاشة وقتل سنة 125 هـ (114) (743 م) .

ثم بادر حنظلة بلقاء عبد الواحد ، وانتصر الصفرية في البداية ، لكنهم هزموا بعد ذلك ، وقتل عبد الواحد وكنل بجيشه ، وفرت فلوله الى جلولاء (115) . وابتهج حنظلة بانتصاره في معركة القرن والاصنام ، وطير خبره الى الخليفة مزهوا (116) . والحق ان هاتين المعركتين كانتا نصرا عظيما للخلافة الاموية (117) ، وردا لاعتبارها بعد هزيمتى الاشراف وبقدورة . وحال هذا النصر بين افريقية وبين السقوط في يد الصفرية ،

-
- (106) ابن عبد الحكم : صفحة 299 .
(107) الرقيق : ص 116 ، ابن عذارى : ج 1 ص 73 .
(108) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .
(109) ذكر الرقيق انه مبا خبسة آلاف دارع وخبسة آلاف نابل ، وجعل على الطلائع شعيب ابن عثمان ، وعلى الساقة عمرو بن حاتم ، وعلى الميمنة عبد الرحمن بن مالك الشيباني . انظر : تاريخ افريقية والمغرب ص 119 .
(110) استمال حنظلة بقهاء المالكية الذين قاموا بدور التهيئة الروحية والمعنوية للجيش الى جانب اشتراكهم في القتال . انظر : الرقيق : ص 120 ، المالكي : ج 1 ص 13 و 144 . كما قام نساء القيروان بدور كبير في حرض الرجال على الاستبسال فضلا عن اشتراك بعضهن في القتال كذلك . انظر : الرقيق : ص 120 ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .
(111) الرقيق : صفحة 117 .
(112) الكاهل ج 5 ص 71 ، Biquet : Op. Cit. P. 36 .
(113) تاريخ افريقية والمغرب ص 117 .
(114) نفس المصدر ص 122 ، ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 63 .
(115) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 63 .
(116) اخبار مجبومة ص 36 ، الباجي المسعودي : ص 15 .
(117) يتضح ذلك من قول الليث بن سعد « ما من غزوة كتبت احب ان اشهدها بعد غزوة بدر احب الى من غزوتى القرن والاصنام » . انظر : الرقيق : ص 122 ، ابن الاثير : ج 5 صفحة 71 .

وأكد نفوذ الخلافة في المغرب الأوسط .

لكن النفوذ الأموي في بلاد المغرب ما لبث أن تداعى بضعف الخلافة الأموية على أثر وفاة هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (743 م) . ولعل من أبرز الأحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب تغلب عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة (118) على إفريقية سنة 127 هـ (745 م) ، وأرغامه حنظلة بن صفوان على مغادرتها ، وتسليم الخليفة مروان ابن محمد مضطرا بشرعية ولايته (119) .

والحق أن عبد الرحمن بن حبيب استطاع عن طريق الحيلة (120) والعنف معا قمع حركات الصفرية التي قامت في عهده ، فمضى على ثورة عروة بن الوليد الصدي بتونس (121) ، كما بدد الائتلاف الصفرى الذى قام بين عبد الله بن سكرديد وثابت بن وريدون الصنهاجى فى باجة (122) . لكن أمر الصفرية لم ينقطع من المغرب كما ذهب ابن خلدون (123) ومن أخذ عنه (124) ، بل ازدادت ثورتهم شدة بعد موت عبد الرحمن بن حبيب . ووجدوا فى اشتغال الخلافة العباسية بمشاكلها (125) ، وفى الصراع حول الإمارة بين آل بيت عبد الرحمن بن حبيب فرصة مواتية لاستئناف حركاتهم .

ومرة أخرى تزعمت نفزاوة هذه الحركات ، فقد استطاع عاصم بن جميل زعيم ورجومة (126) — وهى من بطون نفزاوة — (127) أن يوحد سائر بطون القبيلة ، فانضم اليه رؤساء البطون وأيدوه ، ومنهم عبد الملك

(118) اشترك عبد الرحمن بن حبيب مع والده فى موقعة بقدورة ، ونزح الى الاندلس ، مع بلج بن بشر . وهناك وقع فى صراع مع بلج وشعبة بن سلامة ، فلم يطلب له المقام خصوصا فى وجود أبى الخطار الحسام بن ضرار عامل حنظلة على الاندلس فغادرها الى تونس ، ودعى لنفسه مالتفت حوله البيئية . ثم دخل القيروان بعد انسحاب حنظلة منها سنة 127 هـ . وظل على ولائه الاسمى لبنى أمية حتى قامت الدولة العباسية سنة 132 هـ ، فاعلن تبعية له للنصور . ثم خلع طاعته واستقل بالامر وظل يمارس نفوذا فعليا فى إفريقية بمنزل من الخلافة حتى اغتيل سنة 137 هـ على يد أخيه الياس .

(119) ابن خلدون : ج 4 ص 190 .

(120) ابن مغازى : ج 1 ص 65 .

(121) ابن خلدون : المرجع السابق ص 190 .

(122) الرقيق : ص 126 ، ابن خلدون ج 6 ص 111 .

(123) العبر : ج 4 صفحة 190 .

(124) انظر : السلاوى : ج 1 ص 105 .

(125) ابن وردان : تاريخ الافالية ورقة 2 — مخطوط .

(126) ابن خلدون : ج 6 ص 115 . تزعم المصادر السنية أنه كان كاهنا مدعيا للنبوّة .

انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(127) الرقيق : ص 140 ، ابن مغازى : ج 1 ص 80 .

ابن أبى الجعد ويزيد بن سكوم (128) .

وبلغت نفزاوة الصفرية درجة من القوة جعلت عبد الوارث بن حبيب يلجأ إليها لمناصرته ضد ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن (129) . ووجد عاصم ابن جميل في ذلك الفرصة المواتية ، فرحب به ووقف معه في وجه خصومه ، ولم يعبا بتهديدات حبيب عند ما طلب اليه تسليم عمه والتخلي عن مناصرته . والحق به الهزيمة عند ما عمد الى محاربته (130) .

ويبدو أن عبد الوارث بن حبيب في صراعه مع ابن أخيه أظهر الولاء لابى جعفر المنصور (131) . ولصلته بعاصم بن جميل ، اعتقد أهل القيروان أن عاصمًا أيضًا من أنصار الخلافة العباسية .

وليس بعيد أن يكون عاصم بدوره قد أظهر الولاء لبني العباس ليكسب أهل القيروان ، والا لما أقدم أهل القيروان على استدعائه بعد أن أخذوا عليه العهد والمواثيق والدعاء للمنصور « (132) . وبذلك جذب أعدادا غفيرة منهم ، فأنضموا الى جيشه (133) .

أما حبيب بن عبد الرحمن فقد توجه للامانة الصفرية بعد أن استخلف على القيروان قاضيها (134) ، لكن عاصمًا تمكن هزيمته ففر الى قابس ، واتخذ عاصم طريقته نحو القيروان . وخرجت جماعة القيروانيين بزعامه القاضي أبى كريب للحيلولة دون دخوله المدينة ، لكن زملاءهم في جيشه أثنواهم عن عزيمتهم ودعواهم الى طاعته (135) ، فاستجابوا لهم وتركوا قاضيهم في جماعة قليلة من الفقهاء أجهز عليهم الصفرية (136) بظاهر القيروان سنة 139 هـ (137) (756 م) ودخل الصفرية المدينة واستولوا

(128) ذهب ابن خلدون والسيلاوى الى انها كانا من زعماء الإباضية ، لكن كتب الإباضية خلو من أى إشارة تؤكد ذلك ، بل تصورها على انها من أعداء أبى الخطاب عبد الاملى بن السمع الإباضى . انظر : المعبر ج 6 ص 115 ، الاستقصا ج 1 ص 109 .

(129) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 ، ابن الاثير ج 5 ص 117 . ابن خلدون ج 4 صفحة 191 .

(130) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(131) ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(132) نفس المصدر والصحيفة .

(133) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

(134) المالكي : ج 1 صفحة 110 .

(135) الرقيق : صفحة 140 .

(136) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 صفحة 171 .

(137) المالكي : ج 1 ص 107 و 110 .

عليها (138) .

ثم استخلف عاصم على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد ليتفرغ
للاحقة حبيب بن عبد الرحمن ، وتمكن من هزيمته عند قابس ، ففر إلى
الأوراس لائذا بأهله (139) فاقتنى عاصم أثره ، والتحم معه في معركة
هزم فيها الصفرية ولقى حاتم حتفه (140) .

وحاول حبيب بن عبد الرحمن استرداد القيروان فزحف إليها بأنصاره ،
لكنه هزم وقتله عبد الملك بن أبي الجعد سنة 140 هـ (141) (757 م) .
وبذلك قضى الصفرية على الفهريين في المغرب وأضحت لهم السيطرة
الكاملة « على القيروان وسائر إفريقية » (142) .

ويبدو أن الصفرية بعد أن اقتطعوا المغرب الأقصى والوسط ودانت
لهم إفريقية والقيروان ، أصبحوا خطرا على بلاد المغرب الأدنى التي كانت
الغلبة فيها للمذهب الإباضي ، ولعل ذلك يفسر ما حدث من صراع بين
الإباضية والصفرية ، وقيام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري
بالاستيلاء على القيروان واتصاء الصفرية عنها . وتبدو وجهة هذا القول
إذا ما أدركنا حقيقة أهداف الإباضية في إنشاء دولة لهم ببلاد المغرب بعد
نجاح دعوتهم بين بربر المغرب الأدنى . وقد سبق القول بأنهم شرعوا في
ذلك على أثر عودة دعائهم من البصرة سنة 140 هـ (757م) بعد إجماعهم الرأي
مع فقهاء المذهب ومشايخه على ابتداء « إمامة الظهور » . ولما كان نجاح
الصفرية يشكل حجر عثرة أمام مشروعاتهم في قيام دولة إباضية ، أصبح
الاحتكاك بين القوتين الخارجيتين أمرا مؤكدا .

(138) تبلغ المصادر السنية في وصف فظائع الصفرية بالقيروان فتذكر أنهم « استحلوا
المحارم وارتكبوا الكبائر ، وسبوا النساء والصبيان » « وربطوا دوابهم في المسجد
الجامع » والواقع أن ذلك محض افتراء . انظر : الرقيق : ص 140 ، ابن عذاري :
ج 1 ص 81 ، ابن الأثير : ج 5 ص 117 وتضيف هذه المصادر أن شيوخ القيروان
ونقباؤها استصرخوا الخلافة العباسية لتخليصهم من عسف الصفرية وما أصاب البلاد
على أيديهم « من ظلم فاش وأمر قبيح » انظر : المالكي : ج 1 ص 102 ، أبو العرب
تميم : طبقات علماء إفريقية ص 30 .

(139) ابن خلدون : ج 4 ص 191 .

(140) الرقيق : ص 141 ، ابن عذاري : ج 1 ص 81 .

(141) نفس المصدرين والصلحتين ، ابن الأثير ، ج 5 ص 117 ، السلاوي ، ج 1 ص 110

(142) ابن خلدون : ج 6 صفحة 112 .

وعلى ذلك فلا محل لتصديق ما تقدمه المصادر السنية والاباضية (143) على السواء من تعليقات غير مقنعة لتبرير خروج أبى الخطاب وحروبه مع الصفرية فى القيروان ، اذ تذكر أن ابا الخطاب ما خرج « الا غضبا لله ولدينه » (144) استجابة لدعوة اهل القيروان لتخليصهم من عسف الصفرية. تصارى القول - أن ابا الخطاب بعد أن بايعه أنصاره بالامامة توجه بجيشه نحو قابس محاصرها حتى سقطت ، فترك عليها عاملا من قبله وارتحل لمقاتلة الصفرية بالقيروان (145) ، وبث عبد الملك بن أبى الجعد فصائل من جيشه لتحول دون وصول الاباضية ، لكنها منيت بالهزيمة . فخرج بنفسه على رأس الصفرية والتقى بأبى الخطاب خارج القيروان ، فهزم جيشه وقتل فى المعركة (146) . ودخل أبو الخطاب المدينة سنة 141 هـ (758 م) وولى عليها عبد الرحمن بن رستم (147) ، ثم غادرها على وجه السرعة لمواجهة جيوش الخلافة التى أنفذها المنصور ، وعين عبد الرحمن ابن رستم عماله على سائر أقاليم افريقية التى خلصوها من الصفرية (148) . ويخيل لنا أن انهزام الصفرية فى افريقية أدى الى ارتفاع نجمهم مرة أخرى فى بلاد المغرب الاوسط ، حيث نجح أبو قررة الصفرى فى تكوين

(143) تجمع هذه المصادر على استبداد الصفرية بعرب القيروان وسوء المعذاب ، وعلى استدعاء القيروانيين أبى الخطاب لتحريرهم من ظلم الصفرية ، وتذكر فى ذلك روايات شتى منها :

أ - أن رجلا اباضيا دخل القيروان وشاهد بنفسه بعض الصفرية يمتدون تسرا على امرأة فى المسجد الجامع ، فاعلم ابا الخطاب بالامر ، فخرج لينتقم منهم لاستباحتهم حرمة المسجد . انظر : الرقيق : ص 141 - 142 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، النويرى ج 22 ورقة 16 .

ب - أن ابا الخطاب قاتل الصفرية على اثر رسالة من احدى القيروانيات تعلمه فيها انها أخفت وليدتها فى حفرة تحت سرير خشية أن يفسدها الصفرية . انظر ، أبو زكريا : ورقة 7 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 12 .

ج - أن احدى نساء القيروان خرجت من المدينة منادية « أغيثونى معاشر المسلمين » وفى رواية أخرى « أغثنى يا ابا الخطاب » ، فمد الله فى صوتها وسمعه أبو الخطاب فأجابها « لبيك يا اختاه » . انظر : أبو زكريا : ورقة 7 .

وهذه الروايات جميعا تميل الى المبالغة والطابع الاسطورى مما يشكك فى صحتها . كذلك فمن المستبعد أن يكون خروج أبى الخطاب سببه دافع اقتصادى كما ذهب الدكتور سعد زغلول عبد الحبيد اعتمادا على قول للشماخى بأن عام 140 هـ الذى خرج فيه أبو الخطاب كان عام جدب . انظر : الشماخى : السير ص 127 ، سعد زغلول : المغرب العربى صفحة 310 .

(144) الشماخى : السير صفحة 127 .

(145) أبو زكريا : السيرة ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 .

(146) نفس المصدر والصفحات ، ابن الاثير ج 5 ص 118 .

(147) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، السبلاوى : ج 1 ص 111 .

(148) أبو زكريا : ورقة 9 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

امارة مستقلة بنواحي تلمسان ، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من
أرساء دعائم دولة بنى مدرار في سجلماصة على اثر هزيمة الصفرية في
القيروان سنة 140 هـ .

انتقل اذن مركز الثقل في نشاط الصفرية من افريقية الى المغرب
الاطوسط بعد تكوين أبو قرة الصفري امارته الصفرية في تلمسان . والواقع
أن الغموض يكتنف أصل أبي قرة ، فمن المؤرخين من يرجع بنسبه الى قبيلة
مغيلة ، ومنهم من ينسبهم الى بنى يفرن من زناتة (149) . ويرجع الخلاف
الى العرف الشائع عند البربر من انخراط القبائل تحت زعامة أكثرها قوة
ونفوذاً . حقيقة أن بنى يفرن « كانوا أشد قوة وأكثر جمعا » ، لكن مغيلة
كانت « أشهر بالخارجية من بنى يفرن » (150) . ولما كانت القبيلتان
متجاورتين (151) ، فقد حدث اللبس حول أصل أبي قرة .
ومهما كان الامر ، فإن أبا قرة تزعم صفرية المغربين الاوسط والاقصى
بعد خالد بن حميد الزناتى (152) . واشتراك في حصار القيروان الى جانب
عبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ ، ثم عاد ادراجه الى تلمسان على اثر
هزيمة الاصنام . ويضيف الرقيق (153) أن عبد الرحمن بن حبيب هزمه
هزيمة ساحقة سنة 135 هـ (752 م) فتت في عضده ، فلم يسهم في حركات
صفرية نفزاوة ضد حبيب بن عبد الرحمن ، وتركها تتلقى سوء المصير على
يد أبي الخطاب الاباضى سنة 140 هـ . ولعل ذلك يفسر مبايعته بالامامة في
وقت متأخر سنة 148 هـ (765 م) — كما يذكر ابن خلدون (154) — بعد
أن انضوى صفرية المغرب الادنى تحت زعامته فضلا عن صفرية الاجزاء
الساحلية والغربية من المغرب الاوسط (155) .

(149) ذكر ابن خلدون في تاريخه انه « من مغيلة ، وهو الاصح في شأنه » انظر : المعبر
ج 6 ص 112 . لكنه في موضع آخر يقول « وقد قيل أن أبا قرة من مطبأة وهذا
عندى صحيح ، ولذلك أخرت ذكر أخباره الى أخبار بنى يفرن من زناتة » . انظر :
المعبر ج 6 ص 125 . ونفس الخط نجده عند السلاوى حيث ذكره على أنه « أبا
قرة بن دوناس اليفرنى » ومرة أخرى يدموه « أبا قرة المغيلي » . انظر : الاستقما
ج 1 صفحة 116 .

(150) ابن خلدون : المعبر ج 7 ص 12 .

(151) نفس المصدر والصحيفة .

(152) نفس المصدر والصحيفة .

(153) تاريخ افريقية والمغرب ص 130 .

(154) المعبر ج 6 ص 112 ؛ ج 7 ص 12 .

(155) نبذ تاريخية — جمع برونفسال ص 49 ، محمد الشطيبي : الجمان ورقة 203 .

وفي تلك الاثناء كان محمد بن الاشعث الخزاعي (156) يوطد نفوذ الخلافة العباسية في افريقية (157) ، فاستطاع اقضاء الاباضية عن القيروان ، والحق بهم عدة هزائم دانت بعدها بلاد المغرب وافريقية لسلطانه « واطفا نار الفتنة فيها » (158) . وبديهي أن يتجه بعد ذلك الى محاولة استرجاع المغربين الاوسط والاقصى ، لذلك عول على انفاذ قائده الاغلب بن سالم التميمي على رأس جيش لمحاربة ابي قررة والصفورية فسي تلمسان سنة 148 هـ (159) (765 م) . ويخيل الينا أن اضطراب الجند العربي وثورتهم على ابن الاشعث (160) حالت دون قيام هذا الجيش بما أزمع القيام به ، اذ لا تطالعنا المراجع (161) باخبار عن الصراع مع ابي قررة الا ابان ولاية الاغلب بن سالم في نفس العام . فقد « بعث اليه المنصور عهده بولاية القيروان .. ثم اضطربت عليه الامور لخروج ابي قررة عليه واشتغاله بحربه » .

على كل حال — وجد ابو قررة في ثورات الجند الخلفاء في افريقية فوصة موالية لاعداد قواته للقيام بالثورة واسقاط الحكم العباسي في القيروان (162) وادرك الاغلب خطورة الموقف فعول على الخروج اليه قبل أن تدهمه جيوش الصفورية في مقر الولاية (163) والتقى الخصمان في اقليم الزاب ، فأثر ابو قررة الانسحاب ، وقرر الاغلب اقتفاء اثره وضرب معقل قوته في تلمسان (164) وربما تجاوزت مطامحه تلمسان ذاتها ، فمرنى ببصره الى تحرير بلاد المغرب الاقصى كلها حتى طنجة (165) . وكان ذلك سببا في ثورة جنده عليه وانصرافهم عنه ، تلك الثورة التي انتهت بقتله سنة 150 هـ (156) (767 م) . وقبع ابو قررة في تلمسان (167) يعد العدة لجولة اخرى .

(156) اخطأ ابن وردان حين ذكر أن الاشعث بن عقبة الخزاعي هو الذي اضطلع بهذه المهمة وليس ابنه الذي اجبعت عليه المصادر . انظر : تاريخ الاغالبية ص 1 مخطوط . Biquet : Op. Cit. P. 42.

(157) البلاذري : فتوح البلدان ص 275 .

(158) ابن خلدون : المعبر : ج 6 ص 115 .

(159) ابن خلدون : ج 4 ص 192 ، ج 7 ص 12 .

(160) انظر : جغرافية المأمون ص 184 .

(161) ابن الابار : الحلة السبراء ج 1 ص 69 ، ابن الاثير : ج 5 ص 217 .

(162) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيفة .

(163) ابن عذارى : ج 1 ص 86 .

(164) ابن خلدون : ج 6 ص 112 .

(165) ابن الاثير : ج 5 ص 217 .

(166) الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ص 18 .

(167) السلوى : ج 1 صفحة 116 .

وفي هذا الوقت كان عمر بن حفص والى القيروان قد رحل الى اقليم الزاب (168) وحصن طنبنة باقامة سور حولها (169) ليحول دون هجوم الصفرية على القيروان وليتخذ منها قاعدة للانطلاق الى معقلهم في تلمسان . ويبدو أن عمر بن حفص كانت الخلافة قد عهدت اليه بتصفية نشاط الخوارج في المغرب اباضية وصفرية (170) . ولعل ذلك كان سببا في ائتلاف الصفرية والاباضية لأول مرة في بلاد المغرب . فاجتمعوا على محاصرته بطنبنة (171) . فمن الاباضية اشتركت جيوش ابي حاتم الملوزي وعبد الرحمن بن رستم والمسور بن هانيء في الحصار (172) ، كما أسهم رؤساء الصفرية كذلك ، فكان جيش ابي قرة اربعين الفا (173) ، ووصل عبد الملك بن سكرديد على رأس الفين من صنهاجة (174) فضلا عن صفرية مديونة بزعامة جرير بن مسعود (175) . وضرب الجميع الحصار حول طنبنة وبها عمر بن حفص في خمسة عشر الف من العرب سنة 153 هـ (176) (770 م) .

وتجمع المصادر على أن عمر ابن حفص اغرى ابا قرة بالمال لينسحب هو واتباعه عن الصفرية . لكنها تختلف في ذكر التفاصيل ، فبعضها (177) يرجع أنه رفض الرشوة وقبلها أخوه الذي ارتحل بالمعسكر ، فاضطر أبو قرة للانسحاب ، في حين يقرر البعض (178) الآخر أن عمرا استمال ابا قرة وليس أخاه . بينما نجد رواية ثالثة مؤداها (179) أن ابا قرة قبل الرشوة

-
- (168) ابن عذارى : ج 1 ص 88 .
(169) ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، السلاوي : ج 1 ص 117 .
(170) ذكر ابن الاثير أن انتقال عمر بن حفص الى الزاب وتحصينه طنبنة كان ونفا لمشورة المنصور . الكامل ج 5 ص 221 .
(171) الرتيق : صفحة 143 .
(172) ذكر ابن الاثير والنويري أن عاصم السدراتي الاباضي اشترك في حصار طنبنة على رأس ستة آلاف من الاباضية . انظر : الكامل ج 5 ص 221 ، نهاية الارب ج 22 ورقة 21 . وهو قول مردود لأن عاصم مات مسموما سنة 140 هـ إبان حروب أبي الخطاب مع ورنجومة . انظر : أبو زكريا : ورقة 8 ، الشباخي : السير ص 128 .
(173) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 371.
(174) ابن الاثير : ج 5 صفحة 221 .
(175) مديونة احدى بطون بني غاتن من ضريبة البقرية ، ومواطنها في نواحي تلمسان . ابن خلدون : ج 6 صفحة 125 .
ولا محل لتصديق رواية ابن خلدون القائلة بتشييع ورنجومة الصفرية لعمر بن حفص وقتالها الى جانبه . انظر : العبر ج 6 ص 115 .
(176) ابن عذارى : ج 1 صفحة 88 .
(177) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .
(178) الرتيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 6 ص 112 .
(179) ابن خلدون : نفس المصدر والمصحفة ، السلاوي : ج 1 ص 117 .

هو وابنه وارتحل بقومه من الصفرية . وأمام هذا الاختلاف نشكك في الرواية من أساسها . والراجح أن يكون انسحاب الصفرية نتيجة اختلاف مع الإباضية ، إذ أن تعاونهما في بلاد المغرب ليس مألوفاً ، والمعروف أن الفرقتين الخارجيتين كانتا على خصومة وعداء كثيراً ما وصل إلى درجة الصراع والتناحر ، وهذا يفسر قيام أبي حاتم بمحاصرة القيروان (180) من دون الصفرية (181) . بينما عاود أبو قرّة قتال الحابية التي تركها عمر بن حفص بطبنة (182) بعد أن غادرها ليحول دون وقوع القيروان في يد الإباضية . وفي عودة أبي قرّة لمحاربة اتباع عمر بن حفص ما ينفي ما قيل عن قبوله الرشوة .

على كل حال — تسبب الخلاف بين الصفرية والإباضية في فشل حصار طبنة ، ونجح عمر بن حفص في هزيمة عبد الرحمن بن رستم الإباضي ، كما تمكن قائد المهنا بن المخارق بن غفار الطائي من هزيمة أبي قرّة وردع الصفرية (183) . وعاد أبو قرّة إلى مقره في تلمسان .

ولم تقم للصفرية قائمة بعد ذلك ، فضعف شأنهم ، حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم الذي قدم إلى المغرب سنة 155 هـ (622 م) على رأس جيش كثيف أوغل به في نواحي المغربين الأوسط والأدنى (184) . كما كان الصراع بين الأدارسة والرسّامين حول تلمسان وما حولها من عوامل اختفاء الصفرية من المغرب الأوسط وتحول الكثيرين منهم في تلك الجهات إلى الولاء للأدارسة واتباعهم من آل سليمان ، بينما هاجر جزء كبير ممن بقوا على مذهبهم إلى سجلماسة التي أضحت ملاذا للصفرية في بلاد المغرب .

أما عن صفرية إفريقية والمغرب الأدنى فقد بطش بهم يزيد بن حاتم أيضاً ، فقمعت حركة ورمجومة سنة 157 هـ (774 م) على يد ابنه

-
- (180) ابن خلدون : ج 4 صفحة 193 .
(181) اختلط الأمر على الطبري فذكر أن أبا قرّة اشترك في حصار عمر بن حفص في القيروان ذلك أن حصار القيروان الذي ضرب به أبو حاتم الملّوذي حدث سنة 154 هـ وليس سنة 153 هـ . وقد وقع في هذا الخطأ كثيرون ممن نقلوا عن الطبري . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 42 ، السلاوي : ج 1 ص 118 ، العيني : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .
ويؤكد معظم المؤرخين أن الذين حاصروا عمر بن حفص في القيروان كانوا جميعاً من الإباضية . انظر الرقيق : ص 143 ، ابن عذاري : ج 1 ص 89 ، 90 ، ابن خلدون ج 6 ص 119 ، ابن الأثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .
(182) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .
(183) الرقيق : صفحة 143 .
(184) نلس المصدر : صفحة 159 .

المهلب وقائده العلاء بن سعيد (185) . كما فشلت ثورة الصفيرية في بلاد الزاب التي تزعمها أيوب الهواري سنة 164 هـ (780 م) بعد أن رماهم يزيد بن حاتم بالمخارق بن غفار الطائي (186) ومن بعده العلاء بن سعيد ، وإلى العلاء يعزى الفضل في قمع الثورة وقتل قائدها والتتكيل بالصفيرية أينما وجدوا في افريقية (187) ، حتى أن بربر ورفجومة رأس صفيرية افريقية انقرض أمرهم وصاروا أوزاعا في القبائل (188) .

هكذا قدر ليزيد بن حاتم أن يبدد شمل الخوارج الصفيرية في افريقية والمغرب الأوسط ، وتمكن الادارسة من تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى على حساب نفوذ الصفيرية ، وظلت دولة بنى مدرار بسجلماسة مؤثلا لصفيرية بلاد المغرب ومركزا لتجمعهم ، فقد حققت هدفهم في قيام دولة صفيرية خالصة في بلاد المغرب .

(185) نفس المصدر ص 161 ، ابن خلدون : ج 6 ص 115 ، السلاوي : ج 1 ص 118 ،

(186) ابن خلدون : ج 4 صفحة 193 .

(187) الرقيق : ص 162 ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 .

(188) ابن خلدون : ج 6 ص 115 .

ثانياً :

ثورات الخوارج الإباضية

سبق القول بأن المذهب الإباضى غلب على بلاد المغرب الأدنى فانتشر بين قبائله وخاصة نفوسة وهوارة . ويبدو أن الخوارج الإباضية لم يكونوا قد تهيئوا بعد لمرحلة الظهور حتى بداية العقد الرابع من القرن الثانى الهجرى أى حتى قيام ثورة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى سنة 140 هـ (757 م) ، بينما سبق الخوارج الصفرية بزعامة ميسرة المطغرى الى الظهور سنة 121 هـ (739 م) فى المغرب الاقصى . ولعل السبب فى تأخر ثورات الإباضية يكمن فى قرب مواطنهم من القيروان مقر الإمارة ومركز الجند العربى . يضاف الى ذلك قربها النسبى من عاصمة الخلافة الأموية وولاتها فى مصر مما يجعل مهمة الخلافة وولاتها فى مصر والمغرب فى قمع الحركات المعادية أمرا أكثر سهولة من قمع ثورات الصفرية فى المغرب الاقصى .

ويبدو أن نجاح حركات الصفرية فى المغرب الاقصى أغرى إباضية المغرب الأدنى بالتعجيل بالقيام بثورات مماثلة قبل أن يتهيئوا لها أو تتوافر الظروف المناسبة التى تساعد على انجاحها . وجدير بالذكر أن المصادر الإباضية تسقط من اعتبارها كل نشاط للإباضية فى المغرب سابق على حركة أبى الخطاب عبد الأعلى سنة 140 هـ (757 م) فتعتبره أول الائمة ، وتؤرخ لثورته باعتبارها بداية « لمرحلة الظهور » (189) . وإذا كانت ثورة

(189) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 34 .

أبي الخطاب — حقيقة — تعد أول ثورة إباضية ذات طابع شامل وشكل منظم ، فقد سبقتها حركات أخرى لم تتمخض عن شيء سوى اضعاف الحركة الإباضية قبل أن يشتد عودها ، وتأجيل ظهور الإباضية على المسرح السياسي في بلاد المغرب .

كانت هذه الثورات ثلاثا ، قامت أولاها سنة 126 هـ (744 م) بزعمامة عبد الله بن مسعود التجيبي الذي ترأس بربر هواراة في منطقة طرابلس متحديا حكم عبد الرحمن بن حبيب ، وأخذت هذه الحركة دون عناء بعد أن قبض أخو عبد الرحمن وعامله على طرابلس على التجيبي « وضرب عنقه » (190) .

ثم اجتمعت هواراة على اثنين من زعمائها هما عبد الجبار بن ثيس المرادي والحارث بن تليد الخضرمي (191) . وزحف الحارث وعبد الجبار الى طرابلس وضربا عليها الحصار حتى استسلم عاملها (192) ، وأخذوا بئار التجيبي واقتصا من قاتله (193) . وأنفذ عبد الرحمن بن حبيب ثلاثة جيوش لاسترداد طرابلس هزمها الإباضية جميعا (194) ، فلقا الى الحيلة واستمال احد شيوخ هواراة وبعثه «ليستألف الناس ويتطع عن عبد الجبار هواراة » (195) دون جدوى . فعقد العزم على الخروج بنفسه وقاد جيشا لاسترداد طرابلس وصل به حتى قابس ، ثم عاد ادراجه الى القيروان لما علم بتأمر أهلها على خلعه (196) . لكن حادثا مفاجئا أفضى الى مقتل الحارث وعبد الجبار سنة 131 هـ (749 م) كفى عبد الرحمن بن حبيب مؤونة قتالهما .

-
- (190) ابن عبد الحكم : ص 301 ، ابوراس : مؤنس الاحبة ص 43 .
(191) تختلف المصادر حول كيفية اشتراكهما في قيادة الثورة ، فذكر البرادي أنهما « كانا مشتركين في الملك » أما الشهاخي فيرى أن أحدهما كان إماما والآخر وزيره ، ويلهم من رواية لابن عبد الحكم — وهي الأرجح — أن عبد الجبار كان إمام الصلاة والحارث إمام الحرب ، انظر : البرادي : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشهاخي : السير ص 125 ، ابن عبد الحكم : ص 302 .
(192) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .
(193) نفس المصدر والصحيحة .
(194) عن تفاصيل هذا الموضوع راجع : ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 ، الرقيق : ص 128 ، البرادي : الجواهر ورقة 87 ، Masqueray : P. 23.
(195) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .
(196) الرقيق : صفحة 128 .

وتختلف المصادر (198) حول دوافع هذا الحادث . والراجع انهما اختلفا حول مسائل فقهية أو تنازما حول الحكم (199) ، فاحتكما الى السيف فقتل كل منهما صاحبه . ومهما كان الأمر فقد تمخض الأمر عن حدوث الشقاق (200) بين جماعة الاباضية بالمغرب على غرار ما كان يحدث بين الخوارج المشارقة . ولم تجد نفعا نصائح فقهاء المذهب بالبصرة بالكف عن ذكر هذه المسألة ، فظلت تشغل اباضية المغرب حتى تولى أبو الخطاب الامامة سنة 140 هـ (201) (757 م) .

أما ثالث تلك الثورات فكانت من نصيب قبيلة نفوسة ، اذ بادر زعيمها اسماعيل بن زياد النفوسى بعد أن « عظم شأنه وكبر بيعه » (202) بالاستيلاء على قابس سنة 132 هـ (751 م) (203) . فخرج اليه عبد الرحمن بن حبيب وانفذ طلأته من الخيالة ليسبر غوره، لكن عامله على طرابلس التحم بنفوسة الاباضية وقتل زعيمها وأسر كثيرا من رجالها (204) . واصطحب عبد الرحمن بن حبيب أسرى الاباضية الى طرابلس وذبحهم وامتنح الناس بهم « فكان يؤتى بالأسير من البربر فيأمر من يتهمة بتحريم دمه بقتله » (205) كما عهد الى عامله بطرابلس بتوزيع المغنم التي غنمها من الاباضية على جنده (206) ، وأعاد بناء سور المدينة (207) لتحصينها من خطر الاباضية،

(198) ذكر بعض المؤرخين انهما اختلفا فانتزلا ، فقتل كل منهما الآخر ووضع سيئه في جسد صاحبه (ابن عبد الحكم : ص 302 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87) وذكر آخرون أن عبد الرحمن بن حبيب حاربها فقتلها (الرقيق ص 129 ، ابن الاثير ج 5 ص 116) . بينما نجد في رواية ثالثة أن عبد الرحمن بن حبيب اغتالها خفية ، وأوصى القتلة بوضع سيف كل منها في جسد الآخر اشارة للخلاف بين الاباضية . انظر : الدرجيني : ج 1 ورقة 12 ، على يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ ص 46 ، 47 .

(199) الشماخى : السير ص 125 ، Masqueray : Op. Cit. P. 23.

(200) اختلف الاباضية في تحديد ايها اخطأ في حق صاحبه ، ولم يلبث الخلاف أن تشعب الى مسائل فقهية وفلسفية جوهرها « هل يدفع الشك اليقين ؟ أم اليقين يدفع الشك ؟ » فقال البعض هما على ولايتهما حتى يتبين أمرهما ، بينما رأى البعض الآخر عدم البت في القضية ، فتحول الخلاف الفقهى الى انشقاق سياسى . . عن مزيد من التفاصيل راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشماخى : السير ص 125 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 11 ظهر .

(201) أبو زكريا ، السيرة ورقة 6 .

(202) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(203) اطلش : الامكان صفحة 53 .

(204) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(205) الرقيق : صفحة 128 .

(206) ابن عبد الحكم صفحة 302 .

(207) الرقيق : ص 129 ، ابن الاثير : ج 5 ص 116 .

ثم قتل عائدا الى القيروان في نفس العام .

ولا يخامرنا شك في أن جهود ابن حبيب وعماله على طرابلس في قمع حركات الإباضية قد فتت في عضدهم .

ويخيل لنا أن هذا هو ما دفع زعماء الإباضية في المغرب الأدنى للرحيل الى البصرة للاسترشاد بمشايخ المذهب في الاعداد للثورة المنظمة الشاملة . وقد عادوا الى المغرب بعد أن مكثوا خمس سنوات بصحبة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وجماعة شيوخ المذهب وقد تذرعوا بالاساليب والوسائل الكفيلة بانجاح حركتهم . وحسبنا أن أبا عبيدة أشار عليهم باختيار أحد رجال المذهب من عرب المشاركة لزعامتهم لما له من دراية بأحوال المغرب ولحصافته ودربته بأصول السياسة وفنون الحكم (208) . ويبدو أنه أوصى أفراد الوفد المغربي بتعبئة قبائل الإباضية جميعا للاشتراك في الثورة ، فاشتراط ضرورة حشد القوى المادية والبشرية للقيام بالثورة (209) كما تخصص بعض أفراد الوفد في مسائل الفقه والشريعة لمواجهة ما يعن لهم من مسائل تتعلق بالثورة ومعاملة الخصوم وإدارة الاقاليم التي يتسنى لهم انتزاعها من الحكام العرب (210) وأخيرا أوصاهم بموافاته بتطورات حركاتهم وضرورة مشاورته فيما يعن لهم من أمور (211) .

وما أن عاد الوفد الى بلاد المغرب سنة 140 هـ (757 م) ، حتى بادر أعضاؤه بالاتصال بالقبائل وتهيئتها للقيام بالثورة ، ويذكر أبو زكريا (212) أن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري — وهو الذي أشار أبو عبيدة بتقلده زعامة الحركة — أبدى نشاطا ملحوظا « في الكتمان » فاتصل بمشايخ القبائل للتشاور في اعلان « امامه الظهور » . وقد كللت مساعيه بالنجاح ، فانضم اليه جمهرة الإباضية ، وكسب الكثير

(208) الشهاخي : السير ص 125 . يخرج ماسكراي من اختيار عربي لزعامة الحركة بان العامل الديني حل محل عامل العممية في اعطاء الحركة طابعها ، انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 29.

(209) الشهاخي نفس المصدر صفحة 124 .

(210) أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة : رسالة في احكام الزكاة ورقة 114 — مخطوط .

(211) انظر : ملحق (1) .

(212) السيرة واخبار الائمة ورقة 6 .

(213) اليعقوبي : تاريخه ص 118 ، البلاذري : فتوح البلدان ص 275 .

من الاتباع (213) ، وأجمع رؤساء المذهب على مبايعته بالامامة (214) .
وانضوت قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وغيرها تحت لوائه (215) .
واستطاع أبو الخطاب مداومة طرابلس على حين غفلة (216) ، وارغم
عاملها عمرو بن عثمان القرشي (217) على مغادرتها واستولى على بيت
مالها (218) ، وأمن أهلها (219) .

وباستيلاء الإباضية على طرابلس اشتد ساعدتهم ، فاتخذوها قاعدة
للمذهب ، وبعثوا إلى أبي عبيدة مسلم بالبصرة يعلموه « بظهور الامامة » .
فماغبط لذلك ونصحهم بالتضامن واقتفاء أثر السلف الصالح (220) . وجنح
أبو الخطاب إلى التوسع ، فاستولى على جزيرة جربة وجبل دمر سنة
140 هـ (221) (757 م) ، كما ضم قابس في نفس العام (222) ، ودانت
بلاد المغرب الأدنى بطاعته ، فرنى ببصره صوب إفريقية .

ثم كان استيلاء الصفرية على القيروان وخروج أبي الخطاب وصراعه
مع الصفرية وهزيمتهم عند رقادة (223) ، ودخول المدينة بعد مقتل
عبد الملك بن أبي الجعد مقدم الصفرية ، ونجاح عامله عليها — عبد الرحمن
ابن رستم — في بث نفوذ الإباضية في سائر جهات إفريقية (224) ، بعد

(214) تذكر المصادر الإباضية أن رؤساء المذهب كانوا يجتمعون في مكان يقال له صياد
— غربي طرابلس — بحجة اقتسام أرض أخطف التوم عليها ، أو للتأليف بين رجل
أخطف مع زوجته ، مداراة لوالى طرابلس . انظر : أبو زكريا : ورقة 6 ، الدرجيني :
ج 1 ورقة 11 . وتصور هذه المصادر أبا الخطاب على أنه توجيء بعرض الامامة
عليه ، لكنه كان في الواقع على علم بأنه سيتقلدها منذ غادر البصرة مع الوند
المغربى وفقا لمشورة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة .
انظر : أبو زكريا : ورقة 6 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 11 .

(215) أبو زكريا : ورقة 7 .

(216) تصور المصادر الإباضية سقوط طرابلس تصويرا روائيا أشبه ما يكون بسقوط
طروادة ، فذكرت أن الجيش الاباضى اختبأ داخل جواليق يحملها الجمال التى
دخلت المدينة على أنها قافلة تجارية ملها توسطت المدينة ، خرج الرجال شاهرين
أسلحتهم صائحين « لا حكم الا لله ولا طاعة الا لأبى الخطاب » .

انظر : أبو زكريا : ورقة 7 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 12 .

(217) الرتيق : ص 142 ، ابن عذارى : ج 1 ص 74 .

(218) أبو زكريا : ورقة 7 .

(219) نفس المصدر والصحيفة ، الدرجيني : ج 1 ورقة 14 .

(220) انظر : ملحق (I) .

(221) أبو راس : مؤنس الاحبة صفحة 45 .

(222) أبو زكريا : ورقة 8 ، الشباخي : السير ص 128 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 13 .

(223) البكرى : المغرب صفحة 28 .

(224) أبو زكريا : ورقة 9 .

مفادرة أبى الخطاب القيروان لمواجهة جيوش الخلافة التى بعثها المنصور لاستنقاذ افريقية (225) .

وقد أنفذ المنصور محمد ابن الاشعث الخزاعى على رأس جيش زاد عدده عن خمسين الف مقاتل الى بلاد المغرب سنة 142 هـ (759 م) . ومهما اختلف المؤرخون (226) حول دوافع ارسال هذا الجيش الضخم ، فلا شك أن مهمته الاساسية كانت استرداد نفوذ الخلافة وهيبتها فى بلاد المغرب (227) بعد أن أضحت قسمة بين الصفرية والاباضية من الخوارج . ويبدو أن ابن الاشعث هاله أمر الاباضية الذين سيطروا على المغرب الأدنى وافريقية ، فأثر البقاء بمصر ، وأنفذ ثلاثه بقيادة أبى الاحوص عمرو ابن الاحوص العجلى (228) الى المغرب .

وهذا هو ما حدا بأبى الخطاب عبد الاعلى الى مفادرة القيروان على وجه السرعة للقاء أبى الاحوص ، فالتقى به فى مغمساس (229) بناحية سرت (230) وهزمه واحتوى عسكره ، فعاد أبو الاحوص الى مصر مدحورا (231) .

ويخل لنا أن هذه الهزيمة فتت فى عضد ابن الاشعث ، فبعث المنصور اليه يستصرخه التعجيل بالتوجه الى المغرب بنفسه (232) ،

(225) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، ابن خلدون : ج 4 ص 191 ، الانصارى : المنهل المذهب صفحة 65 .

(226) ذكر مؤرخو السنة أن المنصور أنفذ الحملة استجابة لطلب فتفاء القيروان لتخليصهم من سيف الصفرية .

راجع : المالكي : ج 1 ص 98 ، 102 ، أبو العرب تميم : ص 30 . بينما ذهب مؤرخو الاباضية الى أن ارسال الحملة كان نتيجة الحاح أحد رجال أبى الخطاب - ويدعى جهيل السدراتى - بعد أن خرج عليه ورحل الى بنى ناد .

راجع : أبو زكريا : ورقة 9 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 15 ، الشباخي : ص 131 .

(227) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

(228) زعم ابن تغرى بردى أن أبا الاحوص أنفذ الى المغرب من قبل والى مصر حميد بن تحطبة ، وأضاف أن حميدا خرج بنفسه للقاء أبى الخطاب بعد هزيمة أبى الاحوص فهزمه وقتله ثم عاد الى مصر .

انظر : النجوم الزاهرة ج 1 ص 349 . والثابت أن ابن الاشعث هو الذى قام بالهمة ابان ولاية حميد بن تحطبة لمصر .

انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 82 .

(229) البكرى : ص 7 ، ابن عذارى ، ج 1 ص 82 .

(230) البكرى : نفس المصدر والصحيحة ، السلاوى : ج 1 ص 114 .

(231) ذكرت المصادر الاباضية أن أبا الخطاب كان قد هزم جيشا آخر لابن الاشعث بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي قبل انتصاره على أبى الاحوص . انظر الشباخي : السير صفحة 130 .

(232) ابن مغازى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 .

وعول ابن الاشعث على الاستعداد الكامل قبل مغادرته مصر ، فحشد في جيشه من القواد العظام ثمانية وعشرين قائدا (233) من بينهم الاغلب ابن سالم التميمي والمحارب بن هلال الفارسي والمخارق بن غفار الطائفي (234) .

واستعد أبو الخطاب للقاء ابن الاشعث ، فربط بأرض سرت في سبعمين الف (235) من الاباضية . لكن خلافا وقع في معسكره تمخض عن انسحاب اباضية لاعتقادهم بتحيزه الى هــوارة (236) . وبادر ابن الاشعث بالنزول بجيشه على موارد الماء بمكان يقال له تاورغا (237) ، ومنع عسكر أبي الخطاب من ارتياده (238) . فلما نشب القتال دارت الدائرة على الاباضية ، فقتل أبو الخطاب مع آلاف من رجاله (239) ، ونجى منهم نفر قليل لاذوا بالحصون والتلاع في الجبال (240) . وعول ابن الاشعث على استئصال شأفة الاباضية ، فأرسل قائده اسماعيل بن عكرمة الخزاعي الى زويلة وودان فقتل من بها من الاباضية (241) . كما لقي اباضية طرابلس عنتا شديدا من عامله

(233) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(234) النويري : ج 22 ورقة 19 .

(235) أبو زكريا : ورقة 10 . وببالغ ابن عذارى حين يذكر أن جيش أبي الخطاب بلغ مائتي ألف مقاتل ، انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 82 .

(236) ابن عذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، النويري : ج 22 ، ورقة 19 . وتذكر المصادر الاباضية أن العامة في جيش أبي الخطاب تغلوا عنه حين تظاهر ابن الاشعث بالانسحاب الى الشرق رغم تحذير أبي الخطاب وتجاهل تهما ذكر انسحاب اباضية زناتة . والحق ما ذهب اليه المصادر السنية في تفسير الانشقاق داخل معسكر الاباضية . يؤكد ذلك ما ورد بالمصادر الاباضية ذاتها من اشتراك نفوسة وهوارة وجريشة في معركة تاورغا الى جانب أبي الخطاب دون أن يرد بينها ذكر لزبانة .

انظر : أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجيني : ج 2 ورقة 15 ، الشماخي السير صفحة 131 ، 132 .

(237) تقع بأرض سرت على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس . الدرجيني : ج 2 ورقة 16 .

(238) أبو زكريا : ورقة 10 .

(239) تقدر المصادر الاباضية عدد القتلى بما يتراوح بين اثني ألف وأربعة عشر ألف . أما المصادر السنية فتسرف في تقديرها الذي يصل الى أربعين ألف . راجع : أبو زكريا : ورقة 10 ، الشماخي : السير ص 132 ، النويري : ج 22 ورقة 19 .

(240) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 16 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

(241) ابن عذارى : ج 1 ص 84 ، النويري : ج 22 ورقة 19 .

المخارق بن غفار ، فقد أسرف في تقتيلهم وسبى ذراريهم (242) . ولم يسلم
اباضية زناتة من بطش ابن الاشعث على الرغم من خروجهم على ابي
الخطاب وعدم اشتراكهم في معركة تاورغا ، فقتل زعيمهم ابو هريرة
الزناتى في ستة عشر ألف من أصحابه (243) وعلى الرغم من هزيمة أحد
جيوشه أمام اباضية زهانة (244) ، فقد القى الرعب في قلوب اباضية
المغرب الأدنى ، فهابوه ودانوا له بالطاعة (245) .

وهكذا وضعت معركة تاورغا سنة 144 هـ (761 م) نهاية لامامة
الظهور التي استمرت أربعة أعوام سيطر الاباضية ابانها على افريقية
والمغرب الأدنى ، فلم يتو الاباضية بعدها على الظهور واضطروا الى
العمل في تستر وكتمان وهو ما يعرف في اصطلاحهم « بامامة الدفاع » .

تولى امامة الدفاع بعد مقتل ابي الخطاب يعقوب بن حبيب
المعروف بأبي حاتم المزوزي (246) سنة 145 هـ (762 م) . ويختلف
المؤرخون حول أصله ، فيذكر بعضهم (247) أنه من هوار ، وقيل من
سدراته (248) ، و في قول ثالث أنه من مغيرة (249) ونحن نرجح الرواية
الاولى لان هوار من اشد قبائل الاباضية قوة وأكثرها عددا ومشاركة في
ثورات الاباضية . أما سدراتة فكان دورها ضئيلا في الحركة الاباضية
بالمغرب ، بينما كانت مغيرة تدين بالمذهب الصفرى ، ومضاربها بنواحي
تلمسان أى أنها بعيدة عن مسرح نشاط الاباضية في المغرب الأدنى
وافريقية (250) .

على كل حال — بويح أبو حاتم بالامامة سنة 145 هـ (251) (762 م) ،
وظل مستترا طيلة أربع سنوات قضاه في جمع شمل جماعات الاباضية

-
- (242) الشهاخي : السير ص 134 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .
(243) ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(244) الشهاخي : السير صفحة 134 .
(245) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(246) أخطأ الدرجيني في تسمية ابي حاتم ببيعقوب بن لبب ، وكذلك البرادى الذى نقل
عنه . راجع : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(247) الدرجيني : ج 1 ورقة 17 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(248) البلاذرى : فتوح البلدان ص 75 .
(249) ابن خلدون : ج 6 ص 125 ، برونسسال : نبذ تاريخية ص 49 .
(250) والصواب ان يكون من «مليلة » وهى بطن من بطون هوار راجع : أبو زكريا :
ورقة 12 .
(251) نقل الشهاخي عن الدرجيني خطأه في جعل تاريخ مبايعة ابي حاتم بالامامة سنة 154 هـ
بدلا من سنة 145 هـ . انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، السير ص 133 .

التي تفرقت على اثر حروب ابن الاشعث . وكان خلالها يرسل الصدقات الى عبد الرحمن بن رستم (252) الذي كان يعد العدة لقيام دولة بنى رستم الاباضية في المغرب الاوسط .

ويبدو انه في سنة 150 هـ (253) (767 م) آتس من نفسه قوة « فأراد الخروج على جند طرابلس وعامل أبى جعفر » (254) .

ويبدو أن عامل طرابلس تنبه لذلك فخرج اليه على رأس جنده وطلب من الاباضية الازعان لطاعته والدعوة للخليفة العباسي (255) ، فرفضوا ، فامتنعوا ، وانتصر الاباضية ودخلوا طرابلس . ونعتقد أن الاباضية امعنوا في البطش بأهل طرابلس من العرب — على غير عادتهم — تشفيا وانتقاما لما حل بهم من قبل (256) . وظل أبو حاتم مقيما بطرابلس حتى وصل عمر بن حفص الى افريقية سنة 151 هـ (768 م) .

حاول عمر بن حفص استرداد طرابلس واقصاء الاباضية عنها ، فأنفذ ثلاثة جيوش لهذا الغرض هزمها الاباضية جميعا (257) . كان أولها بقيادة الجنيد بن بشار الازدي ، فدهمه أبو حاتم بقباس وضرب عليه الحصار ، فبعث الجنيد يطلب العون من عمر بن حفص ، فأنفذ اليه خالد ابن يزيد المهلبى على رأس أربع مائة فارس عدا الرجالة ، لكن أبا حاتم هزمه أيضا وحال دون دخوله المدينة . فمعززه عمر بجيش ثالث بقيادة سليمان بن عباد المهلبى ، طارده الاباضية فعاد من حيث أتى . وكان عمر قد غادر القيروان اذ ذاك الى طبنة في اقليم الزاب ، فلم يتوان أبو حاتم من اقتفاء أثر سليمان بن عباد (258) وضرب الحصار على القيروان

(252) أبو زكريا : ورقة 11 .

(253) برونسفال : نبذ تاريخية ص 49 ، محمد الشطبي : الجبان ورقة 303 مخطوط .

(254) أبو زكريا : ورقة 11 .

(255) الدرجيني : ج 1 ورقة 17 ، الشماخي : السير ص 134 .

(256) يفهم ذلك من رواية لابي زكريا يقول فيها أن أبا حاتم لام أصحابه على تعديهم وأمرهم برد ما أخذوه من أسلاب ، وهددهم بالتخلي عن الامانة ما لم يجيبوه . انظر : السيرة ورقة 12 .

(257) النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(258) من الملاحظ أن المصادر جميعا تضطرب وتختلط حين تسرد هذه الاحداث ، وقد اثبتنا ما نعتقد أنه الصواب على هدى تلك الروايات المخلطة . انظر : أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 17 ، الشماخي : السير ص 134 ، ابن مغازي ج 1 ص 88 ، ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ،

سنة 153 هـ (259) (770 م) .

ثم غادر أبو حاتم القيروان ليسهم في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، ذلك الحصار الذي اشترك فيه الإباضية مع الصفرية جنباً إلى جنب لأول مرة . وقد اشترك أيضاً عبد الرحمن ابن رستم ومعه خمسة عشر ألف فارس (260) ، والمسور بن هانيء الزناتى في عشرة آلاف فارس (261) ، فضلاً عن جموع الصفرية بقيادة أبى قرة . لكن الحصار لم يستمر طويلاً ، فقد حدث نزاع بين الإباضية والصفرية أسفر عن فشله . وآثر أبو حاتم العودة لحصار القيروان ، بينما انسحب عبد الرحمن بن رستم برجاله إلى تهودة . وهناك لحق به عمر بن حفص وأنزل به هزيمة عاد بعدها إلى تاهرت مدحوراً (262) . أما المسور الزناتى فالراجح أنه لحق بأبى حاتم وانضم إليه في حصار القيروان (263) .

شدد أبو حاتم الحصار ، وضيق على أهل القيروان بجيشه البالغ مائة وخمسين ألفاً (264) ، ناشدت الكرب بالمحاصرين ونفذ ما لديهم من المؤن والأقوات (265) ، واضطر كثيرون منهم إلى الخروج من المدينة والانضمام إلى الإباضية (266) .

ترك عمر بن حفص طبنة على وجه السرعة لفك الحصار عن القيروان ، وخرج الإباضية بأجمعهم لإجهزوا عليه قبل قدومه ، لكنه أخذ

(259) تخطئ المصادر الإباضية حين تزعم أن أبا حاتم حاصر ابن الأشعث في القيروان وأرغمه هو وجنوده على الرحيل إلى المشرق . فمن المعروف أن ابن الأشعث غادر القيروان سنة 148 هـ بعد ثورة الجند الخلفاء عليه . وجدير بالذكر أن هذه المصادر تتجاهل ولاية عمر بن حفص إفريقية فتسقطها ، ولا تورد شيئاً من ثم عن الصراع بينه وبين الإباضية . راجع : أبو زكريا : ورقة 12 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 .

(260) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .

(261) ابن الأثير : ج 5 صفحة 221 .

(262) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ذكر الرقيق أن ابن رستم فقد في المعركة ثلاثمائة من رجاله بينما ذكر ابن عذارى أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف . راجع : تاريخ إفريقية والمغرب ص 143 ، البيان المغرب ج 1 ص 19 .

(263) يفهم ذلك من قول ابن الأثير بأن أبا حاتم « كثر جمعه » بعد أن غادر طبنة . راجع الكامل ج 5 صفحة 222 .

(264) ابن عذارى : ج 1 ص 89 وتبالغ بعض الروايات فتذكر أن جيش أبى حاتم بلغ خمسة وثمانين ألف فارس وثلاثمائة وخمسين ألف رجل . راجع : الطبري : ج 8 ص 42 ، البرادى : الجواهر ورقة 88 ، المعنى : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .

(265) ابن الأثير : ج 5 صفحة 222 .

(266) الرقيق : ص 144 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .

طريقاً مغايراً ، فسلك طريق تونس بدلاً من الأريس (267) . وبأدر بشحن القيروان بالمؤن والاقوات والميرة والرجال وأدوات الحصار (268) . وحفر خندقاً على باب أبي الربيع جعل عسكره من خلفه مؤثراً سياسة الدفاع (269) .

وقد عادت هذه السياسة على ابن حفص بأوخم العواقب ، فلم يتوان الإباضية عن قتاله ، واضطر للخروج لفك الحصار — الذي فرضه على نفسه — فهزم وارتد إلى خندق أبي الربيع معتصماً به (270) . وتبعه أبو حاتم حتى جاوز مشارف الخندق ، كما وزع رجاله على سائر أبواب المدينة لمنع المحاصرين داخلها من الخروج ، وظلوا كذلك حتى نفذت اقواتهم (271) . وزاد الأمر سوءاً ، اختلاف قواد عمر بن حفص عليه وتقاعسهم عن القيام بمحاولة يائسة لفك الحصار (272) . وحين وصله خبر قدوم يزيد بن حاتم لنجدته ، استنكف الانتظار وآثر الموت ، فظل يقاتل الإباضية حتى قتل (273) في منتصف ذي الحجة من سنة 154 هـ (771 م) .

عقد أبو حاتم صلحاً (274) مع جميل بن صخر — الذي تزعم الجند بعد مقتل أخيه لأمه عمر بن حفص (275) — ثم دخل القيروان « فأحرق أبوابها وثلم سورها » (276) واستخلف عليها عاملاً من قبله . واتجه إلى طرابلس حين علم بمقدم يزيد بن حاتم على رأس جيش من الشرق لكنه اضطر للعودة إلى تونس لقيام ثورات الجند العربي على عماله في الزاب ،

(267) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، والأريس إحدى مدن إفريقية تقع غربى القيروان بمسيرة ثلاثة أيام . السلاوى : ج 1 ص 118 .

(268) الرقيق : ص 144 ، ابن عذارى : ج 1 ص 89 .

(269) النويسرى : ج 22 ورقة 21 .

(270) الرقيق : ص 144 ، النويرى ج 22 ورقة 21 .

(271) الرقيق : ص 145 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 .

(272) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(273) الرقيق : نفس المصدر ص 146 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 . وثمة رواية لابن وردان تصور هرب عمر بن حفص إلى جبل الأوراس وقتله غدراً أثناء فومه . راجع : تاريخ الأغلبية ورقة 5 — مخطوط .

(274) يبدو أن أبا حاتم كان يريد عقد الصلح على وجه السرعة ليتفرغ للقاء جيش يزيد بن حاتم ، ومن ثم اتسم الصلح بالتساهل المفرط مع غريبه ، فقد نص فيه على ألا يكره أحد من الجند على بيع سلاحه ودوابه وعلى أن كل دم أصابه الجند من البربر فهو هدر . انظر : الرقيق ص 146 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(275) ابن الأثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

(276) الرقيق : ص 147 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

فنجح في تفريق بعضهم (277) ، وعهد الى بعض قواده بمهمة القضاء على البعض الآخر (278) ومضى الى طرابلس لمواجهة يزيد بن حاتم (279) والواقع أن ابا حاتم كان في موقف لا يحسد عليه ، مفضلا عن ضخامة حملة يزيد بن حاتم وحسن استعدادها (280) دب الخلاف داخل معسكره، فانحازت قبيلة مليلة الهوارية الى يزيد (281) ، وكذلك بعض رجال نفوسة الذين استرشد بهم في الوقوف على عورات البلاد (282) .

على كل حال — تمكن أبو حاتم بإحدى الأمر من هزيمة طلائع جيش يزيد التي قادها سالم بن سودة التميمي (283) عند مغمداس (284) وقتل منها اعدادا غفيرة (285) . لكن لحسن بلاء يزيد وقيادته الجيش بنفسه (286) ، اضطر أبو حاتم الى الاعتصام بجبل نفوسة في موضع حصين خلف خندق حفرة الاباضية على وجه السرعة (287) غير أن يزيدًا افسد خطته ، فتمكن من اجتياز الخندق ، والتحمت جيوشه بالاباضية فهزموهم « وقتل أبو حاتم ومن معه من أهل البصائر » (288) في المعركة .

-
- (277) يد أبو حاتم شمل جميل بن صخر وجنده عند تونس ، كما ارغم لخارق بن غنار الطائي على مغادرة القيروان . انظر : الرقيق ص 148 .
- (278) بعث أبو حاتم جرير بن مسعود المديوني في اثر عمر بن عثمان النهري الى أرض كتامة ، لكن جريرا هزم وقتل . انظر : الشماخي : ص 135 .
- (279) الرقيق ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 91 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النوسري : ج 22 ورقة 22 .
- (280) تجمع المصادر على ضخامة الحملة فتقدر مددها بها يتراوح بين تسعين الف ومائة وعشرين الف ، نصلهم من الفرسان . انظر : اليعقوبي : تاريخه ص 120 ، البلاذري : فتوح البلدان ص 275 ، الرقيق : ص 159 ، وابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، الميمني : ج 13 ورقة 16 ، الشماخي : السير ص 136 .
- (281) أبو زكريا : ورقة 12 ، الشماخي : ص 136 .
- (282) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 .
- (283) النويري : ج 22 ورقة 22 .
- (284) مكان حصين بجبل نفوسة في نواحي طرابلس . راجع : الرقيق ص 159 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 .
- (285) الرقيق : ص 160 ، النويري : ج 22 ورقة 22 . يعتقد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن ابا حاتم هزم في تلك المعركة على الرغم من اجماع المؤرخين اباضية وغير اباضية على انتصاره فيها . انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص 329 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 22 ، أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 ، الشماخي : السير ص 139 .
- (286) الرقيق : صفحة 160 .
- (287) نفس المصدر والصحيفة ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 ، النويري : ج 22 ورقة 22 .
- (288) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 ، النويري : ج 22 ورقة 22 .

كما قتل جمهور عظيم من الاباضية (289) ، بلغ ثلاثين الفا (290) . واستبدت بيزيد شهوة الثار لعمه عمر بن حفص (291) « فطلب الاباضية في كل سهل وجبل » (292) ويطش بهم . ثم استعمل احد عماله على طرابلس ونهض الى القيروان سنة 155 هـ (293) (772 م) .

والحق — أن تلك الضربة الماحقة التي الحقها يزيد بن حاتم بالاباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج الاباضية في صورته الشاملة المنظمة حقيقة أن حركاتهم لم تحبط بصورة نهائية في عهد يزيد ، لكنها كانت تفتقر الى التنظيم والشمول ، ومن ثم لم يجد امراء آل المهلب في افريقية عناء في قمعها وردعها . فثورة هواراة بزعامة ابي يحيى بن قرياس سنة 156 هـ (773 م) بنواحي طرابلس انتهت بكارثة لاباضية هواراة على يد عبد الله بن السهت الكندي الذي قتل ابا يحيى وعامة أصحابه (294) . وحسبنا أننا لم نسمع عن أى نشاط للاباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذى امتد حتى عام 170 هـ (786 م) ، ولذلك حق لابن عذارى (295) أن يقول « تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم » . وإذا كان يزيد بن حاتم قد قضى على ثورات الاباضية في شكلها الشامل المنظم ، فإن خليفته داود بن حاتم تمكن من « حصد شوكتهم » (296) ، ففى عهده ثارت قبيلة نفزة الاباضية بجبال باجة بزعامة صالح بن نصير (297) ، ونجح في هزيمة قوات داود ، لكن سليمان بن الصمة احد رجال داود تمكن من هزيمته (298) . كما حارب سليمان نفرة في معركة أخرى بشقنبارية (299) لم يقم لها قائمة من بعدها (300) . كما أحبطت ثورة اباضية هواراة سنة 180 هـ (796 م) بزعامة عياض بن

-
- (289) اليعقوبى : تاريخه ص 12 .
(290) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 193 ، وبيالغ النويرى فيذكر ان القتل من معسكر يزيد كانوا ثلاثة فقط والصحيح ما رواه الرقيق من أن عددهم بلغ « ثلاثة رهط » انظر : النويرى نهاية العرب ج 22 ، الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب ص 160 .
(291) الرقيق : صفحة 159 .
(192) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 194 ، ابن الاثير ج 5 ص 223 .
(293) نفس المصادر والصلحات .
(294) ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن الاثير : ج 5 ص 4 .
(295) البيان المغرب ج 1 صفحة 94 .
(296) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 113 ، السلاوى : ج 1 ص 120 .
(297) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 115 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(298) الرقيق : ص 169 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(299) احدى كور الاربس بالبريقية . راجع الرقيق ص 169 .
(300) الرقيق : ص 169 ، ابن عذارى : ج 1 ص 99 ، ابن خلدون : ج 6 ص 113 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

وهب الهواري (301) . اما اباضية نفوسة فقد استكانوا وغلبوا على
أمرهم بعد فشل حركة أبي حاتم . وقبل ذلك كان اباضية زناتة قد بطش
بهم ابن الأشعث سنة 144 هـ (760 م) .

وهكذا تصدعت حركات الاباضية في المغرب الأدنى وافريقية ، بينما
نجح عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة اباضية المغرب الاوسط في تأسيس
دولة بتاهرت سنة 161 هـ (1977 م) ، تلك الدولة التي امتد نفوذها فيما
بعد لتضم اباضية المغرب جميعا بعد أن دانوا بالولاء والتبعية لائمتها ،
واقامت دليلا عمليا على نجاح ثورات الاباضية في تحقيق مراميها في تكوين
دولة اباضية بالمغرب .

(301) ابن الاثير : ج 5 ص 46 ، ابن خلدون : المعبر ج 4 ص 195 ، ابن تمزي يسري :
ج 2 صفحة 90 .

ثالثا :

نتائج ثورات الخوارج في بلاد المغرب

نخلص من هذا العرض لثورات الخوارج — صفرية وإباضية — في بلاد المغرب بعدة نتائج منها أن هذه الثورات كانت تتأثر — ان ضعفا وان قوة — بموقف الخلافة في الشرق أموية وعباسية ، واهتمامها بشؤون بلاد المغرب أو انصرافها عنها . وحسبنا أن اندلاع ثورات الخوارج في المغرب واكب اضطراب الخلافة الأموية وانشغالها بالخصومات القبلية والصراعات حول السلطة بين أفراد البيت الأموي (302) . وازدادت هذه الثورات تأججا وغلبت على بلاد المغرب جميعا بعد موت هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (303) (743 م) الذي كان يولى بلاد المغرب عناية خاصة ، « فوقع الاضطراب بافريقية » (304) وطرق الخلل . . لخفوت صوت الخلافة بالمشرق (305) . ويكفى أن عبد الرحمن بن حبيب اغتصب حكم افريقية له ولآله من بعده ، ففى غيبة الخلافة وعمالها آنذاك بلغت ثورات الخوارج أوجها حتى غدت القيروان ذاتها ميدانا للصراع بين الإباضية والصفرية ، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله (306) « .. وأعزل

(302) الحميدى : جذوة المقتبس ص 8 ، الضبى ، بغية الملتبس ص 14 .

(303) أخبار مجموعة ص 36 .

(304) الحميدى : المرجع السابق ص 8 .

(305) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 15 .

(306) العبر : ج 6 صفحة 11 .

أمر الخارجية ورؤسها » . ولم يكن ذلك إلا « لانشغال بنى أمية عن
تأصية الثغور » (307) .

ومن الطبيعي أن تتفاقم ثورات الخوارج ويزداد خطرهما بقيام الدولة
العباسية التي اهتمت في عهد السفاح بأمور المشرق أكثر من اهتمامها بأمور
المغرب (308) ، فانتقل العاصمة من دمشق الى بغداد وسع الهوة بين
بلاد المغرب ومقر الخلافة (309) ، ومن ثم خرج عن طاعته « ما بين تاهرت
وطبنة الى بلاد السودان وجميع مملكة الاندلس (310) .

وقد تغير الموقف تماما في خلافة المنصور ، فكانت سياسته قائمة
على أساس الاحتفاظ بالمغرب وعدم التفريط فيه (311) ، فاختار ولاته
من خاصته الأكفاء « من ذوى رأى الاصيل والخطر الجليل » (312) ،
كابن الاشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، كما أنفق المال بسخاء في
اعداد حملاته على المغرب مع ما عرف عنه من بخل وشح (313) . وتغلب
على مشكلة طول المسافة وبعد الشقة بين بغداد والمغرب بأن عهد الى
ولاته بمصر بمسؤوليات اعداد الجيوش وتيادتها (314) . واقتفى الرشيد
نفس السياسة من الاهتمام بأمور المغرب (315) . فقد حرص على اختيار
ولاته من ذوى « الخداع والدهاء والغدر » (316) . كما كان على صلة
دائمة بهؤلاء الولاة ، وكثيرا ما ساهم في رسم سياساتهم ووضع خططهم في
محاربة الخوارج (317) . فاستطاع أن يحتفظ بأفريقية بعد أن كادت تسقط
في أيديهم (318) .

هذا وقد تأثرت ثورات الخوارج بشخصية الولاة وسياساتهم وما

-
- (307) المقرئ : نفع الطيب ج 1 صفحة 222 .
(308) عن الطابع الشرقي للخلافة العباسية وأعمال السفاح لشؤون المغرب انظر : محمود
اسماعيل : الاغالبية ، سياستهم الخارجية ص 1 ، 2 .
(309) عن الطريق البرية بين بغداد وبلاد المغرب انظر : قدامة بن جعفر : الخراج
صفحة 220 — 225 .
(310) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 258 .
(311) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .
(312) الرقيق : ص 151 ، ابن عذارى : ج 1 ص 98 .
(313) البلاذري : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تفرى بردى : ج 2 ص 20 .
(314) ابن تفرى بردى : ج 2 ص 23 .
(315) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .
(316) ابن طباطبا : الفخرى في الاداب السلطانية ص 127 .
(317) ابن الأبار : الحلة السراء ج 2 ، ص 358 .
(318) ابن الاثير ج 5 ص 221 ، Mercier : Histoire de l'Afrique. P. 142.
Muir : The Caliphate. P. 461.

هم عليه من قوة أو ضعف ، وما لسياساتهم من آثار في جمع شمل الجند أو بعثرتهم . فقد أدى نشوب الصراع القبلى بين القيسية واليمينية (319) الى ما حل بجيش كلثوم بن عياض القشيري من كارثة على يد الصفرية في موقعة بقدورة سنة 123 هـ (740 م) . واثبتت تلك الموشعة أن الخوارج كانوا يفيدون من انقسام الجند العربى ، وهى حقيقة يؤكدها سقوط القيروان واستيلاء الصفرية عليها ثم الإباضية بسبب الخلافات بين افراد الاسرة الفهرية (320) .

وكانت ثورات الخوارج تزداد تأججا ونجاحا حين كان الولاة يشغلون عنها بانقاذ حملاتهم خارج المغرب فكان الخوارج يجدون في غياب الجند العربى فرصة مواتية لتعبئة الجهود وعلان الثورة . وحسبنا أن أولى ثورات الخوارج التى تزعمها ميسرة قامت في الوقت الذى كانت فيه جيوش ابن الحبحاب تغزو في صقلية (321) . كما اندلعت هذه الثورات بصورة شاملة حيث « استشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية » (322) في وقت انشغال جيوش ابن حبيب بغزو سردينية وصقلية (323) . وقد استطاع ابن الأشعث بفضل كفايته العسكرية (324) أن يضعف الخوارج وأن « يضبط إفريقية » (325) ويحصن القيروان وطرابلس وطبنة (326) ، لكن لم يقدر له النجاح في القضاء نهائيا على ثوراتهم بسبب ثورة الجند العربى عليه وطرده من الولاية (328) . وكان القتل من نصيب الاغلب بن سالم لعقده العزم على استئصال شائفة الخوارج ومهاجبتهم في معانهم بتلمسان والمغرب الاقصى ، فقد ثار عليه جنده وقتلوه سنة 148 هـ (329) (765 م) وأعطوا بذلك الفرصة لاستفحال خطر أبى قرة الصفرى .

كما ارتبطت هزائم الخوارج بكفاءة الولاة واستقرار أحوال الجند الخلافي ، ولا يخفى ما بلغه عمر بن حفص من شجاعة ودهاء وحسن

-
- (319) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(320) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 190 .
(321) الرقيق : صفحة 109 .
(322) ابن خلدون : ج 6 صفحة 111 .
(323) ابن الاثير : ج 5 صفحة 116 .
(324) الطبرى : ج 7 صفحة 459 ،
(325) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(326) البكرى : ص 7 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(327) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(328) ابن الاثير : ج 5 ص 119 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .

Biquet : Op. Cit. P. 42

بصيرة ، ولعل في رحيله عن القيروان وتحصينه طبنة ما ينم عن ادراك واع لمكن الخطر في نشاط الخوارج وافلاته من حصار خوارج المغرب اباضية وصفرية اضاف الكثير الى قدراته الفذة وفي نهايته البطولية وموته وهو يقاتل الخوارج وحيدا ما جعل المؤرخين يطلقون عليه — بحق — لقب « هزار مرد » (330) . كما استطاع يزيد بن حاتم ان يتصدى لثورات الخوارج ، وبفضل كفايته ومقدرته « سكن الناس في افريقية » (331) . واثمر هذا الهدوء في عهد خلفه روح بن حاتم (332) . ثم قدم هرثمة بن اعين الى افريقية سنة 179 هـ (795 م) ليقتضى على ما بقى للخوارج من رمق ، واعاد الحياة الآمنة الى بلاد المغرب (333) .

من ناحية اخرى — استفاد الخوارج من أخطاء عمال الخلافة بالمغرب ، وكانوا يتخرون الوقت للخروج اعتمادا على تلك الأخطاء . فقد خرج ميسرة في الوقت الذي كان فيه جيش ابن الحبحاب في صقلية ، كما امتدت ثورات الخوارج وانتشرت ابان الازمات التي أصابت الخلافة في الشرق او اثناء الفتن القبلية بين الجند العربى قيسية ويمنية كالخصومة التي وقعت بين حبيب بن أبى عبيدة اليمنى وبين كلثوم بن عياض القيسى ، او الصراع بين الجند العربى في افريقية وبين العناصر الفارسية والخراسانية في عهد ابن الأشعث والاعلى بن سالم . يضاف الى ذلك الصراع حول الولاية بين عبد الرحمن بن حبيب وبين حنظلة بن صفوان ، ثم الصراع الدموى داخل اسرة بنى حبيب ، فسُنحت للخوارج الفرصة لتحقيق انتصاراتهم التي اشرفنا اليها .

كما تميزت حركات الخوارج في المغرب بالشمول وسعة الانتشار . وذلك بفضل الثورة الاولى التي قادها ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) ، فقد كانت نموذجا اقتفاه ثوار المغرب الاوسط والادنى من الصفرية والاباضية على السواء (334) . وجدير بالذكر ان هذا الطابع المنظم لحركات الخوارج ساعد على انتشارها في سائر ربوع المغرب في

(329) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ، السلاوى : ج 1 ص 116 ، Muir : Op. Cit. P. 481.

(330) وتعنى بالفارسية « الف رجل » كتابة على شجاعته النادرة .

(331) ابن الاثير : ج 5 ص 4 .

(332) نفس المصدر ص 38 ، ابن خلدون : ج 5 ص 194 ، Biquet : Op. Cit. P. 44 .

(333) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، السلاوى : ج 1 ص 121 .

(334) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 14 .

وقت واحد ، فما ان تظهر الثورة في ناحية حتى يمتد أثرها الى ما عداها من اقاليم المغرب فتجتاح البلاد من مشرقها الى مغربها (335) .

كما اشتهر الخوارج في حروبهم بالشجاعة والاستبسال شأنهم في ذلك شأن الخوارج في الشرق « فكانوا يخلقون الرعوس وترتفع أصواتهم بالتحكيم » (336) اذكاء للحماس الذي عوضهم عن نقص السلاح .

لقد كان العرب يعتمدون في خططهم على الفرسان بينما كانت جيوش الخوارج في الغالب من الرجالة ، ومع ذلك ابتكر الخوارج من الوسائل ما كانوا يرهبون بها خيل العرب وفرسانهم ، فيوقفون تقدمهم برميها « بالابواضاف (337) وهي الجلود اليابسة فيها الحجارة » (338) . كما كانوا يعتمدون الى « الرمك الصعبة فيعلقون في أذنابها القرب والانطاع اليابسة ويوجهونها نحو الخيل فتتفر » (339) .

والى جانب الحماس والشجاعة تميزت ثوراتهم في كثير من الاحيان بالتنظيم المحكم الدقيق . وحسبنا ان انتصارات ميسرة جاءت نتيجة اعداد وتخطيط ، فكانت جيوشه تهاجم معازل العرب في وقت واحد (340) ، كما نجح خلفه خالد بن حميد الزناتى في تطويق الجيش العربى رغم ضخامته وايقاعه في « كمين البربر » (341) ، وحصار القيروان من ناحيتين من قبل عكاشة النفزاوى وعبد الواحد الهوارى في محاولة للاطباق عليها (342) كان نتيجة تدبير محكم بين القائدين الصفريين ، ولم يحل دون نجاحهما الا مظنة حنظلة بن صفوان لخطتهما وافسادهما . ومن أسباب نجاح عاصم بن جميل في الاستيلاء على القيروان براعته في ايهام أهلها بأنه يوالى الخليفة المنصور (343) . وكان انسحاب أبو ثرة الصفرى امام جيوش الاغلب ابن سالم تخطيطا ذكيا لجره الى اقاصى المغرب في بلاد كان سكانها من

(335) مجهول : اخبار مجبوعة ص 29 ، ابن عذارى ج 1 ص 88 .

(336) اخبار مجبوعة صفحة 32 .

(337) ابن عبد الحكم صفحة 295 .

(338) اخبار مجبوعة صفحة 33 .

(339) نفس المصدر والصحيحة .

(340) اخبار مجبوعة ، صفحة 29 .

(341) ابن الاثير : ج 5 صفحة 69 .

(342) نفس المصدر : صفحة 70 .

(343) نفس المصدر : صفحة 117 .

الخوارج الصفرية حتى يضمن القضاء عليها جميعا (344) . وتفويض المصادر الاباضية بالكثير عن خطط الاباضية في اعداد الجيوش ومباغثة الخصوم اعتمادا على وسائل التمويه والخداع . ومن امثلة ذلك سياسة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح في اعداد جيوشه خارج طرابلس ثم دخوله المدينة وجنوده « مستترين في جواليق يحملها الجمال » والاستيلاء عليها في غفلة من اهلها (345) على غرار ما هو مشهور عن حرب طروادة. الا ان ابا الخطاب ذاته كان ضحية حيلة دبرها ابن الاشعث تمكن بواسطتها من هزيمة الاباضية ، على الرغم مما تسوقه المصادر الاباضية من حجج تدل بها على فطنة القائد الاباضى لحيلة ابن الاشعث (346) .

وفضلا عن ذلك فقد اتسمت حركات الخوارج في المغرب بالاصرار المستميت على البقاء رغم ما حل بهم من نكبات وخاصة في عهدي المنصور والرشيد ، وحسبنا في هذا الصدد مذابح ابن الاشعث في الاباضية ، وما لاقاه الاباضية والصفرية على السواء في المجازر التي قام بها يزيد بن حاتم وعماله .

حقيقة ان هذه الضربات أوهنت حركات الخوارج وفتت في عضدها ، لكنها لم تقض عليها قضاء تاما ، فكان الخوارج عقب تلك المحن يدأبون على اعادة التنظيم ولم الشمل سرا بزعامة من سموه « بامام الدفاع » (347)، فاذما ما انسوا من انفسهم قوة عاودوا الخروج وأعلنوا الثورة على الولاة ، وهذا يفسر استمرار هذه الثورات قرابة نصف قرن ، فلم تخب نارها حتى حققت اهدافها وقامت للخوارج دول ببلاد المغرب ذات طابع استقلالى قومى .

ويتضح هذا الطابع القومى بشكل ظاهر في قيادة ثورات الخوارج فباستثناء ابي الخطاب المعافري — الذى كان من أصل عربى — تصدرت ثورات الخوارج قيادات من البربر بترا وبرانيس ، فميسرة من مطغرة ، وخالد بن حميد الزناتى من زناتة ، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة ، وعبد الواحد

(344) ابن خلدون : ج 6 صفحة 112 .

(345) ابو زكريا : ورقة 7 .

(346) نفس المصدر ورقة 10 ، الشماخى : السمر ص 132 .

(347) الشماخى : صفحة 133 .

الهورى من هوار ، وعاصم بن جميل من ورفجومة ، وأبو قره من مغيلة وكلهم من زعماء الصفريّة . أما زعماء الإباضية ، فقد كان عبد الله بن مسعود التجيبى من هوار ، وكذلك كان الحارث وعبد الجبار ، ومن نفوسة تولى اسماعيل بن زياد ، وكان أبو حاتم المزوزى من هوار . ولا شك أن تصدر هذه الزعامات لثورات الخوارج في بلاد المغرب تعبير حى عن شخصية المغرب الإسلامى المستقلة وتجسيد لدوره الإسلامى بعد اعتناق البربر مبادئ الخوارج .

هذا ، ولم تسلم حركات الخوارج من نقائص وسلبيات ، ولعل أهمها أنه لم يكن هناك ثمة تعاون بين فرقتى الصفريّة والإباضية ، وهى آفة موروثة عن خوارج المشرق . ولا نعتقد أنها كانت في المغرب من جراء التجمعات القبلية التى اعتمد عليها كل فريق ، ذلك أن المذهبين الإباضى والصفري انتشرا بين البربر واعتنقت بعض بطون القبيلة الواحدة المذهب الصفري في حين اعتنق بعضها الآخر المذهب الإباضى كما هو الحال بالنسبة لزنانة وهوار . إنما كان عدم التعاون مرده الى الخلاف الجوهرى بين عقائد كلتى الفرقتين وهو خلاف يحول دون التقائهما فلم يكن قدوم داعيتى الفرقتين الى المغرب على ظهر بعير واحد . يعنى تعاوننا مشتركا أو توحيدا للجهود كما توهم البعض — وخاصة ابن خلدون — ممن خلطوا بين نشاط الإباضية والصفريّة في المغرب ، بل اتخذت الفرقتان اتجاها مغايرا ، فبينما اتجه الإباضية الى الأقاليم الشرقية من بلاد المغرب ، يمم الصفريّة وجههم شطر الأجزاء الوسطى والقصوى منه . وإذا كانت بطون زنانة المنتشرة في سائر جهات المغرب قسمة بين الفرقتين ، فلم يقدر لها أن تكون همزة الوصل بينهما ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن إباضية زنانة كانوا معول هدم في حركات الإباضية ، وحسبنا دورهم المخرب في ثورة أبى الخطاب المعافرى (348) . وليس من شك في أن ما حدث من صراع بين الإباضية والصفريّة على القيروان سنة 140 هـ (757 م) كان من أهم أسباب اضعافهما ووقوعهما لقمة سائغة لجيوش ابن الأشعث هرة بعد أخرى . وما يروى عن تعاون بينهما في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) أمر مشكوك في صحته .

ومن عيوب خوارج المغرب أيضا ما حدث من خلافات وانشقاقات

(348) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .

داخل كل من الفرقتين ، ويخيل إلينا أنها كانت من ميراث المشاحنات القبلية التقليدية التي عرفها تاريخ المغرب فمثلا نعتقد أن الخلاف على ميسرة واقصائه عن زعامة الصفرية وتولية خالد بن حميد الزناتى بدلا منه ، كان محاولة من زناتة لتزعم الحركة ، واقصاء مطغرة عن مركز الصدارة كان بسبب تلك النزعة الزناتية (349) . ومن المؤكد أن برغواطة اعتزلت النشاط الصفري واتخذت عقائدها طابع التطرف من جراء ما حل بحليفها ميسرة المطغرى من اهمال ونكران (350) . وكذلك كان شأن الاباضية ، دب بينهم الخلاف والشقاق ، وقد سبقت الإشارة الى دور زناتة في تصدع حركة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمع وتخليها عنه في وقت عصيب لاسباب قبلية كامنة في التنافس بينها وبين هواره . كما تولى بعض رجال نفوسة (351) ومليلة (352) عن أبى حاتم الملوzy وانضموا الى يزيد بن حاتم ، فأدى ذلك الى هزيمة الاباضية سنة 154 هـ (770 م) .

ويعاب على خوارج المغرب كذلك سطحية الفهم لمبادئ المذهب ، واسرائفهم في تطبيق تعاليمه . لقد حضت مبادئ الخوارج على الثورة على أئمة الجور (353) ، لكن خوارج المغرب أعلنوا الثورة في كثير من الأحيان على الحكام العرب بغض النظر عن تعديهم وظلمهم أو عدلهم ونزاهتهم ، فلا شك أن بلاد المغرب حكمها ولاية مستثيرون دأبوا على الإصلاح من أمثال عمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، لكن ثورات الخوارج استهدفت الحكم العربى عموما ، فلم يسلم هؤلاء الولاية من خطر الخوارج . كما أسرف الصفرية بوجه خاص في استخدام العنف والقسوة فكانوا يقتلون الاطفال ويسبون النساء انطلاقا من تطرف المذهب الصفري في معاملة الخصوم .

وأمة ثورات الخوارج عموما في المغرب عدم اتصالها وتنسيقها مع حركاتهم في الشرق ، ولو أحكم مثل هذا الاتصال لكانت نتائجها أكثر نجاحا ، ولما قدر للخلافة أن تصفى نشاط خوارج الشرق بمثل السهولة التي

(349) اليمتوبى : البلدان : صفحة 359 .

(350) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ،
Marçais : La Berberie Musulmane. P. 48.

(351) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 .

(352) أبو زكريا : ورقة 12 ، الشباخي : السير ص 136 .

(353) البغدادي : الفرق بين الفرق 273 .

تمت بها (354) .

ومع ذلك كانت لثورات الخوارج آثار واضحة في تاريخ المغرب ، ذلك أن هذه الثورات احتوت سائر قبائل البربر بترا وبرانس ، ولم تكن حكرا على قبيلة زناتة كما يذهب جوتييه الذى نظر الى ثورات الخوارج على انها ثورات زناتة دون سواها ، الامر الذى جعلنا نقف عند رايه هذا محاولين أن نناقشه متبينين ما فيه من خطأ أو اسراف .

يقول جوتييه « ما هي مراكز الثورات ؟ وما هي القبيلة التي رفعت العلم الذى تركه كسيلة والكاهنة منكسا ، لقد اختلف المؤرخون العرب كعادتهم حول هذا الامر وان أجمع معظمهم في اقتضاب على ذلك الشيء الواضح للعيان ، على زناتة . لقد قامت الثورة بادية الامر في طنجة ، وما لبثت أن وصلت الاندلس على التو . . ثم انتشرت على طول الطريق من طنجة الى القيروان . . انتهت الثورة الاولى بمعركة الاشراف على وادى شلف ، والثانية على وادى سبو والثالثة في القرن على مشارف القيروان ، اما الرابعة فقد وقعت في الشرق بنواحي طرابلس . . وهذا يعنى أن الاحداث البارزة في الفترة ما بين عامي 743 ، 752 م (125 ، 135 هـ) تركزت حول طرابلس وتونس وتلمسان . أما تلك التي وقعت في عامي 757 ، 758 م (140 ، 141 هـ) فكانت القيروان ميدانها حين وقعت لمريسة لورفجومة الصفرية . وقد تمثل رد الفعل العربى في حملة ابن الاشعث الذى هزم الخوارج في سرت واسترد القيروان لكنه أخفق في اقصاص الخوارج عن تلمسان التي كانت مركزا لحركة ابي قره اليفرنى سنة 765 م (148 هـ) .

ثم استرد الخوارج طرابلس مرة أخرى ، ونصبوا الحصار حول القيروان . ويجمع المؤرخون على حصارهم طبنة سنة 770 م (153 هـ) ثم القيروان حيث صرع عمر بن حفص سنة 771 م (154 هـ) اثناء الحصار.

(354) من أهم حركات الاباضية في الشرق والمعاصرة لثوراتهم في المغرب حركة ابي حمزة وطالب الحق باليمن وحضر موت ، وقد تم القضاء عليها سنة 134 هـ وكذلك حركة الجلندى بعمان التي قمت في نفس العام . انظر ابن الاثير ج 5 ص 145 ، 169 . أما حركات الصفرية فاشهرها ثورة شيبان الخرورى بالموصل التي اخمدت سنة 130 هـ ابن الاثير : ج 5 ص 132 . وحركة شيبان بن عبد العزيز سنة 134 هـ ، وقد قتل على يد الجلندى الاباضى حين لجأ اليه هربا من العباسيين : انظر ابن الاثير : ج 5 ص 169 وحركة ملبد بن حملة الصفرى سنة 137 هـ ، وقد قتل في عهد المنصور سنة 138 هـ . راجع : ابن الاثير : ج 5 ص 180 ، 181 .

وتمثل رد الفعل العربى فى حملة يزيد بن حاتم وجهوده غربى القيروان فى
الاريس وطبنة والزاب . وبعد ذلك حلت فترة سلام امتدت بين عامى
771 ، 778 م (154 ، 170 هـ) . وعلى ذلك فان ثورات الخوارج قد
تسفلت النصف الاخير من القرن الثامن الميلادى ..

فما هو اذن الميدان الذى دارت فيه تلك الاحداث التاريخية ؟ لقد
دارت فى طنجة ووادى سبو وتلمسان ووادى شلف وهدنة وجنوب تونس
وطرابلس ، وكلها تقع فى سلسلة السهول والهضاب العالية التى تقطنها
زناتة .. لقد كانت روح زناتة اذن هى الدافع وراء هذه الاحداث . وليكن
معلوما ان هذا الزلزال العظيم الذى اجتاحت بلاد المغرب كان يحركه — ضمن
عوامل اخرى — عامل مغربى خالص ظهر على الاقل فى الثورات الاولى
التي قامت فى طنجة . ويجب الا يغيب عن البال ان حركات الخوارج انطوت
على عناصر تنتمى الى عالم الليفانت (يقصد الفرس والخراسانيين
والعرب) .. وعلى الرغم من اسهام بعض القبائل كصنهاجة وكتامة فى
ثورات الخوارج ، فمما لا شك فيه ان الزعامة فى هذه الحركات كانت دائما
لزناتة .. وعلى ذلك نسلم بداهة بان ثورات الخوارج فى المغرب ما هى الا
ثورة زناتة ، وان الدور الذى لعبته فى هذا الصدد هو اولى ادوارها على
مسرح التاريخ المغربى » (355) .

ويخيل البنا ان ممكن الخطأ فى رأى جوتييه هو نظريته الى المناطق
التي شهدت المعارك الكبرى بين الخوارج والعرب على انها مواطن قبيلة
زناتة دون ان يقطن الى امرين : اولهما ، ان مواطن القبائل البدوية لم
تكن ثابتة ثبوتا قاطعا ، فهى دائمة الترحال والانتقال بقطعانها وراء المراعى
ومواطن الكلا . وثانيهما ، ان قبيلة زناتة كانت منتشرة فى بلاد المغرب من
أدناها الى اقصاها مختلطة بغيرها من القبائل ، فمواطنها كما يقول ابن
خلدون (356) « فى سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب ، فمنهم ببلاد
النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى ، ومنهم قوم بالتلول بجبال
طرابلس وضواحي افريقية وبجبل أوراس ، والاكثر منهم بالمغرب الاوسط ،
ومنهم بالمغرب الاقصى أمم اخرى » . فالمعارك الكبرى اذن لم تقع فى
مواطن زناتة وحدها انما فى « سائر مواطن البربر » .

(355) راجع : Gautier : Les Siecles obscurs du Maghreb. P.P. 264 - 269.

(356) المبر : ج 7 صفحة 2 .

ثم أن جوتييه بنى رأيه على أساس أن المؤرخين العرب القدامى ذكروا أن زناتة وحدها تزعمت ثورات الخوارج وساعدت على قيامها . والحقيقة أننا لم نجد مؤرخا واحدا يشير الى مثل هذا الامر البتة . بل نجد عندهم من الاشارات ما يدل على عكس ذلك ، فابن خلدون (351) مثلاً يقول عن ثورات الخوارج في عهد عبد الرحمن بن حبيب « . . فاستشرى داء البربر ، وأعضل أمر الخارجية ورؤسها . فانتفضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الامر بكل ما كان داعين الى بدعتهم ، وتولى كبير ذلك يومئذ صنهاجة » .

ويكفى أن نشير الى ثورات الخوارج لنتبين هذا الاسراف في القول . فأولى الثورات في بلاد المغرب سنة 121 هـ (739 م) قامت بزعماء مطهرة أول الامر ، ثم تصدت زناتة بعد ذلك لقيادتها حين أقصى ميسرة وحل خالد ابن حميد الزناتى محله في زعامة الثورة . وإذا كانت زناتة قد برزت في هذه الحركة فذلك لا يعنى أنها كانت وقتها عليها ، بل ساهمت فيها قبائل المغرب الاقصى برمتها ، وهذا يفسر قول ابن الاثير (358) بأنها « شملت المسلمين والكفار » .

وإذا كانت زناتة قد تزعمت هذه الثورة في مرحلتها الاخيرة فان صوتها قد خفت بعد ذلك ، ثم عادت الى الظهور في حركة أبى قرة الصفرى . أما الثورة الصفرية الثانية التى تزعمها عكاشة بن أيوب النفاوى وعبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ (742 م) فقد لعبت هوارنة ونفزة (359) دور الصدارة فيها ، واشتركت فيها زناتة كحليف لعبد الواحد الهوارى (360) . أما ثالث ثورات الصفرية التى مكنت الصفرية من القيروان سنة 139 هـ (756 م) ، فقد قامت على اكتاف قبيلة نفزة بصفة عامة ورفجومة بصفة خاصة (361) ولم نسمع عن صوت لزنانة في ثورات الصفرية في اقليم الزاب ، فقد كانت مقصورة على قبيلتى نفزة وهوارنة (362) .

ولم يكن لزنانة دور يذكر في ثورات الإباضية ، فقد كانت الزعامة

(357) العبر ج 6 صفحة 111 .

(358) الكامل ج 5 صفحة 70 .

(359) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .

(360) ابن عبد الحكم : نفس المصدر والقيمة .

(361) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

(362) ابن خلدون : ج 2 ص 193 .

فيها لهوارة (363) . فحركة عبد الله بن مسعود التجيبي سنة 126 هـ (744 م) وثورة الحارث وعبد الجبار التي استمرت حتى عام 131 هـ (749 م) كانتا حركا على اباضية هوارة في أحواز طرابلس (364) . بينما تزعمت نفوسة الحركة التالية بزعامة اسماعيل بن زياد النفوسي سنة 132 هـ (750 م) (365) . ولا نجد لزنانة ذكرا الا في حركة أبي الخطاب المعافري سنة 140 هـ (757 م) وهي حركة كانت هوارة مركز ثقلها بينما لعبت زنانة فيها دورا غير مشرف (366) . وثورة الاباضية العظمى التي قام بها أبو حاتم المزوزي كانت ثورة هوارة أيضا ، وكان أبو حاتم نفسه من مليّة وهي بطن من بطونها (367) ، وظلت هوارة وحدها قائدة للحركات الاباضية التي قامت في سنتي 156 هـ (368) (773 م) و 180 هـ (796 م) (369) في المغرب الأدنى الى جانب ثورة نفزة بباجة التي قمعها داود بن حاتم (370) .

قصارى القول — أن زنانة أسهمت في ثورات الخوارج الصفرية مع غيرها من القبائل ، وكانت القيادة في هذه الثورات متداولة بين مطهرة وزنانة ونفزة وهوارة ومغيلة على التوالي . بينما يعتبر اسهامها في حركات الاباضية ضئيلا للغاية ، فقد تصدرت هوارة دون منازع هذه الحركات من البداية حتى النهاية .

ومهما يكن من أمر فقد أسفرت ثورات الخوارج عن قيام دولتين ببلاد المغرب احدها للصفرية سنة 140 هـ (757 م) ومركزها سجلماسة والآخرى للاباضية وعاصمتها تاهرت سنة 161 هـ (778 م) ، وكذلك كان قيام دولة الاغالبية في افريقية سنة 184 هـ (800 م) بمثابة رد الفعل العربى لقيام دول من البربر ، فقد حرص الرشيد على ضمان استمرار نفوذ الخلافة في افريقية حتى ولو كان هذا النفوذ اسميا ، ومن ثم فقد أقر قيام الامارة الاغلبية لتحول دون زوال هذا النفوذ ولتقف حاجزا امام خطر الدولة الادريسية العلوية والدولتين الخارجيتين المردارية والرسومية .

-
- (363) نفس المصدر ج 6 ص 144 .
(364) ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 .
(365) نفس المصدر ص 302 .
(366) ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(367) أبو زكريا : ورقة 12 .
(368) ابن عذارى : ج 1 ص 94 .
(369) ابن الاثير : ج 5 ص 46 .
(370) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

الباب الثالث

دول الخوارج في بلاد المغرب

كللت ثورات الخوارج الصفرية بالنجاح في المغرب الاقصى على يد ميسرة وخليفته خالد بن حميد الزناتي ، كما نجح الخوارج الاباضية فسى بسط نفوذهم على المغرب الادنى بعد قيام « ائمة الظهور » على يد ابي الخطاب المعافري سنة 139 هـ (756 م) . غير أن نشاط الخوارج لازمه الفشل حين رنوا بأبصارهم صوب افريقية لسببين رئيسيين ، أولهما : التنافس بين الصفرية والاباضية على امتلاك القيروان واندلاع الحرب بينهما سنة 140 هـ (757 م) ، الامر الذي اضعفهما معا ، فوقعوا لئمة سائغة لجيوش ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) . وتسبب هذا التنافس أيضا في فشلهم في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، وأسفر اختلافهم عن تنكيل يزيد بن حاتم بهم جماعة في اثر أخرى سنة 155 هـ (772 م) .

وثانيهما : صحوة الخلافة العباسية وحرصها على دعم نفوذها في افريقية بانفاذ الحملات المتتابة التي عهد بقيادتها الى قواد اكفاء من أمثال ابن الاشعث والاغلب بن سالم وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم .

ولذلك استحال استمرار نشاط الخوارج في افريقية وخاصة بعد قيام حكم آل المهلب الاتوياء في القيروان وعدم توانيهم عن ملاحقة حركاتهم ومناهضتها . عندئذ اتخذت حركات الخوارج طابعا عمليا (1) ، فعزفوا عن مناطق النفوذ العربى نهائيا واتجهوا الى المناطق الصحراوية النائية بالمغربين الاقصى والاوسط حيث عول الصفرية على اقامة دولة في جنوبى المغرب الاقصى معقل الخوارج الصفرية كانت سجلها عاصمة لها . بينما أثر الاباضية اقامة دولتهم بالمغرب الاوسط حيث تضرب كثير من القبائل التى تدين بالمذهب الاباضى مثل زناتة ولماية وهوارة ولواتة وسدراتة

(1) Marçais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

وغيرها (2) . واتخذوا من مدينة تاهرت عاصمة لها .

والواقع أن ظهور دولتي الخوارج يمثل نقلة هامة في تاريخ الخوارج وتاريخ المغرب على السواء . فقد توجت دعوتهم في بلاد المغرب بتحقيق اهدافها في اقامة دولة خارجية (3) بعد أن فشلوا في تحقيق ذلك بالشرق واتاح ذلك لهم أن ينعموا بالاستقرار السياسي بعد حروب استمرت ما يقرب من نصف قرن من الزمان . ومن ناحية أخرى فإن قيام دولتي الخوارج كان بمثابة تعبير عن روح القومية والاستقلال عند المغاربة . فضلا عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها بلاد المغرب وهو ما سندرسه فيما بعد مفصلا .

(2) النلوسي : صفحة 4 .

(3) ابو زكريا : ورقة 13 .

أولا :

دولة بني مدرار الصفيرية

أ - قيام دولة بني مدرار

كان الخوارج الصفيرية سباقين الى انشاء دولتهم في سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) ، كما كانت لهم الاسبقية من قبل في المبادرة بالثورة سنة 121 هـ (739 م) . غير ان المؤرخين الغربيين (4) درجوا على التقليل من شأن هذه الدولة فاعتبروها مجرد دويلة لا يعتد بدورها في تاريخ بلاد المغرب . ويخيل اليها ان الباعث على ذلك يكمن في أمرين أساسيين ، أولهما : أن دولة بني مدرار كانت دولة داخلية صحراوية لم تسهم بدور مباشر في التيارات السياسية العالمية — كدولة الاغالبية المعاصرة لها على سبيل المثال — واقتصر نشاطها على المشاركة في حركة التجارة عبر الصحراء شمالا وجنوبا .

وثانيهما: ندرة المعلومات عن هذه الدولة بدرجة جعلت المؤرخين يحجمون عن التاريخ لها ، فظل تاريخها يلفه الغموض والابهام (5) . وعلى كل حال — استطاع الخوارج الصفيرية في سنة 140 هـ (757 م) أن يستنفذوا من اضطراب الاحوال في افريقية وقيموا دولتهم

(4) انظر : Gautier : Op. Cit. P. 292, Biquet : Op. Cit. P. 47

(5) انظر المقدمة .

في سجلماسة على وادي ملوية (6) ، فعمال الخلافة في المغرب شغلوا آنذاك عن الاقاليم الغربية والجنوبية بتدعيم نفوذها في المغرب الأدنى وإفريقية (7) ، فوجد الصفرية في ذلك فرصة مواتية لتأسيس دولتهم في مأمن من نقمة الخلافة وعمالها .

وينم اختيارهم اقليم تافيلالت بأقصى الصحراء الكبرى من حكمة وذكاء ، ذلك ان هذا الاقليم النائي من بلاد المغرب يمثل نهاية العمران من ناحية الجنوب والغرب (8) والطريق اليه غاية في الوعورة اذ يمتد خلال متاهات من القفار والرمال ، ولذلك فهو في حماية طبيعية أتاحت لبربر مكناسة ان يتخذوا من قصبته سجلماسة (9) عاصمة لهم .

ومكناسة هي العصبية التي ارتكزت عليها دولة بني مدرار (10) وليست زناتة أو نفوسة (11) ، ومواطنها على وادي ملوية (12) — حيث تقع سجلماسة في اعلاه — هذا الوادي يصب في البحر المتوسط ، وكذلك تقطن بعض بطونها في نواحي تازا وتسول بالمغرب الأقصى (13) . وبربر مكناسة من البتر وبتونهم كثيرة منها « صولات وبوحات وبنو ورفلاس وقيصارة وورقطننة وورصطف » (14) وكلهم من سكان الصحراء (15) .

وأسهمت عناصر أخرى غير مكناسة في قيام الدولة ، ولعل من أبرزها بربر صنهاجة وزويلة وزناتة وزنوج السودان وأهل الربيض الاندلسيين ، ويفهم هذا من قول اليعقوبي (16) بأن عناصر شتى استقرت

(6) البكري صفحة 149 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 243.

(7) ابن عذاري : ج 1 صفحة 73 ، Bel : Op. Cit. P. 95.

(8) البكري : ص 148 ، الاستبصار ص 200 ، الطقشندى : ج 5 ص 163 .

(9) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ،

Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 143.

كولين : مادة سجلماسة — دائرة المعارف الاسلامية ص 298 .

(10) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ، Gautier : Op. Cit. P. 292. Bel : Op. Cit. P. 167.

(11) انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 137 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاد أعلام الناس ج 1 ص 62 ، مؤنس : ثورات البربر ص 187 .

(12) وهو نهر ريز كما يسميه اليعقوبي ، انظر : البلدان ص 359 ، كولين : المرجع السابق صفحة 298 .

(13) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(14) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .

(15) نفس المصدر والصحيفة .

(16) البلدان : صفحة 359 .

في سجماسة ، فقبائل صنهاجة اللثام من مسوفة وملتونة كانت تضرب في احواز سجماسة على طول المفازة بينها وبين غانة السودانية (17) ويبدو انهم كانوا من الكثرة بالمدينة حتى ان البكرى وصف سكانها بأنهم « كانوا يلتزمون النقاب » (18) . ونعلم ان عنصر السودان اسهم في قيام دولة بنى مدرار ، فكانت جماعات منهم تقيم باقليم تافيللت بعد اعتناقهم المذهب الصفري على يد أبى القاسم سمكو بن واسول (19) . وحسبنا ان اول من تولى الامامة في الدولة كان سودانيا يدعى عيسى بن يزيد الاسود .

وكان اشتغال بربر زويلة — ومواطنهم جنوبي سجماسة — بالوساطة التجارية ومرافقه القوافل عبر المفاوز ما بين سجماسة وبلاد السودان سببا في اعتناقهم المذهب الصفري ومشاركتهم صفرية تافيللت في انشاء دولة بنى مدرار (20) .

وعلى الرغم من استبعاد الرواية القائلة بتأسيس ربح الاندلس مدينة سجماسة وان اول ائمة الدولة كان منهم (21) ، فلا شك في انهم قاموا بدور واضح في تدعيم الدولة بعد نزول اعداد غفيرة منهم بسجماسة واعتناقهم المذهب الصفري (22) ، وخاصة فيما يتعلق بالنواحي المهنية والعمرانية .

على ان الفضل يعزى الى مكناسة في جمع شمل هذه العناصر جميعا في نظام سياسى واحد بعد ان كانت تضرب في اقليم تافيللت دونما صلة او رباط يجمعها (23) ، فتمكن زعيمها ابو القاسم سمكو بن واسول من تجميعها حول المذهب الصفري وضماها في كيان واحد . ويعزى دور مكناسة القيادي هذا الى اسبقيتها في اعتناق المذهب الصفري ، فقد وصلها فى وقت مبكر اذ تلقاه المكناسيون « عن ائمتهم ورؤسهم من المغرب » (24) فكان زعيمهم ابو القاسم سمكو على صلة بعكرمة منذ وصوله الى القيروان ، وهو من اشهر دعاة الصفرية في بلاد المغرب على الاطلاق . وبعد نشره

(17) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 231 .

(18) المغرب صفحة 148 .

(19) نفسه : صفحة 149 .

(20) الاصطخرى : ص 34 ، الاستبصار ص 201 ، المقدسى : احسن التقاسيم ص 231 .

(21) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .

(22) ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 80 .

(23) النفوسى : الازهار الرياضية ج 2 ص 93 .

(24) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292 .

المذهب بين قومه من مكناسة ، عكف على بثه بين سكان اقليم تافيلت ، وهذا يخالف قول صاحب الأزهار الرياضية (25) بأن المذهب الصفري انتقل الى مكناسة عن طريق أهل تافيلت في وقت متأخر أثناء شروعه في اقامة دولة بنى مدرار . اذ الثابت ان بربر مكناسة وزعيمهم ابي القاسم سمو اشتركوا في ثورة ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (26) (739 م) .

ولم نقف على دور لابي القاسم في ثورات الصفرية بعد ميسرة ، ويبدو ان سيطرة زناتة على الحركة ، وتولى من هم اقل منه مكانة وسابقة في المذهب زعامتها ، جعله يعزف عن المشاركة فيها ، او لعله زهد في اسلوب الثورة وآثر الانقطاع لنشر المذهب في الاصقاع الجنوبية تمهيدا لانشاء دولة للصفرية هناك ، فتوجه الى تافيلت حيث تضرب جماعات من السودان وبعض بطون صنهاجة وهم غالبية سكانها (27) . وجدير بالذكر ان هذه الجماعات « كانوا أهل بادية وحواضر وحراثات » (28) ، فكانوا يعملون بالرعى والزراعة (29) الى جانب التجارة (30) كما عرفوا بالثدين وحب العلم والرغبة في طلبه الى جانب شدة البأس والنجدة وقوة العريكة ، « فهم أهل علم وسلاح » (31) . لذلك وجد فيهم أبو القاسم سمو — الملقب بهدرار (32) — ضالته المنشودة ، فكانوا اعونا له على انشاء الدولة التي نسبت اليه .

نزل أبو القاسم ارض تافيلت سنة 138 هـ (33) (755 م) واشتغل

(25) النوسى : صفحة 93 .

(26) ابن خلدون ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292.

(27) البعتوبى : البلدان صفحة 359 .

(28) اسماعيل حامد (جامع) : نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7 .

(29) نفسه : صفحة 3 .

(30) مجهول : الاستبصار - صفحة 200 .

(31) اسماعيل حامد : المرجع السابق ص 7 .

(32) نرجح ان مدرارا كان لقب ابي القاسم كما يذهب ابن الخطيب ، وليس اسم جده كما اعتقد ابن عذارى ، او اسمه هو حسبما ذكر صاحب كتاب الاستبصار ونجد في رواية أخرى لابن الخطيب خلطا بين شخص ابي القاسم سمو وبين عيسى بن يزيد ، فينسب دور ابي القاسم الى عيسى ولا يورد للاول ذكرا . أما البكرى فينسب الفضل في قيام الدولة المدراية الى جهود ابي القاسم لكنه يشير الى لقبه . وجدير بالذكر ان رواية البكرى عن دولة بنى مدرار اصح الروايات وأكثرها صدقا ، وقد أخذ بها كبار الدارسين مثل مورنل وبرسييه . انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 138 ، 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، البكرى : ص 149 ، Mercier : Histoire de l'Afrique : P. 243.

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(33) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 138 .

بالرعى واخذ يتصل بغيره من الرعاة الذين كانوا ينتجعون بقطعانهم موضع سجلماسة ، ويعلمهم أصول المذهب الصفري (34) ، وأصبحت خيمة أبى القاسم بمثابة مجمع يلتقى به أنصاره (35) . ولما اشتد ساعده وكثر أتباعه نصبوا خيامهم الى جواره (36) ويذهب بعض المؤرخين (37) الى ان أبا القاسم شرع فى اعلان قيام دولته سنة 140 هـ (757 م) لما بلغ عدد أنصاره أربعين رجلا ، « فعندئذ بايع بالامامة عيسى بن يزيد الاسود وحمل قومه من مكناسة على طاعته » .

على كل حال — كانت مبايعة عيسى بن يزيد الاسود بالامامة (38) وهو من موالى العرب (39) — وانصياح صفرية مكناسة لبيعتة بعد ان حملهم أبو القاسم على الاعتراف بامامته (40) ، تطبيقا عمليا لرأى الخوارج فى الامامة . ولما كان عيسى بن يزيد الاسود لا يرقى الى منزلة أبى القاسم سلكوا من حيث السابقة فى المذهب أو الافضلية فى العلم ، فان اختياره

(34) لا اعتبار لما يقال عن ان أبا القاسم كان أباضيا (الازهار الرياضية ج 2 ص 93) أو انه كان أباضيا صفريا كما ذهب ابن خلدون (العبر ج 6 ص 130) . فنحن نعلم ان أبا القاسم كان من دعاة عكرمة مولى ابن عباس و « مقدم الصفرية » انظر : بروفنسال : نبذ تاريخية ص 48 ، الشطبي : الجاهل ورقة 203 .

(35) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(36) البكرى : ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(37) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(38) النفوسى : صفحة 93 .

(39) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .

(40) ينفى هذا ما ذهب اليه بل من التفاف بربر مكناسة حول عيسى بن يزيد ومبايعته طائعين مختارين . La religion Musulmane. P. 176. والواقع ان الفضل يعزى الى أبى القاسم سلكوا فى تقديم عيسى بن يزيد ، ولعل ذلك كان سببا فيما درجت عليه بعض الروايات من الخلط بينهما ، اذ تذهب الى أن الذى تولى الامامة شخصا اسود يدعى مدرارا . وتزعم انه كان حدادا قدم من الاندلس بعد موقعة الرض . انظر : البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 201 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.

ومن المعروف ان اهل الرض رحلوا عن قرطبة سنة 198 هـ بينما قامت دولة مدرار سنة 140 هـ . انظر : ابن خلدون ج 4 ص 126 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.

ومع ما تنطوى عليه تلك الرواية من أخطاء فلا شك فى أهمية مغزاها لما تبرزه من نزوح أعداد غفيرة من الاندلسيين بعد حادث الرض الشهير الى سجلماسة ، واستيطانهم بها — على غرار ما فعلوه بفاس — واسهامهم فى عمارتها واشتغالهم بالحرف والصناعات كالحداة وأعمال البناء وغيرها . انظر : ابن خلدون : ج 3 صفحة 126 ، Condé : Op. Cit. P. 262. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى صفحة 405 .

للامامة يدل على ثقل وزن عنصر السودان ورجحانه على سائر العناصر الصفرية باقليم تافيلت . ومما يؤكد ذلك أن غالبية بربر مكناسة لم يكونوا قد انتقلوا بعد من مواطنهم الاولى ليستقروا في اقليم تافيلت ، فلم يحدث هذا الا بعد اختطاط سجل مكناسة ، يؤيد ذلك قول ابن خلدون (42) « . . وبعد ان اختطوا سجل مكناسة سنة 140 هـ دخل سائر مكناسة من اهل تلك الناحية في دينهم » .

اجمع الصفرية اذن على مبايعة عيسى بن يزيد بالامامة (43) سنة 140 هـ (757 م) . وفي نفس السنة شرعوا في اختطاط سجل مكناسة (44) لتكون حاضرة للدولة (45) . وقد أصبحت سجل مكناسة مركزا للامارة (46) ومقرا للمذهب الصفري .

وقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة في مكان حصين ، فأنشأوها في « موسطة الصحراء » (47) جنوبى تلمسان بعشرة مراحل ، وفي موضع التقاء فرعى نهر ملوية (48) . وأسس الصفرية حصنا في وسط المدينة اسموه العسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الامارة (49) . ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن (50) ، فانتسح العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية (51) . وقد أسهم في بنائها معماريو الاندلس

(41) العبر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(42) العبر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(43) لم يرد بالمصادر ذكر تقلد امراء بنو مدرار الخلافة او الامامة باعتبارهم رؤساء روجيين وسياسيين كما يفهم من لقب الامام او الخليفة . ونعتقد أن سبب ذلك يكمن في أن تواريخ الصفرية لم تصل إلينا ، وكل ما وصلنا عنهم مستمد من المصادر المعادية لهم . . عن ألقاب الامامة والخلافة . انظر : حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص 60 .

(44) الثابت أن مدينة سجل مكناسة استحدثها بنو مدرار ولم يكن لها وجود من قبل على عكس ما قيل من أن الاسكندر ذو القرنين أسسها لتكون موطنًا للمعزة والمرضى من جنوده ، فتلك رواية أسطورية ، وما ذكره الحسن الوزان من أن أحد قواد الرومان أسسها باسم Sigillm mese عقب إحدى انتصاراته . انظر : كولن : مادة سجل مكناسة — دائرة المعارف الاسلامية — ص 298 .

(45) المقدسى : صفحة 219 .

(46) كان يتبع سجل مكناسة عدد من الحصون والنازل والقرى كدرعة وتدانقوست وأثر ايل وحصون النحاسين وهلال وغيرها . انظر : اليعقوبى : البلدان ص 359 ، المقدسى : صفحة 219 .

(47) المراكشى : المعجب : صفحة 357 .

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(48) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،

(49) المقدسى : صفحة 231 .

(50) الاستبصار : صفحة 201 .

(51) الادريسي : صفحة 60 .

فضلا عن اليهود الذين استقروا بها لاستغلال التبر (52) . كما أسس سورها سنة 208 هـ (823 م) في عهد اليسع بن أبى القاسم ، وبه من الأبواب اثنتى عشر بابا (53) . « منها الباب القبلى والباب الغربى وباب غدير الجزارين وباب زنانة » (54) . ويصف ابن حوقل (55) — الذك زارها في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى — أبنيتهما بأنها « شاهقة كأبنية الكوفة » . لأنها بنيت بالصخر فبقيت قائمة عدة قرون حتى وصفها ابن مقديش (56) بأنها « مسنة » .

ولما كانت سجلماسة محصورة بين فرعى نهر ملوية ، فقد توفرت لها المياه . لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الامادة منها ، فشق القنوات « وصرف الى كل ناحية قدرها من مائة » واستكثر من غرس النخيل (57) . وهذا يعنى ان تأسيس سجلماسة ارتبط به تحول فى حياة السكان من الرعى والبداءة الى الزراعة والاستقرار (58) ، ولا غرو فقد غدت سجلماسة مدينة النخيل والاعناب والفاكهة (59) . وقد أفاض الجغرافيون (60) والرحالة فى وصف غروبها التى غطت مساحة قدرها أربعين ميلا . والى جانب الفاكهة تنوعت المحاصيل « حسب زرع مصر فى الفلاحة » (61) مما حدا بالادريسي (62) الى ان يصف المدينة بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . وبفضل هذه المنتجات المتعددة قدر لها ان تلعب دورا تجاريا هاما فى بلاد المغرب (63) والسودان حتى أضحى سكانها « سرة مياسير يباينون سائر اهل المغرب بالمخبر والمنظر » (64) .

ولا شك فى ان هذا الازدهار الاقتصادى الذى واكب انشاء سجلماسة

(52) الاستبصار : صفحة 202 .

(53) نفس المصدر : صفحة 201 .

(54) المقدسى : صفحة 231 .

(55) المسالك والممالك . صفحة 65 .

(56) نزهة الانظار : صفحة 11 .

(57) ابن الخليل : اعمال الامام ج 3 ص 139 .

(58) الاستبصار : صفحة 201 . Juliene : Op. Cit. P. 339 .

(59) البكرى : صفحة 148 .

(60) انظر : البكرى ص 148 ، ابن حوقل : ص 65 ، الطلشندي : ج 5 ص 164 .

(61) ابن حوقل : ص 65 ، سعيد بن مقديش : ص 10 .

(62) صلة المغرب : صفحة 60 .

(63) نفس المصدر والصحيحة .

(64) ابن حوقل : ص 65 ، الطلشندي : ج 5 ص 164 .

ساعد على تدعيم دولة بنى مدرار ، فقد غدت قبلة للخوارج الصفرية في بلاد المغرب بأسره . وقصدها جموع الصفرية من كل صوب لائذين هربا من انتقام ولاية بنى العباس من آل المهلب . وكان لذلك أثره في تقوية الكيان السياسى لدولة كانت تعاني من نقص في السكان (65) . كما أدت هذه الهجرات بدورها الى نتائج سياسية غاية في الأهمية في التطور السياسى لدولة بنى مدرار ، اذ هجرت بقية بطون مكناسة مواطنها الأصلية ، واستقرت بالمدينة الجديدة ، وغدت أكثر العصبية وأقواها ، واهلها ذلك للزعامة السياسية والتطلع لمنصب الامامة .

ثم انتقلت الامامة بالفعل الى أبى القاسم سمكو ، حين سخط صفرية مكناسة على الامام عيسى بن يزيد ونحوه ، ولولا زعيمهم أبى القاسم سمكو مكانه . وما يسوقه المؤرخون من أسباب في هذا الصدد تنقسم بالابهام وتفتقر الى التحديد ، اذ ذكر بعضهم (66) «أنهم تقموا عليه كثيرا في أحواله»

وثمة رأى ثالث ساقه البكرى (68) . حيث قال أن «أبا الخطاب قال يوما لأصحابه في مجلس عيسى ، السودان كلهم سراق حتى هذا ، وأشار على عيسى . فأخذه وشده وثاقا الى شجرة في رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض » . كما يذهب ابن الخطيب (69) الى أن الصفرية — بعد قتل عيسى بن يزيد — «ولو على أنفسهم أبا الخطاب الصفري » . ويرجح الدكتور سعد زغلول عبدا لحמיד (70) أن يكون أبو حاتم الاباضى أو عبد الرحمن بن رستم هو الذى أمر صفرية سجناسة بعزل امامهم وقتله .

ولحق — أن البكرى ومن أخذ عنه قد جانبهم التوفيق . وليس أدل على ذلك من أن مقتل عيسى بن يزيد حدث سنة 155 هـ (772 م) (71) أى بعد أن ظل اماما لمدة خمسة عشر عاما (72) ، بينما قتل أبو الخطاب المعافرى سنة 144 هـ (761 م) في معركة تاورغا . كما أن المصادر الاباضية — على وفرتها — لم تشر الى مثل هذا الامر ، فلم يكن من المألوف تدخل

-
- (65) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، مجهول : الاستبصار ص 201 .
(66) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، الاستبصار : ص 112 .
(67) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الاثير : ج 6 ص 3 .
(68) المغرب صفحة 149 .
(69) أعمال الاسلام ج 3 صفحة 139 .
(70) تاريخ المغرب العربى صفحة 401 .
(71) ابن الاثير : ج 6 ص 3 ، الطقشندى : ج 5 ص 165 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(72) البكرى : صفحة 148 .

الإباضية والصفرية بالمغرب في شؤون بعضها البعض (73) ، الأمر الذي يشكك في هذه الرواية من أساسها .

ومع ذلك يستفاد منها أن عيسى بن يزيد انحرف عن خط المذهب ، وأسرف في تطبيقه واشتط في أحكامه . كما أن نقمة الصفرية عليه وتعذيبه وقتله بطريقة قاسية تنم عن تطرف الخوارج الصفرية وميلهم إلى العنف (74) لكن الذي نؤكد أنه الدافع الأساسي للثورة عليه هو ازدياد قوة مكناسة بعد قدوم بطونها من مواطنها الأصلية إلى سجل مكناسة ، وتطلعها إلى الحكم والسلطة .

على كل حال — آلت الإمامة إلى أبي القاسم سمكو ، وظلت من بعده حكرا على صفرية مكناسة التي اختصت باختيار الأئمة من آل بيت أبي القاسم وأخذ البيعة لهم من جمهور الصفرية في سجل مكناسة وتوابعها (75) .

وعكف أبو القاسم طيلة إمامته (155 — 168 هـ) (76) (772 م — 784 م) على إرساء قواعد دولته ، عازفا عن المشاركة في ثورات الصفرية في العصر العباسي الأول ، ولعل هذا يفسر قول ابن خلدون (77) ومن أخذ عنه (78) أن أبا القاسم « خطب في عمله للمنصور والمهدي من بنى العباس » . والواقع أن أبا القاسم لم يسهم في حركات الصفرية الأخيرة لا لكونه تابعا للخلافة العباسية — كما يذهب ابن خلدون — ولكن لاحتساسة بعدم جدوى هذه الحركات التي اتخذت شكل ثورات غير منظمة ولانشغاله من ناحية أخرى بمشاكل دولته الجديدة . وليس ببعيد أن يكون قد اضطر أمام هذه المشاكل إلى مسالة الولاة العباسيين في المغرب ومن المحتمل أن يكون قد وعدهم بتبعية اسمية ليضمن سلامة دولته التي لم تكن قد

(73) انظر : بنو مدرار والرسامين .

(74) الشهرستاني : ص 121 ، Gautier : Op. Cit. P. 299 .

(75) ابن عذاري : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 553, Bel : Op. Cit. P. 167.

(76) ابن عذاري : ج 1 صفحة 215 .

(77) المعبر ج 6 صفحة 130 .

(78) السلاوي : ج 1 صفحة 112 .

استقرت بعد ، وأن كان من الراجح أن دولة بنى مدرار تمتعت باستقلال
سياسى تام عن سلطة الخلافة وعمالها .

وهكذا — استطاع أبو القاسم سمكو بن واسول المكتاسى « مقدم
الصفرية » (79) بالمغرب الاقصى تحقيق اهداف الخوارج الصفرية باقامة
دولة لهم فى بلاد المغرب توارثها بنوه من بعده .

(79) يخلط ابن خلدون بين الاباضية والصفرية ، فيذكر أن أبا القاسم كان « اباضيا صفريا »
وهو قول سبق تخطئته لأن أن ائمة بنى مدرار جميعا كانوا من
الخوارج الصفرية . انظر : المبرج 6 ص 130 .
ومن خطأ ابن خلدون انظر : ابن حزم : نقط العروس ص 76 ،
كولين : دائرة المعارف الاسلامية — مادة سجناسة ص 289 .

ب - سياسة بني مدرار الداخلية

تأثرت سياسة بني مدرار الداخلية — بدرجة كبيرة — بعاملين أساسيين ، العامل العنصرى والدينى ، فتعيين الامراء وعزلهم ، وقيام الثورات والفتن ، واحتدام المنازعات بين افراد البيت المدرارى ، واتساع الدولة وتقلصها ، وثوتها وضعفها ، كل ذلك كان مرتبطا اشد الارتباط بالصراع القبلى أو الخلاف المذهبى .

وقد تمثل العامل العنصرى القبلى فى تباين الكيان الاجتماعى فى سجلهاسة واختلاف عناصر سكانها ما بين بربر وسودان واندلسيين ، فضلا عما هو معروف من انقسام البربر الى بتر وبرانس . ولئن كان المذهب الصفرى اطارا جمع هذه العناصر جميعا وخفف من حدة الثغرات العنصرية والتناحر القبلى داخل الدولة المدرارية ، الا اننا لا نعدم وجود اقلية دينية لعبت دورا واضحا فى أحداث الدولة . كان هناك اليهود الذين هيمنوا على مصائر البلاد الاقتصادية باحتكارهم استغلال مناجم الذهب والفضة فى درعة (80) . والمعتزلة « الذين كانوا يبعثون بزكاة أموالهم الى رئيسهم بتاهرت يصرفها حيث شاء » (81) . كما وجد بسجلهاسة اقلية من الخوارج الإباضية كان لها دورها البارز فى تطور الاحوال السياسية داخل دولة بني مدرار (82) .

والحق أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وفيرة عن السياسة الداخلية (83) ، ومع ذلك يمكن القول بأن الصراع العنصرى ظهر واضحا

(80) الاستبصار — صفحة 202 .
(81) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 — مخطوط .
(82) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .
(83) انظر : المقدمة .

في الاحداث المتعلقة بقيام الدولة . فنعلم أن تقليد عيسى بن يزيد الاسود امامة الصفرية كان مرتبطا بتفوق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى القاطنة باقليم تافيلالت . كما كانت هجرة مكناسة الى هذا الاقليم سببا في سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها الامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التي اختفى صوتها تماما فيها حدث من صراع على الامامة بين افراد بنى مدرار المكناسيين .

اما العامل المذهبي فيظهر بوضوح في نشاط الاباضية بسجلاماسة ، ومما يؤكد دورهم في تاريخها السياسى ما درج عليه بعض المؤرخين من الخلط بين ائمتهم وبين امراء سجلاماسة الصفريين ، واعتبار بعضهم بعض امراء آل مدرار من الاباضية . فابن الخطيب (84) يذهب الى أن الصفرية بعد قتلهم عيسى بن يزيد الاسود « ولوا عليهم ابا الخطاب الصفرى » الذى احتضن ابا القاسم سمكو وعقد له الامر من بعده . وقد سبق أن فندنا تلك الرواية واثبتنا أن ابا القاسم سمكو المكناسى تولى الامامة على اثر مقتل عيسى بن يزيد سنة 155 هـ (772 م) واحتفظ بها حتى وفاته في سنة 168 هـ (85) (784 م) .

ولم نقف على دور للاباضية في عهد الياس بن ابي القاسم الملقب بابى الوزير (86) ، ذلك لان المصادر لا تمدنا بأية أخبار عن أحوال الدولة في عهده الذى امتد حتى عام 174 هـ (87) (790 م) . ويبدو أنه كان خاملا فاطر المهمة مما جعل الصفرية ينقمون عليه حكمة « فانتفضوا عليه وخلعوه وولوا مكانه اخاه اليسع » كما يذهب ابن خلدون (88) ولا يبعد أن يكون أخوه دبر أمر خلعه واقتصائه ليظفر بالامارة لنفسه حسبما ذكره البكرى (89)

-
- (84) اعمال الاعلام ج 3 صفحة 141 .
(85) ذكر ابن الخطيب - خطأ - أن وفاة ابي القاسم سمكو حدثت سنة 199 هـ . راجع :
اعمال الاعلام ج 3 صفحة 142 .
(86) البكرى : ص 149 ، ابن مذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .
وفي رواية أخرى لقب بـ « الوزير » . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 130 ،
السلوى : ج 1 صفحة 112 .
(87) البكرى : ص 150 ، القلتشندي : ج 5 ص 165 . وهذه الرواية أكثر ثقة من غيرها
التي تضطرب في تحديد مدة حكمه وسنة خلعه . فابن عذارى يذكر أنه خلع سنة 170 هـ ،
وابن خلدون يجعل ذلك سنة 194 هـ ، ابا ابن الخطيب فيقول بأن أمارته لم تتجاوز
سنة أشهر خلعه بعدها . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 215 ، المعبر ج 6 ص 130 ،
اعمال الاعلام ج 3 ص 142 .
(88) المعبر ج 6 صفحة 130 .
(89) المغرب ص 150 .

ومع ذلك نعتقد أن فتن الإباضية قد تفاقمت في عهده ، وهذا يفهم من جهود خليفته اليسع بن أبى القاسم الملقب بأبى المنصور (90) (174 — 208) (91) (790 — 823 م) . في قممها . فقد طمعوا في تقلد الامارة بعد استئلالهم بنواحى درعة الشهيرة بمعادنها (92) . غير أن اليسع عمد الى تعبئة الجند والانصار (93) الى أن تسنى له اعداد جيش قوى تمكن به من اخماد الفتنة « وظفر بمن عانده » (94) .

ويبدو انه أسرف في البطش بخصومه حتى وصف بأنه « كان جبارا عنيدا ، فظا غليظا » (95) . لقد قضى على الفتنة في مهدها ، وأظهر مذهب الصفرية (96) بعد أن « قاتل عليه » (97) في حروب انتصر فيها جميعا حتى قيل بأنه « دوخ المغرب » (98) . وأسفرت هذه الحروب عن مد نفوذ الدولة حتى درعة ، وفرض الخمس على ما يستخرج بها من معادن (99) .

ويبدو أن هذه الحروب الطويلة التي خاضها أحدثت أضرارا بسجل ماسية وتخريبا بعمائرها وسورها ، ولعل جموع الإباضية بالمدينة لعبوا دورا في هذا الصدد . وهذا ما يرجحه اقدام أبى المنصور اليسع على اخلاء المدينة واعادة تخطيطها ، فتخبرنا المراجع (100) انه أمر القبائل

(90) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، القلقشندي : ج 5 ص 165 . وقد لقبه البكرى « بابى المنتصر » وكذلك ابن مغازي . انظر : المغرب ص 149 والبيان المغرب ج 1 ص 215 . ومما يؤكد خطأ تلك الرواية ما ذكره البكرى في مكان آخر بأنه لقب « بابى المنصور » . انظر : المغرب ص 150 . أما لقب « أبى المنتصر » فقد كنى به ابنه فيما بعد .

(91) أجمع المؤرخون على وفاة أبى المنصور اليسع سنة 208 هـ . انظر : البكرى : ص 149 ، ابن مغازي : ج 1 ص 210 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 143 ، القلقشندي : ج 5 ص 165 . لكنهم اختلفوا في تقدير سنى حكمه ، فابن مغازي يذكر انه ظل أميرا ثمانية وثلاثين عاما ، وابن خلدون يذكر انه قضى في الحكم أربعة عشر عاما ، وابن الخطيب يحدد مدة حكمه بثمانية أعوام . وسبب هذا الاختلاف يرجع الى اختلافهم حول تاريخ تقلده الامارة ، فابن مغازي يجعله سنة 170 هـ وابن خلدون يحدده بسنة 194 هـ وابن الخطيب يذكر انه تولى الامارة سنة 200 هـ . والصحيح ما ذكره البكرى من انه تولى الامارة سنة 174 هـ وظل بها أربعة وثلاثين عاما . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(92) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 80 .

(93) النفوسى : ج 2 ، صفحة 94 .

(94) البكرى : صفحة 150 .

(95) نفس المصدر والمصحية ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(96) ابن مغازي : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(97) البكرى : ص 150 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(98) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .

(99) البكرى : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(100) القلقشندي : ج 5 ص 165 ، النفوسى : ج 2 ص 94 .

بمبارحة سجلماسة وسكنى الصحراء . ثم أعاد بناء مسجدها الجامع واختط بها المصانع والقصور حتى استردت بهاءها وزينتها (101) وشرع في تحصينها ببناء سور جديد أنفق فيه أموالا طائلة بذلها من ماله الخاص (102) . وقد بنى أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب (103) وجعل به اثنتى عشر بابا صنع معظمها من الحديد (104) . ولما انتهى من اتمام تعمير سجلماسة ، أعاد تقسيم خططها بين القبائل بما يكلل له الهيمنة على سائر أجزائها والسيادة على كافة سكانها (105) . بذلك استطاع أبو المنصور اليعنى أن يحقق أهدافه وأصبح لا ينازعه فى الإمامة منازع . ومن هنا يمكن اعتبار حكمه عصر الازدهار والاستقرار فى تاريخ دولة بنى مدرار .

يؤكد ذلك تطلع جيرانه من بنى رستم الإباضية الى كسب وده لياؤنوا جانبه من ناحية ، وليضمنوا الاستقرار والامن لأخوانهم فى المذهب بسجلماسة من ناحية أخرى ، يفسر ذلك تزويج عبد الرحمن بن رستم إحدى بناته لأحد أبناء أبى المنصور اليعنى ويدعى مدرار ، لربط الدولتين الخارجيتين بصلة المصاهرة (106) . وقد أثمرت تلك المصاهرة ، فاستكان الإباضية بسجلماسة لحكم أبى المنصور ودانوا بطاعته حتى وفاته سنة 208 هـ (823 م) .

لكن ثوراتهم اندلعت من جديد فى عهد مدرار بن أبى المنصور اليعنى الذى خلف أباه وتلقب بالمنتصر (107) ، اذ ما لبث الصراع بين الإباضية والصفيرية فى سجلماسة أن وجد طريقه الى البيت المدرارى . وتجمع المصادر (108) على أن المنتصر مدرارا كان له ولدين يدعى كل منهما ميمونا ، أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى

(101) ابن خلدون : ج 6 ص 130 — 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(102) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب ج 3 ص 143 .

(103) ابن عذارى : نفس المصدر والمصحفة .

(104) البكرى : صفحة 148 .

(105) نفس المصدر والمصحفة ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(106) النفوسى : ج 2 ص 94 ، Bel : Op. Cit. P. 168 .

(107) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، التلشندي : ج 1 ص 165 .

(108) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

بقية فعرف ابنها بميمون بن بقية (109) . وتضيف أن المنتصر كان يؤثر ابن الرستمى على أخيه حتى أنه عهد إليه بولاية عهده (110) . وكان ذلك بداهة انتصارا لباضية سجلماسة ، فازر صفريتها ميمون بن بقية ، ودخل الطرفان فى صراع استمر ثلاثة أعوام (221 — 224 هـ) (111) (835 — 838 م) كان المنتصر ابانها سليلب الارادة . ثم أقدم المنتصر على خرق تقاليد الامامة فخلع نفسه وولى ابن الرستمى مكانه بعد طرده ابن بقية من سجلماسة (112) . وأغضب هذا التصرف شيوخ الصفريّة بالمدينة لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيادة الاباضية (113) من ناحية أخرى ، فصمموا على خلع ابن الرستمى ، وتم لهم ما أرادوا . ويذكر النفوسى (114) أن ذلك تم بتحريض من ميمون بن بقية لرؤساء الصفريّة ومقدميهم . غير أنهم حين عرضوا عليه الامامة أبى واكتفى بطرد أخيه ابن الرستمى الى درعة (115) ، فأعادوا إياه مدرارا للامامة (116) .

لكن المنتصر ما لبث أن بعث فى طلب ابنه ابن الرستمى من درعة ليؤليه الحكم مرة أخرى ، وعندئذ أرغمه الصفريّة على التحدى وبإيعاوا ميمون بن بقية سنة 224 هـ (117) (838 م) ولقبوه بالامير (118) . وبأمر ميمون الامير بطرد أبيه من سجلماسة الى بعض القرى (119) ، فظل بها حتى وفاته سنة 253 هـ (867 م) (120) .

(109) ثمة تحريف ببعض المراجع فى اسمى زوجتى المنتصر . فمن المعروف أن الرستمى تسمى « أروى » والاخرى تسمى « بقية » لكن ابن الخليل يطلق على الاولى « هنو » والثانية « تقيّة » كما نجد عند ابن خلدون والسلاوى تحريفا لكلمة « بقية » الى « بنى » والصواب ما ذكره البكرى وابن عذارى . انظر : اعمس الاعلام ج 3 ص 143 ، العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(110) النفوسى : صفحة 295 .

(111) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .

(112) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

(113) النفوسى : صفحة 95 .

(114) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 95 .

(115) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 .

(116) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 .

(117) البكرى : صفحة 150 .

(118) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(119) ابن عذارى : ج 1 صفحة 139 .

(120) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، القلقشندى : ج 5 ص 166 .

وبقى ميمون أميرا حتى توفي سنة 263 هـ (121) (877 م) . ولا نعلم شيئا من أخباره الا ما ذكره ابن خلدون (122) من انه كان مستبدا في حكمه وكان مضطرا الى ذلك ليواجه فتن الإباضية ومؤامراتهم . ويبدو أن جمهورهم هجر سجلماسة الى درعة لاستجماع قواهم ومناصرة ميمون ابن الرستمية على الظفر بالامارة ، وهذا ما حدا بمحمد بن ميمون الأمير أن يقتفى أثرهم ويناهض حركاتهم ، اذ يخبرنا ابن الخطيب (123) بأنه « غزا وطهر بلاد القبلة » . ويبدو أنه استأصل شائفة الإباضية في هذه الاصفاع ، فلم نسمع عن حركات لهم طوال حكمه وقد توفي سنة 270 هـ (124) (884 م) . ويخيل إلينا أن الدولة الدرارية في ذلك الحين تخلصت من مشاكلها الداخلية وحقت الأمن والهدوء في سائر ربوعها ، فانصرفت الى التوسع خارج حدودها وقد اضطلع بتلك المهمة خليفة الأمير محمد بن ميمون ويدعى اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن ابي القاسم (125) الملقب بالمنتصر (126) .

وبديهى أن يتطلع اليسع الى ضم صفرية مطفرة لدولته ويوحد صفرية المغرب الاقصى تحت لوائه ، وجدير بالذكر أن مطفرة اذ ذاك كانت تحت حكم الادارسة الذين اسرفوا في اضطهاد الصفرية داخل دولتهم ، ومن المحتمل أن يكون شيوخها قد اتصلوا بالعاهل الدراري لتحريرهم باعتباره امام الصفرية ببلاد المغرب . ويذكر ابن الخطيب (127) أن اليسع المنتصر عقد العزم على الاضطلاع بتلك المهمة ، فشرع في تجنيد الجيوش لهذا الغرض، ولم يثنه عن عزمه سوى مداهمة الخطر الشيعي سجلماسة نفسها .

ففى عهده وقعت حادثة الغزو الشيعي لسجلماسة التى انتهت بقتل اليسع وسقوط الدولة الدرارية سنة 297 هـ (911 م) وهو ما سنفصله فى الباب الرابع .

وهكذا — لعبت الخلافت العنصرية والقبليّة والمذهبية دورا موجها فى سياسة دولة بنى مدرار الداخلية .

-
- (121) البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(122) العبر : ج 6 صفحة 131 .
(123) أعمال الاعلام : ج 3 صفحة 144 .
(124) نفس المصدر صفحة 145 .
(125) البكرى ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .
(127) أعمال الاعلام : ج 3 صفحة 145 .

ج - علاقات بني مدرار الخارجية

كانت دولة بني مدرار دولة داخلية صحراوية ، فلم تسهم بدور كبير في أحداث عصرها ، بل انصرف هم امرائها الى الحفاظ على استقلالها السياسي ، ومذهبها الديني ، ومصالحها الاقتصادية . لكنها مع ذلك لم تكن بمنأى عن التيارات السياسية في العالم الاسلامي عموما وفي بلاد المغرب بوجه خاص ، فكان على امرائها ان يتخذوا موقفا — ان وديا وان عدائيا — حيال القوى الاسلامية الكبرى او ما يدور في فلكها من الدول الصغرى ببلاد المغرب . حقيقة ان دورهم كان سلبيا على وجه العموم ، ونادرا ما بادروا بالخروج عن دائرة العزلة السياسية التي فرضتها طبيعة بلادهم الجغرافية ، ومع ذلك يمكن ان نشير الى علاقاتهم السياسية بطابعها الودي او العدائي ، وبجوانبها السلبية او الايجابية مع كافة القوى الاسلامية المعاصرة في بلاد المغرب ، فضلا عن الدولة العباسية والاندلس وبلاد السودان (128) .

على كل حال — كانت سياسة بني مدرار الخارجية تسير في اتجاهين بارزين ، عاقت عدائية تجاه الخلافة العباسية ودولة الاغالبة ودولة الادارسة ، ثم علاقات ودية مع بني رستم والامويين بالاندلس .

أ - العلاقات العدائية :

(1) بنو مدرار والعباسيون :

اتخذت علاقات بني مدرار بالخلافة العباسية وعمالها في المغرب

(128) ذكر مورنل — وهو صاحب اكبر واشمل مؤلف في تاريخ المغرب — مطلقا على سياسة بني مدرار الخارجية « نحن لا نعلم ثمة علاقات خارجية لهذه الاسرة اللهم الا عن صلاتها مع دولة الاغالبة » . انظر : Les Berbers. Vol. 2. P. P. 24 - 25.

طابعاً عدائياً . حقيقة أن هذا العداء لم يصل الى درجة قيام الحروب بين ائمة سبلماسة وامراء القيروان ، فقد شغل كل منهم بمشاكله الذاتية عن مناجزته خصومه ، وحالت الظروف السياسية والعوامل الجغرافية دون تناحرهم ، فانصرف هم الخلافة وعمالها الى الاحتفاظ بأفريقية واستقطوا أقصى بلاد المغرب من حسابهم بعد أن انسلخت تماماً عن نفوذهم . كما أثر الامراء المدرايون حياة الهدوء والمواذعة داخل بلادهم النائية بعد ما تعرضت له حركات الخوارج على أيدي ولاة بنى العباس منذ ولاية محمد ابن الأشعث حتى عهد هرثة بن أعين . ومن ثم قنع العباسيون باستخلاص أفريقية وحمايتها من أخطار الخوارج ، كما زهد أمراء سبلماسة فى مناجزة ولاة القيروان ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة اعداد الجيوش بسبلماسة فى أقصى الجنوب لخوض حروب غير مأمونة العواقب فى أقصى الشمال ، وانصرفوا لمواجهة المشاكل الداخلية فى دولتهم ، فضلاً عن الاهتمام بمصالحهم التجارية كوسطاء فى حركة التجارة عبر الصحراء شرقاً وشمالاً وجنوباً .

وقد ادى هذا الى أن بعض المؤرخين اعتبروا أمراء سبلماسة عمالاً للعباسيين بسبب عزوف الطرفين عن محاربة بعضهما البعض ، فيذكر مرسية (129) أن « بنى مدرار كانوا يعترفون بالتبعية للعباسيين » أما فورنل (130) فيقرر « أن أمراء سبلماسة كانوا يدعون لبنى العباس » . وكذلك بل (131) فإنه يقول « وليس غريباً أن يدخل أمراء سبلماسة فى علاقات التبعية للعباسيين رويداً رويداً » . وربما كان بروفنسال (132) أكثر انصافاً فى قوله « كان المدرايون فى كثير من فترات حكمهم يتبعون بغداد اسماً » . ويخيل إلينا أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على نصين عند ابن خلدون ، ذكر فى أحدهما (133) أن أبا القاسم سبكو بن واسول « خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس » ، وفى الآخر (134) أن « الشاكر لله أعلن ولاءه لبنى العباس عندما قام بحركته ضد الفاطميين » . كما اعتمدوا أيضاً على رواية أخرى مشكوك فيها تفيد أن اليسع بن مدرار

Histoire de Constantine P. 92. (129)

Les Berberes. Vol. 2. P. 22. (130)

La religion musulmane. Vol. I. P. 168. (131)

Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 249. (132)

(133) المبرج ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(134) نفس المصدر صفحة 131 .

أمير سجلماسة أودع عبيد الله المهدي السجن على اثر رسالة من الخليفة العباسي يأمره فيها بالقبض عليه .

وإذا صح ما ذكره ابن خلدون من خطبة أبي القاسم سمو للمنصور والمهدي في سجلماسة ، فإنه قد فعل ذلك خوفا من عمال الخلافة في المغرب من أمثال يزيد بن حاتم وخلفائه ممن عرفوا بالقسوة والبطش في ملاحقة حركات الخوارج . واقدام أبي القاسم على هذا العمل يدخل في إطار « مبدأ التقية » الذي تجيزه تعاليم المذهب الصفرى (135) تحاشيا لأخطار محدقة بدولته وهى لم تزل في المهد .

أما مناداة الشاكر لله بالدعوة لبنى العباس ، فمن المعتقد أنها كانت لهدف سياسى هو تأليب أهل السنة ببلاد المغرب ضد الفاطميين الشيعة ، وهو ما فعله أبو يزيد مخلد بن كيداد في ثورته على الفاطميين .

وحسبنا ان الشاكر لله ضرب العملة باسمه — من دون الخليفة العباسى (136) — كما لقب نفسه « أمير المؤمنين » (137) ، بما يؤكد صدق قول القلقشندى (138) « فدعا لنفسه مموها بالدعاء لبنى العباس ».

أما عن الرواية المتواترة عن حبس اليسع بن مدرار للمهدي بسجلماسة وفقا لمشيئة الخليفة العباسى فالمعتقد انها مشوبة بالخلط والاضطراب الامر الذى يشكك فى صحتها . يقول ابن خلدون (139) « . . . ولحق عبيد الله الشيعى وابنه أبو القاسم بسجلماسة لعهد ، وأوعز المعتضد اليه فى شأنهما — وكان على طاعته — فاستراب بهما وحبسهما » بينما يذكر فى مقدمته (140) ان « المعتضد أوعز الى الاغلبية امراء افريقية بالقيروان وبنى مدرار بسجلماسة بأخذ الاتفاق عليهما (المهدي وابنه) واذكاء العيون فى طلبهما ، فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفى مكانهما ببلدة واعتقلهما مرضاة للخليفة » . وفى رواية ثالثة (141)

(135) انظر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 .
(136) انظر : Lavoix : Catalogue des monnaies musulmano, P. 402.

(137) صبح الاعشى : ج 5 ص 167 ،
Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins, P. 328.

(138) تنس المصدر والمصحفة .

(139) المعبر : ج 6 صفحة 131 .

(140) مقدمة ابن خلدون : ج 1 صفحة 240 .

(141) المعبر : ج 3 صفحة 363 .

يقول ابن خلدون « وذهب عبيد الله الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فأكرمه ثم جاء كتاب زيادة الله ، ويقال كتال كتاب المكتفى بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه » .

ولا يمكن أن تكون هذه الروايات المضطربة ذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بني مدرار وبين العباس كما ذهب بل (142) . والاكثر غرابة أن يقال أن « أمير سجلماسة كان سنيا » (143) .

وممكن الاضطراب في روايات ابن خلدون قوله في أولى رواياته أن الخليفة المعتضد هو الذي أوحى إلى ابن مدرار بالقبض على المهدي ، بينما يذكر في روايته الثالثة أن ابن مدرار استجاب لطلب الخليفة المكتفى وليس المعتضد . فضلا عن ذلك فإن هذه الروايات لا تحدد ما إذا كان الخليفة العباسي أم الأمير الأغلب هو الذي بعث بكتبه ليستحث اليسع بن مدرار القبض على المهدي ، ومهما كان الأمر فإن عبيد الله المهدي كان معروفا لدى أمير سجلماسة الذي كان يجله ويكرمه (144) ، وكان المهدي يفدق الهدايا والصلوات على حكام البلاد الذي مر بها أو أقام فيها ، « فمنهم من لم يعرفه وأكرمه لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه اليه ، ومنهم من عرفه وقدره » (145) . ولم ينكر المهدي نسبه وأنه « يدعو إلى الرضى من آل محمد » حين سأله ابن مدرار ، بل كتم عنه صلته بداعيته أبي عبد الله الشيعي ونفى معرفته له (146) .

ويخيل لنا أن ابن مدرار حين قبض عليه وحبسه لم يقصد بذلك « مرضاة الخليفة » أو لانه « كان على طاعته » كما ذهب ابن خلدون ، بل أقدم على ذلك حين علم « بأنه هو الذي يدعو إلى بيعته أبو عبد الله الشيعي بافريقية » (147) ، الذي كان خطرا على سائر دول المغرب هدها بالزوال (148) ، وقد نمت ذلك إلى علمه « من جهات كثيرة » (149)

(142) انظر : La religion musulmane en Berberie. P. 156.

(143) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص 54 .

(144) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 70, Mamour : Op. Cit. P. 107.

(145) شرح الاخبار : صفحة 32 .

(146) نفس المصدر والصحيفة .

(147) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 272 .

(148) شرح الاخبار : صفحة 32 .

(149) نفس المصدر والصحيفة .

وليس عن طريق الخلافة العباسية وحدها .

قصارى القول أن واقعة المهدي بسجل ماسة لا تدل على تبعية آل مدرار لبنى العباس بقدر ما تدل على خوف الأمير المدرارى على دولته من الخطر الشيعى الجديد . فالقول بتبعية الأسرة المدرارية للخلافة العباسية أمر يتعارض والظروف السياسية التى قامت فيها دولة بنى مدرار ، كما لا يستقيم مع طابعها الدينى المذهبى المتطرف ، وواقع صلاتها السياسية بالقوى المعادية لبنى العباس .

فقيام دولة بنى مدرار بسجل ماسة كان على حساب النفوذ العباسى فى بلاد المغرب ، فاقطع هذا الجزء نهائيا عن سلطان الخلافة ، واستقل به أمراء بنى مدرار « عن ولاة القيروان والعرب » (150) « وخلصوا طاعة الخلفاء » (151) . ولما كانت دولة بنى مدرار بمثابة مجمع للخوارج الصفرية أساسا ، فقد غلب عليها الطابع الدينى المذهبى ، وجدير بالذكر أن مذهب الخوارج عموما لا يعترف بإمامة بنى العباس باعتبارهم مفتصبين للخلافة « وكلهم يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم أن أمكن أو قتلهم » (152) . واذ لم يكن بمقدور صفرية المغرب الاقدام على ذلك ، فلا أقل من مناصبتهم العداء وانكار شرعية إمامتهم . وليس من المقبول أن يدين صفرية بسجل ماسة لبنى العباس فى الوقت الذى كان اخوانهم فى المذهب يعانون من سطوة الخلافة بالشرق ، ففى السنوات 162 هـ ، 169 هـ ، 171 هـ ، 178 هـ (779 ، 786 ، 788 ، 895 م) عمد العباسيون الى استئصال شأفة الخوارج الصفرية فى قنشرين وارض الموصل والجزيرة وارض السواد ، فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم (153) . واستمرت تلك السياسة طوال القرن الثالث الهجرى حتى ضعفت شوكة الخوارج الصفرية فى الشرق الاسلامى (154) . ولا غرابة بعد ذلك اذ اضمر أمراء بنى مدرار بسجل ماسة العداء للخلافة العباسية وعمالها فى المغرب وأقدموا على مشايعة الد أعدائها وهم بنو أمية بالاندلس .

(150) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 ، كولن : مادة سجل ماسة بدائرة المعارف الاسلامية : ص 289 .

(151) الطغشندى : ج 5 صفحة 164 .

(152) البغدادى : الفرق بين الفرق : ص 273 ، أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 3 ص 337 ، Bel : Op. Cit. P. 168.

(153) انظر : ابن الاثير : ج 6 ص 162 ، 169 ، 171 ، 178 .

(154) نفس المصدر : ج 7 ص 61 ، 67 ، 74 ، 75 ، 119 ، 155 ، 156 ، 157 .

2 - بنو مدرار والأغالبة ؛

من الطبيعي أن تكون علاقات الاغالبة ببنى مدرار امتدادا لعلاقات بغداد بسجلماسة ، فدولة الاغالبة التي قامت بافريقية سنة 184 هـ (800 م) كانت تدين بالولاء السياسى والتبعية الاسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتى ، وحسبنا أنها كانت تمثل البقية الباقية لنفوذ الخلافة فى بلاد المغرب وقاعدتها لاسترداد سلطانها المفقود فى هذه الجهات . ولا غرو فقد سمح الرشيد بقيام هذه الدولة حرصا منه على استمرار نفوذه فى افريقية من ناحية واسترداد هذا النفوذ فى الاجزاء التى انسلخت عنه من ناحية أخرى لو استطاع الاغالبة الى ذلك سبيلا (155) . ومن ثم عادى الاغالبة أعداء الخلافة فى المغرب ومنهم بنو مدرار .

لكن الذى لا شك فيه أن هذا العداء لم يبلغ حد التناحر والصراع بين الدولتين ، فانصرف الاغالبة عن مشاكل المغرب لتحقيق أهدافهم التوسعية فى حوض البحر المتوسط . وربما كان وجودهم وسط حشد من الاعداء (156) دافعا لهم على تولية الظهر للقارة والاتجاه الى البحر ، وبديهي أن يخفف هذا الاتجاه من حدة عدائهم لبنى مدرار وخاصة أن الآخرين كانوا بعيدين عن متناول خصومهم ، حيث قامت الدولة الرسمية حائلا بين الطرفين (157) وتعرضت بذلك للاحتكاك مع الاغالبة .

واذا كانت دولة بنى مدرار قد سلمت من مناجزة أمراء القيروان وتطاولهم ، فذلك لا يعنى انتفاء عداوتهم ، أو بمعنى آخر لم يكن عدم قيام الحروب بين سجلماسة والقيروان دليلا على الود المتبادل كما ذهب فورنل (158) . والحقيقة أن كلا من الطرفين لم يعبأ بالآخر طالما لم يكن بوسعه أن يسير الجيوش لقتاله ، ومن ثم اتخذت عداوتهما طابع الاغفال وعدم الاكتراث .

ومن الخطأ أن يفسر ذلك على أنه استكانة من جانب بنى مدرار

(155) الاصلخرى : ص 37 ، P. 8. Op. Cit. Vonderhey den

(156) كانت دولة الاغالبة محاطة بعدد من القبائل المعادية سياسيا ومذهبيا ، وهذه القبائل هى بنو يفرن الصغرى وأوربة الادريسية ، ولماة ونفوسة الاباضية الوهبية ، وهوارة النكارية ، وزواغة الخلفية ، وكتامة الشيعية الاسماعيلية . انظر : Masqueray : Op. Cit. P. 195.

(157) انظر الخريطة .

(158) راجع : Les Berberes Vol. 2. P. 22.

وقناعة منهم بالتبعية للأغلبية ، فقد ذهب ابن أبي دينار (159) الى أن « اليسع بن مدرار كان يحكم سجلماسة لبنى الاغلب » . ويخيل الينا انه استنتج هذا القول من حادثة القبض على عبيد الله المهدي بسجلماسة على اثر رسالة بعثها الامير زيادة الله بن الاغلب ومقا لرواية بعض المصادر (160) او ارفقتها برسالة اخرى للخليفة العباسي في رواية اخرى (161) . وقد سبق ان ذكرنا أن الامير المدراري اقدم على سجن المهدي اتقاء للخطر الشيعي الذي هدد دولته . لقد كان قبض اليسع على المهدي وسجنه بسجلماسة من قبيل التوافق غير المقصود بين أهداف الخلافة والامارة وبين مصالح الاسرة المدرارية التي تهددها خطر الشيعة ، ولا يعني هذا الحدث وجود أدنى نفوذ للأغلبية على امراء بنى مدرار .

لقد كان الخلاف السياسي والمذهبي بين الامارتين الاغلبية والمدرارية يحول دون أدنى تقارب بينهما ، ولا فرو فقد هادن بنو مدرار جيرانهم الرستميين كيما يتشرفوا لمواجهة الاغلبية عدوهم المشترك . كما التقوا باموى الاندلس للوقوف امام اطماع الاغلبية في المغرب والحيلولة دون تسربهم الى ما وراء حدود افريقية . ولعل من اهم ما يبرز اسباب الجفوة والعداء بين المدراريين والاغلبية ما تعرض له الخوارج الصفرية من بطش واضطهاد في القيروان ، فقد كان اعتناق المذهب الصفرى تهمة تصم صاحبها بالمروق والعصيان والزندقة (162) . وعلى الرغم مما يقال (163) عن تسامح الاغلبية مع اهل المذاهب الاخرى بالقيروان ، فقد تعرض الصفرية — بوجه خاص — لاضطهاد شديد — بعد ولاية سحنون قضاء القيروان — فقد حظر عليهم الاجتماع والصلاة في المسجد الجامع (164) ، وبددت حلقاتهم (165) ، كما منعو من تعليم الصبيان وتاديبهم (166) ، وتعرض من خالف ذلك لزيد من البطش والتعنيف (167) .

(159) المؤنس في اخبار افريقية وتونس ص 49 .

(160) انظر شرح الاخبار — ملحق (1) ص 32 من كتاب :

Ivanova : Ismaili tradition., Mamour : Op. Cit. P. 107.

(161) افتتاح الدعوة . ص 43 ، ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، المتريزي : اتعاظ الحنفا ص 84 ، الخطط : ج 1 ص 350 .

(162) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية : ص 80 .

(163) انظر : حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ' ج 1 ص 58 .

(164) أبو العرب تميم : المرجع السابق ص 102 .

(165) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 276 .

(166) الدباغ : معالم الايمان . ج 2 ص 55 .

(167) أبو العرب تميم : صفحة 102 .

كل ذلك قمين بأن يذكرى العداء بين بنى مدرار والغالبة ، وينفى بشكل قاطع أى قول بوجود علاقات ودية بينهما ، كما يدحض الزعم القائل بتبعية أمراء سجداسة لبنى الأغلب .

3 - بنو مدرار والادارسة :

تحفل المراجع بكثير من القرائن والشواهد (168) التى تؤكد طابع العداء الصارخ بين بنى مدرار والادارسة ، فقد قامت دولة الادارسة بالمغرب الاقصى سنة 172 هـ (789 م) على حساب نفوذ الخوارج الصفرية ، اذ نعلم أنهم اقتطعوا هذه الجهات عن نفوذ الخلافة وولاتها بالقىروان منذ ثورة ميسرة سنة 121 هـ (739 م) . فلما نجح ادريس الاول فى اقامة دولته ، ذوى شأن الصفرية فيها وتعرضوا للبطش والاضطهاد من جانب آل ادريس ، وزاد هذا العداء (169) حدة بسبب الخلاف المذهبى ، فالادارسة من الشيعة الزيدية ، وبنو مدرار من الخوارج الصفرية ، ولا يخفى العداء التقليدى بين الشيعة والخوارج .

لا ننكر وجود حاجز جبلى يفصل بين الدولتين ، وأن الطبيعة الجبلية فى المغرب الاقصى شكلت نوعا من الحماية لكلتى الدولتين (170) الى حد كبير ، لكن ذلك لم يكن عائقا دون امكانية غزو احداها للآخرى . فثمة طريق ممهد يبدأ من « فاس الى صفرو فقلعة مهدى فتادلة فوادى شعيب الصفا » ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث توجد سجداسة (171) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج « من باب الغوارة بفاس الى مدينة سجداسة » (172) حيث تتوافر الزروع والمياه فى اقليم اغمات الموجود على يساره (173) . بل لا يخالجنا شك فيما ذهب اليه جورج

(168) ذهب بعض الدارسين الى صعوبة تتبع علاقات بنى مدرار بالادارسة بسبب ندرة المعلومات . انظر : حسن عبد العواد : دولة الادارسة ص 250 ،

Basset : Op. Cit. P. 333.

(169) اخطأ البعض حين انتهى الى أن « حسن الجوار كان العلانة السائدة بين دولة الادارسة ودولة سجداسة » . انظر : حسن عبد العواد : دولة الادارسة صفحة 253 .

(170) ابن فضل الله العبرى : مسالك الابصار ج 5 قسم 2 ورقة 17 - مخطوط .

(171) الادريسي : صفحة 76 .

(172) ابن أبى زرع : صفحة 53 .

(173) ابن حوقل : صفحة 65 .

مارسيه (174) بأن « ادريس الاول وخلفائه كانوا عازمين على استئصال شأفة صفرية تافيلالت ». ويخيل إلينا أنهم عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد مع الأغالبة الذين نجحوا في إثارة القلاقل وحيك المؤامرات في وجه أئمة فاس ، فاغتالوا ادريس الاول (175) والثانى (176) ، ومولاهما (177) راشد والبوا وزراءهم وكبار دولتهم عليهم ، واستمالوا بعضهم إلى جانبهم (178) . كذلك كان ضعف الدولة بعد موت ادريس الثانى ونشوب الخلافات بين أفراد الأسرة الادريسية (179) من أسباب تقاعس الادارسة عن غزو سجلماسة ، واكتفائهم بتصفية نفوذ الصفرية داخل دولتهم ، فضلا عن استقطاع بعض أطراف الدولة المدرارية .

أما عن بنى مدرار ، فلم يكن بوسعهم — أمام مشاكلهم الداخلية — الشروع في تدبير غزو بلاد الادارسة خاصة في عهدي ادريس الاول والثانى . وحين اتيح لهم القيام بهذا الدور في عهد اليسع بن مدرار ، دهمه الخطر الفاطمى الذى قضى على بنى مدرار والادارسة معا . لكن بنى مدرار لم يعدموا وسائل الكيد والدس لجيرانهم ، وإثارة القلاقل في دولتهم عن طريق صنائعهم من الصفرية في الدولة الادريسية .

وقد اتخذ هذا العداء السياسى بين فاس وسجلماسة مظاهر من الفعل ورد الفعل ، كان الادارسة يمسكون فيها بزمام المبادرة ، بينما لاذ بنو مدرار ازائها بالصمت حينما وتصدوا لمواجهة حينما آخر .

وتجلت مظاهر العداء فيما قام به ادريس الاول من حملات لاستئصال شأفة صفرية تلمسان من بنى يفرن الزناتيين (180) بعد أن بايعته القبائل الصفرية الاخرى قسرا ، ومن بينها بعض بطون مكناسة (181) .

ففى منتصف رجب من عام 173 هـ (790 م) توجه ادريس على

(174) La Barberie Musulmane et l'orient. P. 124.

(175) ابن أبى دينار : المؤنس : ص 99 ، اطليش : الامكان ص 81 .

(176) ابن الأبار : الطلة السراء ص 200 .

(177) ابن خلدون : ج 4 صفحة 13 .

(178) النويرى : ج 22 ورقة 28 .

(179) البكرى : صفحة 123 .

(180) اطليش : الامكان ، صفحة 57 .

(181) ابن خلدون : ج 4 ص 12 ، محمد على السنوسى : الدرر السنية : ص 44 .

رأس حملة الى تلمسان وأخضع أهلها دون عناء (182) ، وظل مقيماً بها حتى عام 174 هـ (791 م) ليوطد نفوذه فيها . ثم أسند حكمها الى أخيه سليمان (183) ، وعاد الى ويلي . وهكذا قدر له الاستيلاء على كل معاتل الصفرية في بلاد المغرب الاقصى فيما عدا سجلماسة . غير ان اغتياله المفاجيء شجع صفرية تلمسان على الانتفاض ، وظلوا خارجين على الادارسة حتى عام 197 هـ (813 م) حين عول ادريس الثانى على اعادتهم الى طاعته ، فاعد الحملة التى جهزها « لمحو آثار دعوة الخوارج الصفرية » (184) فى تلك السنة واستمر يحاربهم طيلة ثلاث سنوات (185) الى ان ادعنوا لطاعته (186) .

ولم يستطع صفرية سجلماسة مديد العون لآخوانهم بتلمسان واستنقاذهم من ضربات الادارسة ، ويعزى ذلك الى استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان الا عبر اراضى الدولة الادريسية ، فكان الطريق اليها يمر بدرعة وأغمات وتادلا وفاس ومنها الى تلمسان (187) .

وعول خلفاء ادريس الثانى على اقتطاع الاجزاء المجاورة لدولتهم والتابعة لبنى مدرار ، فتمكن عبد الله بن ادريس — الذى تولى أغمات والنسوس الاقصى وبلاد نفيس — من مد نفوذه على صنهاجة اللثام الضاربة حول سجلماسة واستولى على بعض الحصون التابعة لبنى مدرار (188) . كما اقتطع يحيى بن ادريس بلدة تامدلت — قرب درعة — وهدد بحرمان بنى مدرار من مناجم درعة الفنية بالذهب والفضة (189) .

وتمثل رد الفعل من جانب بنى مدرار فى تحريض الصفرية فى فاس

-
- (182) ابن ابي زرع القرطاس : ص 22 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I P. 475.
(183) نفس المصدر والصحيفة .
(184) ابن خلدون : ج 4 ص 13 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس : ج 2 ص 19 .
(185) ابن ابي زرع : ص 69 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 198 ؛ السنوسى : الدرر السنية . ص 59 .
(186) اطفيش : الامكان : ص 57 ،
Masqueray Op. Cit. P. 172.
(187) الادريسي : صفحة 81 .
(188) اليعقوبى : البلدان ص 359 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .
(189) اليعقوبى : نفس المصدر والصحيفة .

على الثورة ضد الأمير على بن عمر بن ادريس . وبالفعل نجح أحد صنائهم ويدعى عبد الرزاق الصفري في لم شمل صفرية مديونة وغيانة ومكناسة وغيرهم ، واستولى على مدينة صفروى — جنوبى فاس — وبايعه كافة الصفرية في نواحيها ، ثم اتجه بجموعه الى فاس وهزم على بن عمر ابن ادريس الذى فر لائذا بقبيلة أوربة ، وتمكن عبد الرزاق من دخول العاصمة ، وخطب له على منابر عدوة الأندلسيين . لكن حركته لم تستمر طويلا ، فقد استدعى أهل عدوة القرويين يحيى بن القاسم بن ادريس المعروف بالعدام وبايعوه بالامامة . وتمكن العدام من طرد عبد الرزاق الصفري من عدوة الأندلسيين ، وظل يقاتل الصفرية في عدة وقائع حتى فل شوكتهم وقتل زعيمهم سنة 293 هـ (907 م (190)) ونحن نرجح ما ذهب اليه جورج مارسيه (191) من أن حركة عبد الرزاق الصفري هذه كانت من تدبير بنى مدرار في سجلماسة ، ومما يرجح ذلك قيامها في المناطق المجاورة للامارة المدرارية وامتدادها الى الشمال حتى وصلت الى قصبة دولة الادارسة .

ولعل ما أحدثته تلك الحركة من تصدع في دولة الادارسة ، وما وصلت اليه دولة بنى مدرار من قوة واستقرار على عهد اليسع بن مدرار هو ما جعل الأمير المدرارى يعد العدة لبسط نفوذه على اخوانه في المذهب المقيم داخل الدولة الادريسية . فمعل على تجهيز جيش يغزو به دولة الادارسة لتحقيق هذه الغاية ، لكن جهوده في هذا الصدد لم تتم بسبب تعرض بلاده للخطر الشيعى (192) . . وهكذا غلب طابع العداء على العلاقات السياسية بين سجلماسة وفاس .

ب ـ العلاقات الودية :

(1) بنو مدرار والرستميون :

اتخذت علاقات بنى مدرار ببنى رستم طابعا وديا ، تمثل في سياسة حسن الجوار التى حرص كل منهم على مراعاتها . ومن ثم انعدمت الحروب

(190) انظر : البكرى : ص 125 ، ابن أبى زرع : ص 112 — 115 ، ابن خلدون : ج 4 ص 15 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 208 — 209 ، السلاوى : ج 1 ص 162 ، سلفاتور كوسا : تواريخ مدينة فاس ص 6 ، Masqueray : Op. Cit. P. 172.

(191) La Berberie Musulmane. P. 126.

(192) ابن الخطيب : أعمال الاعلام : ج 3 ص 145 .

بينها على الرغم مما كان بين الصفرية والاباضية من تنافر وصل الى درجة الصراع ابان ثورات الخوارج في بلاد المغرب .

وفي تقديري أن هذا التقارب مرتبط بالظروف السياسية القاسية التي واجهتها حركات الخوارج في المغرب على اثر الحملات الضخمة التي عكف بنو العباس على انفاذها لقمع ثورات الخوارج في المغرب ابتداء بحملة ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) ، تلك الظروف الصعبة التي أحدثت تحولاً عملياً في سياسة الخوارج في المغرب حيث لجأوا الى اقاصى الجنوب ، وأقاموا دولتين متجاورتين احدهما للصفرية في سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) والاخرى في تاهرت للخوارج الاباضية سنة 162 هـ (779 م) .

فوحدة الظروف السياسية المتمثلة في العداء لبنى العباس وعمالهم بالقيروان وكذلك الادارسة ومصادقة أموى الاندلس ، ووحدة الظروف الجغرافية والتشابه في نمط الحياة القائمة على البداوة واختلاط القبائل وانتقالها بين الدولتين المتجاورتين ، فضلاً عن وحدة المصير ، كل ذلك حدا ببنى مدرار وبنى رستم الى المواقعة وتحاشى الشقاق والخلاف وكل ما يوجب الخصومة والعداء (193) . لكن الثابت أن العلاقة بينهما لم تتعد مجرد تجنب الخصومة والعداء ، فلم تتطور الى مرحلة التحالف أو حتى التعاون المشترك بسبب الخلاف المذهبي والعداء التقليدي بين الصفرية والاباضية في المغرب . وعمدت الدولتان الى تجنب الحروب وتحاشى التدخل في الخلافات التي كانت تنشب بين الاثليات الاباضية في سجلماسة وبين أمراء بنى مدرار ، أو تلك التي حدثت بين صفرية تاهرت وبين أئمتها (194)، فقد صم حكام كل دولة آذانهم عما تعرض له اخوانهم في المذهب داخل الدولة الاخرى حرصاً على السلام .

فالمعروف أن عدة آلاف من الاباضية اقاموا بدولة بنى مدرار (195) ، وقد سبقت الإشارة الى دورهم في مناهضة أمراء بنى مدرار ، وطمعهم في السلطة ، وما قام به أمراء سجلماسة من قمع حركاتهم والبطش بهم . وحسبنا أنهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ المذهب بتاهرت أكثر من ولائهم للدولة التي كانوا يعيشون في كنفها ، فقد درجوا على ارسال زكاة

(193) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

(194) ابن الصير : صفحة 52 .

(195) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

أموالهم إلى مشايخهم بتاهرت ليصرفوها حيث شاؤا (196) . ولا مراة في أن مشكلة الأقلية الإباضية في دولة بني مدرار كانت أهم المشاكل التي واجهها أمراء سبلماسة على الإطلاق .

كذلك لم تخل تاهرت من وجود أقلية من الخوارج الصفرية لها وزنها (197) . وقد استقرت غالبيتهم في حصن « تالفمت » المشرف على المدينة (198) وبديهي أن يسهموا في أحداث الدولة الداخلية ويقفوا موقف المعارضة من أئمة تاهرت . فيخبرنا ابن الصفر (199) أنهم لعبوا دورا بارزا في الثورة على أبي حاتم يوسف بن محمد ، حيث انضموا لاهل تاهرت من غير الإباضية ضد الإمامة الرستمية .

وقد حرص حكام سبلماسة وتاهرت على تحاشي التدخل في هذه الفتن . فأججوا عن اذكائها أو تشجيعها ، ولولا تفاضيتهم عنها ؛ « لكانت الحروب بينهم متوالية والفتن متتابعة » ع حيث يطلب كل فريق منهم الانضمام إلى امام مذهبه ويظهر التظلم حقا أو باطلا من مخالفة في المذهب الحاكم عليه « (200) بل بادر بعضهم إلى توثيق أوامر الود بين الدولتين عن طريق المصاهرة ، فطلب اليسع بن أبي القاسم سمكوا من عبد الرحمن ابن رستم تزويج ابنه مدرارا من أروى ابنة عبد الرحمن (201) مؤملا تعضيد حكمه في سبلماسة بجيرانه الرستميين وقبل الامام الرستمى « رغم اعتراض المعارضين والمنكرين » مستهدفا توثيق علائق الوداد بين الملكتين فلا يطرقه منهم طارق سوء ، ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له خلفا أو خلا في داخلته (202) .

وعلى الرغم من تصور هذه المصاهرة عن تحقيق أهدافها في إيجاد حل لمشكلة الأقليات المذهبية داخل الدولتين ، إلا أنها أدت إلى حرص المدراريين والرستميين « على تحقيق التضامن والوئام بين دولتي الخوارج »

(196) ابن الصفر : ص 46 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 — مخطوط .

(197) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

(198) نفس المصدر : صفحة 69 .

(199) تاريخ الأئمة الرستميين ص 51 ، 52 .

(200) النفوسى : صفحة 94 .

(201) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 ،

Provençal : Op. Cit. P. 249, Bel : Op. Cit. P. 168.

(102) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

— كما ذهب جوتيه (203) — واحجام كل منها عن التدخل في الامور الداخلية فقد مارس حكام كل من الدولتين سيادة كاملة على سائر الاقلية المذهبية داخل دولتهم « من الاباضية والصفريّة والواصلية » (204) جميعاً، ولم يتساعوا من وجود صلات بين هذه الاقلية وبين شيوخوا سواء ملى تاهرت او سجلماسة (205) .

2 — بنو مدرار وامويو الاندلس :

لم يحل الاختلاف المذهبي بين بنى مدرار واموي الاندلس ، ولا البعد الجغرافي بين سجلماسة وقرطبة دون وجود صلات ودية بينهما ، فقد جمعها العداء المشترك للخلافة العباسية والاغلبية والادارسة . وقد سبق ان وقفنا على اسباب الجفوة بين سجلماسة وبغداد والقيروان وفاس .

ولا يخفى العداء التقليدي بين قرطبة وبغداد ، فحسبنا ان قيام الدولة الاموية بالاندلس تم على حساب النفوذ العباسي هناك ، ولما كان الاغلبية على ولاء لبنى العباس (207) ، فقد ورثوا عداوتهم لاموي الاندلس ، وازداد هذا العداء حدة بسبب التنافس البحري بينهما في وسط وغرب البحر المتوسط . بل ان نجاح الاغلبية في هذا التنافس البحري وتهديدهم النفوذ الاموي في جزر البليار كان من العوامل التي دفعت عبد الرحمن الثاني (206 — 238 هـ) (208) (821 — 853 م) الى توثيق صلاته مع امارات المغرب . واذا كانت الامارة الاموية في قرطبة قد اخفقت في توطيد صلاتها بالادارسة (209) ، الا انها نجحت في اقامة علاقات طيبة مع بنى رستم وبنى مدرار الذين التقوا في مصالحهم السياسية مع اهداف الامارة الاندلسية . ذلك ان المصالح السياسية سمت على الاختلاف المذهبي بين بنى مدرار الصفريّة وبنى امية السنة ، كما ان وحدة المصير تغلبت على الاحتاد القديمة بين الخوارج والامويين . ولم تحل شقة البعد

(203) انظر : Les Siecles obscurs. P. 293.

(204) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، البرادى : الجواهر ورقة 93 ، اطنيش : الامكان

ص 57 ، ياقوت : معجم البلدان ج 3 ص 815 .

(205) الشماخي : السير صفحة 223 ، 224 .

(206) النويرى : ج 22 ورقة 26 ، 27 .

(207) نفس المصدر والورقات .

(208) ابن عبد ربه : المقدر الفريد . ج 4 ص 493 .

Scott : Op. Cit. Vol. I. P. 456.

(209) ابن مغازي : ج 2 ص 106 ،

بينهما دون امكانية الاتصال ، حقيقة لم يكن لبنى مدرار موانئ على ساحل البحر المتوسط (210) ، لكنهم لم يعدموا وجود منافذ على ساحل الاطلنطى كانت على صلة دائمة بموانئ الاندلس كاشبيلية وشاطبة (211) . ومن ثم فليس من المستغرب ان تحفل مدن الاندلس في ذلك الحين بعناصر صفرية من سجلماسة (212) كما غصت سجلماسة بالكثيرين من اهل الاندلس (213).

والواقع ان المؤرخين لا يقدمون معلومات وفيرة تساعد على تتبع هذه الصلات الودية قبل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 — 273 هـ) (214) (853 — 898 م) ، لكنه من الراجح انها ترجع الى عهد عبدالرحمن الداخل (138 — 172 هـ) (215) (755 — 788 م) المعاصر لامراء بنى مدرار الاوائل والذي استقل بالاندلس في ظروف مماثلة لتلك التى اقام فيها بنو مدرار دولتهم بالمغرب . ونعتقد ان نجاحه في ذلك شجع بنى مدرار على الاقدام على اقامة حكمهم المستقل بسجلماسة .

ويبدو ان هذه العلاقات الودية قد تكررت اواخر عهد الحكم بن هشام (180 — 206 هـ) (797 — 821 م) على اثر ثورة الربض بقرطبة ونزوح اعداد غفيرة منهم الى سجلماسة (216) . لكن الجفوة لم تدم طويلا فسرمان ما استعادت العلاقات طابعها الودى في عهد الخليفة عبد الرحمن الثانى الذى وثق صلاته ببنى مدرار ، وخاصة بعد استفحال الخطر الاغلبى في البحر المتوسط . ومن المحتمل ان يكون ميمون بن مدرار الملقب بالامير قد آزر صديقه الاموى عبد الرحمن الثانى في مواجهة القحط الذى حل ببلاد الاندلس سنة 232 هـ (847 م) ، فبعث اليه ما توافر لديه من الحنطة والسكر والتمر (217) . وازدادت صلات الود فى عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم الذى اتسم عصره بالاستقرار السياسى (218)

-
- (210) اليعقوبى : البلدان صفحة 359 .
(211) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس : ص 21 ، ابن الدلائى : نصوص من الاندلس صفحة 18 ، 19 ، Provençal : Op. Cit. P. 248 .
(212) ابن بشكوال : الصلة ج 2 ص 418 ، ابن الفرضى : تاريخ الملوك والرواة ج 1 صفحة 123 .
(213) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(214) ابن عبد ربه : ج 4 صفحة 493 .
(215) نفس المصدر : صفحة 488 .
(216) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(217) جغرافية المامون ورقة 197 ، التلشندي : ج 5 ص 164 ،
Conde : Op. Cit. Vol. I. P. 291.
(218) ابن عبد ربه : ج 4 ص 494 .

في الوقت الذي نعم فيه امراء سجلماسة بالامن والهدوء في عهد ميمون الامير واليسع المنتصر ، حتى ادى ذلك الى ان يعتبر المؤرخون الامير الاندلسي صاحب سيادة فعلية على امراء سجلماسة . يقول ابن عذارى (219) « . . وكان الامير محمد مأمولا محبوبا في جميع البلدان ، وكان محمد بن افلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته الا عن رايه وامره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » ، كما يضيف ابن الخطيب (220) « . . وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة » . ولا شك ان هذا القول ينطوي على مبالغة لا سند لها من الواقع ، فليس ثمة ما يشكك في الاستقلال التام الذي تمتعت به دولتي بنى مدرار وبنى رستم .

كان من البديهي ان تتوطد صلات المودة والصداقة هذه وتزداد رسوخا بظهور الخطر الشيعي في بلاد المغرب وتطلعهم الى الاندلس اذ اهتم أمويو الاندلس بمتابعة اخبار الدعوة الفاطمية عن طريق أصدقائهم في سجلماسة وتاهرت ، وخاصة بعد الانتصارات المتوالية التي أحرزها داعيتهم ابو عبد الله الشيعي على دولة الاغالبية (221) . ولا شك ان بنى مدرار ارتاعوا بدورهم لهذا الخطر ، ومن المحتمل ان يكونوا قد بذلوا جهودا للاشتراك مع أموي الاندلس في مجابهته . لكن هذه الجهود لم تسفر عن شيء ، فقد سقطت دولة بنى مدرار سنة 297 هـ (909 م) في يد الشيعة دون ان يحرك امير الاندلس ساكنا ، ولم تقم قرطبة بجهود المناوئة الفاطميين في المغرب الا في عهد عبد الرحمن الناصر (222) . وهكذا لم تنخفض صلات الود والصداقة بين سجلماسة وقرطبة عن نتائج سياسية ذات بال .

والخلاصة ان علاقات بنى مدرار الخارجية تأثرت بظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وطبيعتها الجغرافية ومذهبها الديني .

(219) البيان المغرب ج 1 صفحة 116 .

(220) أعمال الاسلام ج 2 صفحة 22 .

(221) ابن عذارى : ج 1 ص 150 ، محمود مكي : التشيع في الاندلس ص 111 .

(222) مول الناصر على مناهضة الفاطميين في بلاد المغرب لشغلهم عن التفكير في غزو الاندلس واستطاع بالفعل ان يستحوذ على بعض معاقل العدو كسبته وطنجة . ولعل حرص الحكم المستنصر من بعده على معرفة طبيعة بلاد المغرب واحوال سكانها كان تمهيدا لد نفوذه فيها واتصاء الفاطميين عنها . انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 155 ، الضبي : بغية المتلمس ص 131 .

ثانياً :

دولة بني رستم الإباضية

أ - قيام دولة بني رستم

يرتبط قيام دولة بني رستم بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الإباضي ، فاليه يعزى الفضل في تأسيس دولة للخوارج الإباضية كان حكمها في أسرته من بعده ، وليس غريباً أن يرضخ بربر المغرب الأوسط لزعامة امام من غير البربر ، فان كافة الدول التي قامت ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية اعتمدت على شخصيات من غير البربر تمتعت بمنزلة دينية خاصة (223) في معظم الاحيان .

وغنى عن الذكر ان المصادر جميعاً تتفق على انتماء عبد الرحمن بن رستم الى الفرس ، وتجمع على نسبته لطبقة الحكام الاكاسرة ، لكنها تختلف في التفاصيل . فابن خلدون (224) يذكر انه « من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية » والبكري (225) ينسبه الى « سابور ذي الاكتاف الملك

(223) ينطبق هذا القول على دول بني مدرار وبني رستم والادارسة والاغالبة والفاطيين وكذلك امارة برغواطية .

(224) المبرج 6 ص 121 . وهي رواية خاطئة لان رستم هذا قتل سنة 16 هـ ، وتوفي عبد الرحمن سنة 168 هـ ليكون قد عمر أكثر من مائة وخمسين عاماً .

(225) المغرب : صفحة 67 .

الفارنسي « ، بينما ترجح تواريخ الخوارج (226) صلته « بكسرى انو شروان ملك الفرس » .

وتضطرب تواريخ الإباضية حين نتحدث عن نشأة عبد الرحمن وتورد من الروايات ما يشير الى أن أمر المغرب سيؤول الى الفرس (227) ، وتصور رستم والد عبد الرحمن على أنه كان يدرك هذه النبوءة التي سوف تتحقق على يد ذريته ، فانتقل الى العراق ومنها الى مكة على اهل الرحيل الى المغرب لتحقيق نبوءته . ورواية ابن عذارى (228) عن نشأة رستم وابنه عبد الرحمن بالحجاز أكثر قبولا ، فهو يذكر أن بهراما والد رستم كان من موالى عثمان بن عفان ، ولما مات رستم والد عبد الرحمن تزوجت امه من أحد الحجاج المغاربة الذي اصطحبه معها الى بلاد المغرب . والراجح أن وصول عبد الرحمن الى المغرب حدث في أواخر القرن الأول الهجري (229) ، فنعلم أنه كان شابا يافعا عند ما قدم سلمة بن سعيد يدعو للمذهب الإباضي في بلاد المغرب ، ويخبرنا الشماخي (230) عن لقاء عبد الرحمن بسلمة وشففه بتعاليمه « وتعلق قوله بقلبه » .

ثم توجه عبد الرحمن بن رستم الى البصرة وانضم الى اخوانه المغاربة في حلقة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة سنة 135 هـ (752 م) ، حيث قضى خمس سنوات في حضرته يتلقى أصول المذهب وغروعه ويعد مع اخوانه « حملة العلم المغاربة » مع مشايخ المذهب في البصرة لاقامة « امامة الظهور » عقب عودتهم الى بلاد المغرب .

ولما عادت بعثة المغاربة الى المغرب سنة 140 هـ (757 م) وتولى أبو الخطاب المعافري الامامة ، اختار عبد الرحمن بن رستم قاضيا على طرابلس (231) . وعند ما اقصى أبو الخطاب الصفرية عن القيروان ودخلها سنة 141 هـ (758 م) تولى عبد الرحمن بن رستم حكمها نيابة

-
- (226) أبو زكريا : ورقة 5 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 9 ، الشماخي : السير ص 138 .
(227) تنبؤ هذه المصادر بذكر احاديث منتحلة ومأثورات عن كبار الصحابة — مشكوك فيها — تبين لمضائل الفرس وعظم شتمهم وفضلهم على الاسلام ، وتنبيه عن قيامهم باعادته الى سيرته الاولى ، من طريق اقامة دولة لهم في بلاد المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 2 ، 5 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 9 .
(228) البيان المغرب : ج 1 ص 277 .
(229) ينفي هذا ما قاله ابن خلدون من أن عبد الرحمن قدم الى افريقية « مع طوابع النج » انظر : المعبر : ج 6 ص 121 .
(230) السير : صفحة 123 .
(231) النفوس : ج 2 صفحة 84 .

عنه (232) في حين توجه أبو الخطاب لملاقاة جيوش ابن الأشعث ، فكان عبد الرحمن لذلك « خليفة على إفريقية » (233) .

وقد خرج عبد الرحمن بجيش القيروان لنجدة إمامه حين دهمته جيوش ابن الأشعث ، لكنه توقف عند قابس عند ما وصلت أنباء قتله وهزيمة جيوشه ، واضطر للعودة إلى القيروان لثورة أهل قابس عليه ، لكنه أسرع بمبارحتها عند ما علم بثورة أهلها على نائبه فيها (234) . وتخطى تواريخ الإباضية (235) حين تزعم أن عبد الرحمن بن حبيب استولى على القيروان إذ ذاك وأنه ظفر بابن رستم وهم بقتله لولا شفاعته بعض القيروانيين فيه ، فأطلقه ابن حبيب على أن يغادر القيروان توا ، لأن هذه الأحداث وقعت سنة 144 هـ (761 م) بينما قتل عبد الرحمن ابن حبيب سنة 137 هـ (236) (754 م) ، وانتهى حكم أسرته بمقتل ابنه حبيب على أيدي الصفرية سنة 140 هـ (237) (757 م) .

والمعتول أن يكون عبد الرحمن قد نزل القيروان في محاولة لجمع شمل الإباضية فيها ، ثم أسرع بمفادرتها لثورة أهلها على الإباضية من ناحية ولوصول ابن الأشعث وجيوشه إليها من ناحية أخرى (238) .

وبديهي أن يتجه عبد الرحمن إلى المغرب الأوسط لائذا بالقبائل الإباضية هناك . وكانت رحلته هذه شاقة وعسيرة ، إذ أثر المسير في الطريق الجنوبي المار بقسطنطينية — وهو طريق وعر وطويل — إلى أن وصل إلى جبل سونجج (239) فاتخذ منه ملاذا لمناعته (240) . ثم أخذت جموع الإباضية تفد إليه ، فقصده شيوخ المذهب ورؤسائه من طرابلس وما جاورها (241) ، كما توجه إليه علماء الإباضية وأعلامهم من سائر

(232) ابن عذارى : ج 1 ص 277 ، ابن خلدون : ج 6 ص 111 .

(233) البكري : صفحة 68 .

(234) أبو زكريا : ورقة 10 ، النحوي : ص 2 .

(235) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 16 ، النحوي : ص 2 .

(236) الرقيق : صفحة 124 .

(237) نفس المصدر : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .

(238) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .

(239) ذكر النحوي أن هذا الجبل مجهول الموقع ، ويعتقد دبور أنه هو نفس الجبل المعروف بسونليف الكائن بين مدينتي ملالة والسوقر . انظر : الأزهار الرياضية

ج 2 ص 3 ، المغرب الكبير . ج 3 ص 256 .

(240) أبو زكريا : ورقة 11 .

(241) نفس المصدر والصحيفة ، Gautier : Op. Cit. P. 301 .

أقاليم المغرب (242) . وعول عبد الرحمن على جمع شمل أتباع المذهب بهدف استرداد نفوذه ، ولعل هذا ما حدا بمحمد ابن الأشعث الى اقتفاء أثره بقصد القضاء عليه قبل استفحال خطره . فتخصن عبد الرحمن بالجبل وخذق على نفسه (243) . وضرب ابن الأشعث وجيشه الحصار على ابن رستم ورجاله دون طائل ، فاضطر للعودة من حيث أتى بعد أن حل الوباء بجيشه ، وأفنى كثيرين من رجاله (244) ، فضلا عن خوفه من تمرد أهل القيروان عليه ولما يكن تد وطد فيها سلطانه بعد (245) .

وبرحيل ابن الأشعث أتيح لابن رستم ومن معه من شيوخ المذهب وأعلامه الاتصال باباضية المغرب الاوسط ، فغادر سونجج الى تاهرت القديمة ، وكانت تنزل حولها قبائل من هواره ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية وأغلبها اباضية (246) ، وقد أحسن ابن رستم الاختيار لنزوله في اقليم عامر بالخوارج الاباضية (247) . وبديهي أن ترحب هذه القبائل بمقدمه وخاصة اباضية لماية « لتقديم حلف بينه وبينهم » (248) أيام كان نائبا لابی الخطاب على افريقية ، فلم يعتمد ابن رستم اذن — كما زعم جوتييه (249) — على قبيلة زناتة .

على كل حال — اثمرت اتصالات ابن رستم باباضية المغرب الاوسط ، فأزروه في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 151 هـ (768 م) ، وكانت هزيمتهم في تهودة في نفس العام سببا في اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تلم شمل اباضية المغرب ، وانشاء مدينة تكون قسبة للدولة ومركزا للمذهب.

وقد تريت الاباضية في اختيار موضع مدينتهم ، وحرصوا على اقامتها « في مكان جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الارض ، قابل للعبارة ، مأمون من العدو » (250) . وطفق الرواد يجوبون أطراف الاقليم بحثا عن

(242) النفوس : صفحة 3 .

(243) نفس المصدر والمصحفة .

(244) أبو زكريا ، ورقة 11 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 17 .

(245) النفوس : صفحة 3 .

(246) نفس المصدر : ص 4 ،

Mercier : Histoire de l'établissement des Arabes ... P. 79.

(247) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، مارسية : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : صفحة 92 .

(248) ابن خلدون : نفس المصدر والمصحفة .

(249) انظر : Les Siècles obscurs. P. 312.

(250) النفوس : صفحة 6 .

الموضع المختار ، واجمعت آراؤهم على استحسان موضع تاهرت (251) . وكان هذا الموضع في مكان مسطح مرتفع (252) ، فهو ملائم ليكون مكانا لعاصمة « أمثال هؤلاء السكان الجبليين » (253) ، فضلا عن ملاءمته للرعى ، فهو بمثابة « منتجع صيفي للقبائل الرعوية في شمالي الصحراء » (254) ، هذا بالإضافة لوقوعه « في قلب ديار الإباضية ومنازلهم » (255) ، « ووقوعه بين نهر يأتي من الجنوب يسمى مينة وآخر ينبع من ميون ويشق مجراه الى أن يصب في وادي شلف » (256) . فهذا المكان اذن غيضة بين ثلاثة انهار (257) ، توجه انظارها نحو الداخل وتولى ظهرها للبحر الذي تبعد عنه بمسيرة ثلاث مراحل (258) .

ولهذه الميزات الفريدة ساوم الإباضية سكان موضع تاهرت من بربر صنهاجة (259) على بيعه فأبوا ، لكنهم سلموه اليهم على أن يستصلحوه ويكون لهم نصيب من خراجة . ثم أخذ الإباضية في تأسيس المدينة ، فشرعوا في ازالة الآجام وحرق الاشجار تمهيدا لاختطاطها (260) . وقد استعانوا بالاموال التي كانت ترد اليهم من أباضية طرابلس في اختطاط المدينة وتعميرها (261) . ثم بادروا باختطاط تاهرت سنة 161 هـ (262) (777 م) ، وبدأوا ببناء المسجد الجامع ، فأقاموه على أربع بلاطات (263) في المكان الذي خصصوه لصلاتهم عند ما كانوا يزيلون الاشجار ويمهدون الارض (264) . وتلى ذلك بناء القصور والبيوت (265) والاسواق

-
- (251) أبو زكريا : ورقة 13 ، الشباخي : السير : ص 139 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 9 .
(252) الشباخي : صفحة 146 .
Bernard : Op. Cit. P. 134. (253)
Faroughy : Apersian dunasty in noth Africa P. 14. (254)
Ibid. P. 12 (255)
(256) البكري : ص 66 ، 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .
(257) ابن عذاري : ج 1 صفحة 277 .
(258) اليعقوبي ، البلدان : ص 358 ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص 375 .
(259) البكري : صفحة 68 .
(260) أبو زكريا : ورقة 13 .
(261) نفس المصدر ورقة 11 .
(262) ابن عذاري : ج 1 ص 277 . وهي رواية أكثر دقة من رواية ابن خلدون ومن أخذ عنه حيث يجعل تأسيس تاهرت سنة 144 هـ . انظر : المبر ، ج 6 ص 121 ، السلوى : ج 1 ص 115 .
(263) ابن عذاري : ج 1 صفحة 277 .
(264) أبو زكريا : ورقة 13 ، الشباخي : السير ص 139 ، النفوسي : ص 8 .
(265) الدرجيني : ج 1 ورقة 19 ، الشباخي : السير ص 139 .

والحمائم والفنادق (266) . ويبدو أن نزاعا نشب بين الإباضية وبين بربر صنهاجة آنذاك ، فيخبرنا البكري (267) « أنهم كانوا يبنون النهار ، فإذا جن الليل وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم » . والراجح أن الإباضية ردعوهم بالقوة وأجلوهم عن المكان برمته حتى قال ابن رستم « هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا » (268) . وبديهي أن يهتموا بتحسين المدينة وحمايتها ، فأقاموا سورا حولها (269) جعلوا له أبوابا أربعة (270)، وأصبحت المدينة الجديدة في مأمن من أعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها « معسكر عبد الرحمن بن رستم (271) وقيل « المعسكر المبارك » (272). وأضحى تاهرت على اثر ذلك حاضرة للدولة ، وقصبة لمديد من المدن والقرى والقلاع والحصون التابعة لها (273) .

بأمر رؤساء الإباضية ومشايخهم باختيار إمام بعد اختطاط تاهرت حتى تستكمل دولتهم طابعها السياسي وتبلغ إمامتهم « مرحلة الظهور » . والواقع أن ثمة خلاف بين المؤرخين حول توقيت مبايعة ابن رستم بالإمامة ، وهذا الخلاف يدور حول ما إذا كانت المبايعة قد تمت على اثر مقتل أبي الخطاب ونزول عبد الرحمن بن رستم على أباضية المغرب الأوسط ، أو أن ذلك لم يحدث إلا بعد اختطاط تاهرت يقول البكري (274) « بعد أن هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله وترك القيروان اجتمعت إليه الإباضية واتفقوا على تقديمه » . ويقول ابن خلدون (275) « لحق عبد الرحمن بن رستم بأباضية المغرب الأوسط من البرابرة ونزل على لمية . . فاجتمعوا إليه وبايعوه بالخلافة » . أما النفوسى (276) فيذهب الى « أن علماء المذهب بعد انشاء المدينة تداولوا وقالوا : قد علم ما حل بنا من الشتات والافتراق

(266) البكري : صفحة 68 .

(267) المغرب . صفحة 67 .

(268) نفس المصدر صفحة 68 .

(269) النفوسى صفحة 8 .

(270) هـ : باب المبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب الملاحن . راجع البكري : ص 66 .

(271) نفس المصدر : صفحة 68 .

(272) أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجنى : ج 1 ورقة 21 ، ياتوت : ج 1 ص 816 .

(273) من هذه المدن والقلاع يمه وتاغليه وهزارة ومنداس وسوق إبراهيم وجبل تجان وشلف والبطحة والزيتونة والخضراء ونس وتامزيت وفكان وغيرها . انظر : المقدسى :

احسن التقاسيم ص 219 .

(274) المغرب صفحة 68 .

(275) العبر ج 6 صفحة 121 .

(276) الازهار الرياضية ج 3 ص 83 .

بعد وفاة امامينا (يقصد أبا الخطاب وأبا حاتم) ومبارحتنا طرابلس ، وقد
أجمعنا على اختيار مكان غيرها يليق بمنصب الامامة ويكون ملجأ للاسلام .
واذا رزقنا بهذا المكان وتم تحصينه على حسب المرام وجب نصب
امام (277) »

وفي تقديرى أن عبد الرحمن بن رستم بويع بالامامة مرتين : الاولى
على اثر موت أبى الخطاب سنة 144 هـ (761 م) ونزوله على اباضية
المغرب الاوسط . والثانية سنة 162 هـ (779 م) بعد تأسيس تاهرت .
كانت مبايعته الاولى على أنه « امام دفاع » نظرا لما تعرض له الاباضية
من بطش على يد جيوش ابن الاشعث ولا ينفى هذا ما حدث من مبايعة
اباضية طرابلس لابي حاتم المزوزى في ذات الوقت بالامامة الدفاع (278) ،
فنفقه الاباضية يجوز وجود امامين في وقت واحد « اذا وجد بينهما عدو
يخشى بأسه ، أو لبعد المسافة » (279) . فلا غرابة في وجود امامين
للاباضية أحدهما في المغرب الادنى والآخر في المغرب الاوسط وفي ضوء
ذلك يمكن تفسير ارسال أبى حاتم الاموال لابن رستم لتكون له عوناً على
بدء « امامة الظهور » (280) . فلما استتب الامر لاباضية المغرب الاوسط
بعد انشاء تاهرت وتحصينها سنة 161 هـ (778 م) ، لم يكن هناك ما
يحول دون تجديدهم مبايعة عبد الرحمن بن رستم « لامامة الظهور » سفة
162 هـ (779 م) وخاصة بعد نزوح كثير من اباضية المغرب الادنى الى
تاهرت ليعيشوا في كنف الامامة الجديدة بعد مقتل أبى حاتم المزوزى
« امام الدفاع في طرابلس » (281) .

أجمع مشايخ الاباضية اذن على اختيار عبد الرحمن (282) « لدينه
وسابقته ومكانه وغير ذلك من حميد الصفات » (283) وحسبه أنه كان

(277) وقد اخططت آراء المحدثين لهذا السبب وتضاربت فذكروا أن المبايعة تمت قبل انشاء
المدينة ، ثم ذكروا في مواضع أخرى أنها حدثت بعد تأسيسها . انظر : سعد زغلول
عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 380 ، 383 ، السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير ص 542 ، 545 .
(278) البرادى : الجواهر المنتتاة ورقة 88 .
(279) أظفیش : الامكان ص 107 ، 108 .
(280) أبو زكريا : ورقة 11 .
(281) نفس المصدر ورقة 13 ، انظر : مقدمة تاريخ ابن الصغير . Motylinski : P. 5.
(282) نفس المصدر والصحيحة ، النفوسى : ص 83 .
(283) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 . وقد راعى الاباضية الشروط المتعارف عليها في اختيار
الائمة وهى « العلم والعدالة والكناية وسلامة الحواس والامضاء » دون اشتراط
الاصل القرشى كما هو شأن أهل السنة . انظر : ابن خلدون ، المقدمة ج 2 ص 522.

« أحد حملة العلم الخمسة » الى المغرب ، وعامل ابي الخطاب على افريقية (284) فضلا عن انه « ليس له من قبيلة تمنعه اذا تغير او تبدل » (285) ، ومن ثم ارتضته القبائل لتتخاضى تسلط احداها عليها اذا ما حظى رئيسها بالامامة (286) .

وقبل عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 162 هـ (287) (779 م) « على سنة الله ورسوله وآثار الخلفاء الراشدين » (288) بعد ان عاهد رؤساء المذهب « على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه » (289) ، واصبح اول ائمة الدولة الرستمية التى اشتقت اسمها من اسمه .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته فى العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ، ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياساتها الخارجية أو الداخلية وجدير بالذكر انه كرس جهوده لمواجهة الابعاء الداخلية ملتزما سياسة المهادنة فى الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس فى افريقية (290) — كما اصهر الى اليسع بن ابي القاسم رغبة فى مسالة بنى مدرار (291) .

ولما اطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع فى ارساء دعائمها . وكان عليه ان يبسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها فى الحكم والادارة .

والواقع انه كان بحاجة الى الاموال ليستعين بها على مواجهة تلك المهام فضلا عن تعبئة الجند وشراء الاسلحة واسترضاء الاتباع (292) . ويخيل الينا انه استعان باباضية المشرق فى هذا الصدد ، وبديهي أن يخفوا لغونه وشده أزره لتحقيق آمالهم فى اقامة دولة اباضية كبرى (293).

(284) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(285) ابن الصنير : ص 6 ، أبو زكريا : ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 140 ، Masqueray : Op. Cit P. 58, Farouhy : Op. Cit. P. 139.

(286) ابن الصنير : ص 9 .

(287) ليس صحيحا ما أورده بعض مؤرخى الاباضية من رفض عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 140 هـ قبل أن تعرض على ابي الخطاب المعافى . انظر : الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(288) الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(289) ابن الصنير : ص 9 ، النفوسى ص 84 .

(290) النفوسى : صفحة 93 .

(291) نفس المصدر والمحيطة .

(292) النفوسى : صفحة 86 .

(293) ابن الصنير : ص 10 .

فبادروا بانفاذ بعثه محملة بالاموال الى تاهرت (294) وتفيض مصادر الاباضية (295) بمزيد من التفصيلات حول بعثة المشاركة في تاهرت ، واعجابهم بحكم الامام عبد الرحمن وما هو عليه من زهد وعدل وورع وتسليمهم الاموال له ، وحرصه على استشارة اهل الراى فى كيفية توزيعها وانفاقها ، وتلييته مشورتهم بأن تنفق فى ثلاثة اوجه « ثلثا فى الكراع وثلثا فى السلاح وثلثا توزع فى فقراء المسلمين وضعفائهم » .

واستطاع عبد الرحمن بهذه الاموال تسليح رجاله من الاباضية ، وتمكن بفضلهم من بسط سيادة الدولة على سائر قبائل البربر الضاربة داخل حدودها ، وانضوت كافة الجماعات داخل تاهرت وخارجها تحت لواء المذهب الاباضى فى شكل ائتلاف شمل البربر وما عداهم من العناصر الاخرى (296) .

وفضلا عن ذلك فقد اولى عبد الرحمن النواحي الاقتصادية والعمرانية اهتماما كبيرا ، وتذكر المصادر جهوده فى غرس البساتين وشق القنوات واقامة المطاحن عليها (297) . كما زاد فى تعمير تاهرت واقام الفنادق والمباني الخاصة للتجار ورتب الاسواق ونسقتها ، ونظم الاحتساب عليها ، فقصدها التجار من سائر ارجاء العالم الاسلامى وخاصة من فارس والعراق والقيروان وسجلها سنة (298) فضلا عن بلاد السودان (299) . وقد اسهم هذا الازدهار الاقتصادى فى تدعيم الدولة الرستمية ، وليس ادل على انتعاش احوال الامة فى ذلك الحين من رفض عبد الرحمن معونة اخرى بعثها اليه اباضية المشرق (300) ، الذين ابتهجوا لاستقرار الامة واشتداد ساعدها فاعتزموها بها « ووصلوا الامام بكتبهم ووصاياهم » (301) .

(294) يذكر مروخى ان هذه الاموال بعثها خوارج فارس والبحرين ، بينما تروى المصادر الاباضية انها من لدن خوارج البصرة . وليس من المستبعد ان يكون اباضية فارس والبحرين قد بعثوا بهذه الاموال الى البصرة حيث يوجد مشايخ المذهب الذين ارسلوها بدورهم الى بلاد المغرب . انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ،

Farouhy : Op. Cit. P. 14.

(295) انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 20 ، الشماخى : السمر ص 140 ، 141 ، النفوسى : ص 86 ، 87 .

(296) ابن الصغير : ص 12 ، النفوسى : ص 88 ،

Smith : The Ibadites. P. 279.

(297) نفس المصادر والصفحات .

(298) ابن الصغير : صفحة 16 ، Farouhy : Op. Cit. P. 14.

(299) نفس المصدر : ص 13 .

(300) نفس المصدر ص 14 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 21 .

(301) النفوسى ص 87 ، Julien : Op. Cit. P. 333 .

وعكف عبد الرحمن على تنظيم دولته وتوطيد سلطانه ، ولا شك انه استفاد من عبقرية الفرس في الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الدينى المذهبى على ما اتخذه من اجراءات في هذا الصدد فكانت نظم الادارة والقضاء والشرطة والاحتساب وادارة بيت المال ونظم الجباية والصدقات كلها تسير وفقا لتعاليم المذهب الاباضى (302) ، مع مراعاة ظروف السكان باعتبار غالبيتهم من البدو الرحل (303) .

وبذلك استطاع ابن رستم أن يرسى قواعد الدولة ويضع نظمها الادارية (304) والمالية (305) ويكسبها « رونق الملك » (306) وحسبه نجاحا قدرته على التصدى للمشاكل الداخلية والخارجية الكثيرة التى واجهته . فبفضل سياسته في مهادنة القيروان وسجلماسة ، وبفضل قدرته على ايلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة « لم ينقم عليه احد في خصومة ولا حكومة » (307) « ولم يكن على يديه افتراق » (308) .

ولكى يضمن استمرار الاستقرار لدولته اوصى قبل وفاته (309) بتعيين مجلس شورى يختار امام الدولة من بين أعضائه .

وهكذا نجح عبد الرحمن بن رستم في اقامة دولة أباضية في تاهرت وتتويج ثورات الخوارج الاباضية في بلاد المغرب بتأسيس أسرة حاكمة ضمت معظم أقاليم المغربين الأدنى والأوسط ، ظل أئمتها يتناوبون حكمها قرابة قرن وربع قرن من الزمان .

(302) ابن المنير : صفحة 16 .

(303) مجهول : الاستبصار : صفحة 179 ، Gautier : Op. Cit. P. 300.

(304) اليعقوبى : البلدان : صفحة 149 .

(305) ابن المنير : صفحة 16 .

(306) النفوسى : صفحة 90 .

(307) الشماخى : صفحة 140 .

(308) أبو زكريا : ورقة 14 .

(309) اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته ، فذكر بعضهم انه توفى بعد سنتين من امامته أى

سنة 164 هـ انظر : اقليش : بعض تواريخ أهل وادي ميزاب : ص 101 .

بينما ذكر ابن عذارى انه مات سنة 168 هـ انظر : البيان المغرب ج 1 ص 277 ،

والراجع ما أورده النفوسى من أن وفاته وقعت سنة 171 هـ انظر : الازهار

الرياضية : ج 2 صفحة 99 .

ب - سياسة بني رستم الداخلية

اضطربت أحوال الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بن رستم
مهاجرات بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصري
حدا بالمؤرخ جوليان (310) الى القول بأن تاريخ تاهرت لم يكن
سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية . والواقع ان تلك الظاهرة
اكثر بروزا ووضوحا في الدولة الرستمية اكثر منها في اية دولة اخرى
دول المغرب المعاصرة لها . حقيقة ان هذه الاضطرابات رغم كثرتها لم
الى سقوط الاسرة الحاكمة في تاهرت لكنها على كل حال فتت في عهد
واوهنت من نفوذها في كثير من اقاليمها وخاصة الاجزاء الشرقية منها
لم تمارس عليها سوى مجرد تبعية اسمية ، بل كثيرا ما انسلخ عن
تاهرت بعض هذه الجهات مثل جبل نفوسة ونفزاوة وجربة وطرابلس و
ونعتقد ان هذه الاضطرابات يرجع بعضها الى اسباب فقهية مخ
بينما يعزى بعضها الآخر الى عوامل عنصرية او قبلية او طائفية . و
ان معظم القلاقل الداخلية في عهد الائمة الثلاثة الاولى اتخذت في
الاعم طابع الانشقاق المذهبي في حين وضع الطابع العنصري القبلي
سائر الحركات التي قامت في عهد الامامين الرابع والخامس ، بينما
عهدي الامامين الاخيرين بالصراع على الحكم بين افراد البيت الرستمي
فضلا عن ظهور الطوائف المذهبية غير الاباضية كعامل جديد في
الصراعات . ولم تخل هذه الاضطرابات السياسية - في كثير من الاحيان
من وجود مؤثرات خارجية . وعلى ذلك يمكن التمييز بين ادوار ثا
واضحة في مسار التطور السياسي الداخلي لدولة بني رستم، كان الدور

فيها — ويشمل عهدى عبد الوهاب بن رستم وابنه أفلح — يمثل سطوة الإمامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبي سواء بالقوة كما فعل الامام عبد الوهاب أو عن طريق السياسة كما فعل أفلح بن عبد الوهاب .

أما الدور الثانى ، فيشمل عهدى أبى بكر بن أفلح وأخيه أبى اليتظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى ، وفيه خفت صوت الإمامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت ، ولم يستردها البيت الرستمى الا بتعضيد عناصر أخرى . ولم يحل دون سقوط الإمامة سوى ضعف العصبية من جراء الصراع بينها ، واسلوب الملاينة والموازنة الذى اتبعه أبو اليتظان محمد فى موقفه من هذه العصبية .

ويتسم الدور الاخير من الحكم الرستمى — ويشمل امامتى أبى حاتم يوسف بن محمد واليتظان بن أبى اليتظان — بتداعى الإمامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وطمع الطوائف والفرق غير الاباضية فى تقلدها اثناء للحكم الرستمى الاباضى ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليمة الشرقية . كما زادت الحالة سوءا بتفاقم الخلافات داخل البيت الرستمى وتدبيرهم المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتسليم الحكم . وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) .

وفيما يلى تفصيل دراسة هذه الاطوار الثلاثة فى سياسة بنى رستم الداخلية .

الدور الاول (171 — 258 هـ) (788 — 873 م) .

الانشقاقات المذهبية :

تم اختيار عبد الرحمن بن رستم للإمامة سنة 162 هـ (779 م) وفقا لمبايعة أهل الحل والعقد واجماع كافة مشايخ القبائل ، كما كانت سياسته الادارية والمالية تقوم على المساواة وعدم التعصب لعصبية دون سواها . وبالأجمال كانت امامته متمشية مع تعاليم المذهب الاباضى ، الامر الذى هيا لحكمه الثبات والاستقرار . على أن الخروج عن هذه السياسة فى عهد ابنه عبد الوهاب (171 — 208 هـ) (788 — 824 م) وحفيده أفلح (208 — 258 هـ) (788 — 873 م) سبب الاضطرابات والقلاقل التى حفل بها حكميهما .

لمقد تحولت الامامة عن مبدأ الاختيار الى فكرة التنصيب بالتوريث (311) كما ظهرت سياسة الميل لعناصر دون سواها وتمكينها من الاستئثار بمراكز الدولة ووظائفها ، مما شكل خروجاً عن تعاليم المذهب الاباضي ، وتمزقاً للوثاق الذي ربط بين عناصر وعصبية شتى ، ونجم عن ذلك انفراط العقد الذي جمع هذه القوى جميعاً لتبرز حازاتها في شكل حركات وثورات على الائمة اتخذت في أغلبها طابع الانشقاق المذهبي (312) .

وكانت أولى هذه الثورات وأخطرها حركة يزيد بن فندين وجماعته التي عرفت « بالنكار » (313) . وتكن الدوامع الاساسية لثورة ابن فندين في رفض امامة عبد الوهاب لعدم اعتراجه بجماعة المشورة — التي اقترح ابن فندين استرشاد الامام برأيها (314) — ولأن جماعة المذهب لم يجمعوا على امامته لذلك (315) ، ولأن في جماعة الاباضية من ييز عبد الوهاب علها (316) ، ومن ثم يصبح مقتصبا للامامة يضاف الى ذلك نقيته على سياسة عبد الوهاب الادارية ومحاباته لبعض العناصر والقبائل واختصاصهم بمناصب الدولة دون غيرهم (317) ، وبالذات نفوسة (318) والعجم (319) .

وقد نجح ابن فندين في استمالة العديد من الانصار (320) ، ونحى بهم خارج المدينة حيث تأهبوا لقتال عبد الوهاب وجماعته (321) . ويبدو أن القتال نشب بين الجماعتين بالفعل ، وأن الدائرة دارت على عبد

-
- (311) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .
(312) انظر : ابن الصغير : المقدمة : صفحة 6 .
(313) انظر : السوئي : شرح السؤالات ورقة 99 ، 115 مخطوط . وعرفوا أيضا « بالنجوية » لانهم اكثروا الاجتباع والنجوى ، كما أطلق عليهم اعداؤهم أسماء أخرى ، فمعروا « بالشعبية » لادخالهم الشعب والفرقة في المذهب ، وقيل « الشغبية » لاحداثهم الشغب ، كما دعوا « بالنكاث » لنكثهم ببيعة عبد الوهاب . انظر : أبو زكريا : ورقة 16 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 .
(314) الدرجيني : ج 1 ورقة 22 ، النوسى : ص 102 .
(315) ابن الصغير : ص 18 . والاجباع من شروط صحة الامامة عند فتها الاباضية ، كما هو الحال عند أهل السنة . انظر : الشباخي : شرح مقدمة اصول الفقه ورقة 64 — مخطوط ، الماوردي : الاحكام السلطانية ص 5 .
(316) أبو زكريا : ورقة 15 .
(317) الشباخي : السر : صفحة 146 .
(318) ابن الصغير : صفحة 22 .
(319) النوسى : صفحة 114 .
(320) الدرجيني : ج 1 ورقة 22 .
(321) عرف أنصار عبد الوهاب « بالوهبية » كما يذهب ابن الصغير وليس كما يعتقد البرادى بانهم ينسبون الى عبد الله بن وهب الراسبي . انظر : سيرة الائمة الرستمين ص 16 ، الجواهر المنتفاة ورقة 89 .

الوهاب ، يفهم هذا من رواية للنفوسى (322) يقول فيها « أن الامام اضطر الى طلب الهدنة ووضع أوزار الحرب حقنا للدماء الى أن يكتبوا لآخوانهم المشاركة بإيضاح القضية » . وقبول ابن فندين مبدأ تحكيم فقهاء المذهب في الشرق في قضية الامامة (323) ، مما يؤكد ايمانه بعدالة موقفه وشرعيته، ومما يدحض دعوى المصادر الاباضية في أنه ثار لاسباب شخصية صرفة (324) .

على كل حال — يذهب مؤرخو الاباضية الى أن شيوخ المذهب ملى مصر — وعلى رأسهم شعيب بن المعرف — أفتوا في صالح عبد الوهاب فقالوا « الامامة تامة والشرط باطل » (325) . وكذلك جماعة فقهاء المذهب في مكة ورئيسهم الربيع بن حبيب (326) الذين بعثوا جوابهم (327) الى عبد الوهاب وابن فندين حيث أفتوا « بأن الامامة صحيحة والشرط باطل » وأنه « يجوز تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو اعلم منه » (328) .

ويخيل الينا أن فتوى المشاركة كانت في صالح ابن فندين بدليل وصول فقهاء مصر ورئيسهم شعيب بن المعرف وانضمامهم الى ابن فندين في الثورة على عبد الوهاب (329) ، ثم ورود عبارة عند الشماخى (330) توضح أن « المشاركة عابوا على عبد الوهاب أشياء وأمروه أن يرجع عنها » وكذلك ضعف الرواية الاباضية الوهية التي تصور تراث الربيع واخوانه في اصدار فتواهم ريثما يجتهدوا (331) ويتباحثوا في مسألة تعد من بديهيات الفقه

(322) الازهار الرياضية : ج 2 ص 106 .

(323) أبو زكريا : ورقة 15 ، الشماخى : السير ص 146 .

(324) تزعم هذه المصادر ان ابن فندين قام بالثورة لان الامام عبد الوهاب لم يختره لتولى أحد المناصب العامة « التي اخص بها أهل العلم والبصيرة في الدين » . انظر : أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 .

(325) الشماخى : السير : صفحة 147 .

(326) تقلد الربيع زعامة المذهب في الشرق بعد موت أبى عبيدة مسلم بن أبى كربسة . وقد عرف بتعمقه في الاصول والفروع وتبحره في مسائل الامامة والولاية والبراءة وفنا للقرآن والسنة . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 116 . الورجلانى : الدليل لاهل العقول : ج 2 ص 75 .

(327) انظر : الملحق رقم (4) .

(328) من المعروف أن الشريعة الاسلامية تجيز امامة المفضل اذا لم يكن مقصرا في شروط الامامة مع وجود الانضل ، وكذلك يجوز الفقه الاباضى امامة المفضل اذا كان على شيء « من القناعة والفضل » . انظر : الماوردى : ص 8 ، أبو زكريا : ورقة 16 .

(329) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 .

(330) السير : صفحة 147 .

(331) أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 106 .

الاباضي . ومهما كان الامر فان ما تذكره المصادر الاباضية (332) من ان شعيب بن المعرف « خرج من مصر في نفر من أصحابه بغير مشورة من مشايخ مصر طمعا في الامارة » أمر مبالغ فيه ، والاترب للتصديق أنه توجه لنصح عبد الوهاب وانهاء الخلاف في تاهرت ، فلما لم يجبه انضم الى ابن فندين وخرجت جموع النكار الى الجبال المحيطة بتاهرت واستقروا في كدية عرفت « بكدية النكار » . أما الرواية المتواترة (333) التي توردها هذه المصادر عن تدبير النكار مؤامرة اغتيال عبد الوهاب فهي ذات طابع أسطوري بحث ، كما ان أسلوب الاغتيال كان مرفوضا عند الخوارج (334) .

على كل حال — تاهب الطرفان للقتال فكان النكار « يدخلون المدينة ويخرجون منها بالسلاح » (335) كما « أمر الامام رعيته وأصحابه بامساك السلاح » (336) وانتهاز النكار فرصة غياب عبد الوهاب عن تاهرت وبادروا بمهاجمتها والاستيلاء عليها ، ولما كانت المدينة محصنة ومسورة ، فقد اغلق الوهبة أبوابها ، ونجح افلح بن عبد الوهاب (337) بمن معه في صددهم ، ثم تتبعهم وهزمهم وقتل ابن فندين وكثيرا من النكار ، ولادت فلولهم بالجبال واستقروا في كديتهم . أما شعيب بن المعرف فقد هرب الى طرابلس ، واخذ يؤلب اباضيتها على الامامة في تاهرت (338) .

ونشك أيضا فيما يروى من اغتيال النكار ميمون بن عبد الوهاب

-
- (332) انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 ، الشماخي : السير ص 147 ، النفوسي : ص 108 .
(333) عن هذه الرواية الاسطورية انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، 17 الشماخي السير : ص 103 — 106 .
(334) الثابت ان مبادئ الخوارج تنكر هذا الاسلوب وتحض على المواجهة العلنية للخصوم كما يتضح من مبادئ الاستعراض والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعلام الخصوم واخذ الحجة عليهم قبل قتالهم . . الخ . ونلاحظ ان الخوارج في حروبهم — سواء في المشرق أو في المغرب — التزموا بهذه المبادئ وخاصة الاباضية منهم حتى بلغت مثاليته حد عدم تتبع المدبر وتحريم نهب الخصوم . . الخ . وما حدث من تدبير اغتيال على بن أبي طالب كان حادثا مريدا له دوافعه الخاصة . انظر السوي : شرح السؤالات ورقة 57 ، الاسفرائني : التيسير في الدين : ص 28 .
(335) الشماخي : السير : صفحة 148 .
(336) الدرجيني : ج 1 ورقة 24 .
(337) تحفل المصادر الاباضية بتمصص روائية عن شجاعة افلح واستبساله في الزود عن المدينة . انظر : ابو زكريا : ورقة 18 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 25 ، النفوسي : صفحة 111 — 121 .
(338) نفس المصادر والصفحات . وجدير بالذكر ان اختلاف فقهاء الاباضية حول موقف شعيب وانقسامهم بين مؤيد ومعارض مما يبرز الطابع المذهبي للحركة . وهذا شأن خلاصات الخوارج في الشرق أيضا . عن هذه الخلاصات انظر : الشماخي : السير : صفحة 151 .

وتمثيلهم بجثته (339) ، فهذا الأسلوب غير مألوف عند الخوارج عموماً — كما سبق القول — ولو صح قول البكري (340) أن ميمونا هذا كان ابناً لعبد الرحمن بن رستم وليس لعبد الوهاب ، لبطلت تلك الرواية من أساسها . واغلب الظن أن مؤرخي الإباضية الوهبية اصطنعوها لتبرير حملة عبد الوهاب على النكار بقصد استئصال شأفتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد أفلح عبد الوهاب في هزيمتهم وقتل منهم أعداداً غفيرة (341) . لكنه لم يقض عليهم نهائياً ، فظلوا معتصمين بكديتهم في جبال تاهرت ثم ظهروا على المسرح السياسى بعد ذلك في ثورة بربر سدراته ومزاته الذين أنكروا إمارة عبد الوهاب .

وكان من الطبيعى أن تتصل الفلول الباقية من النكار — بعد أن وهنت شوكتهم (342) — بقبائلهم المقيمة خارج تاهرت ليعاونوهم في محاولة الخروج على الإمام عبد الوهاب (343) ، وكانت غالبيتهم تنتمى إلى قبيلتي سدراته ومزاته الضاربتين على جانبي حدود الدولة الاغلبية في اقليم الزاب (344) . ولا يخامرنا شك في تحريض الاغلبية لهم على اثارة العراقيل في تاهرت . على كل حال ، فقد قدموا إلى ذويهم بكدية النكار (345) وانضموا اليهم في معارضة إمارة عبد الوهاب (346) واعتصموا معهم بكدية النكار « خارج تاهرت » (347) . وأحس عبد الوهاب بخطرهم ، فدهمهم وأطبق عليهم بأنصاره وقتل منهم خلقاً كثيراً « إلا من شدد وولى » (348) ، لائذاً بمواطنهم الأولى . ويبدو أن هذه الهزيمة فتتت في عضدهم ، وأوهنت شوكتهم ، فلم تقم لهم بعدها قومة طوال عهد الدولة الرستمية (349) . وتمكن عبد الوهاب بذلك من قمع حركة « الانشقاق الاباضى الاول » (350) المعروف بثورة النكار .

(339) انظر : أبو زكريا : ورقة 18 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .

(340) المغرب : صفحة 67 .

(341) تصرف المصادر الإباضية في تقدير عدد القتلى فتذكر أن عدد من تسمى منهم باسم

هرون — أقل الاسماء — بلغ ثلاثمائة . انظر : الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .

(342) الشماخي : السير : صفحة 154 .

(343) ابن الصغير : صفحة 20 .

(344) الننوسى : صفحة 129 .

(345) ابن الصغير : صفحة 20 .

(346) الننوسى : صفحة 130 — 131 .

(347) ابن الصغير : صفحة 20 .

(348) نفس المصدر والمصحفة .

(349) نفس المصدر والمصحفة .

(350) نفس المصدر والمصحفة ، الننوسى : ص 133 .

ومما لا شك فيه أن حركات النكار رغم اخمادها ، شجعت على قيام ثورات أخرى على الحكم الرستمي ، وصدق النفوسى (351) اذ قال بأن الامامة « أضحت مرمى لسهام الطاعنين والظاعنين » . وجدير بالذكر ان هذه الثورات ظلت طوال عهدي عبد الوهاب وافلح ذات طابع مذهبي في الغالب ، سواء ما قام به جمهور الاباضية وتمخض عن انشقاقات داخل المذهب ، أو ما قامت به الطوائف المذهبية الاخرى كالواصلية على وجه التحديد .

فقد تشجع الواصلية الضاربون في كنف الدولة الرستمية ، وهبوا لمناوئة الامامة الاباضية في تاهرت اعتقادا منهم بخروج عبد الوهاب على الشريعة واغتصابه الامامة قسرا . ولو صح ذلك ، فالراجح انهم تذرعو بهذه الدعوى اخفاء لمطامعهم في الانسلاخ عن الحكم الاباضى وانتهاز فُرصة انشغال عبد الوهاب بثورات النكار (352) لتحقيق هذه المطامع . وليس من المستبعد ان يكون « عزمهم في الخروج من حكم الامام » (353) تمهيدا للانضمام لآخوانهم بدولة الادارسة . فتذكر المصادر أن حركتهم لم تقتصر على واصلية الدولة الرستمية فحسب ، بل ضمت كافة عناصرهم « من كل أوب » (354) . حيث تجمعوا خارج تاهرت لقتال الاباضية (355) . وهذا امر طبيعي اذا ما ادركنا سياسة عبد الوهاب القائمة على التعصب والمحابة وقد اذكى هذا التنافر بين الواصلية والامامة الرستمية عوامل مذهبية وقبلية ، اذ لا يخفى العداء التقليدى بين الخوارج والمعتزلة — أو الواصلية — الناجم عن الخلاف الفكرى بينهما (356) ، وحسبنا ما كان يحدث من مساجلات ومعارك جدلية بين اقطاب الاباضية في الشرق وبين واصل بن عطاء راس الواصلية (357) كما زاد التشاحن القبلى من غلواء هذا العداء، فمن المعروف أن قبيلة لواتة الاباضية كانت على عداء مرير لبعض بطون

(351) الازهار الرياضية ج 2 ص 20 .

(352) ابو زكريا : ورقة 19 .

(353) النفوسى : صفحة 117 .

(354) الدرجينى : ج 1 ورقة 26 .

(355) اطينش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 38 .

(356) على الرغم من التقارب بين فكر المعتزلة والخوارج في مسألة الوعد والوعيد ، فهناك كثير من القضايا التى اختلفوا حولها اختلافا جوهريا ، كمسألة مرتكبى الكبائر ،

والراى فى اصحاب صلين وغيرها . . انظر : الشهرستانى : ص 50 — 52 .

(357) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .

زناتة الواصلية ، بل يذهب مسكراى (358) الى أن هذه البطون الزناتية لم تعتنق مذهب الواصلية الا نكاية في لواتة التي دانت بالمذهب الاباضى .

ومهما كان الامر — فقد كان الواصلية يشكلون اقلية لها وزنها عدتها ثلاثين الفا يسكنون الخيام ويضربون خارج تاهرت (359) . هذا فضلا عن اقام' منهم ببلدة ايزدج — قرب تاهرت عاصمة الرستميين (360) ، ولكون غالبيتهم من زناتة فقد نجحوا في اثارة كثير من بطونها ضد عبد الوهاب (361).

واجتمع الثوار من الواصلية خارج تاهرت وهددوا بالقضاء على الامامية الرسمية حول عام 195 هـ (811 م) (362) .

وقد جرت بين الطرفين مساجلات كلامية ، ثلثها معارك حربية كان الظفر فيها للواصلية (363) . واضطر عبد الوهاب لعقد هدنة مع خصومه ، في الوقت الذى بعث فيه الى اتباعه بجبل نفوسة طالبا المسد (364) . وتسرف المصادر (365) الاباضية في ذكر روايات مبالغ فيها عن القدرات الخارقة التى تميز بها النفوسيون سواء في فنون الحرب او في أساليب الجدل والمناظرات كما تبالح في وصف اللقاء بين الاباضية والواصلية والانتصار الذى احرزه الامام في ساحة الجدل وفي ميدان القتال (366) . والراجع أن عبد الوهاب استطاع بمساعدة نفوسة هزيمة الواصلية وتفريق جمعهم ، اذ لم نقف لهم بعد على حركات طوال عهد الدولة الرسمية ،

(358) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 120.

(359) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .

(360) اليعتوبى : البلدان صفحة 80 .

(361) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 29.

(362) هذا التاريخ تقريبى ، اعتمادا على ما هو معروف من أن الامام على اثر حروبه مع الواصلية توجه الى جبل نفوسة حيث ضرب الحصار حول طرابلس في العام التالى انظر ابو زكريا : ورقة 21 ، Lewcki : Melanges Berberes. P. 269.

(363) يفهم هذا من اشارة للشماخى تقول أن عبد الوهاب « كان زاهدا في سفك الدماء » ، ومن طلبه العمون من جبل نفوسة ، ومما ذكره ابو زكريا عن الفتى المعتزلى الذى قتل كسل من بارزه من الاباضية : انظر : السير ص 154 ، السيرة ورقة 19 .

(364) تذكر الرواية الاباضية أن أهل الجبل بعثوا الى الامام أربعة أشخاص فقط كل واحد منهم بمقام مائة « أحدهم للمناظرة ، والآخر ل تفسير القرآن ، والثالث لل مبارزة ، والرابع للم حاجة في المسائل الفقهية » وهى رواية غير مقبولة انظر : ابو زكريا : ورقة 19 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 ، الشماخى : السير : ص 155 ، النفوسى : ص 119 .

(365) نفس المصادر والصفحات .

(366) انظر : ابو زكريا : ورقة 22 ، الدرجينى : ورقة 28 .

وهو ما عناه الشماخي (367) بقوله « فوضعت الحرب أوزارها ، ودخل المعتزلة في طاعة الامام » .

على ان حركة تمرد اخرى اقل خطرا واجهت عبد الوهاب ، قامت بها بعد بطون قبيلة هواره الضاربة جنوبى تاهرت (368) . ونحن نخالف ابن الصغير (369) رايه في اعتبار هذه الحركة ثاني الانشقاقات الاباضية، ذلك ان الانشقاق الثاني حدث عند ظهور فرقة الخلفية الى جانب الوهبية والنكار وحسبنا ان تمرد هواره كان خلوا من اى حافز مذهبى ، ولم يحدث نتيجة خلاف منتهى حول قضية عامة وانما وقع كرد فعل لتنافس بين الامام عبد الوهاب وبين زعيم الاوس — وهى بطن من بطون هواره — حول الزواج من احدى بنات شيخ قبيلة لواتة (370) النازلة جنوبى تاهرت على وادى ميناس (371) فقد ازمع زعيم الاوس (372) مصاهرة شيخ لواتة ، لكن عبد الوهاب حال دون ذلك بان تزوج اللواتية — فارتحل زعيم الاوس بجموعه من هواره عن مضاربهم ونزلوا بمكان يبعد عن تاهرت بعشرة اميال عرف «بوادى هواره» . ومن هناك طفقوا يغفرون على اتباع عبد الوهاب وانصاره ، الامر الذى جعله يستعين بأحلافه من نفوسة وغيرها ويعد جيشا قوامه الف فارس عدا حشود هائلة من الرجالة (373) . وباغت عبد الوهاب خصومه على غرة ، ودارت معركة طاحنة عند نهر اسلان قتل فيها الكثير من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الثوار وفرار ملولهم الى جبل ينجان (374) .

وكانت آخر الثورات التى واجهت حكم عبد الوهاب حركة خلف بن السمع في شرقى الدولة الرستمية ، وهى التى أسفرت عن ثانى الانشقاقات الاباضية اذ ما كاد عبد الوهاب يفرغ من مواجهة الحركات والثورات التى اندلعت في تاهرت وما حولها حتى داهيته في آخر عهده

(367) السير : صفحة 157 .

(368) البكرى : صفحة 67 .

(369) سيرة الائمة الرستيين : صفحة 20 .

(370) ابن الصغير : صفحة 20 .

(371) ابن خلدون : ج 6 صفحة 117 .

(372) ويعرفون ايضا ببني مصالة او مسالة . انظر : ابن الصغير : ص 20 .

(373) النكوسى : صفحة 134 .

(374) ابن الصغير : ص 22 ، ويوجد هذا الجبل في منطقة جرداء على مقربة من البحر المتوسط . انظر : اليمقوبى : البلدان . ص 356 .

ة في منطقة طرابلس وجبل نفوسة (375) التابعة للإمامة
(3) — اتخذت طابعا دينيا . واستفحل خطر الحركة واقتطعت
الدولة الرستمية الشرقية خلال السنوات الأخيرة من حكم
ردحا طويلا من عهد ابنه أفلح .

لف بن السمع زعيم الانشقاق الاباضي الثاني سليل بيت
المذهب الاباضي في بلاد المغرب . فهو حفيد ابي الخطاب
، السمع « أول أئمة الظهور » ، وابوه السمع بن ابي
الامام (377) عبد الوهاب وساعده الايمن ، وعامله على
لذلك اكتسب آل ابي الخطاب منزلة كبيرة بين اباضية المغرب
ـ هذا اقدامهم على مبايعة خلف بن السمع بالولاية على اثر
سمع بن ابي الخطاب (378) . ويخيل لنا أن الامام عبد
على نفوذه في هذه النواحي من جراء قيام حكم وراثي فيها ،
ابي الخطاب ما استباحه هو واسرته من الخروج على مبدأ
بدا الوراثية في الحكم ، ومن ثم لم يقر شرعية ولاية خلف بن
، كما ضرب صفحا عن توصلات اباضية الجبل لابقائه واليا
(380) .

سة من أوسع قبائل البربر وأكثرها انتشارا ، فمن بطونها بنو زمور وبنو
ماطوسة وتضرب شعوبها في أحواز طرابلس وجبل نفوسة حتى مشارف
، وأن كان الجبل هو معتلمهم الأصلي ، ويبلغ طوله من الشرق الى الغرب
تة أيام وارتفاعه نحو ثلاثة أيام ، وهو عابر بالمدن والقلاع والقرى والضياغ
ـ وأهم مدنه شروس ومسيف وجادو .

يسة تدين بالمسيحية قبل اعتناقها الاسلام ، واعتنقت المذهب الاباضي في
بن الثاني الهجري ، وأسهمت في ثورات الاباضية في المغرب الأدنى وإفريقية
اخر . ولما قامت الدولة الرستمية بتاهرت كان النفوسيون من أشد مناصريها
مها ، ولا غرو فقد حظوا بأهم المناصب العامة في الدولة « فكأنت نفوسة
تقديم القضاة وبيوت الأموال وانكار المنكر في الاسواق والاحتساب على
، إلا أنه على الرغم من تبعيةهم للإمامة في تاهرت ، كانوا شبه مستقلين
ـ المسافة بينهم وبين تاهرت . انظر : اليعقوبي : البلدان . ص 349 ،
: ص 15 ، ابن حوقل : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 114 ، الاستبصار
، الشباخي : السير : ص 192 ، 273 ،

Basset. Les sancturs du Djebel .. P. 426, Despois : Op. Cit.

لى : ج 2 ص 20 ، على يحيى معمر : الاباضية ص 75 .

ى : البلدان ص 349 .

، : صفحة 165 .

، : ورقة 25 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .

يا : نفس المصدر والصحيفة .

سدر والصحيفة .

على أن غالبية الإباضية في هذه النواحي أصروا على موقفهم ، وأعلنوا خروجهم على إمامة عبد الوهاب ، وبايعوا خلف بن السمع بالامامة (381) محتجين بجواز ازدواج الامامة ما وجد عدو يفصل بين اتباع المذهب ، أو لصعوبة الاتصال وطول المسافة بينهم وبين تاهرت (382) لكن وجد بين إباضية الجبل من تمسك بإمامة عبد الوهاب ، وتذهب مصادر الإباضية (383) الى أن غالبيتهم كانوا من جماعة المشايخ والفتهاء ، فبعث اليهم عبد الوهاب رسالة امتدح فيها موقفهم (384) وولى عليهم أحدهم ويدعى أبا عبيدة عبد الحميد الجنائني (385) . ومن ثم حدث انشقاق سياسي اتخذ صبغة فقهية مذهبية . وجوهر الخلاف كمن في أمرين : أولهما مدى حقوق الرعية في تعيين عمالها ، والآخر شرعية وجود إمامين في وقت واحد . وفي تقديرنا أن تعاليم المذهب الإباضي ترجح رأي خلف وأصحابه (386) ، ولعل ذلك يفسر انضمام غالبية أهل الجبل اليه ، ومهما كان الأمر ، فقد احتد الخلاف بين الحزبين وطرحت القضية برمتها على فقهاء المذهب بالشرق للافتاء فيها (387) . وتذكر المصادر الإباضية (388) — كعادتها — أنهم أفتوا في صالح الإمام وخطأوا موقف خلف واتباعه .

وأيا ما كانت الفتوى ، فقد نجح خلف في الاستحواذ على معظم أنحاء الجبل دون أن يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا أو أن يخف الإمام لمواجهته بنفسه . ويخيل إلينا أن عبد الوهاب وعامله حين أعوزتهما القدرة على ردع الثوار لجأ إلى الجبل ، فأتبع عبد الوهاب أسلوب التجسس (389)

-
- (381) نفس المصدر والصحيفة .
(382) أطفيش : الأمكان : ص 107 ، 108 .
(383) انظر : أبو زكريا : ورقة 25 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .
(384) انظر : ملحق رقم (3) .
(385) أبو زكريا : ورقة 25 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 31 .
(386) ثمة رواية لأبي الربيع الوسياني تقول أن أحد مشايخ نفوسة ممن تلقوا العلم على الإمام عبد الوهاب أخذ عنه مبدأ حق الرعية في اختيار ولاتها . انظر : الوسياني : سير أبي الربيع ورقة 79 — مخطوط . وقد أنقذ الربيع بن حبيب بجواز تعدد الأئمة بقوله « لا بأس باجتماع إمامين أو أئمة في زمان واحد إذا فصل بينهم سلاطين لا تطاق أو قوم لا يطاقون . أو حال بعد المسألة » . انظر : أطفيش : الأمكان ص 107 ، 108 .
(387) بعثوا بذلك كتابا إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل شيخ إباضية الشرق بعد الربيع ابن حبيب . انظر : الشماخي : السير : ص 181 .
(388) أبو زكريا : ورقة 25 ، النفوسى : ص 151 .
(389) يلهم ذلك من رواية للنفوسى تقول أن شخصا يدعى عمرو بن يانس كان يندس بين أصحاب خلف « ويكتب الإمام بكل ما يسمعه » . انظر : الأزهرار الرياضية ج 2 صفحة 155 .

للإيقاع بين خلف وأتباعه ، كما بعث الى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالاموال والضياع (390) . لكن ذلك لم يجد متقبلا .

ومات الامام عبد الوهاب (391) ومعظم اجزاء الدولة الشرقية في حوزة خلف بن السمع (392) . واستمرت حركة خلف وتفاقم خطرهما خلال نحو عشرين عاما من حكم افلح بن عبد الوهاب ، فيخبرنا أبو زكريا (393) انه حتى عام 221 هـ (836 م) كان خلف لا يزال يعمل على اقضاء ابي عبيدة عبد الحميد ، الذي اقره افلح على ولايته على المناطق التي في حوزته . ويعتقد لويسكي (394) ان خلفا كان يسعى لضم كافة الاقاليم التي كانت في نطاق حكم جده ابي الخطاب . وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمتى وما وراءها شرقا (395) منتهزا تقاعس افلح عن مساعدة عامله الكهل الذي آثر العافية (396) . وضمن خلف بذلك السيطرة على الاراضي الخصبة والمراعي الغنية فضلا عن بها من الاباضية ، فقد دخلوا في « رأيه وبدعته » على حد قول ابي زكريا (397) . وتصور المصادر الاباضية (398) قيام خلف بالاغارات المتواصلة على املاك ابي عبيدة بقصد السلب والنهب ، وان الاخير نجح في ردعها . لكننا نشك في ذلك اذا علمنا من هذه المصادر ذاتها ان ابا عبيدة كان يستجدي مسالة خلف

(390) الوسياني : سير ابي الربيع ورقة 30 .
(391) اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة عبد الوهاب كشأنهم في تحديد تواريخ سني حكم سائر ائمة بني رستم فابن عذارى يذكر ان عبد الوهاب حكم عشرين عاما ابتداء من سنة 180 هـ التي مات فيها والده ، فيكون تاريخ وفاته تبعا لذلك سنة 200 هـ . بينما يحدد النفوسى هذا التاريخ بسنة 190 هـ على اساس انه استمر في الحكم تسعة عشر عاما ابتداء من سنة 171 هـ . ولا ندري كيف توصل جورج مارسية الى تحديد عام 208 هـ كتاريخ لوفاة عبد الوهاب ، وان كنا نرجح صحة هذا التاريخ على اساس ما ذكره ابن حيان عن ايفاد عبد الوهاب قبل موته سفارة من ابنائه الى الاندلس سنة 207 هـ . انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 278 ، الازهار الرياضية : ج 2 ص 163 ، مادة بني رستم بدائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ،

Provençal : Op. Cit. P. 244.

(392) على الرغم من تضعف نفوذ الائمة على اقاليمها الشرقية في اخريات عهد عبد الوهاب ، فان نفوذه ظل قائما على بقية اجزاء دولته ، حيث دان له عبالة بالطاعة في نواحي قسطنطينية وزنقة ودمر وزواغة وجربة وقنصة ونغراوة وقنطرة فضلا عن تاهرت ونواحيها . انظر : الشماخي : السير ص 161 ، النفوسى : ص 165 .

(393) السيرة : ورقة 28 .
(394) Etudes Ibadites. P. 115

(395) النفوسى : صفحة 167 .

(396) أبو زكريا : ورقة 26 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 32 .

(397) السيرة : ورقة 26 .

(398) نفس المصدر ورقة 27 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 33 ، الشماخي : السير . ص 184 والنفسى : صفحة 167 .

وموادمته (399) وأن خلفا خيره بين انكار امامة عبد الوهاب والدعوة له وبين قتاله (400) . ومن المؤكد ان ابا عبيدة لم يستجب لدعوته ، فقد اجتاح خلف بجموعه (401) اراضى خصمه سنة 221 هـ (402) (836 م) ، والتقى بأبى عبيدة ورجاله (403) عند سفح الجبل فى معركة يذكر مؤرخو الاباضية (404) انها انتهت بهزيمة خلف وانسحابه الى تمتى ، فلم تقم له قائمة بعدها الى « أن مات بزيغه » . ولكننا نعلم ان حروبا وقعت بين خلف وبين أيوب بن العباس — خليفة أبى عبيدة — هزم فيها خلف عند فاغيس — قرب تمتى (405) — الامر الذى يشكك فى رواياتهم .

ويخيل الينا ان خلفا ظل يتمتع بنفوذ فى معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته ، وان انصاره من نفوسة وزواغة الذين عرفوا « بالخلفية » ظلوا مواليين لابنه المعروف بالطيب حتى اواخر عهد الدولة الرستمية .

وكانت هذه الاقاليم الشرقية ايضا مرتعا لحركة اخرى مناوئة للامامة فى تاهرت تزعمها فرج بن نصر المعروف بنفاث ، واسفرت عن ثالث الانشقاقات فى الجماعة الاباضية (406) .

كان الانشقاق الاول نتيجة خلافات فقهية حول مسائل الامامة وسياسة عبد الوهاب فى تعيين عماله ، وكان الانشقاق الثانى بسبب قضية تعدد الائمة وحق الرعية فى اختيار عمالها ، أما الخلاف الثالث فكان من جراء الاخلال بشرعية الامامة واهدار رسومها . (407) على يد افلح بن عبد انوهاب ، فضلا عن سياسته « فى استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق

(399) بعث أبو عبيدة رسالة الى خلف يقول فيها « واذا نزعنا يا خلف يدك عن الطامة تكن فى حيزك واكون فى حيزى ودع الحرب » انظر : نفس المصادر والصفحات .

(400) نفس المصادر والصفحات .

(401) ذكر الدرجينى انها بلغت اربعة آلاف بيتها تجمع المصادر الاباضية الاخرى على ان عدتها اربعين الفا . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 33 ، أبو زكريا : ورقة 27 ، الشماخى : السير : ص 184 ، النفوسى : ص 168 .

(402) شذ الدرجينى عن اجماع مؤرخى الاباضية ، فذكر ان القتال حدث سنة 211 هـ . انظر طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 34 ، أبو زكريا : ورقة 280 ، النفوسى : ص 173

(403) تقدر مصادر الاباضية جيش أبى عبيدة بما يتراوح بين ثلاثمائة وسبعائة رجل . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(404) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير : ص 187 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 34.

(405) النفوسى : صفحة 175 .

(406) أبو زكريا : ورقة 28 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 34 .

(407) الدرجينى : ج 1 ورقة 35 .

الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية » (408) .

وعلى الرغم مما تورده المصادر الاباضية (409) من تفسير لحركة نفاث باعتباره مارقا على الامامة لاسباب ودوافع ذاتية ، فان ذلك لا ينفي قط كون نفاث ثائرا صاحب آراء واجتهادات في المذهب الاباضى (410) وداعية (411) لانقاذ الامامة الاباضية مما تردت فيه من امتهان على عهد ائمة بنى رستم . فقد آلت الامامة الى افلح بن عبد الوهاب توا بعد وفاة ابيه سنة 308 هـ (823 م) ، مما يؤكد استقرار مبدا الوراثة واختفاء مبدا الاختيار في الحكم الرستمي . وكان مثل هذا الانتهاك لتعاليم المذهب كنيلا باثارة عالم فقيه مثل فرج بن نصر « السذى اعطى في العلم منزلة عظيمة ، والفقه والفهم » (412) . ومن ثم عول على الخروج على امامة افلح ، واتخذ من قريته المجاورة لقنطرة مركزا لدعوته وانصاره . ولقيت دعوته اقبالا كبيرا بين اباضية نفوسة وزواغة (413) ، وعبثا حاول عامل قنطرة اقناعهم بالعدول عن آراء نفاث والالتزام بطاعة الامام (414) .

فقد وجدوا في « النفائية » مبررا لتظلمهم من دفع الاموال والجبايات والرسوم التي كان يحصلها عمال الامام (415) . كذلك ام تفلسح تحذيرات افلح لعماله بأخذ رعاياهم بالثمة وتجنبيهم الدخول في طاعة نفاث (416) . فيبدو ان هؤلاء الرعايا اعلنوا الثورة على عمالهم فبعث الامام اليهم متلطفا واعدا اياهم باجابة مطالبهم في تغيير من يشاءون من هؤلاء العمال (417) .

(408) النفوسى : صفحة 195 .

(409) تصور هذه المصادر خروج نفاث لتفضيل الامام افلح سعد بن ابي يونس عليه وتعيينه عاملا على قنطرة . انظر ابو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير : ص 195 . والدرجيني : ج 1 ورقة 35 ، النفوسى : ص 197 .

(410) Lewcki : Melanges Berberes .. P. 270.

(411) ذكر الوسيانى انه سبى بنفاث « لانه ينفث في الاسباع بدعته » انظر : سير ايسى الربيع : ورقة 10 .

(412) ابو زكريا : ورقة 30 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 35 .

(413) الدباغ : معالم الايمان : ج 1 ص 220 .

(414) ابو زكريا : ورقة 29 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 36 .

(415) النفوسى : صفحة 195 .

(416) انظر : نص رسالة افلح لعماله في هذا الصدد عند النفوسى . الازهار الرياضية : ج 2 ص 214 — 218 .

(417) جاء في رسالة افلح الى رعيته ما يلى : « . . ومن عاب احدا من عمالنا بخصلة من الخصال ، او انكر عليه شيئا فليرفع ذلك الينا ، فنكون نحن الذين يغيرون . . » النفوسى : صفحة 203 .

كما أرسل إلى نفاث يأمره بالكف عن دعوته وحبيه في العودة إلى الطاعة (418) .

• ونعتقد أن سياسة التودد والملاينة هذه قد أثرت في تثبيت عزيمة نفاث ، وتصدى الكثيرين من مشايخ نفوسة لمناهضته (419) ، وانصراف معظم أتباعه عنه . فتخبرنا المصادر أن نفاثا أثر الرحيل إلى الشرق حيث نزل بغداد وانكب على دراسة كتب المذهب ونسخ ما تسنى له نسخه منها . فلما عاد وجد أنصاره قد وهنوا وتفرقوا (420) . وإن كنا نشك فيما زعمته من أنه « تاب ورجع عن مسأله التي خالف فيها » (421) بدليل وجود كثيرين ممن اعتنقوا آراءه حتى أواخر القرن الخامس الهجري (422) .

وإذا كانت الانشقاقات المذهبية قد تفشت في الأجزاء الشرقية من الدولة الرستمية ، فإن خطرا جديدا ظهر في آخر حكم أفلح هدد قلب الدولة ذاته ، ونعنى به صراع العصبية العنصرية والقبلية . لكن أفلح استطاع بذكائه وحذقه السياسى (423) تجنب الإمامة في عهده شر هذا الخطر ، واتبع في ذلك وسائل شتى تدل على براعته في الحكم والسياسة إلى جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة (424) .

ومن هذه الوسائل تخليه عن مبدأ المركزية في الحكم — وهو مبدأ تكرر القبايل البدوية كثيرا — وعاد إلى مبدأ الشورى ، فكان يأخذ برأى مشايخ القبايل ورؤسائها في تعيين ولاته وعفاله ضاربا صفحا عن

(418) النفوسى : صفحة 204 .

(419) ثمة مثل أورده الدرجين يدل به على دور نفوسة في مقاومة حركة نفاث ، جاء على لسان أحد المشايخ ويدعى أبو مهاصر ، قال « تنجح جروة أبى مهاصر لئلا يأكل الذئب الغنم ، وقد كاد يأكلها ، حتى أتت سلاق ويغوا . . هرب الذئب فأمنت الغنم . يعنى بالجروة نفسه ، وبالذئب نفاث بن نصر ، وبالغنم نفوسة ، وبالسلاق مهديا ومهروسا (من مشايخ الجبل) وهما من منزل يقال له ويغوا ، ويعنى يأكل الذئب الغنم ، استحواذ نفاث على أهل الجبل . . » انظر : طبقات الإباضية : ج 1 ورقة 134 وعلى الرغم من تشكيك البرادى في صحة هذا المثل — لأن الشيخ مهدى النفوسى قتل أثناء حصار الإمام عبد الوهاب بطرابلس سنة 196 هـ — فلا شك أن له دلالة على مدى نفوذ نفاث وامتداد دعوته ، فضلا عن دور نفوسة في مطاردته حتى هرب إلى الشرق وانصرف عنه معظم أتباعه . انظر : الجواهر المنتقاة : ورقة 106 .

(420) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجين : ج 1 ورقة 37 .

(421) النفوسى : صفحة 210 .

Lewcki : Melanges Berberes. P. 270.

(422) انظر :

Motyliniski : Op. Cit. P. 6.

(423) النفوسى : صفحة 183 ،

(424) تفيض تواريخ الإباضية بقصص وبطولات نادرة قام بها أفلح في حربه مع النكار وبربر هواره في حياة والده . انظر : الدرجين : ج 1 ورقة 25 .

اعتراضات آل بيته في هذا الصدد (425) . فضلا عن ذلك فقد فرض رقابة دائبة على هؤلاء العمال والولاة حتى لا يتمادون في ارهاق الرعية بالمغارم والجبايات ، والزمهم بمراعاة تعاليم المذهب في سياستهم المالية ، ثم اتاح لهم مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (426) ، فضمن بذلك اقرار العدالة مع لا مركزية الحكم وهو الاسلوب الامثل في دولة يشكل البدو غالب سكانها . كما عول افلح على استمالة القبائل اليه (427) ، وتخبرنا المراجع (428) عن حرصه على اتخاذ تراجمة يجيدون لغة البربر . وافلح في احداث نوع من التوازن بين هذه القبائل جنبه مشقة الدخول في صراع معها . واتبع في ذلك شتى ضروب الحيل ، فقد اخذ بالمبدأ المشهور « فرق تسد » (429) « فارشى ما بين كل قبيلة ومجاورها » (430) ، « والتي موجبات التخالف بين كل مقدم واتباعه وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مؤنة القتال » (431) .

لهذا اتسم عهد افلح بالهدوء والاستقرار السياسي (432) ، وحظى بحب الاباضية واعجابهم (433) « فالتقى بيده يمينا وشمالا ، وتمكن في امامته واطردت له الامور » (434) ، ولم يبق في ايامه منازع ، ولا اجمع جهاته الا طائع (435) . واعتبر مارسية (436) عهد افلح العصر الذهبي للدولة الرستمية ، اذ بعد موته في سنة 258 هـ (437) (873 م) ضعفت هذه الدولة .

-
- (425) ابن الصغير : صفحة 25 .
 (426) النفوسى : صفحة 188 .
 (427) نفس المصدر : صفحة 68 ،
 (428) انظر : ابن الصغير : ص 27 ، النفوسى : ص 68 .
 (429) مارسية : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 ،
 Faroughy : Op. Cit. P. 15.
 (430) ابن الصغير : صفحة 27 .
 (431) النفوسى : صفحة 183 .
 (432) ابن الصغير : صفحة 27 .
 (433) نفس المصدر : صفحة 25 .
 (434) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشهاى : السير ص 187 .
 (435) الدرجينى : ج 1 ورقة 34 .
 (436) انظر : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .
 (437) ذكر أبو زكريا أن افلح ظل في الامامة مستين عاما ، بينما يقول ابن الصغير انه حكم خمسين عاما . ونحن نرجح رواية ابن الصغير ، ومن ثم تكون وفاته سنة 258 هـ . على أساس توليه الامامة سنة 208 هـ كما سبق القول . وعلى ذلك فقد أخطأ النفوسى حين ذهب الى أن افلح مات سنة 240 هـ . انظر : أبو زكريا : ورقة 31 ، ابن الصغير : ص 25 ، النفوسى : ص 221 .

وهكذا — أتسمت هذه المرحلة من تاريخ بنى رستم بكثرة الثورات والفتن التى تلونت فى غالبها بالطابع المذهبى واتخذت شكل الانشقاقات المذهبية فى كيان الجماعة الاباضية . لكن هذه الثورات وان تمخضت عن انسلاخ بعض البقاع الشرقية عن سلطان الامامة فى تاهرت ، الا انها لم تشكل خطرا على سلامة الدولة ذاتها ، وبفضل سياسة العنف والشدة التى اتبعها عبد الوهاب ، وبفضل دهاء افلح وحذقه السياسى تخطت الدولة الرستمية هذه الاخطار لتواجه مرحلة عصيبة فى تطورها السياسى .
الدور الثانى (258 — 281 هـ) (788 — 895 م)

الصراع القبلى والعنصرى :

قلنا ان الطابع الدينى غلب على المرحلة السابقة ، فشكل احداثها ولونها بمسحة مذهبية واضحة وسبق القول ايضا ان قيام الدولة الرستمية كان على اساس مذهبى حيث اجتمع الاباضية من شتى العناصر والقبائل فى المغرب فى كنف الامامة الرستمية وليس على اساس عصبية قائمة بذاتها . ومن ثم كان المذهب الاباضى هو الرابطة الوحيدة التى جمعت بين هذه العصبيات المختلفة ، وبالضرورة فان انتهاك تعاليم المذهب وتحول الامامة الى ملك ، قد قضى على هذا الرباط الوثيق الذى جمع هذه العصبيات وفجر ما بينها من حزازات عصبية قبلية ونعرات عنصرية .

وقد بدت بوادر التناحر القبلى العنصرى داخل الدولة الرستمية فى عهد عبد الوهاب الذى تمكن من فض ائتلاف قبيلتى هوارى ولواتة ، ومحق تمرد هوارى حين ازمنت العصيان . كما ان افلح بن عبد الوهاب آخر من اندلاع هذا الصراع حينما بفضل حسن سياسته ، لكنه اسهم من ناحية اخرى بسياسته القائمة على التفرقة بين القبائل فى اذكاء النزعات القبلية والعنصرية التى بقيت فى الصدور الى ان « اخترمته المنية » (438) ثم تفجرت بعد وفاته فى شكل حروب دامية انتهكت هذه العصبيات من ناحية وضععت نفوذ الائمة وهيبة الامامة من ناحية اخرى .

فقد ضمت الدولة الرستمية قبائل متعددة من البربر كهوارى ونفوسة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية ، فضلا عن عناصر مختلفة من الفرس والعرب والجند الافريقى . وقد ساعدت فترة السلام الطويلة التى نعمت

(438) ابن الصغير : ص 27 ، محمد بن تاويت . دولة الرستمين . ص 122 .

بها تاهرت أبان حكم أفلح بن عبد الوهاب على أحداث تحول خطير في أحوال هذه العناصر والقوى المختلفة .

فالقبايل البدوية كلواتة وهوارة ومزاتة جنح معظمها الى الإقامة حول تاهرت وآثرت حياة الاستقرار والاشتغال بالزراعة والتجارة حيث جنت منها أرباحا طائلة « فأتخذت العين والخيول ، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة » (439) أما نفوسة التي أقامت بعض بطونها في العدو فقد نالت حظوة الأئمة وآثروها بالوظائف العامة « فكانت تلى عقد تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر في الاسواق والاحتساب على الفساق » (440).

وبلغت العناصر الفارسية في الدولة الرستمية شأوا كبيرا لكون الأئمة من أصل فارسي ، فأوكلوا اليهم قيادة الجيوش وأسمى المناصب ، فضلا عن سيطرتهم على النواحي التجارية والثقافية (441) ، فأقاموا القصور والمنازل حول تاهرت « وشكلوا دولة داخل الدولة الرستمية » على حد قول مروخي (442) .

كما وفدت على تاهرت جموع من العرب والجند الإفريقي بعد فشل ثوراتهم على الأمراء الاغالبية (443) ، فأقبلوا على سكنى تاهرت هربا من بطش هؤلاء الأمراء من ناحية ، وطمعا في الثراء عن طريق الاشتغال بالتجارة التي ازدهرت في عاصمة الرستميين من ناحية أخرى . ثم هناك قوة أخرى كانت ممثلة في أجناد الأئمة من أفراد البيت الرستمي الذين عرفوا « بالرستمية » (444) فضلا عن اتباع السمع بن أبي الخطاب الذين انشقوا على خلف بن السمع وهربوا الى تاهرت ودخلوا في خدمة بنى رستم ، وعرفوا لذلك « بالسبحية » (445) .

ويمكن تقسيم هذه القوى جميعا الى قسم موالى للامامة الرستمية، ويشمل نفوسة والفرس والرستمية والسبحية والآخر مناوئ لها يضم

(439) ابن الصغير : صفحة 27 .

(440) نفس المصدر والصحيفة .

(441) نفس المصدر : ص 26 ، 27 ، Lewcki : Melanges Berberes .. P. 273 ،

(442) انظر : Apersian dunasty in North Africa. P. 15.

(443) النفوسى : صفحة 231 .

(444) ابن الصغير : صفحة 27 .

(445) نقل جورج مارسيه عن ابن الصغير تحريف كلمة « السبحية » الى « المسيحية » فقال بوجود عناصر مسيحية في تاهرت وقتت الى جانب بنى رستم . انظر : ابن الصغير : ص 36 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .

العرب والجند الافريتي فضلا عن بعض القبائل الضاربة حول تاهرت ،
وان تأرجحت بعض هذه القوى بين الولاء والعداء لبنى رستم أحيانا .

تأججت نار الصراع القبلى والعنصرى على اثر وفاة أفلح بن عبد
الوهاب فبادرت نفوسة بتنصيب ابنه أبى بكر اماما رغم اعتراض فقهاء
المذهب (446) ، على خلاف ما أورده النفوسى (447) بأن اهل الحل
والعقد من سائر القبائل والعصبيات هم الذين قاموا ببيعته . ومما زاد
الطين بلة أن أبى بكر بن أفلح لم يكن جريئا قويا كجده عبد الوهاب ولا داهية
حصيفا كآبيه أفلح ، بل كان غرا لين العريكة شفوفا بالآداب
والتواريخ (448) ، ميالا الى الترف والملاذات ، زاهدا فى الإدارة
والحكم (449) . ويبدو أنه حاول الاستعانة بأحدى القوى الموجودة بتاهرت
من دون نفوسة التى كانت تمقتها بقية العناصر الأخرى ، فوطد صلاته
بالجند والعرب وصاهر زعيمهم محمد بن عرفة وسلم اليه مقاليد الدولة ،
وركن الى الدعة والخمول . واستبد ابن عرفة بتصريف شؤون الإمامة
من دون الامام « حتى كانت الامارة بالاسم لأبى بكر وبالحقيقة لمحمد
ابن عرفة » (450) .

ونظرا للعداء التقليدى بين كافة العناصر بتاهرت وبين العرب فمقد
خسر أبو بكر ولاءها جميعا باستثناء بعض بطون هواره التى أرزته فى
حين استناء بعضها الآخر من سياسته وغادروا المدينة وأحوازها الى
مواطنهم الاولى .

وبديهي أن ينقم الرستمية عليه سياسته وينضموا لنفوسة التى
ساءها خذلانه أياها بعد أن أوصلته للإمامة ، كما ساءها ارتماؤه فى أحضان
الجند والعرب (451) أما الفرس فقد آثروا الحياد والتريث ولكنهم كانوا
على أهبة الاستعداد لاغتصاب الإمامة كلما سنحت الفرص (452) . وفى

(446) احتج الشيخ عبد العزيز بن الاوز — المعروف بتعمقه فى الفقه الإباضى — على ذلك
مخاطبا نفوسة بقوله « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه
آخر ، ولم تجعلوا الامر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو اتقى وأرضى » .
انظر : ابن الصغير : ص 31 ، 47 .

(447) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 222 .

(448) ابن الصغير : صفحة 31 .

(449) نفس المصدر : صفحة 32 .

(450) نفس المصدر : صفحة 31 .

(451) نفس المصدر : ص 32 ، النفوسى : ص 224 .

(452) نفس المصدر : صفحة 32 .

تلك الظروف وصل أبو اليقظان محمد بن أفلح — أخ الإمام — إلى تاهرت (453) وعهد إليه أبو بكر ببعض مسؤوليات الإدارة والقضاء ، فسيرها على أحسن ما يكون ، حتى « حمد له الشراة ذلك » (454) .

واضمر أبو اليقظان حقدا على ابن عرفة وحزبه ، وساءه استبداده وتسلمه ، وشاركه في ذلك نفوسة والرستمية ، فحرض أخاه على اغتيال ابن عرفة سرا (455) وتم له ما أراد (456) . ويحاول مؤرخو الإباضية إنكار تدبير هذا الحادث ونفى قيام الإمام بتنفيذه ، دفاعا عن آل البيت الرستمى . فأبو زكريا (457) والدرجيني (458) اكتفيا بالإشارة إلى أن الناس فوجئوا بأبن عرفة قتيلا دون أدنى إشارة إلى ظروف مقتله ، أما النفوسى (459) فيبصرى أبا اليقظان من تهمة التحريض على قتل ابن عرفة ، وينسبها إلى أحد نصحاء الإمام . لكن هذه الروايات جميعا تضعف أمام رواية ابن الصغير المالكي الذي يؤكد أن أبا اليقظان دبر الحادث . وأن أبا بكر نفذ . على كل حال — تمخض الحادث عن نوع من الفوضى السياسية عممت تاهرت ، وتحفزت سائر القوى للخروج من هذه الفوضى ظافرة بالإمامة ، ودخل بعضها مع البعض الآخر في ائتلافات وتحالفات للانفاداة من الظروف . فقد هب العرب والجند مطالبين بثأر زعيمهم ابن عرفة ، وانضموا تحت لواء أحدهم ويدعى محمود بن الوليلي (460) . كما وقفت الرستمية إلى جانب الإمام أبى بكر (461) . أما الفرس فقبعوا في قصورهم خارج المدينة يدبرون أمر الاستيلاء عليها (462) . بينما لاذت قبائل البربر خارج تاهرت بالصمت مترقبة نتائج الصراع .

نشبت القتال بين الجند والعرب من ناحية وبين الإمام والرستمية من ناحية أخرى ، وقتل من الطرفين خلق كثير (463) . فاغتتم الفرس الفرصة

(453) كان أبو اليقظان أسيرا في بغداد ، اذ قبض عليه عمال العباسيين وهو في طريقه لاداء فريضة الحج ثم أفرج عنه وعاد إلى تاهرت . انظر : ابن الصغير : ص 31 .

(454) ابن الصغير : صفحة 32 .

(455) نفس المصدر : صفحة 33 .

(456) عن تفصيل اغتيال ابن عرفة . انظر : ابن الصغير : ص 34 — 36 .

(457) السيرة . ورقة 31 .

(458) طبقات الإباضية ج 1 ورقة 37 .

(459) الأزهار الرباضية . ج 2 ص 226 ، 227 .

(460) ابن الصغير : ص 36 ، النفوسى : ص 230 .

(461) ابن الصغير : صفحة 36 .

(462) نفس المصدر : صفحة 37 .

(463) ابن الصغير : ص 37 ، النفوسى : ص 231 .

وحاولوا الاستيلاء على تاهرت . عندئذ تضامن الرستمية مع الجند والعرب وتصدوا لقتال الفرس واسروا منهم أعدادا غفيرة (464) . ثم انسحب الامام والرستمية من حلبة الصراع ، والحق الجند والعرب بالفرس عد هزائم وأضرمو النيران في منازلهم . وخشى أبو اليقظان ونفوسة من خطر الجند والعرب فأنضموا للفرس « وصارت كلمتهم وكلمة العجب واحدة » (465) .

واحتدم القتال بين الفريقين وتبادلا النصر والهزيمة الى ان اسفر الصراع عن انتصار الجند والعرب . وارغم أبو اليقظان وحلفاؤه على مغادرة المدينة ، فنزل الفرس بموضع يقال له تنابغيلت — على بعد مرحلتين من تاهرت — كما اعتصمت نفوسة بحصنها خارج المدينة ويعرف « بقلعا نفوسة » ، أما أبو اليقظان فلاذ بالرستمية بموضع يسمى أسكيدال جنوبي تاهرت (466) . وصفت المدينة للجند والعرب بعد أن اعتزل أبو بكر الامام « وانسلخ منها » (467) ولحق اتباعه من الرستمية والسحجية بأبى اليقظان سنة 260 هـ (468) (874 م) .

لكن الجند والعرب لم ينعموا طويلا بالسيطرة على زمام الامور في تاهرت ، فقد اقتصاهم عنها بربر هواره ، وآلت اليهم السلطة فيها طوال ثمان سنوات . ونحن نعلم ان بربر هواره كانوا قد تمردوا على حكم الامام عبد الوهاب ، وأنه بطش بهم فتفرقت جموعهم ورحل معظمهم الى جبل ينجان ، وعاد الباقون الى مضاربهم جنوبي تاهرت كما نعلم ان فريقا من هؤلاء آزر ابا بكر بن افلح في بداية امامته بينما أثر فريق آخر اللحاق بجبل ينجان . ثم كان ما جرى من صراع بين سائر القوى في تاهرت ، وظفر الجند والعرب في النهاية بالسيطرة على زمام الموقف فيها . وأدى هذا الصراع الذي استمر عامين (469) الى اضعاف أطرافه جميعا ، فوجدت هوارا الفرصة مواتية للسيطرة على تاهرت . وقد غادرت جموع هواره مضاربه

(464) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر : ص 232 .

(465) نفس المصدر : ص 38 ، نفس المصدر والصحيفة .

(466) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 235 .

(467) الدرجينى : ج 1 ورقة 37 والمصادر الاباضية لا تذكر شيئا عن مصير أبى بكر ، انلح بعد اعتزاله الامامة . بينما يذكر ابن عذارى ان أهل تاهرت أعادوه الى المدينة حيث ظل بها حتى وفاته والراجح أنه عاد الى تاهرت بعودة أخيه أبى اليقظان محم الذى تولى الامامة من بعده . انظر : ابن عذارى : البيان المغرب : ج 1 ص 278

(468) ابن الصغير : صفحة 39 .

(469) النفوسى : صفحة 236 .

بجبل ينجان بزعامة شيخهم محمد بن مسالة (470) واقتحموا تاهرت دون عناء ، ونصبوا ابن مسالة أميرا عليهم (471) . وظل ابن مسالة « يدبر شؤونها ويدير أحوالها على حسب ما يراه » (472) وتخبرنا المراجع (473) أن حكمه اتسم بالهدوء والاستقرار .

لكن النعرات القبلية ما لبثت أن تجددت داخل تاهرت ، فوقع خلاف بين هوارة ولوالة انتهى بطرد اللواتيين خارجها ونزولهم بحصنهم القريب من أسكيدال حيث أقام أبو اليقظان والرسومية (474) . ثم حدث ائتلاف بين لوالة وأبي اليقظان ، فأجمعت على بيعته بالامامة سنة 261 هـ (875 م) ، ثم بادرت غالبية القبائل ببيعته أيضا وانكرت حكم ابن مسالة (475) وحاول أبو اليقظان دخول تاهرت عنوة دون جدوى وتكررت محاولاته طيلة سنوات سبع ، لم يفلح فيها بطائل ، فبعث يستمد العون من جبل نفوسة ، فأمدوه ، واستطاع دخول المدينة دون قتال سنة 268 هـ (882 م) بعد أن أمن أهلها على أرواحهم وأموالهم (476) .

وكان على الإمام أبي اليقظان أن ينهج سياسة الاعتدال وتهذبة الخواطر بعد ما عانته البلاد من حروب أهلية شاملة . وقد نجح في ذلك إلى أبعد الحدود بفضل ورعه وتقاه (477) وحرصه على مراعاة تعاليم المذهب في أحكامه ، ولا غرو فقد عرف بتفقه في المذهب وبتواليه في أصوله وفروعه والرد على مخالفيه (478) .

وقد حرص أبو اليقظان على اجتناب سياسة التعصب وإيثار بعض القبائل والعناصر بمناصب الدولة دون البعض الآخر . وعلى الرغم من مساعدة نفوسة ومعاونتها له على دخول تاهرت ، قلل مما كانت تتمتع به من امتيازات في عهود أسلافه ، فحرمها من تولى القضاء وأبقى لها إدارة

(470) يعتقد ماسكراي أن ابن مسالة كان أباضيا نكاريا لكن المصادر لا تؤيد هذا الرأي ، فالنفوسى يصله بأنه « أباضى المذهب » ومن المعروف أن مؤرخى الاباضية يعتبرون ثمرة النكار مارقة على جماعة المذهب من الوهبة . انظر : الأزهار الرياضية ج 2 صفحة 236 ، Chronique d'abou Zakaria. P. 195.

(471) النفوسى : صفحة 236 .

(472) نفس المصدر والصحيفة .

(473) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 236

(474) نفس المصدرين والصفحتين .

(475) ابن الصغير : ص 40 ، النفوسى : ص 238 .

(476) نفس المصدرين والصفحتين .

(477) ابن الصغير : صفحة 44 .

(478) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 .

بيت المال (479) والحسبة ، واتخذ أبو اليقظان مجلسا للمشورة يضم شيوخ القبائل ووجهاء كافة العناصر المقيمة بتاهرت (480) ، ولم يأنف من مخالطة رعاياه والجلوس اليهم لبحث شكواهم (481) . كما تسامح مع اتباع المذاهب والفرق الأخرى من الكوفيين والصفرية والمعتزلة والمالكية، وأباح لهم الصلاة في المساجد جميعا فيما عدا المسجد الجامع (482) ويحدثنا ابن الصغير (483) أن شيوخ هذه الفرق كانوا يدخلون في محاورات ومناظرات — مع فقهاء الإباضية في جو مقعم بالحرية والتسامح . واختار عماله ممن عرفوا بالورع والتقوى ، وزودهم بنصائحه وتوجيهاته وأمرهم بقراءة نداء وجهه إلى رعاياه ، حضهم فيه على اجتناب الفرقة واتباع سنة السلف الصالح (484) .

لذلك ، استنصت له الأمور حتى شبهه النفوسى (485) بجده عبد الرحمن بن رستم ، كما روى عنه ابن الصغير (486) أقوالا وأفعالا جعلت حكمه يحوز رضى كافة العناصر على اختلافها « فلم ينقم عليه أحد شيئا مما ولى من أفعاله ما خلا أولاده فانهم ربما خرجوا عن الواجب من أفعالهم » (487) .

والواقع أن ابن الصغير يكشف عن ظاهرة خطيرة بدأت بوادرها فى

(479) ابن الصغير : ص 41 وبرغم ذلك امتنعت نفوسة بحكه ، كان شيوخها يلازمون مجالسه ويقفون بباب داره يهللون ويكبرون من أول الليل حتى الفجر . انظر : ابن الصغير : ص 47 ، أبو زكريا : ورقة 31 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 33 ، النفوسى : صفحة 245 .

(480) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(481) ابن الصغير : صفحة 44 .

(482) نفس المصدر : صفحة 42 .

(483) نفس المصدر : ص 44 ، 45 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 92 .

(484) انظر : ملحق رقم (5) .

(485) الأزهار الرياضية : ج 2 ص 240 .

(486) يزخر تاريخ ابن الصغير بكثير من القصص والروايات الدالة على عدل أبى اليقظان ونزاهته ، وحرصه على أموال الدولة ، أشبه ما تكون بتلك التى نسجت حول عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . انظر : سيرة الأئمة الرستبيين : ص 48 — 49 .

(487) نفس المصدر السابق : ص 48 . وثمة من القصص التى وردت عند ابن الصغير تصور اقدام أبنائه وخدامه وحراسه على اغتصاب الأموال وهتك الأعراض . انظر : سيرة الأئمة الرستبيين . ص 42 — 45 .

آخر عهد أبي اليقظان وتناثرت بعد موته (488) لتودى بالدولة الرستمية ، وهي مفاسد البلاط الرستمي ، وتنشئ الخلاف الاسرى ، والتناحر على الحكم ، وما صاحب ذلك كله من سقوط هيئة الامامة واضمحلال المذهب الاباضي ، وظهور الطوائف المذهبية المخالفة للاباضية ودورها في توجيه احداث العصر الرستمي الاخير .

الدور الثالث (281 - 297 هـ) (895 - 909 م)

النزاع الاسرى وفتن الطوائف غير الاباضية

امضى التناحر القبلى والصراع العنصرى الى اضعاف شوكة - سائر العصبيات ، كما ادى الى انهيار هيئة الائمة وانتهاك مكانة الامامة ، حيث اصبح تنصيب الائمة وعزلهم لعبة فى ايدى عامة المدينة وغوغائها ، كما برز نفوذ البلاط ونفوذ نساء الاسرة الرستمية كعامل موجه لاحداث هذه الحقبة . ووجدت الطوائف الدينية والمذهبية فى تلك الظروف فرصة سانحة « لتبنييت خبر الاباضية » (489) واغتصاب الحكم فى تاهرت ، فعبدت الى التدخل فى النزاع بين افراد البيت الرستمي واذكاء الخصومة بين المتنازعين منهم على منصب الامامة تمهيدا للوثوب عليها . والراجح ان هذه الطوائف تواطأت مع توى خارجية كالعباسيين والاغالبة والادارسة والشيعة الفواطم لاسقاط الحكم الرستمي .

فقد كانت تاهرت وما حولها موطنًا لكثيرين من معتنقى المذاهب والفرق غير الاباضية . فكانت اقلية لها وزنها من الخوارج الصفرية تعيش فى كنف الدولة الرستمية ولهم حصن خاص بهم يسمى « تالغمت » بضواحي تاهرت (490) . كما كانت جموع المعتزلة تضرب خارج تاهرت متوثبة للانتقام لما حل بها على يد عبد الوهاب بن رستم . ويشير ابن الصغير (491)

(488) توفى أبو اليقظان محمد سنة 281 هـ ابن الصغير : ص 49 ، ابن عذارى : ج 1 ص 278 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ، مارسية : مادة بنى رستم - دائرة المعارف الاسلامية ص 93 . ولما كان قد تولى الامامة سنة 261 هـ حسبما ذكرنا ملنا ، فتكون مدة حكمه عشرين عامًا ، وليست سبعة وعشرين كما ذكر ابن عذارى ، او أربعين عامًا حسبما ذهب أبو زكريا ومن اخذ عنه . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 278 ، أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 37 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .
(489) ابن الصغير : صفحة 51 .
(490) النفوسى : صفحة 94 .
(491) سيرة الائمة الرستمين : صفحة 51 .

الى وجود كثير من الكوفيين والمالكية في تاهرت ذاتها ، في حين يذكر أبو زكريا (492) أن المذهب الشيعي كان له أنصار في عاصمة الرستميين .

وقد ارتفع شأن هذه الطوائف والفرق في تاهرت في أواخر العصر الرستمي بسبب ضعف العصبية القبلية والعنصرية من جراء الصراع بينها ، وبسبب سياسة التسامح التي اتبعها أبو اليقظان محمد في أواخر سني حكمه مع اتباع هذه المذاهب والفرق ، وحسبنا على ذلك دليلا أن خطب على بن أبي طالب كانت تتلى على منابر تاهرت (493) فلا مشاحة بعد ذلك إذا ما وجدنا هذه الطوائف والفرق غير الإباضية فضلا عن الشيع الإباضية المعادية للبيت الرستمي — تتآمر على إسقاط حكم الرستميين بعد وفاة أبي اليقظان محمد وتولية ابنه أبي حاتم يوسف سنة 281 هـ (895 م) .

والواقع أن تنصيب أبي حاتم ينم عما وصلت اليه الإمامة الإباضية من تدهور ومهانة ، فقد اختصه أبوه قبل وفاته بولاية عهده تحت تأثير زوجته غزالة (494) . وبعد موت أبي اليقظان « بادر العوام والفتيان دون القبائل » بمبايعته « فكبروا حوله وحملوه على الأيدي والاعناق حتى أوصلوه الى داره ، ثم أرسلوا الى القبائل بمبايعته » (495) . وأثار ذلك استياء الرستمية فحاولوا — دون جدوى — الحفاظ على هيئة الإمامة بحجب الإمام ومنعه من مخالطة العوام « التي أرادت الدنو اليه في كل الاوقات على ما كانت تعرف قبل امارته » (496) . ولهذا رحل يعقوب ابن أفلح — عم أبي حاتم — عن تاهرت ونزل عند زواغة « الخلفية » (497).

وشجع ذلك على تداخل الكوفيين وغيرهم من الطوائف المذهبية في الامر وتوسيع شقة الخلاف بين الامام والرستمية وبين عوام المدينة (498) حتى اندلعت الحرب في تاهرت من جديد (499) . والواقع أن مؤرخي

(492) السيرة واخبار الائمة ورقة 36 .

(493) ابن الصغير : صفحة 42 .

(494) نفس المصدر : صفحة 50 .

(495) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 265 ، Op. Cit. P. 7. Motylinski :

(496) ابن الصغير : صفحة 50 .

(497) النفوسى : صفحة 266 .

(498) ابن الصغير : صفحة 51 .

(499) ابن عذارى : ج 1 صفحة 278 .

الاباضية (500) يتغاضون عن ذكر هذه المهازل التي تردت فيها امامة ابي حاتم، فصوروه وقد « اطردت له الامور ، ولم ينقم عليه أحد من رعيته في حكم ولا فعل » لكن ابن الصغير المالكي الذي عاصر تلك الفترة وعان أحداثها كشف لنا عما حاول هؤلاء المؤرخون اخفائه . فيذكر أن مشايخ الكوفيين — على وجه الخصوص نجحوا في تأليب العامة على ابي حاتم — ودبروا مع زعمائهم أمر اغتياله . وتنبه أبو حاتم لما دبر له ، فطرد هؤلاء الزعماء خارج تاهرت. لكن المشايخ انضموا للعامة وثاروا على ابي حاتم وطرده ومن معه من الرستمية فضلا عن انصاره من نفوسة والعجم وأعادوا زعماءهم إلى المدينة (501) .

وعول أبو حاتم على تأليب القبائل ضد أهل المدينة ، وبذل الاموال لهذا الغرض ولجأ إلى قبائل صنهاجة من غير الاباضية . وقدر له أن يجشد جموعا غفيرة من لواتة وصنهاجة والعجم فضلا عن نفوسة والرستمية زحف بهم إلى المدينة وضرب عليها الحصار في ثلاثة مواضع (502) . وكاد المحاصرون أن يستسلموا لابي حاتم ويعترفوا بامامته لولا اصراره على تسليم زعماء العامة وشيوخ الفرق ، فرفضوا واستأنفوا القتال ، وبعثوا في استدعاء يعقوب بن افلح من زواغة ، فاقبل ، وبايعوه بالامامة سنة 282 هـ (503) (896 م) .

وفت ذلك في عضد ابي حاتم ، وفارقت لواتة وانضمت لعمه يعقوب (504) لكن ذلك لم يمنعه من معاودة الهجوم على تاهرت ، فهزم وفارقه العجم كذلك (505) . ثم عقدت هدنة بين الطرفين بفضل مساعي شيخ مزاتة (506) تمكن أبو حاتم خلالها من استمالة كثيرين من زعماء المدينة عن طريق الاموال والهبات . فعقدوا العزم على بيعته ، ولما علم يعقوب بن افلح بذلك غادر المدينة بمن معه من شيوخ الطوائف وتوجه إلى

(500) انظر : أبو زكريا : ورقة 32 ، الدرجيني ج 1 ورقة 37 ، الشهابي : السير صفحة 262 .

(501) ابن الصير : ص 51 ، النفوسى : ص 268 .

(502) نفس المصدر : ص 52 ، نفس المصدر : ص 270 .

(503) ابن الصغير : صفحة 53 .

(504) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 271 ، 272 .

(505) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر : ص 272 .

(506) من المعروف أن مزاتة كانت تملك المذهب الاباضى ، وان كان اعتناقها اياه سطحيا انظر اليعقوبى : البلدان : ص 344 .

زواغة (507) بعد أن مكث في الحكم أربعة أعوام (508) . ودخل أبو حاتم تاهرت سنة 286 هـ (900 م) في حماية زعماء عامتها (509) .

ونعتقد أن أبا حاتم لم يكن بوسعه استرداد نفوذه الحقيقي على المدينة بعد عودته إليها بفضل زعماء العامة فيها . وبديهي أن ينعكس نفوذ أهل تاهرت على ما اتخذه من إجراءات عقب تقلده الإمامة . فلم يكن بمقدوره إلا أن يصدر عفوا عاما على سائر أهلها (510) ، وقد كان إلى عهد قريب يشترط على زعمائهم والاقتصاص منهم حتى يفك الحصار الذي ضربه على تاهرت . كما أعوزته القدرة على البت في سياسة الدولة بمفرده ، فقد شاركه فيها مشايخ المدينة « اباضية وغير اباضية » (511) ولم تعد مناصب الدولة حكرا على نفوسة والعجم ، بل برزت عناصر جديدة لم تتول مثل ذلك من قبل (512) وتحولت السلطة الحقيقية في تاهرت إلى هؤلاء العمال ، فكان صاحب الشرطة «ياخذا بالتهمة ، ويضربا على الظنة» (513)، أما الإمام فلم يكن له من السلطة سوى الاسم .

ويبدو أن يعقوب بن أفلح ومن هرب معه من مشايخ الكوفيين كانوا من وراء حركة الطيب بن خلف بن السمع في شرقى الدولة الرستمية ، ذلك أن يعقوبا غادر تاهرت ونزل على زواغة بأحواز طرابلس سنة 286 هـ (900 م) كما أن زواغة كانت لا تزال على ولائها لتعاليم خلف بن السمع ، والتفت حول ابنه الطيب بعد وفاته . ولما كانت مضاربها مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للأسرة الرستمية ، فقد كان الاحتكاك بينهما أمرا لا محيد عنه . والواقع أن معلوماتنا في هذا الصدد مستمدة من المصادر الإباضية التي تصور حركة الطيب وزواغة على أنها تمرد من جانب زواغة لخروجها

(507) ابن الصغير : ص 56 ، النوسى : ص 275 .

(508) ابن مغازى : ج 1 ص 278 .

(509) ابن الصغير : صفحة 56 .

(510) امتدح الشاعر بكر بن حباد التاهرتي أبا حاتم راجيا عفوه في قصيدة منها :
فقلت جفائى يوسف بن محمد فطال على الليل وهو تمير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضه ولكن أتت بعد الامور أمور
وأكرم عفوا يؤثر الناس أمره إذا ما على الانسان وهو تدير
انظر النوسى : صفحة 276 .

(511) ابن الصغير : ص 56 ، البرادى : الجواهر المنتقا : ورقة 103 .

(512) نستشف ذلك من اسمى عبد الله بن أبى الشيخ الذى ولى القضاء وإبراهيم بن مسكين الذى ولى الشرطة ويخيل لنا أنهما كانا من العرب المالكية والاحناف .
انظر : ابن الصغير : ص 56 ، الشهاشى : السير : ص 263 .

(513) ابن الصغير : ص 56 ، الشهاشى : السير : ص 263 . البرادى : الجواهر المنتقا : ورقة 103 .

على زعامة نفوسة (514) . ومع ذلك فالراجح أن يعقوب بن أفلح كان من وراء هذه الحركة مستهدفا إثارة القلاقل في وجه أبي حاتم ، فليس من محض الصدف أن يثور الزواغيون في هذا الوقت بعينه .

على كل حال — تحفل تواريخ الإباضية (515) بذكر انتصارات الياس ابن منصور على الطيب وانصاره من الخلفية الذين ولوا الادبار لائذين بجزيرة جربة وسيوف النفوسيين تجهز على فلولهم (516) وتشير هذه المصادر (517) الى أن الطيب اعتصم بقصر أحد شيوخها ممن كانوا على مذهب خلف ، وأن الياس بن منصور رشاه بالمال فسلمه اليه بدون قتال وعاد به الى الجبل حيث « عاد الى مذهب أهل الحق » وقضى على حركته .

ونعتقد أن السححية من زواغة ويعقوب بن أفلح لم يركنوا للدعة بعض القبض على الطيب بن خلف وسجنه بجبل نفوسة على يد الياس بن منصور عامل الجبل من قبل أبي حاتم ، فقد كانوا على صلة بأفراد البيت الرستمي المناوئين لامامة أبي حاتم ، واشتركوا معهم في تدبير مؤامرة اغتياله ، وكان الشيخ الزواغي ، السمحي أبو الخطاب وسيل بن سنتين همزة الوصل بين يعقوب بن أفلح والمتآمرين من البيت الرستمي (518) حتى تمت المؤامرة بنجاح، وقتل أبو حاتم يوسف على يد أبناء أخيه سنة 294 هـ (906 م) (519) .

وآلت الامامة الى أحدهم ويدعى اليقظان بن أبي اليقظان محمد . ولا نعرف عن أخباره شيئا لعزوف الإباضية عن ذكر امامته باعتباره مغتصبا لها (520) . والراجح أن عهده اتسم بالقلاقل والفتن سواء من جانب الطوائف الدينية غير الإباضية التي كانت تطمح في الامامة دون أن تنالها — أو من جانب أبناء أبي حاتم يوسف وأتباعهم للأخذ بثأر أبيهم . وهذا يفهم

(514) أبو زكريا : ورقة 32 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 38 ، النفوسى : ص 38 .
(515) نفس المصادر والصفحات .

(516) لا غرابة فيها حدث من تتبع النفوسيين فلول زواغة والاجهاز عليهم ، علما بأن تعاليم المذهب الإباضى تحرم تتبع المدبر والاجهاز على الجرحى . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 54 . ذلك لان هذه التعاليم الإباضية تشترط في الفار المدبر أن يكون بدون مأوى يلوذ به ، فان كان له مأوى جاز تتبعه وقتل حريمه . انظر : Motylinski : l'Aqida des Abadites. P. 512.

ولما كان للهاربيين من زواغة مأوى في جزيرة جربة ، استحل النفوسيون الاجهاز على فلولهم .

(517) أبو زكريا : ورقة 33 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 279 .

(518) النفوسى : صفحة 291 .

(519) ابن عذارى : ج 1 صفحة 278 .

(520) السوفى : شرح السؤالات ورقة 99 .

من رواية لابی زكريا (521) تقول بأن بنت أبى حاتم وأخيها توجهتا الى أبى عبد الله الشيعى ودعوه لدخول تاهرت والانتقام من قتلة أبيهما ، وأن المالكية والواصلية والشيعة والصفرية « شكوا اليه امارة الفرس » .

مهما كان الامر ، وضع الغزو الشيعى لتاهرت سنة 297 هـ (909 م) حدا لامامة اليتظان بن أبى اليتظان ونهاية للدولة الرستمية برمتها .

وهكذا — كان تاريخ بنى رستم سلسلة من التلاقل والاضطرابات الداخلية ، اتخذت شكل الانشقاق المذهبى ، والصراع القبلى والعنصرى والتناحر الاسرى والطائفى .

(521) السيرة ورتة 36 .

ج - علاقات بني رستم الخارجية

تأثرت سياسة بني رستم الخارجية بوضع دولتهم الجغرافي ومذهبها الديني وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية فقد كانت دولة صحراوية داخلية ، ولهذا لم نسمع عن نشاط بحري لبني رستم ولم يسهموا في حركة الفتوح التي احتكرها جيرانهم الاغالبية في الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وقد حتم الوضع الجغرافي للدولة الرستمية وتشابك حدودها مع دول الاغالبية والادارسة وبني مدرار ، أن تدخل في علاقات مع هذه الدول على الرغم من جنوح ائمتها الى العزلة والانصراف الى مواجهة مشاكلهم الداخلية . لقد فرضت رابطة الجوار على بني رستم أن يحددوا علاقاتهم بأمرء القيروان العباسيين ومن بعدهم الاغالبية السنة والادارسة العلويين وبني مدرار الصفرية ، ان عدا وان ودا . وقد تأثرت هذه العلاقات بجانيبها الودي والعدائي — الى حد كبير — بمذهب الدولة الديني ، فلما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية فقد عادوا الحكم السنن بالقيروان والعلوي بفاس ، وهادنوا خوارج سجلماسة الصفرية . كما دعمت الظروف السياسية التي عاشتها الدولة الرستمية سياسة العدا للقيروان وفاس وسياسة المهادنة لسجلماسة ، فقد قامت الدولة على انقراض نفوذ الخلافة العباسية في المغرب الاوسط ، وعجز عمال الخلافة في القيروان عن الحيلولة دون قيامها ، لهذا كان على الاغالبية — عمال بني العباس — ان يضطلعوا بتنفيذ ميثية الخلافة في مناهضتها . واذا كانت دولة الادارسة قد قامت في المغرب الاقصى على حساب نفوذ الخوارج ، فلم يكن هناك مناص من عدا ائمة تاهرت لائمة فاس لاقتطاعهم بعض الاجزاء الشمالية الغربية من الدولة الرستمية . وقد اجتمعت الدولتان الرستمية والمدراية على عدا القيروان وفاس ، ولهذا حرص حكامهما على الالتزام بسياسة حسن

الجوار ازاء بعضهم البعض . ولما كان أمويو الاندلس يعادون العباسيين والاغالبية والادارسة ، فقد عقد بنو رستم معهم أوامر الصداقة والود . كما أوثقوا صلاتهم بأباضية المشرق لما جمعهم من وحدة المذهب الديني والمصير السياسي . والحقيقة أن الرستميين انصرفوا لتوطيد صلاتهم بالجنوب مدفوعين بمصالحهم التجارية ، وساعد على ذلك ما كفلته الظروف الجغرافية من حماية طبيعية لقلب دولتهم ، فلم يناجزوا أعداءهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع ، بل أحيانا كانوا يفضون الطرف عن أطماع جيرانهم في أطراف الدولة ، فلم يحركوا ساكنا حين ضم الادارسة تلمسان وما حولها وسلخوها عن نفوذ تاهرت .

وقد كانت كافة حروبهم مع جيرانهم للدفاع فقط باستثناء مرة واحدة اتخذوا فيها موقف الهجوم، لما حاصر عبد الوهاب بن رستم طرابلس سنة 196هـ (812 م) . كما لم تتعد صلاتهم الودية أكثر من تبادل السفارات والهدايا ولم تصل فقط لدرجة التحالف أو التعاون لمواجهة العدو المشترك . وعلى ذلك يمكن القول بأن سياسة بنى رستم الخارجية قامت في جوهرها على تحاشي الاخطار والتزام الدفاع ، وكانت أميل الى السلم منها الى العدوان . ومع ذلك يمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية ، فعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغالبية والادارسة كانت ذات طابع عدائي . أما علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى أمية بالاندلس وأباضية المشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودي .

١ - العلاقات العدائية :

1 - بنو رستم والعباسيون :

لا يخفى ما كان بين بنى رستم وبنى العباس من خلاف مذهبي وعداء سياسي ، فقد تأصل هذا العداء منذ عهد العباسيون الى مناهضة حركات الخوارج - ومنهم الاباضية - في المشرق ، والغرب على السواء . وحسبنا أن ما حل بأباضية المغرب من كوارث إنما تم على أيدي ولاية المنصور والرشيد بالقيروان منذ ولاية ابن الأشعث ومن تلاه من أمراء الاسرة المهلبية ، وقد لجأ عبد الرحمن بن رستم الى جوف الصحراء حيث أسس دولته هربا من هؤلاء الولاة وانتقاء لبطشهم .

والواقع أن أباضية المغرب وجدوا في دولة بنى رستم ملاذا حصينا

من خطر ولاية القيروان ، فلم يقدر لاي منهم اجتياح اراضي الدولة الرستمية بعد فشل محمد بن الاشعث في حصار عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الاباضية بجبل سوفج سنة 145 هـ (762 م) بل حاول ابن رستم وجماعته الانتقام لما حل بالاباضية من بطش جيوش ابن الاشعث ، فخرج على رأس خمسة عشر الف من رجاله لحصار عمر بن حفص بطبنة سنة 154 هـ (771 م) مع سائر اباضية المغرب وصفريته ، لكنه عاد مدحورا بعد هزيمته عند تهودة أمام جيش عمير بن معمر بن عيسى السعدي قائد عمر بن حفص (522) .

وبسبب هذه الهزيمة ، وما لحق اباضية المغرب الادنى من بطش يزيد بن حاتم (523) ، أثر عبد الرحمن بن رستم الانصراف الى تأسيس دولته دون ان يمضى في مناجزة ولاية القيروان . فبعث الى روح بن حاتم طالبا لمهادنته حتى يتفرغ لمواجهة الاعباء التي واكبت قيام دولته ويبدو ان الخلافة العباسية آنذاك تطلعت الى دعم نفوذها في افريقية ، وغضت الطرف — الى حين — عن بسط سلطانها على بلاد المغرب الاوسط والاقصى، فقبل واليها على القيروان مواعدة عبد الرحمن بن رستم (524) .

ومن الطبيعي ان تظل هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن لما حفل به حكمه من قلاقل وثورات في الوقت الذي جنح فيه روح بن حاتم الى السلم لتقدم العمر به . وقد اختلف المؤرخون في تحديد اي من الطرفين بادر بطلب المودعة ، فمنهم (525) من يشير الى ان عبد الوهاب بن رستم هو الذي طلب من روح تجديد الهدنة ، ومنهم (526) من يذكر ان روحا طلب المودعة . وان عبد الوهاب اجابه الى ما اراد . وقد خرج جوتييه (527) من الرواية الاولى بأن آراء القيروان اسقطوا من اعتبارهم استرداد نفوذهم على المغرب الاوسط فتفاوضوا عن مناعة الدولة الرستمية . بينما استخلص فورنل (528) من الرواية الثانية ان الدولة الرستمية أصبحت قادرة على الوقوف من ولاية القيروان موقف الند للند .

(522) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .

(523) ابن خلدون : نفس المصدر : ص 194 .

(524) النوسني : صفحة 93 .

(525) انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 10 .

(526) ابن خلدون : ج 4 ص 194 ، النويري : ج 22 ورقة 23 .

(527) Les Siècles Obscurs. P. 294.

(528) Les Berberes - Vol. I. P. 288

ومهما كان الامر ، فالذى يعيننا أن الطرفين جنحا الى السلم ، وآثرا العافية على الدخول في صراع لم يكونا على استعداد لخوض غماره وتحمل مغبته .

واستمرت سياسة تحاشي الصدام بين أئمة تاهرت وأمرأ القيروان قائمة حتى سنة 184 هـ (800 م) . حين قامت دولة الاغالبية في افريقية لترث اسباب العداء مع بنى رستم وتنوب عن بنى العباس في الاضطلاع بمناهضة حكمهم .

ومن الجدير بالتنويه أن الموادعة بين أمرأ القيروان وأئمة تاهرت لا تعنى انتفاء العداء بينهما ، فالعداء بين تاهرت وبغداد ظل قائما ، ولم يتوان الخلفاء عن اغتنام ما سنح لهم من فرص في الكيد للدولة الرستمية وإثارة المتاعب في وجه أئمتها وأدرك الرستميون ما أضمره بنو العباس لهم من خصومة وعداء ، فأحجم عبد الوهاب بن رستم عن أداء الحج خشية الوقوع في يد « المسودة » (529) وبرر له فقهاء المذهب الإباضي عزوفه هذا « بعدم أمان الطريق » ، فأمان الطريق — شرعا — من شروط الحج (530) .

وليس ببعيد أن يكون العباسيون قد توجسوا خيفة من اتصال أئمة تاهرت باباضية الشرق لتدبير المؤامرات وتنظيم الثورات المناوئة لحكمهم (531) ، ومن ثم درجوا على بث عيونهم لمراقبة وفود المغاربة في مواسم الحج . ولعل في حادثة القبض على الأمير الرستمي أبى اليقظان محمد ابن أفلح بمكة وإيداعه السجن (532) ببغداد ما ينهضه دليلا على ذلك .

كذلك رحب العباسيون بالثوار الخارجين على بنى رستم ، ووجد هؤلاء في بغداد ملاذا آمنا بعد اخفاق حركاتهم . والراجح أن العباسيين تعاونوا معهم على استقطاب الحكم الرستمي في تاهرت ، فنفاث بن نصر الثائر على أفلح بن عبد الوهاب الرستمي بادر بالهرب الى بغداد حين ضيق عليه عمال الإمام على جبل نفوسة حتى أوشكوا على الظفر به . وتثيد مصادر الإباضية بما لقيه نفاث من حظوة وحفاوة في بلاط الخلافة ، حتى أن الخليفة

(529) أبو زكريا : ورقة 23 ، الننوسى : ص 140 .

(530) أبو زكريا : ورقة 23 .

(531) ابن الصغير : صفحة 28 .

(532) عن حادثة القبض على ابن اليقظان محمد وسجنه ثم اطلاق سراحه . انظر : ابن

الصغير : ص 27 — 29 ، أبو زكريا : ورقة 31 ، 32 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 37 ، 38 ، الننوسى : ص 259 — 264 .

أطلعه على المحظور من أمهات الكتب والدواوين في المذهب الإباضي . وليس بعيد أن يكون نفاث قد تأمر مع الخلافة على بث الشقاق في الدولة الرستمية اثر عودته ، وإذا كان لم يوفق في النيل من سلطان تاهرت في أقاليم الدولة الشرقية فان حسبه نجاحه في احداث انقسام مذهبي سياسى وتكوين فرقة عرفت (بالنفاثية) ظلت معادية للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عصر الدولة الرستمية .

وقد وضع تأمر بنى العباس على اسقاط امامة تاهرت في العصر الرستمي الاخير ، فطائفة الكوفيين بتاهرت لعبت دورا بارزا في منازعة الامامة الرستمية في ذلك الحين ، وتواطأت مع زعماء العامة في العاصمة الرستمية لاقضاء أبى حاتم يوسف عن السلطة وطرده خارج المدينة (534). وفي وجود بكر بن حماد التاهرتي — أخ محمد بن حماد — زعيم عامة تاهرت — ببغداد (535) قبيل وقوع تلك الاحداث ، وعودته الى تاهرت واشترآكه في تنحية أبى حاتم ثم اعتذاره اليه راجيا عفوه بعد عودته للسلطة (536) ، ما يشير الى تواطؤ الخلافة العباسية مع المارقين على بنى رستم وتبذيرهم المكاييد ضد الدولة الرستمية وهذا كله يؤكد ما ذهبنا اليه من تأصل العداء بين الطرفين .

2 — بنو رستم والاغالبية :

اتخذت العلاقات بين بنى رستم والاغالبية طابعا عدائيا صرفا . وكان لذلك اسبابه المذهبية والسياسية والجغرافية ، فالاغالبية كانوا سنة ، ومذهب مالك المعروف بعوائه لسائر النحل المتطرفة ساد افريقية الاغلبية ، بينما تعصب بنو رستم للمذهب الإباضي ، وهو رغم اعتداله يذهب الى تكفير مخالفيه (537) وفضلا عن ذلك فالاغالبية كانوا عمال الخلافة العباسية وأداتها في افريقية ، ورمز نفوذها الوحيد في بلاد المغرب ، ولا غرو فقد قامت سياستهم الخارجية على مصادقة أصدقاء الخلافة ومعاداة أعدائها .

-
- (533) انظر : أبو زكريا : ورقة 30 ، 31 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 36 ، 37
الننوسى : ص 206 — 209 .
(534) ابن الصغير : ص 51 ، الننوسى : ص 268 .
(535) (مالكى : رياض الننوس : ج 1 ص 409 ، الدباغ : معالم الايمان : ج 2 ص 192 .
(536) الننوسى : صفحة 276 .
(537) المقصود هنا تكفير الحكام فقط وليس الرعية . انظر : البغدادي : الفرق بين الفرق : صفحة 106 .

ومن ثم كان على أمراء بنى الاغلب أن يناهضوا أثمة تاهرت جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها، كما لم يتقاعس بنو رستم عن مناجزة جيرانهم الاغلبة باعتبارهم اعداء سياسيين ومذهبيين على الرغم مما عرفوا به من المسالمة والحرص على تحاشي اسباب التطاول والصراع (538) .

لقد فرضت الظروف الجغرافية على الدولتين أن تتخذ العلاقات بينهما شكلا عدوانيا ، فلم يكن ثم محيد عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها . لقد أحاطت الدولة الرستمية بأفريقية الاغلبية من الشرق والغرب والجنوب (539) ، ولم يكن هناك ما يمنع رعايا الدولتين من التبادل البدوية من الحركة والانتقال والاختلاط في مناطق الحدود (540) ، ومن هنا اختلط الأمر على بعض الجغرافيين (541) فنسبوا بعض البلدان والكور الرستمية — كغدامس وتهودة وودان — الى دولة الاغلبة . والذي يعنيها هو أن الصدام بين رعايا الدولتين في مناطق الحدود كان لا ينقطع ، فاقليم الزاب ونواحي بلزمة شهدت صراعا داميا بين فقهاء المالكية وأتباع المذهب الاباضي (542) . وجدير بالتقوية أن جمهور الاباضية بتلك النواحي لم يكن برمته مواليا للرستيين ، فجماعتي الخلفية من زواغة والنكار من هواراة — ومنازلها جنوبى تونس — (543) كانتا على عداء مع بنى رستم ، وليس من المستبعد أن يكون الاغلبة قد اصطنعوا بعض هذه العناصر لاثارة العراقيين والقتال في الدولة الرستمية ، يفسر هذا قول لوتورنو (544) بأن جماعات الاباضية بنواحي قسطنطينية — بلاد الجريد — لم يتعرضوا لاضطهاد الاغلبة . ولكن الذى لا شك فيه أن جمهور الاباضية الوهبية من لواتة وهواراة في تلك الاصقاع لقي عسفا وعنقا على أيدي بنى الاغلب وعمالهم (545) .

كما كانت حدود دولة الاغلبة الشرقية غير واضحة المعالم ، فقبائل نفوسة الاباضية كانت تضرب قرب طرابلس التابعة لبنى الاغلب ، وامتدت ديارها حتى مشارف القيروان ذاتها (546) . ومن ثم كانت هذه المناطق

(538) النفوسى : صفحة 93 ،

Gautier : Op. Cit. P. 294, Vonderheyden : Op. Cit. P. 267.

(539) انظر : الخريطة .

(540) مجهول : الاستبصار : ص 179 .

(541) راجع : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 87 .

(542) ابن خلدون : العبر : ج 4 ص 203 ، Masqueray : Op. Cit. P. 220.

(543) ابن عذارى : ج 1 ص 167 ، Lewcki : Etudes Ibadites. 'P. 73.

(544) انظر : La Revolte d'Abou - Yazid. P. 105.

(545) ابن خلدون : ج 4 ص 203 .

(546) اليعقوبى : البلدان ص 349 .

ميدانا حافلا بالصراع بين الدولتين الاغلبية والبرستمية .

وليس صحيحا ما ذهب اليه مؤرخو الغرب (547) من انتفاء طابع العداء بين الاغلبية وبنى رستم وقولهم بأن كليهما نعم بحدود آمنة عازما عن شهر السلاح في وجه جاره . حقيقة ، لم يصل التشاحن بينهما الى حد يهدد وجودهما بسبب انشغال الاغلبية بمواجهة مشاكلهم الداخلية فضلا عن النشاط البحري الذي ضربوا فيه بسهم وافر ، ونفس الشيء يقال عن بنى رستم واهتمامهم بحركة التجارة مع الجنوب . هذا فضلا عن بعد المسافة ووعورة الطرق بين تاهرت وافريقية ، فقد كانت المسافة بينهما مسيرة شهر على ظهور الابل (548) . لكن ذلك لا يعنى قط أحجام حكام الدولتين عن الاغارة على املاك بعضهم البعض على امتداد الحدود ، وخاصة في الجهات الشرقية ، بل دأبوا على بث الفتن واثارة العراقيل وتحريض العناصر المعادية للحكم . واذا كان الرستميون الاوائل قد أحرزوا النصر في المرحلة الاولى فان الاغلبية ظفروا به بعد ذلك في أواخر العصر الرستمى .

بدأ النزاع الرستمى الاغلبى في منطقة طرابلس ، وسببه ان هذه المدينة كانت تابعة للاغلبية ، وقد امتد نفوذ عاملها على بعض بطون هوارية الاباضية الضاربة بجوارها ، وعدتها ثلاثمائة أسرة (549) . وبديهي أن يطمح هؤلاء الاباضية في الاستقلال عن سلطان الاغلبية للدخول في طاعة بنى رستم (550) ، فدأبوا على اثارة المتاعب في وجه العامل الاغلبى على طرابلس ، وغمدت جماعات منهم الى الاغارة على المدينة وبث الرعب بين سكانها (551) فكان عاملها يسرف في الانتقام من الاباضية بها حتى لقد خرجت جموع غفيرة منهم ولجأوا الى الصحراء (552) . ويبدو أنهم استمدوا العون من جيرانهم اباضية نفوسة ، فقد نجحوا عام 196 هـ (812 م) في اجتياح طرابلس . والحقوا بها الخراب والدمار . وهب

Vonderheyden : Op. Cit. P. 268,

(547) انظر :

Marcais : La Berberie Musulmane. P. 107,

Huart : Histoire des Arabes, Vol. I. P. 321.

(548) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 88 .

(549) المالكي : رياض النفوس : ج 1 ص 216 ، Idris : Contribution ... P. 199.

(550) أبو زكريا : ورقة 23 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 30 ، النفوسى : ص 146 .

(551) الاتصارى ، نحات القنشرين . ورقة 7 — مخطوط ،

Brockelman : Op. Cit. P. 150.

(552) النفوسى : صفحة 144 .

ابراهيم بن الاغلب لاستنقاذ نفوذه ، فرمى الثوار بابنه عبد الله الذى افلح في استرداد المدينة واثنى في الاباضية تنكيلا ثم حصنها ببناء سور حولها (553) . واستعان الاباضية بالامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن — وكان اذ ذاك بجبل نفوسة — فاستجاب لهم وخرج على رأس جيش من نفوسة وغيرها وضرب الحصار حول طرابلس (554) . ولم يستطع عبد الوهاب اقتحام المدينة ، فقد اغلق عبد الله الاغلبى ابوابها وباشر القتال من باب واحد وتمكن جنده من اغتيال بعض مشاهير الاباضية (555) ، كما استغل عن طريق جواسيسه افساد خطط المحاصرين (556) .

وكاد عبد الوهاب ان يعود من حيث اتى ، لولا ان اسعفه الحظ بموت ابراهيم بن الاغلب واستدعاء ابنه عبد الله الى القيروان لتقلد الامارة (557) . فاضطر عبد الله الى التسليم بمطالب الرستميين في انضمام اباضية هواره الى دولتهم وانسلاخهم عن نفوذ عامل طرابلس الاغلبى ، ونص في الاتفاق على ان « يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب » (558) هكذا انتصر عبد الوهاب بسبب اضطرار عبد الله الى وقف الحرب وعودته الى القيروان ، بل شجعه ذلك على الاجترار على الاراضى الاغلبية ذاتها فضرب صفحا عن الاتفاق واستولى على قابس — وهى ميناء على البحر كان تابعا للاغالبية (559) — ، وكذلك آلت اليه بعض القرى والحصون الاخرى ثم عبرت جيوشه الى جزيرة جوبة واستولت عليها ، وعاد عبد الوهاب الى جبل نفوسة ومنه الى تاهرت بعد ان ولى عماله على هذه النواحي الجديدة (560) وشغل الاغالبية الاول بمشاكلهم الداخلية عن تصحيح الوضع على حدودهم الشرقية ، كما قنع الرستميون بما احرزوه من مكاسب ، ، ولم يتمادوا في سياسة التوسع مفتنمين فرصة ثورات الجند في افريقية على الامارة الاغلبية . وهذا

(553) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .

(554) نفس المصدر والمصحفة ، ابو زكريا : ورقة 21 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 150.

(555) ابو زكريا : ورقة 23 ، الشهاخي : السير ص 160 .

(556) النفوسى : صفحة 145 .

(557) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .

(558) نفس المصدر والمصحفة ، الشهاخي : السير : ص 161 .

(559) اليمتوبى : البلدان ص 349 ، 350 .

(560) ابن خلدون : ج 6 ص 122 ، الشهاخي : السير : ص 161 ، النفوسى : صفحة 146 ، 147 .

ما حدا ببعض الاحزاب المعارضة لعبد الوهاب ان تستنكر فتوره « وقلة محاربتة للمسودة (561) .

ودرج افلح بن عبد الوهاب — الذى اشتهر بالدهاء والسياسة — على تحريض اتباعه من البدو الاباضية المقيمين ببلاد الجريد لاثارة الفلاقل فى دولة الاغالبية ، ويذكر ابن خلدون (562) انهم تمردوا على العامل الاغلبى بقسطنطينية وارادوه قتيلا ، وان الامير ابنى عقال الاغلبى سير اليهم الجيوش ، واستأصل شأفتهم ومن المشكوك فيه ان يكون ابو عقال قد قضى نهائيا على ثورات الاباضية فى افريقية الجنوبية ، ويبدو ان ذلك كان دافعا لخليفته الامير محمد الاغلبى على الاهتمام بتوطيد نفوذه فى تلك النواحي ففى سنة 239 هـ (854 م) أسس مدينة جديدة سماها العباسية فى بلاد الجريد لمواجهة اخطار الاباضية ، ولتكون قاعدة امامية للافارة على تاهرت ذاتها فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية فى تجارة العبور (563) غير ان افلح بن عبد الوهاب بادر بمواجهة الخطر الاغلبى ، وافلح فى تدمير العباسية ، واضرم فيها النيران (564) .

كما حاول اباضية نفوسة وهوارة الاستيلاء على طرابلس فى عهد احمد بن محمد الاغلبى (242 — 249 هـ) (857 — 864 م) ولم ينفذها سوى جلب واليها الامدادات من القيروان فحال دون سقوطها سنة 245 هـ (860 م) . وهكذا اتسمت سياسة بنى رستم فى عهده عبد الوهاب وافلح بالقوة فأمسكا بزمام المبادرة فى صراعهما مع الاغالبية ، ونجحا فى مواجهة اخطارهم بل واقتطاع اجزاء من دولتهم على ان الاغالبية سرعان ما رجحت كفتهم بعد موت افلح بن عبد الوهاب ، اذ منيت الدولة الرستمية باخطار الصراع العنصرى والطائفى فى الداخل . فلم يعدم الاغالبية وجود صنائع واتباع عملوا لحسابهم فى مناهضة ائمة بنى رستم فى ذلك

(561) الشماخى : السير ص 194 . ويعنى الشماخى بالمسودة بنى الاغلب
الصال العباسيين .

(562) العبر : ج 4 صفحة 200 .

(563) النكوسى : صفحة 189 ،

Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 285.

(564) البلاذرى فتوح البلدان ص 277 ، ابن خلدون : ج 4 ص 200 — 201 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I, P. 513.

(565) ابن خلدون : ج 4 ص 201 ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 398.

الحين (566) . ولا يخفى دور شخص يدعى خلف الخادم — من موالى الاغالبة — فى تأليست الثوار على ابنى بكر بن افلح حتى اقتضوه عن الامامة وطردوه خارج تاهرت ويحدثنا ابن الصغير (567) انه كان يبذل الاموال للثوار بسخاء ، الامر الذى يدل على تواطؤ بنى الاغلب وتأمرهم على استقاط الحكم الرستمي .

وفى سنة 267 هـ (881 م) اشتركت جيوش الاغالبة جنبا الى جنب مع اباضية نفوسة فى قتال جيش العباس بن احمد بن طولون — الذى خرج من مصر غازيا افريقية — ، وهذا لا يعنى عودة الوثام بين بنى رستم والاغالبة فقد قتلت نفوسة العباس لا « لانقاذ طرابلس وبنى الاغلب من ظلمه » كما ذهب النفوسى (568) ، ولا تلبية لطلب ابن قريهب عامل الاغالبة على طرابلس كما قال سعيد بن مقديش (569) ، وانما لان خطره هدد بنى الاغلب وبنى رستم على السواء (570) . فبعد استيلاء العباس على لبدة ، بطش بجمهور الاباضية هناك « وتعدى سودانه على بعض حرم البوادى وهتكوا الحجب » (571) ولما كان هؤلاء من رعايا بنى رستم ، فقد استنجدوا بعاملهم على جبل نفوسة ويدعى الياس بن منصور فى الوقت الذى بعث فيه العباس اليه يدعو للدخول فى طاعته (572) . فهب العامل الرستمي لدرء خطر العباس دون سابق اتفاق مع الاغالبة (573) . مصداق ذلك خروج عامل طرابلس الاغلبى على رأس جيش انفذ اليه من القيروان والتحامه مع ابن طولون قبل قدوم الاباضية من نفوسة (574)

(566) ابن الصغير : صفحة 27 .

(567) سيرة الائمة الرستمين ص 37 ، النفوسى : ص 632 .

(568) انظر : الازهار الرياضية : ج 2 ص 255 .

(569) انظر : نزعة الانظار ص 121 .

(570) Basset : Les Sanctures .. P. 93.

(571) ابن مغازى : ج 1 صفحة 157 .

(572) ابن الداية : سيرة احمد بن طولون ص 61 . وقد جاء فى خطاب العباس الى الياس بن منصور « . . اقبل بسمعك وطاعتك والا وطيت بلدك بخلى ورجلى وابحت رحك » وجاء فى رد الياس « . . لقد بلغنى من تبيح انعمالك مالا يسمنى التخلف معه عن جهادك . وانا على اثر رسالتى اليك » راجع : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص 254 ، النفوسى : ص 258 .

(573) تصور بعض المصادر هذا الحادث باعتباره يخص كلا من الطرفين على حدة ، دون اذن اشار الى اشتراكهما فى مواجهته . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل المقول ج 3 ص 54 ، الخزرجى : اخبار الدول المنقطعة ورقة 29 ،

Lewcki : Etudes Ibadites. P. 49.

(574) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص 254 .

فقد وصلوا في اليوم التالي (575) ، واشتركوا مع الاغالبية في قتال العباس (576) . وحين هزم العباس ، استأثر الاغالبية بالمغانم والاموال الطائلة (577) دون الاباضية الذين رفضوها « زهدا وتعففا » على حد قول المصادر الاباضية (578) .

وعمد ابراهيم بن أحمد الاغلبى الى اتباع طرق شتى في صراعه مع الرستميين الذين وقفوا موقف الدفاع . ففي سنة 269 هـ (883 م) اوغلت جيوشه في مضارب القبائل الاباضية ببلاد الجريد ، وتمكن من وضع حد لشغبهم (579) . وبث الفرقة بين اباضية نفوسة باصطناع مسائل فقهية اختلف شيوخهم حول تأويلها (580) .

ويبدو انه فعل ذلك توطئة للاطاحة بمعتل القوة في الدولة الرستمية، بغزو جبل نفوسة ، هذا هو ما حدث فعلا سنة 293 هـ (897 م) واختلفت الروايات في تفسير دوافع هذا الغزو ، فبعضها (581) تعزوه الى اعتراض نفوسة الجيش الاغلبى الزاحف نحو مصر الطولونية ، وبعضها (582) الآخر يزعم ان الامير الاغلبى كان قادما على رأس جيش من بغداد لغزو تاهرت فاعترضته نفوسة دفاعا عن عاصمة الرستميين ، بينما يذهب ابن عذارى (583) الى أن جيش ابن الاغلب كان متوجها الى طرابلس لتأديب عاملها ، فاعترضته نفوسة ومنعته من المرور ، في حين يقول الشماخى (584) باجتماع نفوسة على قتال الامير الاغلبى لانه « افسد

-
- (575) نفس المصدر : ص 255 ، النويرى : ج 26 ورقة 7 .
(576) البلوى : ص 255 ، المتريزى : الخطط ج 1 ص 320 .
(577) البلوى : ص 255 ، ابن عذارى : ج 1 ص 158 ، الشماخى : السير ص 225 .
الورجلانى : ج 3 صفحة 54 .
(578) النفوسى : ص 257 ، الورجلانى : ج 3 ص 54 ومن المعروف ان المذهب الاباضى يقر الفتنية في حالة قتال مخالفيه في المذهب . انظر : ابو غانم الصنرى : المدونة ورقة 43 . السوفى : شرح السؤالات ورقة 173 .
(579) ابن خلدون : ج 4 صفحة 203 .
(580) ذكر الشماخى ان ابراهيم بن أحمد اهدى نفوسة سيفا ، فاختلف شيوخهم حول كيفية التصرف فيه فرأى البعض رده اليه ، ورفض البعض الاخر « لانه عون له على باطلة » بينما قال فريق ثالث بكسره ودفعه ، فاعترض الآخرون على ذلك « لان عطايا الملوك جائزة » ... فوقع بذلك خلاف افضى الى شقاق بينهم « . انظر : السير : صفحة 264 .
(581) النويرى : ج 22 ورقة 37 .
(582) أبو زكريا : ورقة 33 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 281 .
(583) البيان المغرب ج 1 ص 173 ، 174 ، Vonderheyden : Op. Cit. P. 272 ،
Zaki Hasan : Les Tulunde. P. 161 .
(584) السير : صفحة 268 .

وتعدى « وعلى الرغم من اختلاف هذه الروايات ، فهي تجمع على اعتراض اباضية نفوسة الجيش الاغلبى عند مكان يقال له قصر مانو — بين قابس وطرابلس (585) — سنة 283 هـ (897 م) فقامت معركة بين الطرفين قضى فيها على غالبية النفوسيين (586) وعلى اثر الاجهاز على نفوسة ، نزل الجيش الاغلبى على اباضية قنطراة ونفزاوة فبطش بهم واسر جندهم (587) ، وسيق الاسرى الى القيروان حيث عذبوا ثم قتلوا (588). وفي العام التالى بعث الامير الاغلبى جيشا الى نفوسة ائخن فيها ، وعاد بثلاثمائة اسير قتلوا ومثل بهم « فنظمت قلوبهم فى حبال علقت على بساب تونس » (589) .

وهكذا — شغلت الامة فى تاهرت بمشاكل الصراع حول السلطة عن تقديم العون لاباضية المغرب الادنى (590) ، فتركوا وشأنهم يتلقون ضربات الاغالبية حتى وهنوا وضعفوا ، وبضعفهم تداعت الدولة الرستمية (591) ولولا ما حل بدولة الاغالبية من اضطراب سياسى فى عهدها الاخير ، وانصراف امرائها لمجابهة الخطر الشيعى ، لامكنهم غزو تاهرت نفسها ، واسقاط الاسرة الرستمية . لكن الدولتين المتعاديتين جمعتهما فى النهاية وحدة المصير ، فقد وقعتا فريسة للغزو الشيعى سنة 297 هـ (909 م) .

3 — بنو رستم والادارسة :

رغم ما ساد علاقات بنى رستم بالادارسة من عداء نتيجة خلافاتهم المذهبية والاجتماعية والسياسية فان المصادر الاباضية تلوذ بالصمت التام فلا تذكر شيئا البتة عن هذه العلاقات ، وقد فسر كثيرون من الدارسين (592) هذا الصمت على انه دليل على ما ساد هذه العلاقات من طابع الود وحسن

-
- (585) ابو زكريا : ورقة 33 .
(586) نفس المصدر : ورقة 34 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 40 .
(587) نفس المصدر والصحيحة .
(588) الوسيانى : سير ابي الربيع : ورقة 3 ، النويرى : ج 22 ورقة 37 .
(589) ابن عذارى : ج 1 ص 174 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 578.
(590) النفوسى ص 286 .
(591) الدرجينى : ج 1 ورقة 41 .
(592) انظر : محمد بن تاويت : دولة الرستمين ص 117 ، محمد على دبور : المغرب الكبير ج 2 ص 387 ، حسن عبد المواد : دولة الادارسة : ص 245 .

الجوار ، لكن كتابا آخرون ذكروا (593) حقيقة هذه العلاقات وانطوائها على الخصومة والعداء . وسبب هذا العداء ان الادارسة كانوا من الشيعة الزيدية بينما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية ، كذلك كانت دولة الادارسة دولة حضر ، بينما غلب الطابع البدوي على الدولة الرستمية . هذا فضلا عما كان بينهما من تنافر سياسى — بسبب صداقة بنى رستم لبنى مدرار والامويين فى الاندلس اعداء الادارسة — على الرغم من اشتراكهما فى معاداة الخلافة العباسية .

وجدير بالذكر ان الادارسة — مدفوعين بهذه الخصومة المذهبية والتباين الاجتماعى والعداء السياسى — عولوا على الاغارة على املاك دولة الرستميين واقتطاع بعض اجزائها ، بينما ركن الرستميون الى المسالمة لتصور فى قوتهم ، فلم يكن بوسعهم مناجزة جيرانهم الاقوياء ، واذا كانت غزوات الادارسة لم تشكل خطرا على حكومة تاهرت — حسبما اعتقد ماسكرى (594) ، فحسبهم اقتطاع اقليم تلمسان — وسكانه من مغراوة وبنى يفرن الزناتيين — من بنى رستم وضمه الى دولتهم .

ولم يكن ثمة ما يحول دون احتكاك الادارسة بجيرانهم الرستميين ، خاصة وان دولتهم ارتبطت فى قيامها وتوسعها بخوارج المغربيين الاقصى والاباضية مغالبية القبائل التى بايعت ادريس الاول كانت على مذهب الخوارج ، فزناتة ، وزواغة ولماية ولواتة وسدراتة ونفزة — وهى اباضية المذهب — رحبت بادريس الاول ودخلت فى طاعته (595) ، وان ظلت بعض بطونها على مذهبها وولائها لبنى رستم . وكان على ادريس وخلفائه ان يدخلوا فى صراع مع بنى رستم اذا ما ارادوا التوسع شرقا لضم هذه البطون واستئصال شأفة الخوارج فى منطقة تلمسان واسافل شلف ، وقد تحقق لهم ذلك بالفعل فيما يتعلق باباضية زناتة بالذات (596) .

(593) انظر : Masqueray : Op. Cit. P. L XXIV, Gautier : Op. Cit. P. 295.

(594) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.

(595) ابن ابي زرع : القرطاس " ص 16 — 18 ، ابن خلدون : ج 4 ص 12 ، الكتانى : المغرب : ورقة 13 مخطوط ، محمد على السنوسى ، الدرر السنية ص 44 ،

Gautier : Op. Cit. P. 274.

(596) تصور بعض المصادر ان الادارسة نجحوا فى اقتطاع كائنة الاجزاء الشمالية من الدولة الرستمية حتى لاصقت حدودها الشرقية دولة الاغالبية . انظر : عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس : ج 2 ص 5 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى : ص 221. 274. 221 Vonderheyden : Op. Cit. P. 274. 221 لكن الواضح ان بنى رستم احتفظوا بنفوذهم على بعض هذه الجهات حيث شكلت املاكهم حاجزا بين الاغالبية والادارسة . انظر اليعقوبى : البلدان : ص 352. 295. 352 Gautier : Op. Cit. P.

ففى سنة 173 هـ (789 م) توجه ادريس الاول على رأس جيش للاستيلاء على تلمسان واخضاع قبائل مغراوة وبنى يفرن وغيرهم من الخوارج الصفرية والاباضية (597) ، وتمكن من دخولها دون كبير جهد (598) .

ونجح فى توحيد جموع زناتة فى غربى بلاد المغرب تحت لوائه ، واستولى على مدينة ذات أهمية استراتيجية خاصة « فتلمسان قفل بلاد المغرب » (599) ذات شهرة تجارية عريضة (600) ، فضلا عن قوة بشرية كبيرة (601) سلخها عن نفوذ دولتى الخوارج .

ويبدو أن الامام عبد الوهاب الرستمى حاول استعادة نفوذه فى هذه النواحي ، لكنه لم يجرؤ على غزو تلمسان (602) . ولم يكن بوسعه سوى تاليب أصهاره من بنى يفرن ، فقاموا بالثورة على الادارسة ، وظلوا يهناى عن نفوذهم الى أن أخضعهم ادريس الثانى سنة 197 هـ (813 م) فدانوا له بالطاعة من جديد وتخلوا نهائيا عن مذهب الخوارج (603) . بل حاول زعماء مغراوة وبنى يفرن اغراء بنى رستم للدخول فى طاعة الادارسة ، فلم يستجيبوا ، وناصربوهم العداء ودخلوا معهم فى حروب فتت فى عضد بنى رستم على عكس ما يذكره مارسيه (604) من « خروج تاهرت ظافرة من هذا الصراع » فالثابت أن الامامة الرستمية لم تقم بمحاولة جدية فى هذا الصدد ، واقتصر الامر على مجرد اغارات محدودة قامت بها جماعات من نفوسة ردا على اعتداءات بنى يفرن على رعايا الدولة الرستمية (605) .

وفضلا عن اغارات بنى يفرن ومغراوة على الاطراف الشمالية للدولة الرستمية حرص الادارسة على اثاره العراقيل فى تاهرت نفسها ، ولا يخامرنا شك فى أن ادريس الثانى كان من وراء تمرد الواصلية على عبد

(597) نعلم أن عبد الرحمن بن رستم تزوج من يفرنية وأنجب منها ابنه عبد الوهاب ، انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، النفوسى : ص 100 ، Masqueray : Op. Cit. P. 57.

(598) ابن أبى زرع : ص 22 ، الكتانى : الأزهار . ص 5 ، الجزائى : زهرة الاس : صفحة 10 .

(599) سعيد بن مقديش : صفحة 18 .

(600) البكرى : صفحة 76 .

(601) اليعقوبى : البلدان ١ : صفحة 80 .

(602) ابن الصغير : صفحة 17 .

(603) ابن أبى زرع : ص 69 ، الجزائى : ص 22 : محمد على السنوسى : الدرر السنية ص 45 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة فاس . ص 4 ،

Mercier : Histoire de l'Afrique . Septentrionale . P. 89.

(604) انظر : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 .

(605) الشماخى : السير ١٧ ص 197 — 198 Lewcki : etudes Ibadites. P. 36.

الوهاب الرستمي سنة 195 هـ (606) (811 م) ، فمن المعروف أن طنجة كانت معقلا لواصلية المغرب (607) ، وأن أوربة دانت بمذهب الواصلية ، كما اقتبلت بعض بطون زناتة على اعتناقه كذلك (608) ، ومعلوم أن أوربة كانت عصب دولة الادارسة ، وأن ولاء زناتة الغرب تحول الى بنى ادريس . ويدهى الا تقطع الصلة بين الواصلية الضاربين خارج تاهرت وبين معاقلهم في دولة الادارسة ، وليس غريبا اتمام الادارسة على استغلال هذه الصلة في اثاره العراقل امام خصومهم من بنى رستم ، مصداق ذلك قول ابي زكريا (609) « فتكاثفت كلمة الواصلية ، واجتمعوا من كل تقب ، وجاءوا من كل اوب . . وظهروا مخالفة الامام » .

وأغلب الظن أن ثورات هوارة على الائمة الرستميين لم تخل كذلك من تحريض الادارسة ، فمواطنها الاصلية كانت داخل دولة الادارسة (610) حيث اتخذت من جبل ينجان معقلا وملأذا حين تعرضت لبطش عبد الوهاب ابن رستم . ومن المرجح أن تكون حركتها التي انتهت باستيلاء زعيمها محمد ابن مسالة على السلطة في تاهرت سنة 260 هـ (874 م) قد قامت بمساعدة آل ادريس وتحريض منهم .

ومن المحقق أن تلك المؤامرات التي امكن الادارسة في نسج خيوطها لم تقابل بأدنى مبادرة من قبل بنى رستم للرد عليها ، وذلك إما يشكك في تصور جوتييه (611) للعلاقات الرستمية الادريسية على أنها موجات من « الافعال وردودها » ، ولا محل لتصديقه في تعليل انشاء مدينة فاس بخوف ادريس الثاني من تأمر بنى رستم على دولته بالتواطؤ مع العناصر الحاققة على آل ادريس داخل بلادهم .

لم يكن بوسع الائمة الرستميين مجازاة الادارسة في تدبير المكائد ، واحداث الشقاق ، كما عزفوا نهائيا عن محاولة استرداد نفوذهم المفقود في الاقاليم الشمالية والساحلية ، على الرغم مما حل بدولة الادارسة من

(606) ابو زكريا : ورقة 19 ، محمد على دبور : ج 3 ص 485 ، حسن عبد المواد : دولة الادارسة : ص 246 .
(607) قدامة بن جعفر : الخراج ص 295 ، النفوسى : ص 116 .
(608) ابو زكريا : ورقة 19 .
(609) السيرة واخبار الائمة ورقة 29 .
(610) ابن خلدون : ج 4 صفحة 14 .
(611) Les siecles obscurs. P. P. 290, 291.
(612) ابن خلدون : ج 4 ص 14 ، ' Jalien : Op. Cit. P. 344.

ضعف وتفتت اثر وفاة ادريس الثانى سنة 213 هـ (828 م) (612) . فقد آلت تلمسان وما حولها الى آل سليمان (613) واضحت ولاية حاجزة بين الدولتين . وقد تعرضت ولاية تلمسان للتجزئة والتمزق السياسى ايضا ، فقسمت الى ثلاثة اقسام بين أبناء محمد بن سليمان ، اذ استقل ابنه محمد بمدينة تلمسان وعيسى بأرشقول ، اما جراوة فكانت من نصيب ادريس ثم آلت الى ابنه عيسى المكنى بأبى العيش (614) . هذه الفرقة السياسية (615) افضت الى اضعافهم جميعا الامر الذى حدا بفورنل (616) الى الاعتقاد باستعادة زناتة لنفوذها القديم فى هذه الجهات . ومع ذلك لم تسلم الدولة الرستمىة من أخطارهم ومؤامراتهم .

لقد ضعفت الدولة الرستمىة بعد أفلح ابن عبد الوهاب ، وشغل ائمتها بأحداث تاهرت وما جاورها ، فاجتروا أمراء آل سليمان على اقتطاع بعض البلاد والقلاع التابعة لبنى رستم (617) ، كمدينة الخضراء وسوق ابراهيم وغيرها (618) بعد البطش بسكانها من الاباضية (619) ، دون ان يحرك أئمة تاهرت ساكنا (620) . فضلا عن ذلك فقد أسهموا فى اثاره

(613) ينسب آل سليمان الى سليمان بن عبد الله — أخ ادريس الأكبر — الذى نجا من معركة فخ ولحق بأخيه فى المغرب الاقصى بعد تأسيس دولة الادارسة سنة 172 هـ ولما فتح ادريس تلمسان جعل سليمان واليا عليها . ويخيل الينا أنه غادر تلمسان بعد ثورة زناتة بزعامة محمد بن خزر واتجه الى نواحي تاهرت حيث لم يطلبه المقام هناك طويلا . ويبدو أن خلافا وقع بينه وبين راشد — مولى الادارسة — بعد موت ادريس الاول جعله لا ينزل وليلى على اثر ثورة ابن خزر ويتجه الى نواحي تاهرت . لكنه ما لبث ان لحق بادريس الثانى حيث شب عن الطوق ، وصحبه فى حملته على تلمسان لاستردادها وقد مات اiban اقامة ادريس الثانى فى تلمسان ، وخلفه ابنه محمد فى ولايتها من قبل ادريس الثانى . انظر : البكرى : ص 77 ، ابن خلدون : ج 4 ص 17 ، سلفاتور كوسا : ص 14 . مبارك الميلى : تاريخ الجزائر ج 2 ص 49 ، Lavoix : Catalogue des Monnaies .. P. 398.

(614) ابن خلدون : ج 4 ص 17 .
(615) من مظاهر استقلال هذه الامارات حرص امرائها على سك عملة خاصة بهم خالية من أى اشارة الى تبعيةهم للادارسة . وهك صورة لدينار — ضرب فى سوق ابراهيم فى عهد أحمد بن عيسى : الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له . الكتابة الدائرية : لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . الوجه الاخر : محمد رسول الله — أحمد بن عيسى . انظر : Lavoix : Op. Cit. P. 397.
(616) Les Barberes. Vol. 2. P. 13.

(617) المقدسى : صفحة 218 .
(618) اليعقوبى : البلدان : ص 352 ، 353 .
(619) النفوسى : صفحة 70 .
(620) يرى الاستاذ محمد على دبور أن بنى رستم تنازلوا من هذه البلاد طائعين مختارين لآل سليمان العلويين . وهو رأى يجانب الصواب بالقياس الى ما كان بين الطرفين من خصومة سياسية وعداء مذهبي . انظر : المغرب الكبير : ج 3 ص 336 .

الفتن والثورات التي أضعفت الحكم الرستمي في سنيه الأخيرة ، فبكر بن حماد — أخ محمد بن حماد زعيم الثوار على أبي حاتم يوسف — كان على صلة مربية بأبي العيش عيسى بن ادريس العلوي حاكم جراوة (621) ، وبأحمد بن القاسم بن ادريس حاكم مدينة كرت (622) . ولما أخفقت الثورة ، واستعاد أبو حاتم الإمامة هرب كثيرون من الثوار لائذين بآل سليمان والادارسة (623) .

هكذا — اتسمت علاقات بنى رستم السياسية مع الادارسة بطابع العداء ، وأسفر الصراع بين الدولتين عن تغلب الادارسة واستكانة بنى رستم .

ب — العلاقات الودية :

1) بنو رستم وأباضية الشرق :

سبق القول بأن أباضية الشرق عمدوا الى أساليب الدعوة السرية والتنظيم السياسي على اثر فشل حركة عبد الله بن أباض التميمي في عهد مروان ابن محمد الأموي ، فطفتوا يرسلون من مركزهم في البصرة دعائهم الى الامصار المتطرفة كخراسان وجنوبى الجزيرة العربية والمغرب لنشر المذهب الاباضى واقامة دولة أباضية خالصة ، وأسفرت هذه الجهود عن فشل الدعوة في خراسان ، ونجاحها في الجزيرة العربية والمغرب .

ففى جنوبى الجزيرة العربية ، قامت دولة أباضية ضمت عمان واليمن وبعض اقاليم الحجاز برئاسة أبى عبد الله بن يحيى الكندى ، المعروف بطالب الحق ، والتي سقطت سنة 130 هـ (748 م) غير أن فلول الاباضية تمركزوا فى حضر موت بزعمامة الجلندى الذى قتل سنة 134 هـ على يد الجيوش العباسية (624) . ولم يحل ذلك دون قيام دويلات للاباضية فى عمان . كان

(621) ساق بكر بن حماد أبياتا من الشعر امتدح بها أبا العيش تدلل على هذه الصلة ، منها :

سائل زواغسة من طعان سيونه ورماحه نى المعارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تبرغ فى الوشيع الذيل

انظر : النفوسى : صفحة 70 .

(622) النفوسى : صفحة 74 .

(623) نفس المصدر : صفحة 77 .

(624) ابن الاثير : ج 5 ص 145 ، 169 ، أحمد أمين : ضحى الاسلام : ج 3 ص 338 .
ولا صحة للرواية القائلة بمعامرة الجلندى لإمامة عبد الرحمن بن رستم . انظر :
أطيش : الامكان . صفحة 107 .

آخرها امامة الصلت بن مالك التي دالت سنة 280 هـ (625) . (896 م) . وكانت هذه الحكومات الاباضية في عمان على نسق الدولة الرستمية في المغرب ومعاصرة لها . وكانت وثيقة الصلة بجماعة الاباضية الام في البصرة . فضلا عن مشايخ المذهب بمكة والمدينة (626) ولم يكن هناك ثمة ما يحول دون التقاء اباضية عمان واباضية المغرب — واغلبهم من نفوسة (627) — في مواسم الحج (628) وان كنا نشك في وجود صلات وثيقة بينهما ، فالمصادر خلو من ذلك تماما في الوقت الذي تزخر فيه بالكثير عن صلات اباضية البصرة بعمان وتاهرت وحرصهم على دعم الحكم الاباضى فيها (629) .

لقد ظل التنظيم السياسى السرى لاباضية البصرة قائما يتداول رئاسته فقهاء المذهب جيلا بعد جيل رغم عنف الضربات التي كالتها بنو العباس للخوارج في المشرق . واستمرت صلاتهم باباضية المغرب اiban مرحلة الثورة وبعدها ، لما جنحوا الى الاستقرار السياسى واقاموا دولة بنى رستم .

وفي كلتي المرحلتين دابوا على دعم اباضية المغرب ماديا وروحيا ، فأرسلوا اليهم الاموال ، وأفتوهم في مشاكلهم السياسية والمذهبية ، وتدخلوا لتسوية خلافاتهم بإبداء النصائح وارسال البعوث . كما حرص زعماء اباضية المغرب على الاستنارة بخبرة شيوخهم المشاركة في السياسة والحكم والاستزادة من تبحرهم في العلم وتفقههم في المذهب ، فدأبوا على انفاذ بعوثهم للدراسة على مشايخ البصرة ، وحكموهم فيما عن لهم من مشاكل وخلافات ، واستمدوا منهم الكتب والتآليف وخاصة ما تعلق منها بالمذهب الاباضى .

وقد سبقت الاشارة الى دور ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة في التنظيم والاعداد لامامة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمع ، ومتابعته احوالها ، وحرصه على تجنيب اباضية المغرب الخلاف والشقاق الذى

(625) المسعودى : مروج الذهب : ج 4 ص 245 .

Masqueray : Op. Cit. P. XIV

(626) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 3 ،

(627) الوسيانى : نفس المصدر والصحيفة .

(628) يذكر مارسيه أنه من طريق هؤلاء الحجاج انتقلت بعض الانماط الفنية من بلاد المغرب الى مصر ، وخاصة تلك التقاليد الفنية المتعلقة بكتائس المغرب ، فقد وجدت طريقها الى الاديرة المصرية بعد تلونها بلون قبطى خاص . انظر :
La Berberie Musulmane. P. 116.

(629) الشباصى : صفحة 114 .

سببته مسألة الحارث وعبد الجبار .

وبديهى أن تتوطد هذه الصلات بقيام دولة بنى رستم ، وحسبنا أن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم تتلمذ في حلقة أبى عبيدة بالبصرة ، ونجاحه في تأسيس دولة إباضية بالمغرب اعتبر نصرا لاباضية المشرق أيضا ، فقد نظروا اليه باعتباره « امام الظهور » (630) لسائر اتباع المذهب في كافة أرجاء العالم الاسلامى .

ويبدو أن جماعة هائلة من إباضية الشرق هرعوا الى تاهرت بعد انشائها هروبا من بطش بنى العباس ورغبة في العيش في كنف الدولة الرستمية (631) فقد تطلع إباضية الشرق الى قيام دولة لهم تضم المشرق والمغرب معا (632) ، فانبروا يعضدون الدولة الرستمية ، وبادروا بانفاذ المساعدات المالية ليستعين بها عبد الرحمن بن رستم على مواجهة مشاكل دولته آملين أن تكون نواة للدولة الكبرى المنشودة . وليس أدل على تعاطف ابن رستم مع إباضية الشرق من رفضه لزيد من هذه الاموال حين تدعمت دولته واشتد ساعدها (633) .

كذلك جزعت جماعة المذهب في الشرق لما ظهرت الاضطرابات والانشقاقات في الدولة الرستمية في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن وخاصة ما مس الجانب المذهبي منها ، كانشقاقات النكار والخلفية وما انتهت اليه من افتراق الإباضية في المغرب . وجدير بالتنويه أن المتخاصمين كانوا يحتكمون في خلافاتهم الى مشايخ المذهب في الشرق ، فقد هادن يزيد ابن فنديل — زعيم النكار — الامام عبد الوهاب ريثما ترد فتوى المشاركة حول الامامة المشروطة ، وسياسة الامام في تنصيب عماله (634) .

كما احتكم الامام عبد الوهاب وخلف بن السمع أيضا الى فقهاء المشاركة في مسألتى تعدد الائمة وحق الرعية في اختيار عمالها (635) . ولم يتوان اعلام المذهب وفقهائه عن البت في تلك المسائل أو القضايا . وعلى الرغم مما تصوره المصادر الإباضية من أن فتاوى المشاركة كانت في صالح الامامة ، فلا نعدم وجود ما يشير الى استيائهم من سياسة عبد

(630) أبو زكريا : السيرة : ورقة 18 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .

(631) انظر ابن ثاويت دولة الرستمين : ص 109 .

(632) ابن الصغير : صفحة 10 .

(633) نفس المصدر : ص 14 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 21 .

(634) أبو زكريا : ورقة 15 ، الشماخي : السير : ص 146 .

(635) الشماخي : السير : صفحة 181 .

الوهاب وانتهاكه تعاليم المذهب وخروجه على أحكامه (636) . وعلى أية حال ، فإن حرصهم على تحاشي الشقاق ورأب الخلاف أفضى بهم الى تهدئة الخواطر بإسداء النصح لاطراف النزاع جميعا (637) .

كان حرص رؤساء التنظيم الام في البصرة على استمرار الامامة في تاهرت ودعمها شغلهم الشاغل ، فقد افتوا بجواز تقاعد الامام عن الحج حرصا على سلامته (638) ، كما كلفوا أنفسهم مشقة نسخ آلاف التأليف والتصانيف لتزويد المكتبة « المعصومة » بتاهرت بها (639) . ولا غرو فقد وجدت هذه الكتب اقبالا لدى اباضية المغرب ، فأقبلوا على دراستها وتصدوا للانحرافات المذهبية وخروج الائمة في سياساتهم عن تعاليم المذهب (640) على هدى ما ورد فيها .

كما حرص المشاركة على انفاذ بعوئهم لتفقد احوال الدولة الرستمية (641) والتدريس في مساجدها (642) والافتاء في مشاكلها وقضاياها (643) . فضلا عن ذلك فقد نقلوا معهم الى المغرب تقاليد الحضارة والفن الشرقي (644) .

ومن المعروف أن المتاجر والسلع الشرقية كانت ترد الى تاهرت عن طريق الاباضية المشاركة ، فيخبرنا الشماخي (645) أن الربيع بن حبيب — خليفة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة — كان يبعث أخاه بصحبة ما يحتاجه الامام عبد الوهاب من صنوف البضائع والسلع الشرقية .

والصادر خلو من أية اشارة الى استمرار هذه العلاقات بعد امامة عبد الوهاب باستثناء اشارة عابرة اوردها بعض مؤرخي الاباضية (646) عن اهتمام أفلح بن عبد الوهاب بتواليف اعلام المذهب من المشاركة —

-
- (636) الشماخي : السير ص 147 .
(637) انظر : ملحق رقم (4) .
(638) أبو زكريا : ورقة 23 .
(639) البرادي : رسالة في بعض كتب الاباضية . ورقة 207 ، الشماخي : السير . ص 162 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 26 .
(640) الوسياني : سير أبي الربيع ورقة 79 .
(641) الشماخي : السير . صفحة 165 .
(642) نفس المصدر : صفحة 279 .
(643) نفس المصدر : ص 228 ، الوسياني : ورقة 2 .
(644) Marçais, G : La Berberie musulmane. P. 116.
(645) السير . صفحة 161 .
(646) انظر : الوسياني : ورقة 70 ، البرادي : رسالة في بعض كتب الاباضية ورقة 206 .

وخاصة ما كتبه أبو سفيان محبوب بن الرحيل — وحضه رعيته على اتباع سننهم . ولو صح ذلك ، لكان أفلح آخر أئمة بنى رستم الذين اعترف جمهور الإباضية بإمامتهم كما يذهب الورجلاني (647) . ونعتقد أن استياء أعلام المذهب في الشرق من خروج عبد الوهاب على تعاليم المذهب تطور إلى رفض وإنكار لإمامة خلفائه ، فقد تحولت الإمامة إلى ملك وراثي ، وضاعت هيبتها ، وامتهنت رسومها ، فكان ذلك قمينا بعزوف إباضية الشرق عن مناصرة الدولة الرستمية والاتصال بحكامها .

2 — بنو رستم وأمويو الأندلس :

اتخذت علاقات بنى رستم بأموي الأندلس طابعا وديا برغم اختلافهما مذهبيا ، فقد أوجبت الضرورة السياسية عقد أواصر الصداقة بين تاهرت وقرطبة ، إذ اشترك الطرفان في عداء بنى العباس والأغالبة والادارسة (648) ، وكان الأغلبية على وجه الخصوص خطرا عليهما معا ، فلم يكن ثمة بد من اتصال بنى رستم بإحدى القوى الكبرى المعاصرة ، كما كان أمويو الأندلس ينشدون عقد صلات مع القوى المناوئة لبنى الأغلب في المغرب ومن ثم التقى الطرفان حول مصالحهما السياسية المشتركة رغم خلافاتهما المذهبية والتاريخية .

وقد بالغ فورنل (649) وماسكراي في تقدير مدى ما وصلت إليه هذه العلاقات ، فمثلا بوجود « تحالف سياسي رسمي » بين تاهرت وقرطبة ضد عدوهما المشترك ، وبرر فورنل ومارسيه (650) ذلك بما « كان من تحالف تقليدي » بين أموي الأندلس وبين بربر زناتة الذين كانوا عصب الدولة الرستمية » والثابت أن دولة بنى رستم قامت على اكتاف قبائل نفوسة وهوارة ولواتة ولماية وغيرها (651) ، بينما تحولت قبائل زناتة من مغراوة وبنى يفرن — الضاربة في شمالي الدولة الرستمية — عن ولائها لبنى رستم ودانت بالطاعة للادارسة (652) . ومن ناحية أخرى لم تتعد علاقات بنى رستم ببنى أمية بالأندلس علاقات الود وتبادل السفارات

(647) الدليل لاهل العقول ج 2 ص 76 .
(648) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج 1 ص 32 ، Provençal : Op. Cit. P. 245
(649) انظر : Les berberes Vol. I. P. 514, Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.
(650) انظر : Loc. Cit, La berberie musulmane et l'Orient P. 104.
(651) النوسى : صفحة 4 .
(652) ابن أبي زرع : ص 69 ، سلفاتوريكوسا : تواريخ مدينة ناس : ص 4 .

والهدايا ، ولم تصل قط الى درجة التحالف أو القيام بعمل سياسي أو عسكري مشترك ضد أعدائهما ، رغم تعرض الدولة الرستمية لاغارات الاغالبية والادارسة ، وتهديد الاغالبية للنفوذ الاندلسي في حوض البحر المتوسط الغربى .

وقد ارجع بعض (653) المؤرخين بداية هذه العلاقات الى وقت مبكر وذكروا ان عبد الرحمن بن معاوية الاموى « لاذ ببلاط بنى رستم حينما من الدهر قبل اجتيازه الى الاندلس » ، واكد مرسييه (654) — اعتمادا على المقرئ — انه قضى زمنا في تاهرت ونواحيها قبل رحيله الى الاندلس . وقول مرسييه هذا صحيح اذا كان يعنى تاهرت القديمة ، وليست تاهرت التى اقامها ابن رستم سنة 161 هـ (778 م) فمن الثابت انه نزل عند قبيلة نفزة الضاربة بتلك النواحي وقضى هناك زمنا عند أخواله (655) ، ثم جاز الى الاندلس سنة 138 هـ (755 م) (656) . وقد حاول الميلى (657) تبرير قول دوزى ومؤنس ، فذكر ان عبد الرحمن بن رستم اجاز عبد الرحمن الاموى الى قبائل المغرب الاوسط اعتمادا على نفوذه هناك قبل تأسيسه تاهرت . لكن رواية دوزى ومؤنس وتفسير الميلى غير صحيحة ، فعبد الرحمن بن رستم فضلا عن عدم تأسيسه دولته فى الوقت الذى وطأ فيه عبد الرحمن الاموى ارض المغرب سنة 133 هـ (751 م) ، لم يكن له نفوذ فى بلاد المغرب الاوسط آنذاك ، فصلاته بقبيلة لماية بالمغرب الاوسط لم تقم الا بعد ولايته القيروان كنائب لابي الخطاب المعافى سنة 141 هـ (658) (758 م) ويخيل الينا ان الامر التبس على دوزى ومن نقل عنه ، فخلطوا بين شخصيتى عبد الرحمن بن رستم وعبد الرحمن بن حبيب امير افريقية فى ذلك الحين (659) .

والمعقول ان تكون تلك الصلات قد بدأت بعد رحيل عبد الرحمن بن

(653) انظر Dozy : Spanish Islam. P. 166 مؤنس : فجر الاندلس : ص 664 .

(654) انظر : Histoire de l'établissement des Arabes ... P. 76 .

(655) كانت أم عبد الرحمن من سببا نفزة ، انظر : ابن عذارى : ج 2 ص 62 . ابن الأبار : الحلة السراء : ج 1 ص 35 . وقد ذكر ابن الخطيب انه نزل على مغيلة وليس على نفزة . انظر : أعمال الاعلام : ج 2 ص 8 .

(656) ابن الأبار : صفحة 35 .

(657) انظر : تاريخ الجزائر . ج 2 ص 16 .

(658) ابن خلدون : ج 6 ص 121 . مارسية : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الإسلامية . صفحة 92 .

(659) ابن عذارى : ج 2 صفحة 60 .

رستم الى المغرب الاوسط واختطاطه مدينة تاهرت ، فيبدو أن ابن رستم استعان بخبرة الاندلسيين في انشاء المدينة وتعميرها ، ولا غرو فقد سمى احد أبواب المدينة « باب الاندلس » (660) ، وان كان بروغنسال (661) قد تشكك في وجود مثل تلك الصلات المبكرة . لكن وجود مغاربة أباضية في بلاد الاندلس اذ ذاك يرجح ما ذهبنا اليه ، فقد غص اقليم الجزيرة بالكثيرين منهم ، ومنهم من تقلد بعض الوظائف العامة في امارتى عبد الرحمن الاول وابنه هشام (662) . ويبدو أن نفوذ هؤلاء الاباضية — ومنهم بعض افراد البيت الرستمى — (663) قد ازداد بدرجة استتارت الاندلسيين في عهد الحكم الاول ، فانبرى الشعراء يهيبون به البطش بهم (664) ، فخرج اليهم بنفسه ونزل الجزيرة « وحمل السيف على أكثر أهلها » (665).

وهذا يفسر قول ابن حيان (666) بترحيب عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم بالثائرين على الحكم الاموى ، وتشجيعه عبد الله البلاسى — عم الحكم — للوثوب على الامارة في قرطبة وانتزاع الحكم من ابن أخيه .

وزالت تلك الجفوة بين تاهرت وقرطبة بعد وفاة الحكم سنة 206 هـ (821 م) ، وعادت الصلات الودية الى سابق عهدها في عهد عبد الرحمن ابن الحكم (306 — 238 هـ) (667) (821 — 853 م) ، فقد نقل بروغنسال (668) عن ابن حيان أن عبد الوهاب الرستمى ، أولد سفارة من ابنائه الثلاثة — عبد الغنى ودحيون وبهرام — لتجديد أواصر الود مع عبد الرحمن ، وأن الاخير رحب بهم وابتهج لمقدمهم . وذكر ابن سعيد (669) أنه أنفق عليهم « ألف ألف دينار » فضلا عن الهدايا والالطاف التى أنعم بها عليهم قبل رحيلهم الى بلادهم .

واستمرت صلات المودة بعد موت عبد الوهاب بن رستم ، فعمل

-
- (660) البكرى : ص 66 ، القلقشندي : ج 5 ص 111 .
(661) انظر : Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 241.
(662) ابن القوطية : صفحة 71 .
(663) من هؤلاء محمد بن سعيد بن رستم الذى تقلد ولاية شذونه ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن رستم ، وقد خدم في جند الحكم بن هشام .
(664) حث الشاعر عباس بن ناصح الحكم على ذلك بقوله :
صل بالافيل الذى ربوا لفتنتهم من قبل أن يرحلوه نحونا جذعا
(665) ابن القوطية : صفحة 71 ، 72 .
(666) انظر : Provençal : Op. Cit. P.P. 152, 244.
(667) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(668) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P. 245.
(669) المغرب فى حلى المغرب : ج 1 ص 48 .

عبد الرحمن بن الحكم على « وصل البعوث الى دار المغرب » (670) .
فوجدت في بلاط أفلح بن عبد الوهاب أيما ترحاب . وقرب الأمير الاندلسي
اليه كثيرين من آل البيت الرستمى ، واتخذ منهم الوزراء والحجاب والقواد ،
وتعرف أن شخصا يدعى عبد الرحمن بن رستم ولى الحجابة لعبد الرحمن
الثانى (671) ، وقيل الوزارة (672) في رواية أخرى .

ويخبرنا ابن الدلائى (673) أن الأمير الاندلسي فوض قائده محمد
ابن سعيد بن رستم سنة 229 هـ (844 م) في قتال المجوس ، وقد تمكن
بالفعل من النجاح في مهمته (674) .

وتوطدت عرى الصداقة بين أفلح بن عبد الوهاب ومحمد بن عبد
الرحمن الاندلسي (238 — 273 هـ) (675) (853 — 887 م) ، فقد
استقرت أمور الاندلس في عهده وازدهرت أحوالها (676) ، وتطلع نحو
بلاد المغرب لتدعيم صلاته مع تاهرت وسجلماصة (677) . وقد زعم
بروفنسال (678) أن الأمير محمد بعث بهداياه الى تاهرت لما تقلد أفلح
ابن عبد الوهاب الإمارة . كما بعث اليه بأخبار انتصاره على المجوس
عند نهر الوادى الكبير سنة 230 هـ (855 م) لكن أفلح تولى الإمارة في
تاهرت سنة 207 هـ (822 م) ولم يتقلد الأمير محمد حكم الاندلس قبل
سنة 238 هـ (853 م) . وهذا أيضا مما يخطئ قوله عن هزيمة المجوس
على يديه ، فالراجح أن ذلك لم يحدث الا سنة 246 هـ (679) (861 م) .
ولو صح أن الأمير الاندلسي أرسل الى صديقه الرستمى بأنباء انتصاراته
سنة 246 هـ ، فإن أفلح كان سباقا في هذا الصدد ، إذ بادر بإرسال خبر
أحراقه مدينة العباسية التى بناها الاغالبة سنة 239 هـ (854 م) الى

-
- (670) ابن سعيد : نفس المصدر : صفحة 46 .
(671) نفس المصدر : صفحة 50 ، P. 104 : La Berberie musulmane. Marçais, G.
(672) مارسبييه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ،
Farouhy : Op. Cit. P. 15.
(673) نصوص من الاندلس ص 99 ، 100 .
(674) نفس المصدر والصحيفة ،
Provençal : Op. Cit. P. 246.
(675) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(676) نفس المصدر : ص 495 ، القرى : فتح الطيب ج 1 ص 329 .
(677) ابن عذارى : ج 2 ص 161 ، محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الاندلس
ج 3 صفحة 23 .
(678) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P.P. 245, 281.
(679) انظر : Condé : Op. Cit. P. 299 .

الامير محمد « تقربا اليه » فبعث اليه الاموى مائة ألف درهم (680) دليلا على اغتباطه وامتنانه ، وتأكيذا لاواصر الصداقة في مواجهة الخطر المشترك (681) .

وظلت هذه العلاقات الودية قائمة بعد موت افلح على الرغم مما تعرضت له الدولتين من خطر الفوضى والتمزق السياسى ، ومع ذلك فلا محل لتصديق قول ابن عذارى (682) — ومن نقل عنه (683) — عن دخول الامام الرستمى أبى اليقظان محمد فى طاعة الامير محمد الاندلسى . والمعقول ان يكون الامام الرستمى قد ناشد صديقه أمير قرطبة العون ضد خصومه ليس الا وعلى أية حال ، لم يظفر أبو اليقظان بطائل ، اذ غرقت الامارة الاندلسية فى ذلك الحين وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر فى مشاكلها الداخلية (684) . على ان تقاعس الامير محمد عن مساعدة صديقه لم يكدر صفو علاقاتها ، فظلت صلات الود مرعية بين الطرفين ، وليس أدل على ذلك من اسراع عمر بن حفصون — الناصر على أمراء قرطبة — بمغادرة تاهرت خشية ان يقبض عليه أمامها ويسلمه لصديقه أمير قرطبة ، وكان ابن حفصون قد نزل تاهرت لانذا بصديق له من بلدة رية ومقيم بتاهرت (685) .

بل نعتقد انه برغم تدهور أحوال الامامة الرستمى بعد أبى اليقظان محمد ، وانشغال الامارة الاموية بالاندلس بمواجهة الثورات التى تفاشت خلال عهدى المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد ، فقد أوجبت الضرورة السياسية مزيدا من توثيق الصلات بين تاهرت وقرطبة . اذ استبدل الخطر الاغلبى بخطر جديد لاحت نذره مهددا كافة القوى السياسية فى المغرب والاندلس على السواء ، وهو الخطر الفاطمى . وهذا ما حدا بأمراء قرطبة الى بث عيونهم فى بلاد المغرب والاستعانة بأصدقائهم حكام تاهرت فى تقصى أخبار الشيعة ومتابعة نشاطهم والاعداد لمواجهةهم (686) .

(680) البلاذرى : فتوح البلدان ص 277 .
(681) لا نوافق نورل قوله بأن هذا الحادث يكشف عن الخيوط الاولى للعلاقات بين تاهرت وقرطبة . انظر :
Les Berbers. Vol. I. P. 514.

(682) البيان المغرب . ج 2 صفحة 161 .
(683) انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 2 ص 22 ،
Dozy : Op. Cit. P. 317 Provencal : Op. Cit. P. 281.

(684) انظر المقرئ : ج 1 ص 345 وما بعدها .
(685) ابن القوطية : صفحة 110 .

وبديهي ان يفكر الرستميون الاواخر في الاستعانة بقرطبة للقيام بعمل مشترك ضد الخطر الشيعي (687) . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد سقطت الدولة الرستمية بتاهرت سنة 297 هـ (909 م) ، وبعدها سقط بنو مدرار والادارسة ، وفتح المغرب برمته على يد الشيعة الفاطميين ، ولم يتم حكام قرطبة بجهود لجابتههم الا في عهدي عبد الرحمن الناصر (678) والحكم المستنصر ، ولا يخفى ما كان من اتصال الحكم المستنصر بالاباضية النكار الذين تصدوا لمقاومة الفاطميين بعد سقوط الدولة الرستمية (689) . وهكذا — تأثرت علاقات بني رستم — الى حد كبير — بظروف دولتهم الجغرافية ومذهبهم الديني ومصالحهم السياسية والاقتصادية .

(686) ابن عذارى : ج 1 صفحة 150 . محمود مكي : التشيع في الاندلس : ص 111 .

(687) Brunschvig : Op. Cit. P. 17.

(688) ابن خلدون : ج 4 صفحة 41 .

(689) ابن حيان : المقتبس في ذكر بلد الاندلس ص 192 .

الباب الرابع

القوارج والفاطميون في بلاد المغرب

اولا :

الصفحة والفاطميون

أ - الفاطميون وسقوط دولة بني مدرار

ارتبطت نهاية دولتي الخوارج في المغرب بظهور الدعوة الفاطمية ،
تقيام الدولة الفاطمية سنة 297 هـ (909 م) ثم على انقراض الدول
المستقلة في المغرب ، ومن بينها دولتي بني مدرار وبني رستم الخارجيتين .

ومن المعروف ان بلاد المغرب كانت ميدانا للدعوة الفاطمية منذ وقت
مبكر ، فقد عهد محمد الحبيب المقيم بسلمية - من ارض حمص - الى
اثنين من دعائه ببث دعوته في بلاد كتامة ، ونجحا في التمهيد لما قام به
أبو عبد الله الشيعي داعية عبيد الله المهدي فيما بعد (1) . واستطاع
أبو عبد الله الشيعي الذي نزل بلاد المغرب سنة 280 هـ (893 م) ان
ينشر دعوته بين قبائل كتامة ، كما نجح في اعداد جيش (2) منهم تمكن بفضل
من مناجزة دولة بني الاغلب في افريقية سنة 289 هـ (902 م) ، ولم يمض
طويل وقت حتى دانت لنفوذه معظم اقاليمها الغربية .

وبعث أبو عبد الله في استدعاء موله عبيد الله المهدي سنة 292 هـ
(905 م) فخرج اليه « يتصدى للسلطان ويخاطر في طلب الملك » (3)
برفقة خاصته وثقة رجاله (4) . وافلت من عمال بني العباس وعيونهم في

(1) ابن الاثير : ج 6 ص 127 .

(2) ابن مغازي : ج 1 ص 172 .

(3) ابن الأبار : الحلة السيرة ج 1 ص 191 .

(4) اصطحاب المهدي في رحلته ابنه أبا القاسم وفيروز دامى دعائه ، وطيب ، وأبا العباس
محمد بن زكريا وأبا يعقوب القهرمانى ، ومحمد بن عزيزة ، وجمهر الحاجب .
انظر : اليماني : سيرة جمهر الحاجب ص 110 .

مصر والمغرب لما بذله من أموال وهبات (5) ، فضلا عن تشييع بعض هؤلاء العمال لآل البيت (6) . ووصل المهدي الى طرابلس ، وانفذ أبا العباس محمد بن زكريا — أخ أبي عبد الله الشيعي — بصحبة بعض رجال كتامة الى أخيه ليعرفه بوصوله ، واثّر الانتصار بطرابلس . لكن أبا العباس وقع في أسر بني الأغلب (7) ، فاضطر المهدي لمغادرة طرابلس الى قسطنطينية — ببلاد الجريد — وأحجم عن التوجه الى الشيعي بكتامة خوفا على حياة أخيه (8) . ولما علم بأن زيادة الله الأغلب أرسل كتابا الى عامل قسطنطينية في طلبه ، غادرها على التو ، ويمم وجهه شطر سجلماسة في اقاصي الصحراء ليأمن شر الأغلبية وعمالهم (9) .

وكان على المهدي ان يجتاز اراضي الدولة الرستمية كيما يصل الى سجلماسة ، فمر بوارجلان — شمالي سدراته — وهناك اكتشف أمره ، ولقى عنقا من أهلها (10) ، فغادرها الى سجلماسة (11) .

ونزل المهدي بسجلماسة على أميرها اليسع بن مدرار ، ونعم هناك بحياة آمنة لما قدمه اليه من أموال وهدايا ، « فقربه اليسع وكف عنه » (12) ، كما حظى باحترام أهل المدينة واجلالهم (13) ، وعاش طليقا منعبا فسكن التصور واقتنى الخدم والاتباع (14) ، ويخيل إلينا أن التشييع وجد طريقه الى سجلماسة قبل مقدم المهدي ، ومن المؤكد أنه لم يعدم أنصارا وأتباعا بين سكانها ، فذلك ما توحى به بعض الروايات الشيعية (15) ، وغير الشيعية (16) ولا غرو فقد كانوا يلجأون اليه للافتاء

-
- (5) انظر : افتتاح الدعوة ص 42 ، 43 بلاحق كتاب Ivanov : Ismaili tradition.
(6) انظر : شرح الاخبار ج 5 ص 31 بنفس المصدر السابق .
(7) اليماني : سيرة جعفر ص 116 .
(8) افتتاح الدعوة ص 43 .
(9) النيسابوري : استتار الإمام ورقة 14 ، اليماني : ص 116 ، افتتاح الدعوة ص 43 ، ابن الأبار : ج 1 ص 191 ، المقرئ : تماظ الحنفا ص 84 ، الميني : عقد الجمان ج 15 ورقة 153 ، Biquet ; Op. Cit. P. 69.
(10) أبو زكريا : ورقة 35 .
(11) اليماني : ص 119 .
(12) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الأثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون ج 3 ص 363 المقرئ : تماظ ص 84 ، الخطط ج 1 ص 350 .
(13) افتتاح الدعوة ص 43 ، النويري : ج 26 ورقة 32 ، حسن إبراهيم : عبيد الله المهدي ص 14 ، De Goeje : Memoires sur les carmathes de Bahrin. P. 66.
(14) اليماني : ص 122 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42

فيما عن لهم من 'مسائل فقهية ودينية (17) ، الا ان ابا زكريا (18) ، بالغ في اظهار مكانة المهدي في سجلهامة الى حد الزعم بتوليهِ الوزارة لليسع بن مدرار ، ومبايعة اهل سجلهامة له بالامارة بعد موت اليسع ، وامتداد نفوذه حتى مدينة فاس عاصمة الادارسة والظاهر ان هذه الرواية تخلط بين مكانة المهدي ابان سنى اقامته الاولى في المدينة وبين نفوذه غداة توليه الخلافة سنة 297 هـ (909 م) ومع ذلك فلا تخلو هذه الرواية من دلالة على ما تمتع به المهدي في سجلهامة من هبة ونفوذ خلال السنوات الثلاث الاولى من اقامته بها .

ولكن جد من الاحداث ما جعل اليسع بن مدرار ينكب المهدي ورجاله ويودعهم السجون . والمصادر تختلف في اسباب ذلك ، فيذهب البعض (19) ، الى ان اليسع قبض على المهدي على اثر رسالة من الامير الاغلبى زيادة الله الثالث ، وقيل من الخليفة العباسى المعتضد (20) ، او المكتنى (21) ، بينما رجح آخرون (22) ، ان الرسالة وصلته من الخليفة العباسى والامير الاغلبى معا . ومهما كان الامر فهذه الرسائل لا تنهض دليلا على ولاء اليسع بن مدرار لأمير افريقية او لخليفة بغداد كما ذهب (23) البعض ، وانه بسبب هذا الولاء قبض على المهدي واودعه السجن ، فثمة احتمال بان يكون ليهود سجلهامة دور في هذا الصدد ، والظاهر انهم اوعزوا الى

(15) ذكر اليماني قصة مؤداها ان القائم بن المهدي وضع رجله في عين ماء آسنة لجرى الماء فيها مدرارا . فلما رآه البستاني صاح « انى بالله وبالمهدي » فاستنصر منه المهدي عن قوله ، فاخبره بانه عرف الامر من اجداده ، فامر به المهدي بالكتبان . انظر : سيرة جعفر ص 120 .

(16) اورد الدرجيني قصة اخرى مضبوته ان احد جيران المهدي بسجلهامة قم عليه حلما وطلب منه تفسيره ، فلما نسرده قبل الرجل يده قائلا « يا امير المؤمنين انت مولاي » : انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 42 .

(17) ابو زكريا : ورقة 36 .

(18) نفس المصدر والصحيفة .

(19) انظر : افتتاح الدعوة ص 44 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابو الفدا ج 2 ص 65 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 ، المقرئى : اعناظ الحنفا ص 84 ، المعنى : ج 15 ورقة 153 ، ابن ابى دينار ص 49 ، De goeje : P. 66 .

(20) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، المقدمة ج 1 ص 240 ، التفتشندى : ج 5 ص 266 .

(21) ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، الباجى المسعودى : الخلاصة النتية ص 37 .

(22) شرح الاخبار ج 5 ص 31 .

(23) انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، المقدمة ج 1 ص 240 ، التفتشندى : ج 5 ص 266 ، Bel : Op. Cit. P. 156 .

اليسع بالتبض عليه (24) ، بعد أن أخبروه أن أبا عبد الله الشيعي قام بدعوته من أجله ، فقد عاشت اقلية يهودية في دولة بنى مدرار وهيمنت على مناجم الفضة في درعة وتجارة الذهب مع الجنوب (25) . ومن الطبيعي أن يجدوا في الخطر الشيعي تهديدا لمصالحهم ، ولهذا تعرضوا للعسف والاضطهاد على اثر سقوط سجلماسة في يد الشيعة (26) ، وسواء أكانت الخلافة وعمالها أو يهود سجلماسة هم الذين نبهوا اليسع الى ضرورة القبض على المهدي ، فالذي لاشك فيه أن الامير المدراري استجاب للامر حرصا على سلامة دولته ليس الا ، بعد أن أدرك أن أبا عبد الله الشيعي يدعو اليه . فكان قبض اليسع على المهدي اذن من قبيل التوافق غير المتصود بين أهداف العباسيين والاغلبية وبين مصالح بنى مدرار التي تهددها خطر الشيعة الاسماعيلية .

لقد كان اليسع يدرك أن المهدي علوى (27) ، لكنه لم يتف على حقيقة علاقته بالدعوة الشيعية في المغرب (28) . فلما نبه اليها : استدعى المهدي وابنه « واستراب بهما » (29) ، وسأل المهدي عن « نسبه وحاله ، وهل اليه قصد أبوعبد الله ؟ » ، فاعترف المهدي بالنسب اذ لم يسعه انكاره « لكنه انكر صلته بأبى عبد الله الشيعي ، وكذلك فعل ابنه » (30) . ثم امتحن رجاله بالمعذاب ، فلم يعترفوا (31) ، وهم باطلاق سراحهم لولا اعتراف أحدهم ويدعى أبو يعقوب القهرمانى (32) . عندئذ تحفظ على المهدي في منزل أخته وسجن أبا القاسم في إحدى حصون سجلماسة (33) ، « ولم يكن منه في حقها ما يكره » (34) ، فكانا مبجلين معظمين في منزليهما (35) . وليس أدل على ذلك من السماح للمهدي بالاتصال من

(24) مجهول الاستبصار ص 202 .

(25) نفس المصدر والمصحفة .

(26) نفس المصدر والمصحفة .

Momour : Op. Cit. P. 107.

(27) افتتاح الدعوة ص 44 ،

(28) ابن خلكان : وفيات الاميان ج 1 ص 272 .

(29) ابن خلدون : ج 6 ص 131 .

(30) افتتاح الدعوة ص 44 شرح الاخبار ص 32 .

(31) النويرى : ج 26 ورقة 32 .

(32) اليماني : ص 122 .

(33) افتتاح الدعوة ص 44 ، الاستبصار ص 204 .

وذكر ابن مذارى أن المهدي وابنه سجنا في غرفة واحدة بمنزل مريم بنت مدرار .

انظر البيان المغرب ج 1 ص 210 .

(34) النويرى : ج 26 ورقة 32 .

(35) اليماني : ص 122 .

سجنه ببعض اصحابه وانصاره ، فكان هؤلاء همزة الوصل بينه وبين داعيته ابي عبد الله الشيعي في كتامة .

وجدير بالتنويه ان الشيعي نجح في تتبع اخبار المهدي منذ وصوله الى بلاد المغرب ، « فكانت كتبه تترى بطلبه حيثما نزل » (36) ، وكانت رسله على اتصال به بعد نزوله سجنماسة ، تحمل اليه الاموال والهدايا وتخبره بأنباء انتصاراته في حروبه مع الاغالبة (37) . ولم ينقطع هذا الاتصال بعد سجنه ، فقد كتب الشيعي الى المهدي بعد هزيمته لجيش الاغالبة بقيادة ابراهيم بن حبشى ، وسير الكتاب مع أحد ثقائه ، فدخل السجن متخفيا في زي قصاب يبيع اللحم ، وأوصل الكتاب للمهدي (38) . وذكر جعفر الحاجب (39) ان المهدي اصطفى أحد التجار القيروانيين في سجنماسة ، ويدعى المطلبى ، وكان متشيعا ، وعهد اليه بمهمة مرافقة الشيعي عند قدومه لتحريره من سجنه بسجنماسة . ويخبرنا صاحب كتاب الاستبصار (40) ان المهدي لما أودع السجن بعث لداعيته بكتامة يستنفره لانقاذه على ان الشيعي ما كان بمكنه ان يخف لنجدة المهدي قبل انتهاء صراعه مع الاغالبة ، فلما قضى على حكمهم في افريقية سنة 296 هـ (908 م) شرع على التو في قتال بنى رستم وبنى مدرار (41) .

استخلف الشيعي على القيروان اخاه ابا العباس وجعل معه ابا زاكى تمام بن معارك (42) وخرج من رقادة في منتصف رمضان من نفس العام في جيوش عظيمة يرافقه كبار اصحابه (43) . فاهتزت قبائل المغرب الاوسط لخروجه ، وخافته زناته ، وبادرت القبائل بالدخول في طاعته (44) . ثم عرج على تاهرت واستولى عليها (45) وهو في طريقه الى سجنماسة .

(36) اليسابورى : استتار الامام ورقة 14 مخطوط .
(37) ذكر ابن عذارى ان أحد الهاشمين بسجنماسة اهدى اليه الهدايا كثيرة مما بعثها الشيعي اليه ، وأمره « بالتستر وعدم الظهور في المعيشة واللبس » خشية الميون والرقباء . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 187 ، 188 ،
Vonderheyden : Op. Cit. P. 296.

(38) ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون : ج 4 ص 35 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 .
(39) سيرة جعفر ص 125 .
(40) مجهول : ص 204 .
(41) النويرى : ج 22 ورقة 44 .
(42) اليماني : ص 123 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، أبو الفدا : ج 2 ص 65 .
(43) اليماني : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 .
(44) ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 .
(45) ابن عذارى : ج 1 ص 210 .

ويعث الشيعة برسله الى اليسع يتلطفه ويعدده بالانصراف عن بلاده ، اذا ما اطلق سراح المهدي (46) ، فقتل اليسع الرسل ولم يجبه الى طلبه . وعادوا الشيعة سياسة الملاينة متجنباً ذكر المهدي « تقيّة عليه » فقتل اليسع الرسل للمرة الثانية . (47) فلم يجد الشيعة بدا من ضرب الحصار على سجلماسة (48) ، وقد اشتهر ببراعته في عمليات الحصار في حروبه حتى لقبه المحدثون (49) بالمحاصر Poliorcete والتحم اليسع بن مدرار بجيوش الشيعة الذي قتل كثيرين من رجاله ، وكاد ان يظفر به لولا حلول الظلام . فعاد بعسكره الى خارج المدينة (50) — مهموماً خوفاً على حياة المهدي ، بينما لاذ اليسع بالهرب (51) .

والواقع ان خلافاً بين المؤرخين حول مصير المهدي ، فمنهم من يؤكد سلامة المهدي لاشتباهاً اليسع في شخص آخر — يدعى بسطام — واعتقاده بأنه هو الذي يدعوا له ابو عبد الله الشيعة ، فلذلك لم يستجب لنصيحة اصحابه بقتل المهدي ، واطلقه مع من اشتبه فيهم من الاسرى لينجو بنفسه . ومنهم (53) من ذهب الى ان اليسع قتل المهدي قبل هربه « وان الشيعة حين اقتحم المدينة في صبيحة اليوم التالي ، وجد المهدي مقتولاً وعنده رجل من اصحابه كان يخدمه — قيل انه يهودي (54) — فخاف ابو عبد الله أن تنتفض عليه كتامة ورجاله ، فأخرج الرجل الى العساكر وقال هذا هو المهدي » . وقد تصدى مأمور لتجريح هذه الرواية على أساس عداء ابن خلكان للفاطميين . وساق في ذلك عدداً من الأدلة (55) . ومع

-
- (46) البهائي : ص 123 ، شرح الاخبار ص 33 .
(47) افتتاح الدعوة ص 45 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، القرطبي : اتعاظ الحنفا ص 90 ، المنصوري : زبدة الفكرة ج 5 ورقة 161 ، الباجي المسمودي ص 37 .
(48) ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، النويري : ج 26 ورقة 32 .
(49) انظر : Vonderheyden : Op. Cit. P. 305.
(50) افتتاح الدعوة ص 45 .
(51) افتتاح الدعوة ص 45 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، القرطبي : اتعاظ الحنفا ص 290 .
(52) انظر : شرح الاخبار ص 33 ، البهائي : ص 124 .
(53) انظر : ابن خلكان : ج 1 ص 272 ، سعيد بن بطريق : ص 78 ، النويري : ج 26 ورقة 33 ، الخزرجي : ورقة 42 .
(54) مجهول : الاستبصار ص 167 .
(55) هاك موجزا لهذه الأدلة :
1) أن عبيد الله المهدي لم يسجن في سجن المدينة ، وانما أودع في بيت مريم ابنة الأمير المدراري =

ذلك لا تزال مسألة مصير المهدي من مشكلات التاريخ الاسلامي . والحاصل
— وفقا لغالبية المصادر — ان اليسع بن مدرار غادر سجلماسة سرا مع
اهله وذويه لانذا بصنهاجة في جوف الصحراء (56) ، بينما شغل ابو عبد الله
الشيعة عنه — الى حين — بتحرير المهدي .

ولدينا روايتان ايضا من كيفية تحرير المهدي ، احدهما (57) ترجح
تدويم المهدي الى داعيته في مقره خارج المدينة والتقاءه به ، والاخرى (58) ،
تذهب الى ان اهل سجلماسة خرجوا في الصباح الى الشيعة واخبروه بهروب
اليسع ، وارشدوه الى مكان المهدي والقائم ، حيث أطلق سراحهما .

-
- (2) كان المهدي معروفا لدى اهل سجلماسة ، ولو كان قد قتل ونادى الشيعة باسمه
غيره لكشفوا عن هذا الزيف .
(3) لم يدخل الشيعة بنفسه لتحرير المهدي ، وانما قدم المهدي اليه على ظهر حصان .
(4) من الصعب ان ينصب الشيعة بديلا عن المهدي وهو برقة تواده واصحابه
وسائر اتباعه .
(5) لم يكن تنصيب البديل للمهدي امرا ممكنا في وجود ابنه ابي القاسم الذي كان على
قيد الحياة .
(6) لو حدث ذلك ، لما لاذ ابو القاسم بالصمت لان الدعاة في سائر الامصار والذين
عرفوا المهدي ما كانوا ليستكتوا عن كشف تلك الخدمة .
(7) ولو فرض وتغاضى ابو القاسم عن الامر ، وان الشيعة لم يكن يعرف شخص
المهدي ، فلا بد وان امرا غريبا كان سيحدث عند لقاء المهدي المزعوم بابي
المعاس — اخ الشيعة — وام مبيدة الله المهدي اللذين كانا برقاة .
(8) لو ان اليسع قتل المهدي حقيقة لكان قد اشاع الخبر اثناء هربه بين قبائل الصحراء
من قبيل التمشي والانتقام .
(9) اذا كان هناك ثمة ما يشكك في اصله غير كونه ينتمي الى علي وفاطمة ،
لاتخذ الشيعة واخوه سندا لهما خلال الشهور السبعة التي تأمرا خلالها على
المهدي ، فكل ما ناهى به آنذا انه ليس الامام .
(10) اجماع المؤرخين على ان ابا القاسم ابنه خلفه بعد وفاته .
(11) كان للمهدي اصدقاء ورفاق في سائر بلاد المشرق والمغرب ، فضلا عن عدد من
الرسل والدعاة بكافة ارجاء العالم الاسلامي فلو انه قتل حقا لاشاع هؤلاء
واولئك الامر واصبح معروفا لدى المعاصرين . وعلى ذلك ، فان رواية ابن خلكان
لا اساس لها من الصدق
انظر :

Momour : Polemics on the origin of the fatimi caliphs. P.P 115, 16, 17.

- (56) اليماني : ص 126 ، افتتاح الدعوة ص 45 .
(57) اليماني : ص 125 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42
(58) انظر : افتتاح الدعوة ص 45 ابن الاثير : ج 8 ص 16 ،
ابن عذاري : ج 1 ص 210 ، ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد ص 9 ،
ابو الفدا : ج 2 ص 65 ، الاستبصار ص 204 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364
والنويري : ج 26 ورقة 32 ، ابن ابي دينار : ص 49 ، المعيني : ج 15
ورقة 154 .

وأيا ما كان الامر ، فبعد تحرير المهدي والاحتفاء به ، انفذت الخيل في اثر اليسع بن مدرار ، وذكر ابن عذارى (59) أن قوما من البربر — يعرفون ببني خالد — قبضوا عليه وسلموه الى أبى عبد الله الشيعى تقربا اليه .

وسيق اليسع الى المهدي حيث عذب وشهر به في سجناسه هو ومن معه ، ثم أمر المهدي بقتلهم جميعا ، فقتلوا (60) . وصادر المهدي أموال بنى مدرار (61) ، ونهبت كتامة المدينة ، وأرغم غالب سكانها على مبارحتها (62) ولم تجد نفعا توسلات شيوخها الى المهدي ليكف رجاله أيديهم عنهم (63) . ولقى اليهود — بصفة خاصة — على أيدي المهدي ورجاله عنقا شديدا ، فتعرضوا لشتى أنواع العذاب اعتقادا بأن لهم يدا في الوثيقة بين المهدي واليسع بن مدرار ، فقتل اثرياؤهم ونهبت أموالهم ، وأرغم من بقى منهم على احتراف المهن الوضيعة (64) . ثم أمر المهدي باحراق سجناسه فاضرمت فيها النيران (65) .

وغادر المهدي سجناسه الى رقادة في ربيع الاخر سنة 297 هـ (909 م) بعد ان بويع بالخلافة فيها (66) ، وبعد أن عين عليها واليا من

- (59) البيان المغرب ج 1 ص 211 ، 212 *
(60) اليماني : ص 131 ، شرح الاخبار ص 33 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، النويرى : ج 26 ورقة 33 ، المقرئى : اتعاطل الحنفا ص 91 *
(61) اليماني : ص 129 ، 130 ، الخزرجى : ورقة 42 *
(62) مجهول : الاستبصار ص 204 *
(63) اليماني : ص 130 *
(64) الاستبصار ص 202 *
(65) ابن عذارى : ج 1 ص 210 ،
(66) ابن غلبون : التذكار ص 18 « وثمة رواية تقول بأنه بويع في رقادة وليس في سجناسه انظر : ابن الأبار : ج 1 ص 191 ، النويرى : ج 26 ورقة 31 ، Hassan Ibrahim : Relations between the Fatimids P. 51.
ونعتقد أنه بويع بسجناسه أولا ، ثم بويع بعد ذلك بيعة عامة في رقادة . والواقع أن أقدم عملة وصلتنا عن المهدي مؤرخة بسنة 297 هـ . وخالية من ذكر المدينة التي ضربت بها . كما أنها خلو أيضا من ذكر لقب « أمير المؤمنين » الذي نجده على عملة أخرى ضربت بالقيروان سنة 300 هـ .
وهناك صورة للدينار الذي ضرب سنة 297 هـ :
الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له (فراغ)
الوجه الآخر : لله — محمد رسول الله — المهدي
دائرى : بسم الله ضرب هذا الدين سنة سبع وتسعين ومئتين (فراغ)
Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins presente انظر in the khedivial library P. 148.
أما الدينار الذي ضرب بالقيروان سنة 300 هـ فنصورته على الوجه التالى :
الوجه : عبد الله — لا اله الا الله وحده — لا شريك له — أمير المؤمنين
دائرى : محمد رسول الله أرسله بالمهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله . =

قبله (67) .

وهكذا سقطت دولة بنى مدرار على يد الفاطميين سنة 297 هـ
(909 م) ، بعد انتصار كتامة على مكناسة ، وتغلب البرانس على البتر ،
وهزيمة الخوارج على أيدي الشيعة .

= الوجه الآخر : الامام — محمد — رسول — الله — المهدى بالله .
داثرى : بسم الله ضرب هذا الدينير بالقيروان سنة ثلث ميه
انظر : Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British museum :
Vol. 4. P. 2.

(67) المقرئى : اتعاط الحنفا ص 91 ، ابو الفداء : ج 2 ص 65 .

ب - ثورات الصفرية على الحكم الفاطمي :

اندلعت ثورات الصفرية في سجلماسة على اثر رحيل المهدي منها الى رقادة سنة 297 هـ (909 م) ولم تفلح سياسة القمع والعنف التي لجأ اليها الفاطميون بانفاذ حملاتهم الفينة بعد الاخرى الى سجلماسة ، ولا سياسة اللين والدهاء باصطناع بعض افراد البيت المدراي وتنصيبهم ولاة يحكمون باسمهم ، في دعم النفوذ الفاطمي في تلك الانحاء وتحويل البربر الصفرية عن ولائهم لبنى مدرار .

فقد تضافرت عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية وجغرافية لتزيد في عداء الخوارج الصفرية للحكم الفاطمي الشيعي واستمرار ثوراتهم عليه . فمن الناحية السياسية ، لم يرضخ الخوارج الصفرية لولة الفاطميين بعد ان الفوا الاستقلال السياسي في كنف دولة بنى مدرار لما يزيد على قرن ونصف قرن من الزمان وبديهي — وقد تأصلت فيهم نزعة الاستقلال — أن يرفضوا الاذعان لحكم ولاة غرباء ، تسندهم حاميات من الجند الكتامي (68) . ولا ريب في أن الظروف السياسية في بلاد المغرب وقتذاك ساعدت على تفاقم هذه الثورات ، فقد شغل الفاطميون بمواجهة المشكلات العديدة التي واكبت قيام دولتهم عن الاهتمام بدعم نفوذهم في سجلماسة بأقاصى الصحراء .

ولعل من اهم هذه المشكلات احتدام الصراع بين المهدي وابى عبد الله الشيعي ، وما سببه اغتيال الشيعي من خلاف كتامة على المهدي وثورتهم عليه ، وما تجشمه الاخير من مشاق لقمع هذه الثورة (69) . ومن ناحية

(68) البكري : ص 150 .

(69) ابن خلدون : ج 4 ص 78 .

أخرى تضعضع النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى باستمالة عبد الرحمن الناصر الاندلسي لمغراوة وبنى يفرن الذين الحقوا عدة هزائم بالجيوش الفاطمية سنة 312 هـ (924 م)، 314 هـ (926 م) (70)، كما استولت جيوشه على مليلة وسبتة — من موانئ المغرب الأقصى — سنة 314 هـ (926 م) وسنة 319 هـ (931 م) على التوالي ، ودخل موسى بن أبي العافية أمير فاس في طاعته وعمل على « استمالة أهل العدو المجاورين له » (71) . وبذلك أصبح الجزء الأعظم من شمال المغرب الأقصى ومساحات شاسعة بالمغرب الأوسط بمنأى عن سيادة الفاطميين ، وظل النفوذ الأموي قائماً بالمغرب الأقصى حتى سقوط الخلافة الأموية بالاندلس . وإذا كنا لا نجد من الشواهد والقرائن ما ينم عن تضامن الصفريّة في المغرب مع أموي الاندلس بعد سقوط دولة بني مدرار سنة 297 هـ (909 م) ، فإن تغلغل النفوذ الاندلسي في المغرب الأقصى مكن من اندلاع ثورات الصفريّة بسجل مأساة على الحكم الفاطمي .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية الجائرة من أهم الدوافع لقيام هذه الثورات ، فقد انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، وما لبث المهدي أن تخلى عن سياسة داعيته أبي عبد الله الشيعي المعتدلة (72) ، فاستولى على « أموال الإحباس والحصون » (73) ، واشتط في جمع الضرائب وتفنن في زيادتها (74) . وقد تعرضت سجل مأساة للسلب والنهب على يد رجاله ، كما كانت ثروات أهلها ، ومناجيبها الغنية بالفضة مطمعا لجيوشه . وقيل إن المهدي « تحصل من القبر ومن الحلى وقرماتة وعشرين جملا أدخلها رقادة » (75) .

ومما دفع صفريّة سجل مأساة إلى الثورة أيضا إصرار الفاطميين على نشر المذهب الشيعي ، فقد ذكر ابن عذارى (76) أن المهدي « أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي وأزواجه . . ومنع الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الحنث عن طلق

(70) ابن عذارى : ج 1 ص 266 ، 269 .

(71) نفسه ج 1 ص 283 .

(72) نفسه ص 191 ، 192 .

(73) سعيد بن مقديش : ص 123 .

(74) ابن حيون : المجالس والمسايرات ج 1 ورقة 28 . مخطوط .

(75) الاستبصار ص 204 .

(76) البيان المغرب ج 1 ص 220 .

بالنية ، واحاطة البنات بالميراث ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه » . ومع ما انطوى عليه قول ابن عذارى من مبالغة ، فالثابت أن المهدي عمد الى نشر مذهبه بحد السيف (77) ، وغير من النظم والاحكام بما يتمشى وتعاليم المذهب الاسماعيلي . وبديهي أن يفزع صفرية سجلماصة من هذه السياسة الدينية حتى ليذهب داشراوى (78) الى أن حركة الشاكر لله سنة 332 هـ (945 م) قامت اساسا لمناهضة سياسة الفاطميين الدينية . ولا مرأى في أن الصفرية من الخوارج فضلا عن عدائهم المقيت للشيعه ، نظروا في انكار وريية الى سياسة الفاطميين الدينية فاعتقدوا أنهم « يدفعون نبوة محمد (ص) ويدعون النبوة بعده ، ويدعون سنته وشريعته ويدعون الى غيرها » (79) . بل ارتبطت العقائد الاسماعيلية في تصورهم بالخرافات والاساطير فاعتقدوا أنهم « يعبدون راسا عندهم يكلمهم ويسجدون له من دون الله ، وأن هذا الراس ينثر من فيه الدنانير » (80) . ولما كان الصفرية من أكثر فرق الخوارج تطرفا في محاربة مخالفيهم ، فلم يتوانوا عن الجهر بعدواتهم للفاطميين ، والتمرد على أحكامهم ، ومناهضة عمالهم .

وقد كان تعصب الفاطميين لكتابة وصنهاجة واختصاصهم بالمناصب العليا في دولتهم سببا في تعميق عدواة مكناسة الصفرية لهم ، فقد اثاروا بسياستهم تلك الصراع بين البربر وبرانسا (81) ، اذ لا يخفى أن غالبية صفرية المغرب كانوا من البربر البتر من مكناسة وزناتة وغيرها ، بينما قامت دولة الفاطميين بالمغرب على اكتاف كتامة من قبائل البرانس ، ومن ثم لم يكن من المقبول أن يرضخ صفرية سجلماصة لوالى المهدي من كتامة وحاميته النى بلغت خمسمائة فارس من رجالات كتامة أيضا (82) . ولا شك في أن الظروف الجغرافية أيضا ساعدت صفرية سجلماصة

(77) ابن خلدون : ج 1 ص 131 .

(78) La captivité d'Ibn Wasul. P. 296.

(79) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 358 . ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن الفاطميين - كما يذهب الدكتور محمد كامل حسين - « كانوا يبيلون الى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم ، احيانا بالترغيب و احيانا بالترهيب ، فكان الدعاة يؤدون واجبهم في تشكيل المسلمين في مذاهبهم ، ويحببون اليهم المذهب الفاطمي » .. انظر : في ادب مصر الفاطمية ص 130 .

(80) ابن حيون : المرجع السابق ورقة 361 .

(81) نفسه ورقة 26 ، Drague : Op. Cit. P. 25.

(82) ابن عذارى : ج 1 ص 213 .

على القيام بثوراتهم ، فكانت مدينتهم في اقاصى الصحراء (83) ، والطرق الموصلة اليها من افريقية وعرة . لذا تقاعس الجند الفاطمى عن التوجه لقمع تلك الثورات . ويخبرنا ابن حيون (84) أن الكتاميين كانوا يتناقلون عن القيام بهذه المهام متذرعين ببعد سجلهم ومشايق الطريق اليها رغم ما كان يبذله الائمة لهم من وغير العطاء ومعسول الوعود .

تصارى القوى ، ان اشتطاط الفاطميين في سياستهم الاقتصادية ، وتعصبهم المذهبى واحيائهم النعرات القبلية ، وملائمة الظروف السياسية والجغرافية في المغرب الاقصى ، كل هذه العوامل دفعت الصفرية الى الثورة على الحكم الفاطمى ونبذ مذهبهم الاسماعيلى ، والتشبث بالولاء لال مدرار .

والواقع ان حكم الاسرة المدرارية لم يكتف بعد مقتل اليسع بن مدرار سنة 297 هـ (909 م) كما اعتقد بعض المؤرخين (85) وانما ظل قائما في سجلهماسة متأرجحا بين الولاء والعداء للفاطميين ، واذا كان الفاطميون قد انلحوا احيانا في استمالة بعض افراد البيت المدرارى والاغداق عليهم وتنصيبهم ولاة من قبلهم ، فان معظم المدراريين ثاروا على الفاطميين ورفضوا الاذعان لحكمهم واستقلوا بأمر سجلهماسة عن نفوذهم .

فبعد مقتل اليسع بن مدرار سنة 297 هـ (909 م) ، ولى عبيد الله المهدي على سجلهماسة قائده ابراهيم بن غالب المزاني . وترك معه خمسمائة فارس من كتامة (86) . وما أن قفل المهدي متوجها الى رقادة حتى ثار الصفرية عليه وقتلوه (87) هو وجنده في نفس العام (88) . وبايعوا الفتاح بن ميمون الملقب بواسول من بنى مدرار . ولم يستطع المهدي استعادة نفوذه على سجلهماسة لانشغاله بمواجهة الانضطرابات في افريقية بعد اغتيال ابي عبد الله الشيعى ، فاستقر الامر للفتح بن ميمون « تحت تقيّة من مطالبة

(83) المراكش : المجب ص 357 .

(84) المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 26 .

(85) انظر : ابو الندا : ج 1 ص 66 ، ابن ابي دينار : ص 50 .

(86) ابن عذارى : ج 1 ص 213 .

(87) البكرى : ص 150 .

(88) ابن عذارى : ج 1 ص 214 . قتل ابراهيم بن غالب المزاني سنة 297 هـ وليس 298 هـ

كماذهب ابن خلدون وابن الخطيب

انظر : العبر ج 6 ص 131 ، اعمال الاعلام ج 3 ص 145 .

الشيعة » (89) .

ولما مات الفتح سنة 300 هـ (912 م) بايع الصفريه اخاه احمد بن ميمون ، فانفرد بالسلطة تسعة اعوام بمنأى عن نفوذ المهدي . وفي سنة 309 هـ (922 م) أنفذ المهدي قائده مصالة بن حبوس لدعم سلطانه في المغرب الاقصى (90) ، فدخل سجلماسة عنوة « وأخذ أهلها بالدعوة الشيعية » (91) وقبض على احمد بن ميمون وقتله ، وبعث برأسه الى المهدي (92) ، وحاول استرضاء الصفريه بابقاء الحكم الدراري ، فلم يعين عليهم واليا من قبله ، بل اصطنع. المعتر بن محمد بن سارو بن مدرار — وهو ابن عم احمد بن ميمون — ونصبه واليا عليهم من قبل المهدي « ليأمن جانبهم » (93) . وقد نجحت هذه السياسة — الى حين — في الحفاظ على النفوذ الاسمي للفاطميين (94) في سجلماسة ، فظل المعتر بن محمد على ولائه للفاطميين حتى وفاته سنة 321 هـ (934 م) وذلك على عكس رواية ابن خلدون (95) القائلة باستبداده بالأمر من دون الفاطميين . فقد كان ابنه وخليفته محمد الملقب بابى المنتصر الذى حكم عشر سنوات (96) ، وكذلك حفيده المنتصر سمكو بن محمد الذى حكم شهرين على ولائها لسلطان الفاطميين (97) .

على ان سياسة الولاء للفاطميين لم تلبث ان تعثرت سنة 332 هـ (945 م) فانتهاز محمد بن الفتح بن ميمون — ابن عم المنتصر سمكو — فرصة ضعف ابن عمه الطفل (98) ، وانشغال الفاطميين بثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد ، واغتصب الحكم فطرد ابن عمه خارج سجلماسة ودعى لنفسه

-
- (89) اخطأ ابن خلدون — ومن نقل عنه — حين زعم ان الفتح بن ميمون كان اباضيا . انظر : العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى ج 1 ص 113 .
(90) ابن الخطيب : المرجع السابق ص 146 .
(91) البكرى : ص 150 ، ابن خلدون . ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 46 ، القلقشندي : ج 5 ص 166 .
(92) ابن خلدون : المرجع السابق ص 131 .
(93) البكرى : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 146 .
(94) ابن الخطيب : نفس المصدر والصحيحة .
(95) العبر ج 6 ص 131 .
(96) استقط البكرى حكم هذا الامير . انظر : المغرب ص 151 .
(97) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 296 . وقد خالف ابن الخطيب سائر المؤرخين فذكر ان المنتصر سمكو اخ محمد بن المعتر وليس ابنه . انظر : اعمال الاعلام ج 3 ص 146 .
(98) البكرى : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 146 ، القلقشندي : ج 5 ص 167 ، السلاوى : ج 1 ص 113 .

وخلع طاعة الفاطميين (99) ، كما ضرب السكة باسمه وتلقب بالشاكر لله (100) .

على أن بعض المؤرخين (101) ذهبوا إلى أن الشاكر لله « أخذ بهذاهـ اهل السنة ورفض الخارجية ونادى بالدعوة لبنى العباس » . وغالى البعض (102) الآخر فقال بأنه « كان سنيا على مذهب المالكية » . ونعتقد أن حركة الشاكر لله كانت حركة خارجية صفرية خالصة، تمثل رد الفعل الصفرى ضد الحكم الفاطمى ، فهى تماثل فى هذا السبيل وتعاصر حركة أبى يزيد مخلد بن كيداد الابهاضى . ويبدو أن مؤرخى السنة تجاهلوا هذا الامر عن عمد انكارا لفضل الخوارج فى قيادة حركات المقاومة ضد الشيعة ، أو أن الامر التبس عليهم خاصة وأن أبى يزيد قد استنفر السنة فى المغرب للانضمام لحركته (103) ، كما « دعى الشاكر لنفسه مموها بالدعاء لبنى العباس » (104) حتى يؤازره السنة بالمغرب . ومن المستبعد أن يكون الشاكر لله قد تخلص عن المذهب الصفرى واعتنق المذهب المالكى للدخول فى طاعة الخلافة العباسية لأن الشاكر لله لم يكن يطمع فى مؤازرة الخلافة العباسية لحركته خاصة وقد زال نفوذها كلية من بلاد المغرب بعد سقوط دولة الاغالبة . ولم يكن بمقدور بنى العباس مناجزة الفاطميين ببلاد المغرب

(99) البكرى : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 .
(100) خطأ ابن خلدون ومن نقل عنه فى تلقيبه (بالشاكر بالله) انظر : العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 113 . الصحيح ما ورد بعملته الذهبية والفضية حيث لقب بالشاكر لله « وهاك صورة الدينار ضرب فى عهده »
كتابة دائرية : بسم الله ضرب هذا الدين سنة ست وثلثين وثلثمائة الوجه الأول الامام — محمد — رسول الله — الشاكر لله .
وبتشكك لانوا فى اتخاذه لقب « أمير المؤمنين » ويذكر انه اكتفى بلقب « امام » لأن العملة خلو من ذلك . انظر : Catalogue ... F. 401, 402.
لكن شكوك لانوا لا سبيل لصحتها ، فنجد على دينار ضربه الشاكر لله سنة 245 هـ لقب أمير المؤمنين . وهاك صورته :
الوجه : عبد الله — لا اله الا — الله وحده — لا شريك له — أمير المؤمنين (فراغ غامض)
الوجه الآخر : الامام — محمد رسول الله — الشاكر لله
بسم الله ضرب هذا الدين سنة خمس وأربعين وثلثمائة .
انظر : Lane-Poole : Catalogue of the collection of the Arabic coins presented in the khedivial library P. 328.

(101) انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، السلاوى ج 1 ص 113 ، الخزرجى : ورقة Bel : Op. Cit. P. 168, 47

(102) انظر : البكرى ص 151 .

(103) الديباغ : ج 2 ص 185 .

(104) العلقمى : ج 5 ص 167 .

وتعضيد الحركات المناوئة لهم لبعد المسافة ، ولضعفهم في العصر العباسي الثاني وخضوعهم لنفوذ الترك . ولو أن الشاكر لله دعى للخلافة العباسية حقا ، لما دعى « لنفسه بالخلافة وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالشاكر لله » (105) . وضرب العملة باسمه (106) . ولو كان ينشد التبعية لقوة مناوئة للفاطميّين ، لاعلن تبعيته لإموى الاندلس أصدقاء الاسرة المدراية ، وأصحاب النفوذ الفعلي على أغلب جهات المغرب الأقصى . أغلب الظن أن الشاكر لله تشبه بمعاصره الإباضي النكارى أبى يزيد مخلد بن كيداد في محاولة استمالة السنة بالمغرب وتعضيدهم لحركته ليس الا .

على كل حال — نجح الشاكر لله — بحسن سيرته — (107) وتعصبه لمذهبه وتفقهه فيه « وظنه أن ليس الحق الا ما انتهى اليه » (108) ، في جمع شمل الصفرية تحت لوائه والاتصال بسجلماسة عن طاعة الفاطميّين ويبدو أنه فكر في بسط نفوذه على بعض نواحي المغرب الأقصى ، فحاول غزو امارة نكور سنة 340 هـ (953 م) لكن الصفرية لم يجيبوه الى ذلك وقنعوا باستقلالهم السياسى وحريتهم الدينية محجّمين عن الدخول في مشروعات توسعية (109) . وقد نعم الصفرية في عهده بالاستقرار والرخاء، اذ نعلم أن العدل ساد بسجلماسة إبان حكمه ، كما كانت عملته «طيبة للغاية» على حد قول السلاوى (110) .

وظل الشاكر لله في مأمن من الخطر الفاطمى طوال عهد المنصور الذى انصرف لدرء ثورة أبى يزيد في افريقية ، تلك الثورة التى هدّدت بالقضاء على دولته . ولما ولى المعز الخلافة سنة 341 هـ (954 م) حاول تأديب أمير سجلماسة المدراى ، فاستنفر كتامة للقيام بتلك المهمة دون طائل ، فقد تشاقلوا عن الخروج متذرعين بمشاق الطريق وبعد المسافة (111) ويبدو أن تغاضى المعز عن ثوار سجلماسة شجع عماله في المغرب الأقصى

(105) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 148 .

(106) انظر : Lavoix : op : cit. P. 401.

(107) ابن الخطيب : المرجع السابق ص 148 .

(108) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 369 ، ج 2 ورقة 399 .

(109) ابن حوقل : المسالك والممالك ص 57 .

(110) الاستقما ج 1 ص 119 . يؤكد ذلك أن العملة التى ضربها سنة 336 هـ كان وزنها

كالآتى : D. 19 mm. P. 3 gr 90

D. 21 mm P. 49 gr 10.

Lavoix : P.P. 401, 402.

والتي ضربها سنة 340 هـ كان وزنها

(111) ابن حيون : المرجع السابق ج 1 ورقة 26 .

على شق عصا الطاعة والدخول في طاعة عبد الرحمن الناصر كما فعل
يعلى بن محمد اليفريني (112) بافكان — بشمال غربي تاهرت — وأحمد
بن بكر الجذامي أمير فاس (113) ودفعه ذلك الى اعداد حملة هائلة
لاستعادة نفوذه المفقود في بلاد المغرب الاقصى سنة 347 هـ (960 م) (114) .

وقد عهد المعز الى تائده جوهر الصقلی بقيادة تلك الحملة التي جشد لها
اعدادا غفيرة من كتامة (115) وصنهاجة (116) والاولياء (117) ، فضلا عن
عبيده وغلماؤه (118) . واجتمع برؤسائهم وحضهم على الاستماتة في القتال
واعدا اياهم بحسن المثوبة منعما عليهم بجزيل العطاء (119) . ومضى جوهر
الى سجلماسة وبعث الى اهلها بالقبض على الشاكر لله وتسليمه ، على أن
يبدل لهم الامان ، دون طائل (120) . فحضر الحصار حول المدينة (121)
طيلة شهور ثلاثة (122) تمكن الشاكر اثناءها من الهرب بأمواله وذويه
وخاصته ، ونزل بحصن منيع يعرف بتاسجدلت (123) على بعد اثني عشر
ميلا من سجلماسة (124) .

ودخل جوهر المدينة دون مقاومة ، واصدر عفوا عاما عن اهلها (125)
ليكسب جانبهم وتسلك الشاكر لله الى المدينة في محاولة لتأليب أتباعه على
القائد الفاطمي واسترداد نفوذه ، لكن رجلا من مطهرة تربص به وسلمه
الى جوهر ، فعاد به أسيرا الى القيروان (126) بعد أن عين على سجلماسة

-
- (112) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 96 .
(113) ابن حيون : المرجع السابق ج 1 ورقة 22 ، السلاوي : ج 1 ص 197 .
(114) ابن حيون نفس المصدر ورقة 25 ،
(115) ابن حيون نفس المصدر ورقة 31 .
(116) ابن خلدون : ج 6 ص 132 .
(117) هم اتباع أبي يزيد مخلد بن كيداد الذين اذعنوا بالطاعة للفاطمين واغلبهم من بني
كبلان . انظر : ابن حيون المرجع السابق ورقة 32 .
(118) الشطبي : الجمان ورقة 197 .
(119) انظر ملحق رقم 6 .
(120) ابن حيون : المرجع السابق ورقة 296 .
(121) الشطبي : المرجع السابق ورقة 197 .
(122) ابن الخطيب : ج 3 ص 148 .
(123) نفس المصدر والصحيفة . ويسميه ابن خلدون « حصن تاسكرات » انظر : العبر
ج 6 ص 132 .
(124) البكري : 151 .
(125) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 296 .
(126) البكري : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 149 ،
الطعشندي : ج 5 ص 167 ، السلاوي : ج 1 ص 114 ، الشطبي : الجمان :
ورقة 197 .

واليا من قبله سنة 347 هـ (960 م) (127) .

وابتهج المعز بانتصارات تائده جوهر واسترداد سجلماسة وغيرها من مدن المغرب الاقصى التي تمردت عليه ، فطير مزهوا ابناءها الى الدعاة الاسماعيلية في الشرق (128) . وأثر المعز الابقاء على حياة الشاكر لله بعد أن شهر به بين أهل القيروان (129) ، فظل مُعتقلا في سقيفة قصره زمنا (130) . ثم نقل الى رتادة وظل سجيناً بها حتى وفاته سنة 354 هـ (967 م) (131) .

ولم تفلح سياسة اللين والتسامح التي اتبعها المعز وقائده جوهر سواء في معاملة الشاكر لله أو في العفو عن أهل سجلماسة في جذبهم لموالة الفاطميين . فالعداء المذهبي المتواصل وتعلق الصفرية بالاستقلال السياسي وبالبيت الدراري حال دون تحقيق ذلك . فقد تكرر ما حدث على اثر مغادرة المهدي جوهر سجلماسة سنة 297 هـ (909 م) ، اذ ثار صفرية سجلماسة على الوالي الفاطمي وارادوه قتيلا ونصبوا عليهم أحد أبناء الشاكر لله ولقبوه بالمنتصر لله (132) .

ولكى لا يتعرضوا لطائلة الانتقام ، بادروا فانفذوا رسلهم الى المعز يعلنين الابقاء على طاعته والولاء له . ولأذ المعز بالعافية قانعا بولائهم الاسمى له . وطلب الى شيوخهم القدوم اليه برفقة المنتصر لله ، فأجابوه الى طلبه . وقد أورد ابن حيون (133) تفصيلات مستفيضة عن لقاء شيوخ سجلماسة بالمعز وعفوه عنهم ، وقراره المنتصر على الولاية وخلعه عليهم واغداقه على مرافقيه . ومع ذلك لم يستتب الامر للمعز في سجلماسة ، ولم ينعم صنيعته الدراري بالحكم طويلا ، فنزعة الاستقلال والكراهية للفاطميين كانت من وراء الثورة التي قام بها أخ للمنتصر — ويدعى أبا محمد — على أخيه وقتله وقيامه بالامر مكانه وتلقبه بالمعز لله ، واعلانه الخروج عن طاعة الفاطميين سنة 352 هـ (965 م) (134) .

(127) ابن حيون : المجالس والمسايرات ج 2 ورقة 296 .

(128) نفس المصدر ورقة 332 .

(129) نفس المصدر ورقة 364 ، 365 .

(130) ابن حيون : نفس المصدر والصحيفة ، Dachraoui : Op. Cit. P. 299.

(131) ابن الخطيب : ج 3 ص 149 .

(132) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، والسلاوي : ج 1 ص 114 .

الفلتشندي : ج 5 ص 167 .

(133) انظر : ملحق رقم (7) .

(134) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، السلاوي : ج 1 ص 114 .

الفلتشندي : ج 5 ص 167 .

وزال نفوذ الفاطميين نهائيا على سبلماسة منذ ذلك الالين . كما
ذوى شان مكناسة والصفرية ايضا سنة 396 هـ (979 م) لما زلف خرزون
ابن فلفول المفاوى الى سبلماسة وقتل ابا محمد المعتز وبعث براسه الى
قرطبة . وآلت سبلماسة بذلك الى التبعية لاموى الاندلس « وانقرض
امر بنى مدرار ومكناسة من المغرب اجمع ، وادل منهم بمفراوة
وبنى يفرن » (135) .

وهكذا — لم يستسلم الصفرية للحكم الفاطمى ، ولم تجد نفعا سياسة
الفاطميين المتارجحة بين اللين والعنف فى دعم نفوذهم فى سبلماسة معقل
الخوارج الصفرية فى المغرب .

(135) نلس المصادر والمفحات ، Bel : Op. Cit. P. 169.

ثانياً :

الإباضية والفاطميون

أ - الفاطميون وسقوط دولة بني رستم

سقطت تاهرت في يد أبي عبد الله الشيعي سنة 297 هـ (909 م) دون قتال ، وذلك لبلوغ الدولة الرستمية في عصرها الأخير ذروة الضعف والاضمحلال وقد سبق أن أوضحنا مظاهر الفوضى السياسية التي تردت فيها تاهرت ، من تدهور هيئة الإمامة وتضعف نفوذ الأئمة بعد تحكم رماح العاصمة في تعيين الأئمة وعزلهم ، وارتفاع شأن الفرق والطوائف المذهبية غير الإباضية ، وتدخلها في شؤون السياسة والحكم وعملاتها لقوى أجنبية بقصد إسقاط الأسرة الرستمية والوثوب على السلطة في تاهرت . ثم ظهور نفوذ البلاط ونساء الأسرة الرستمية وسيطرتهم على الأئمة ، وتطاول عمال الأئمة وحراسهم وخدمهم على الرعية فنهبوا الأموال واغتصبوا الحرائر . بالإضافة إلى صراع أفراد البيت الرستمي حول الإمامة وتكالبهم على الظفر بها ، فلم يتورعوا عن تدبير المكائد والمؤامرات من بعضهم البعض وراح بعضهم ضحية هذا الصراع ، وأفضى ذلك كله إلى انهيار العصبية الرستمية « وبانهيارها شاخت الدولة وهرمت » (136) . هذا إلى انحلال

(136) ابن خلدون : المقدمة ص 168 .

نظم الحكم والادارة وضعف الروح العسكرية ، وتراخى قبضة الائمة على اجنادهم فلجأوا الى « استعمال الدرهم والدينار ، بدل الرمح والسنان (137) وترتب على ذلك كله انهيار المجتمع الرستمي واضطراب الامن ، وهو ما عبر عنه ابن الصغير بقوله : « وكان البلد قد نسد ، ونسد أهلها . . واتخذوا للمسكر أسواقا والغلمان أخوانا » « وعجت الطرق بمناسر اللصوص وخاصة من سفهاء زناتة » (139) .

وفضلا عن ذلك كله ، تعرضت الدولة الرستمية لضربة قاصمة قضت على البقية الباقية من قوتها ، بسبب ما حل بأباضية نفوسة سنة 283 هـ (897 م) من كارثة في موقعة مانو — قلعة بين قابس وطرابلس (140) — حيث أجهز الاغلبة فيها على جيوش نفوسة (141) ، ومن بعدها على أباضية قنطرة ونفزاوة (142) وحرمت الامانة الرستمية في ذلك الحين من مصدر قوتها ، اذ كان النفوسيون مصب الدولة وعونا لها على ما واجهها من أخطار . ولا غرو ، فقد حرم أبو اليتظان بن أبي اليتظان — آخر ائمة بني رستم — من جيش يستطيع به التصدي للخطر الشيعي بعد انقطاع الامداد من جبل نفوسة ، وادى ذلك الى سقوط تاهرت سنة 297 هـ (909 م) .

كانت تاهرت اذن على وشك السقوط ، وكان بوسع أبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين — الذي لا نشك في انه ارسل بعوثه الى تاهرت تدعو للتشيع — ان يطيح بالحكم الرستمي في وقت مبكر . غير انه اثر التريث حتى يفرغ من حروبه مع الاغلبة — أعظم القوى السياسية في المغرب في ذلك الحين — فلم يتقدم على فتح بلاد المغرب الاوسط والاقصى الا بعد سقوط رقادة عاصمة بني الاغلب سنة 296 هـ (908 م) .

وبعدها شرع في غزو سجلماسة لتحرير عبيد الله المهدي ، وخرج في طريقه اليها على تاهرت فدانت له دون مقاومة .

من هذا يتضح ان تاهرت لم تسقط ابان عهد ابراهيم بن أحمد الاغلبى

(137) النوبسى : الازمار الرياضية ج 2 ص 278 .

(138) سيرة الائمة الرستمية ص 55

(139) ابن الصغير : ص 49 .

(140) أبو زكريا : ورقة 33 .

(141) نفس المصدر ورقة 34 .

(142) نفس المصدر والمحملة .

(261 — 289 هـ) (875 — 901 م) كما ذكر المؤرخون (143) الذين اجمعوا على ان « ابا عبد الله الشيعي نزل كتابة سنة 280 هـ » واتاه البربر من كل مكان ، وعظم امره وبلغ امره الى ابراهيم بن احمد الاغلبى ، فاستصغر امر ابي عبد الله واستحققره ، ثم مضى ابو عبد الله الى مدينة تاهرت فعظم شأنه ، وافته القبائل من كل مكان ، وبقي كذلك حتى تولى ابو مضر زيادة الله الاغلبى . وان كانت تلك الرواية لا تخل من دلالة على تشيع كثيرين من سكان تاهرت وبعض القبائل الضاربة خارجها قبيل الغزو الشيعي . يؤكد ذلك قول ابن الصغير (144) ان خطباء تاهرت « كانوا على منابرهم لا يستعملون الا خطب أمير المؤمنين على بن ابي طالب خلا خطبة التحكيم » . ولا يخفى ما قام به هؤلاء الشيعة من دور هدام في الاحداث السياسية التي حفل بها العصر الرستمي الاخير ، وهو عصر برزت فيه الطوائف والفرق الدينية غير الاباضية كما سبق ان اوضحنا .

والواقع ان المصادر غير الاباضية لا تمدنا الا بالندر اليسير عن سقوط دولة بنى رستم ، فلم يرد بها اكثر من ان « ابا عبد الله الشيعي وصل الى تاهرت فدخلها بالامان وقتل من بها من الرستمية ، وبعث برؤوسهم الى اخيه ابي العباس ، وطوفت بالقيروان ونصبت على باب رقادة ثم ولى ابو عبد الله على تاهرت ابا حميد دواس بن صولات الهيصي وابراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهوارى ، وكان يلقب بالسيد الصغير » (145)

وقد سبق ان اوضحنا كيف اغتيل الامام ابو حاتم يوسف على يد ابناء اخيه سنة 294 هـ (906 م) بالتواطؤ مع يعقوب بن افلح — عم الامام — المقيم بين زواغة ، وكيف اغتصب أحدهم ويدعى اليقظان الامة . وتمخض هذا الحادث عن مزيد من الاضطرابات في تاهرت قام بها الحزب المشايخ لابي حاتم ، وقد تزعمته ابنته المعروفة « بدوسر » . كما واصلت الطوائف والفرق غير الاباضية — من المالكية — والواصلية والصفرية والشيعة (146) — مؤامراتها على حكم اليقظان بن ابي اليقظان . ونعتقد ان اليقظان نجح في اخضاع تلك الاحزاب المعارضة لحكمه ، ويبدو أنه

(143) انظر : أبو الفدا : ج 2 ص 65 ، ابن ابي دينار : ص 48 ، العيني : ج 5 ورقة 153 ، اطنيش : الامكان : ص 58 .

(144) ابن الصغير : ص 59 .

(145) انظر : البكري : ص 68 ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 ، 210 ، مارسية : مادة بنى رستم . دائرة المعارف الاسلامية ص 93 .

(146) أبو زكريا : ورقة 36 .

استعان بعمه يعقوب بن أفلح وأنصاره من السمحية الذين نزحوا الى تاهرت .
وقد فشلت دوسر ابنة ابي حاتم يوسف في الانتقام من قتلة ابيها ،
وخبا اهل الطوائف غير الاباضية في « تبليت خبر الاباضية » (147) ، فلم
يجدوا مناصا من مناشدة ابي عبد الله الشيعي وكتابة — القدوم للقضاء
على « امارة الفرس » (148) والراجع أن هذه الاتصالات حدثت قبل فراغ
ابي عبد الله من قتال الاغالبة ، فلم ير موجبا للتوجه الى تاهرت ، ولما
يفرغ بعد من صراعه مع الاغالبة . وعاودت دوسر الاتصال به ، فاستجاب
لها ووعدا بتحقيق مطلبها (149) .

وما ان دانت له رقادة بعد هرب زيادة الله الى الشرق سنة 294 هـ
(908 م) ، حتى اعد حملة ضخمة توجه على رأسها الى سجلماسة حيث
تبع عبيد الله المهدي في سجن اليسع بن مدرار .

تذكر الرواية الاباضية (150) أن رؤساء الطوائف غير الاباضية
خرجوا اليه على بعد اميال من تاهرت ووعدوه بالعون على فتحها ، وهونوا
له من شأن بني رستم .

وعرج الشيعي على تاهرت — في طريقه الى سجلماسة — وفتحها
ليؤمن ظهره اثناء قتاله مع اليسع بن مدرار . فبعث في استدعاء اليقظان
ابن ابي اليقظان وبنيه ، ولما قدموا اليه ، أمر بقتلهم جميعا (151) .

وقد حرص الشيعي على استئصال شأف بني رستم حتى لا يناوئه
منهم مناوئ ، ولم يسلم من القتل الا من لاذ بالهرب الى وارجلان (152) .
وبمقتل ابي اليقظان فتحت تاهرت ابوابها للشيعي دون قتال (153) ،
وانسابت جيوشه داخلها فاستباحتها (154) سلبا ونهباً وتخريبا (155)

(147) ابن الصنبر : ص 51 .

(148) ابو زكريا : ورقة 36 ، النفوسى : ص 292 .

(149) ذكرت المصادر الاباضية ان ابا عبد الله استجاب لطلب دوسر بعد أن وعده بالزواج

إذا ما أخذ بثأر ابيها . والراجع أن يكون السبب في ذلك فراغه من حروبه مع

الافالبة ، وعزمه على افتتاح المغربين الاوسط والاقصى . انظر : الدرجيني : ج 1

ورقة 42 ، النفوسى : ص 292

(150) ابو زكريا : ورقة 36 .

(151) نفس المصدر والمصحفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(152) ابو زكريا : ورقة 37 ، Biquet : Op. Cit. P. 71.

(153) الدرجيني : ج 1 ورقة 42 ، Biquet : Loc. Cit.

وتصور الرواية الاباضية هرب دوسر — بطريقة روائية — خفية أن يتزوجها الشيعي

كما وعدته . انظر : ابو زكريا : ورقة 36 ، النفوسى ص 293 .

(154) النفوسى : ص 292 .

(155) ابو زكريا : ورقة 37 .

« حتى أهلك الحرث والنسل » (156) .

وامر أبو عبد الله بإحراق المكتبة الرستمية المعروفة « بالمعصومة » بعد أن انتقى منها الكتب المتعلقة بالحكم والفنون والرياضيات والصنائع (157) . كما أضرم النيران في تاهرت أيضا (158) . وغادرها على عجل بعد أن ولى عليها عاملاً من قبله (159) ، ويهم وجهه شطر سجلماسة .

ووجه فرقة من فرسانه الى وارجلان في اثر يعقوب بن أفلح الذي هرب اليها مع بعض أصحابه (160) ولم تستطع خيل الشيعة الوقوف له على اثر (161) ، فنجوا بذلك من المذبحة التي حلت بأسرته . وقد رحب أبو صالح ماجنون بن مريان — شيخ وارجلان بهقدمه وعبثا حاول اقناعه بتولى « امامة الدفاع » ومناوئة الفاطميين (162) . فقد أثر حياة الزهد والعزلة حتى وماته (163) .

وبسقوط تاهرت ، وانقراض الرستميين ، انتهى حكم بني رستم الذي استمر ما يزيد على مائة وثلاثين عاما (164) .

(156) الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(157) أبو زكريا : ورقة 42 .

(158) نفس المصدر ورقة 37 . وقد اعتقد ماسكراي أن المصادر الإباضية تباليغ في هذا الصدد اظهارا لنظائير الشيعة . انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 211.

(159) البكري : ص 68 .

(160) أبو زكريا : ورقة 37 .

(161) تنسج المصادر الإباضية روايات اسطورية حول شجاعة يعقوب بن أفلح ومهارته في الالاعات من أعدائه . انظر : أبو زكريا : ورقة 41 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 47 .

(162) أبو زكريا : ورقة 42 ، Masqueray : Op. Cit. P. LXXIV.

وروى أنه قال في هذا الصدد « لا يستر الجبل بالغنم » ، فصارت مثلا . انظر : أبو زكريا : ورقة 42 ، النفوسى ص 293 .

(163) أبو زكريا : ورقة 42 .

(164) البكري : ص 68 ، ابن مغازي : ج 1 ص 209 .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنى حكم الاسرة الرستمية ، نتيجة خلافهم حول بداية حكم عبد الرحمن بن رستم أول أئمتها . وقد ورد بإحدى القصائد في رثاء الدولة الرستمية أنها ظلت قائمة مائة وخمسين عاما ، قال الشاعر :

نقد أسسوا تاهرت بالغرب وارتقوا مدارج عز الملك فيها وأبدعوا
وداموا بها خمسين عاما ومائة يحطم من كان بالقصب يقطع

انظر النفوسى ص 300 .

والصحيح أن عبد الرحمن بن رستم تولى امامة الظهور سنة 162 هـ ، وعلى ذلك فقد استمر حكم الاسرة الرستمية مائة وخمسة وثلاثين عاما ، على أسس أن دولتهم سقطت سنة 297 هـ .

لكن سقوط الحكم الرستمي لم يقض نهائيا على النفوذ الاباضي في بلاد المغرب ، فظلت وارجلان وجبل نفوسة معقلين رئيسيين لاباضية المغرب . وقد وجه الفاطميون جهودهم نحو فتح هذين المعقلين ، فبعد تحرير المهدي من سجن ماسة وجهوا جيشا الى وارجلان . وبادر اباضيتها باخلائها والاعتصام بحصن مجاور لها عرف « بكدية بنهادين » (165) بعد شحنه بالمؤن والاقوات . ولم يستطع الجند الفاطمي اقتحام الحصن ، فآثروا الانسحاب (166) . وبقيت وارجلان معقلا للمقاومة الاباضية ضد الفاطميين .

اما جبل نفوسة ، فلم يخضع للحكم الفاطمي وذاك لمنعته الطبيعية (167) واضحى بمثابة ملاذ لثوار الاباضية في سائر بلاد المغرب (168) . وعبنا حاولت جيوش الفاطميين غزو الجبل ، فكانت في كل مرة تبوء بالفشل .

هكذا ، نجح الفاطميون في فتح تاهرت دون عناء سنة 297 هـ واستقطوا حكم بني رستم ، لكنهم لم يفلحوا في الاستيلاء على جبل نفوسة ووارجلان لمنعة الجبل وتطرف الواحة في اقاصي الصحراء . واضحى جبل نفوسة منذ ذلك الحين معقلا للحركات الاباضية المناوئة للفاطميين . كما لم يفلح الفاطميون في ارغام الاباضية في المناطق الخاضعة لحكمهم على انتخلى عن مذهبهم واعتناق المذهب الاسماعيلي . ولم تتمخض سياسة البطش والتعصب التي جرى عليها الفاطميون الا عن اندلاع ثورات الخوارج الاباضية ، تلك التي سببت لهم مزيدا من المتاعب وهددت بزوال دولتهم من بلاد المغرب في بعض الاحيان .

(165) الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(166) ابو زكريا : ورقة 37 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(167) الوسياني : سير ابي الربيع : ورقة 27 ، علي يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ ص 145 .

(168) ابو زكريا : ورقة 115 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. P. 49, 50.

ب - ثورات الاباضية على الحكم الفاطمي :

زال الحكم الرستمي من تاهرت سنة 297 هـ (909 م) ، وتبدد شمل الخوارج الاباضية لما تعرضوا له من اضطهاد مذهبي على يد الفاطميين ، والذي لا شك فيه ان الخوارج الاباضية — وهبية ونكارا — رفضوا الازعان للمذهب الشيعي (169) « واستكانوا الى حين للمسالة والرضى بالواقع ، انتظارا لسنوح الفرصة » (170) ، بينما لاذت اعداد غفيرة منهم بجزيرتي جربة وصقلية ليأمنوا غائلة الفاطميين (171) .

وكان تفتت القوى الاباضية وتشقتها ما بين جبل نفوسة وواحة وارجلان وبلاد الجريد واحواز تاهرت وجزيرتي جربة وصقلية مما سهل على الفاطميين مواجهة حركاتهم والقضاء عليها . فقد ثار الاباضية بطرابلس سنة 300 هـ (912 م) على ماتنون الاجابي عامل المهدي ، وكانت ثورة اقليلية محضة اذا اقتصررت على اباضية هواره بناحية طرابلس بزعماء شيخ يدعى محمد بن اسحق المعروف « بابن القرلين » .

ونجح المهدي في حصار طرابلس بحرا ، كما قطع المؤن عنهما ، فاستسلم الثوار بعد ان قدموا لابي القاسم بن المهدي مبلغا باهظا من المال ، وسلموا اليه ثلاثة من زعمائهم قتلوا برقادة (172) . كذلك قضى بالفشل على محاولة اخرى لجمع شمل الاباضية تحت لواء احد مشايخهم ويدعى ابو خزر تمهيدا للثورة على الفاطميين . وانتهت

(169) أبو ركريا : ورقة 115 ، الطاهر الزاوي : تريخ الفتح العربي في ليبيا ص 183 .
(170) الجربي : مؤنس الاحبة ص 59 .
(171) الوسياني : سير أبي الربيع ورقة 59 ،
(172) ابن عذارى : ج 1 ص 233 ، 234 .

Julien : Op. Cit. 339.

به الحال الى الهرب لجبل نفوسة يائسا ، وأصبح الجبل منذ ذلك الحين مقرا للمقاومة الإباضية ضد الحكم الفاطمي (173) .

وقد تمكن إباضية نفوسة من احياء الامامة الإباضية بعد سقوطها في تاهرت وبايع مشايخهم أبا يحيى زكريا الارجاني — المعروف بأبي بطة — « بامامة الدفاع » (174) وشكلوا حكومة من مشايخ المذهب ، وحاول أبو زكريا — الاغارة على طرابلس لكنه هزم وقتل كثيرون من رجاله (175). وتشجع المهدي فبعث بجيوشه لغزو نفوسة سنة 310 هـ (922 م) فلم تفز بطائل وهزمها الإباضية عند قرية الجزيرة . وعاود المهدي المحاولة في العام الثاني وتخبّرنا المصادر (177) الإباضية أن جيوش المهدي لقيت الهزيمة مرة أخرى عند قرية تيركت بجبل نفوسة ، وان كنا نعتقد أن النتيجة كانت غير ذلك لأن أبا زكريا الارجاني قتل في تلك المعركة (178) ، كما يذكر الشماخي (179) أن مشايخ الجبل دأبوا منذ ذلك الحين على دفع المغارم لولاة القيروان الفاطميين الذين كانوا يغالون في تقديرها ، ويهددون بغزو الجبل اذا ما تقاعس النفوسيون عن دفعها .

ولم يتحرر إباضية نفوسة من هذه الاتاوات « وذل المسودة » الا في مشيخة زعيمهم أبي الفضل سهل النفوسي (180) . ويبدو أن ذلك لم يتم الا بعد قيام ثورة الإباضية الكبرى بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد . تلك الثورة التي احتوت كافة العناصر الإباضية — وهبية وخلفية ونفاثية ونكارا — في سائر بقاع المغرب ، وهددت بزوال النفوذ الفاطمي منها .

لا شك أن حركة أبي يزيد تمثل من الناحية الاجتماعية حلقة من

(173) الشماخي : السير ص 320 ، Lewcki : Etudes Ibadites P. P. 49, 50

(174) أبو زكريا : ورقة 115 ، الطاهر الزاوي ص 188 ، على يحيى معمر : الإباضية ص 145 ،

Lewcki : Etudes Ibadites, P.P. 50, 98, Masqueray : Op. Cit. P. LXXV.

(175) الشماخي : السير ص 318 .

(176) نفس المصدر ص 321 ، وتقع هذه القرية غربى جبل نفوسة . انظر : نفس المصدر والمصحية ، Lewcki : Op. Cit. P. 50

(177) أبو زكريا : ورقة 117 ، على يحيى معمر ص 154 ، Lewcki : Loc. Cit.

(178) نفس المصادر والمنحاحات .

(179) السير ص 320 ، 323 ،

(180) نفس المصدر ص 275 .

حلقات الصراع التقليدي بين البتر والبرانس كما تصور جوتييه (181) ، كما أنها عبرت عن نزعة الاستقلال عند البربر من الناحية السياسية كما اعتقد بل (182) . أما الناحية الحضارية فأنها تمثل صراعا بين أهل البداوة والاستقرار (183) وهي أيضا نزاع بين قوى محلية مغربية في إطار صراع اعم بين الفاطميين والاندلسيين حسبما اعتقد برنشويج (184) . لكن المؤكد ان ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد كانت في المحل الاول رد فعل للخارجية الاباضية في مواجهة الشيعة الاسماعيلية ، فكانت حربا مذهبية شهر فيها سلاح المبادئ الخارجية للاطاحة بالعقائد الاسماعيلية الغربية على البربر . واذا كان البربر السنة قد ايدوا حركة ابي يزيد في مراحلها الاولى ، فذلك لا يعني أن ابا يزيد كان سنيا » (185) .

كان من أهم ما يميز الحركة طابعها الخارجى الاباضى (186) ، فزعيمها من « أهل الدعوة » على حد قول أحد مؤرخى الاباضية (187)، تلقى تعاليمها بالشرق « ورأس في الفتيا في مذاهب الاباضية من الخوارج » (188) وكان أول الامر اباضيا وهيبا ثم تحول الى مذهب النكار (189) الضارين بجبل الاوراس وبلاد الجريد (190) . ونعتقد أن هذا

(181) اعتقد جوتييه أن الفاطميين عجزوا عن ايجاد حل « للمسألة الزناتية » على الرغم من اعتمادهم على مواد من زناتة كمصالة بن حبوس . ذلك أن كتابة وصنهاجة — وكانتا على هامش الحياة السياسية في المغرب — سادتا الموقف في العصر الفاطمي ولعبتا دورا بارزا في أحداث المغرب في ذلك الحين ومن ثم اتجهت زناتة بولانها لاموى الاندلس اعداء الفاطميين نكاية في كتابة وصنهاجة اعدائها التقليديين . ولما كانت صنهاجة وكتامة من البرانس وزناتة من البتر ، ولما كان ابو يزيد مخلد بن كيداد زناتيا ، فقد نظر جوتييه الى ثورته من خلال الصراع بين البتر والبرانس . انظر : Les siècles obscurs. P. P. 354, 570.

وقد يؤخذ الاسراف على تصور جوتييه ، فقد انشوى كثير من قبائل البرانس في حركة ابي يزيد مثل عجيصة وأوربة وهوارة . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 145 والمقريري : اتماظ الحنفا ص 114 ، التجاني ص 326 ،

Masqueray : Op. Cit. P. 232.

(182) انظر : La Religion Musulmane. P. 150.

(183) انظر : احمد مختار العبادي : سياسة الفاطميين ص 202 .

(184) انظر : la Tunisie dans le haut moyenage P. 17.

(185) هكذا ذكر الدكتور مؤسس في مقدمته لكتا برياض النفوس للملكي : انظر : ص 23 ، 24

(186) ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد ص 16 ، Masqueray : Op. Cit. P. 232.

(187) انظر : الشماخي : السير ص 279 .

(188) اطليشي : الامكان ص 46 .

(189) ابو زكريا : ورقة 38 ، 43 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 . وجاء في هجاء أحد الشعراء لابي يزيد هذا البيت :

حل البلاء بخالد وجميع شيعته النواكر
Cherbonneau : Documents indits sur l'hérétique Abou Yezid P. 493.

(190) ابن عذارى : ج 1 ص 166 ، محمد بن تاويت ، دولة الرستميين ص 114 .

التحول تم في آخر أيام الدولة الرستمية حين ذوى شأن الإباضية الوهبية ، وعلا نجم النكار (191) ، وهم أكثر تشددا ، والتزاما بتعاليم المذهب الإباضي من الوهبية (192) . فابو يزيد اذن ليس سنيا ، ولم يكن صفريا أيضا كما زعم جوتييه (193) ، او « صفريا نكارييا كما ذهب فورنل (194) نقلا عن ابن خلدون (195) الذي ذهب الى أن « النكارية الخوارج الصفرية » . وانما كان إباضيا نكارييا جمعت حركته سائر فرق الإباضية في المغرب ، وهذا ما يعنيه قول ابن حوقل : (196)

« خرج أبو يزيد في اضراب الكفر والنفاق والإباضية والنكارية المراق » .

وجدير بالتفويه ان ابا يزيد حاول استنفار اتباع كافة المذاهب والفرق الناقمة على الشيعة الاسماعيلية والاستفادة منهم . ذكر ابن عذاري (197) انه لم يفصح بادية ذى بدء عن ميوله المذهبية لنفس الغرض « فدعى الى الحق بزعمه ؛ ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة » . حقيقة ان ابا يزيد لم يعلن في بادئ الامر عن « نكارية » الحركة ، فأذاع أنه « خرج غضبا لله » (198) « لاستخفاف الفاطميين بالشريعة والوضع من النبوة » (199) ، لكن جموع الوهبية والسنة الذين آزره لم يخف عليهم حقيقة معتقداته ، انما أيدوه لاتفاقهم معه في الرغبة في الاطاحة بالحكم الفاطمي رغم ما كان بينهم جميعا من عداوة مذهبى . فالإباضية الوهبية بايعوه على شريطة « انهم ان ظفروا بالمهدية والقيروان صاروا الامر شورى » (200) والسنة آزره نكاية في الفاطميين،

-
- (191) أبو زكريا : ورقة 48 ، 49 .
(192) ابن أبي دينار ص 52 ، المغريزي : الخطط : ج 1 ص 351 . وقد ذكر الشياخي أن النكار اعتدوا في عقائدهم على أقوال عبد الله بن زيد في الكلام ، وأبو المورج وابن عبد العزيز وحاتم بن منصور في الفقه . انظر : السير ص 280 .
(193) انظر : Les siècles obscurs. P. 257.
(194) انظر : Les Berbers Vol. 2. P. 225.
(195) انظر : العبر : ج 4 ص 40 ، الاستبصار ص 205 .
(196) المسالك والممالك ص 48 .
(197) البيان المغرب : ج 1 ص 307 .
(198) الخزرجي : ورقة 45 ، ابن الخطيب : رقم الحلل ص 34 .
(199) ابن النديم : الفهرست ص 265 .
(200) ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

اذ افنى فمهاؤهم أن قتالهم « افضل من جهاد أهل الشرك » (201) واجمعوا على الانضمام لابي يزيد لان الشيعة في نظرهم « كفر بينما الخوارج من أهل القبلة لا يزول منهم الاسلام » (202) . فانضمام الوهبة الاباضية والسنة للحركة اذن كان بمثابة ائتلاف أو تحالف ضد عدو مشترك .

ومن المحقق أن ابا يزيد تطلع الى تكوين دولة اباضية كبيرة متأثرة بتعاليم المذهب الاباضى ، ولذلك هادن كافة الاحزاب المناوئة للفاطميين واستخدمهم في الجهاد ضدهم . ولم يكن بوسعهم اظهار مراميهم الحقيقية في بداية حركته ، انما أثر التمويه واعمال الحيلة ، فلم يمانع في قبول اشتراطات الوهبة اعداءه التقليديين ، ولم يجد غصاصة في خداع السنة حين « امرهم بقراءة مذهب مالك » (203) .

والحقيقة أن ابا يزيد كان يكن عداء مرا لهؤلاء واولئك لا يقتل عن عدائه للفاطميين ، ومن المؤكد أنه اضر بهم غدرا أو على الاقل اضعاف شوكتهم بضربهم بالفاطميين . فقد أرجأ الانتقام من الوهبة الى ما بعد الانتهاء من قتال الشيعة (204) ، كما « مكر بالسنة » (205) أثناء حصار المهديّة ، وتخلّى عنهم لتحصدهم جيوش القائم الفاطمى .

كما لم يتورع عن اظهار مراميهم الحقيقية في النهاية حين استشعر من نفسه القوة بعد انتصاراته التى اجرزها على الجيوش الفاطمية (206) كل ذلك يؤكد الطابع المذهبى للحركة باعتبارها — في المحل الاول — ثورة

(201) الدباغ : ج 2 ص 185 ، القاضى عياض : ترتيب الادارك قسم «1» من جزء «2» ص 64 ، 65 وقد نظر فقهاء القيروان الى ما قام به المبيدون من تغييرات في المبادئ والطقوس على أنه من قبيل الكفر . فقد أسقط المروزي عامل المهدي على القيروان صلاة التراويح ، كما أحدث القائم تغييرات جوهرية في الشرائع والاحكام اثار غضب فقهاء السنة الذين أخذوا بالشدة والبطش .

انظر : ابن مغازى : ج 1 ص 205 — 208 ، الاستبصار ص 205 ، الدباغ : ج 2 ص 244 .

(202) سعيد بن مقديش ص 125 .

(203) ابن عذارى : ج 1 ص 308 .

(204) قيل أن اصحاب ابي يزيد من النكار طالّبوا بقتال الاباضية الوهبة اخذا بنار زعيمهم يزيد بن مندبين ، فوائتهم الراى على أن يكون ذلك بعد فراغه من قتال الشيعة .

انظر : أبو زكريا : ورقة 39 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 44 .

(205) سعيد بن مقديش : ص 127 .

(206) ابن النديم : الفهرست ص 266 .

اباضية مضادة للحكم الفاطمي ، ورد فعل خارجي (207) لسياسة الفاطميين في بلاد المغرب .

والذي يستقوى نشأة ابي يزيد يلتمس تلك الحقيقة على الرغم مما نسج حولها من القصص والاساطير ، فحتى تلك الاساطير لا تخلو من دلالة على تطلع اباضية المغرب للاطاحة بالحكم الفاطمي تحت قيادة ابي يزيد (208) .

على كل حال — اجمعت المصادر على انتهائه الى زناتة ، وان اختلفت في التفاصيل (209) . وعلى الرغم مما احاط بحياته الاولى — غموض (210) . فقد كشفت المراجع ان اياه كان من قسطنطينية ببلاد الجريد ، وانه احترف التجارة مع بلاد السودان (211) . وقد ولد ابو يزيد من ام سودانية (212) واب من زناتة . ونشأ بمدينة توزر — من اعمال قسطنطينية — معقل الاباضية النكار ، الا انه حفظ القرآن ودرس احوال المذهب الاباضي الوهبي (213) . ثم ارتحل الى سجلماسة ودرس على ابن الجمع شيخ

(207) مما يؤكد الطابع الخارجي لحركة ابي يزيد علمته التي تضمنت عبارة « لا حكم الا لله » وهك صورة الدينار ضرب في مهبه :
الوجه : ربنا الله — لا حكم الا لله — وحده لا شريك له — الحق المبين .
الدائرة : بسم الله الرحمن الرحيم — ضرب هذا الدينار بالقيروان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .
الوجه الاخر : العزة لله — محمد رسول الله — خاتم النبيين .
الدائرة الاولى منه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون .
الدائرة الثانية : محمد رسول الله — ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية : ج 1 ص 440 .

(208) انظر : ابو زكريا : ورقة 38 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 ،
Le Tourneau : Op. Cit. P. 104.
Cherbonneau : Op. Cit. P. 472.

(209) ذكر ابن حماد انه من بني جعفر من بطون زناتة ، اما ابن خلدون فقال انه من بني واركو من بطون بني يفرن ، وذكر الدرجيني نقلا عن الرقيق انه من بني واسين في حين قال ابن حوقل بانه من سباطة . انظر : اخبار ملوك بني عبيد ص 18 ، المعبر : ج 7 ص 13 ، طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 23 ، المسالك والممالك ص 48 .

(210) ابن حماد ص 17 ، Le Tourneau Op. Cit. P. 104
(211) زهرة المعاني ص 69 من ملاحق كتاب Ivanovva : Ismaili tandition

ابن حماد ص 18 ، ابن مغازي : ج 1 ص 307 ، ابن خلدون : ج 4 ص 40 .
(212) ابن حماد ص 18 . بينها ذكر ابن الاثير وابن خلدون ان امة كانت من هوارة . انظر : الكامل : ج 8 ص 138 ، المعبر : ج 7 ص 13 .

(213) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

الاباضية هناك لمدة عامين (214) انتقل بعدهما الى تاهرت (215) ، حيث افترى في الفقه الاباضى الوهبي (216) مدة ثم عاد ادراجه الى توزر ، وفي توزر اختلط بشيوخ النكار فمال الى مقالاتهم وتبحر في اصول مذهبهم (217). ولا يخالجننا شك في عودته الى تاهرت بعد ذلك حيث راقب عن كثب الاحداث التى جرت فيها اواخر العهد الرستمي ، ومن المحتمل ان يكون تد اسهم فيها بدور اضعافا للامامة الوهبية .

على كل حال — لم يطب له فيها المقام ، اذ سقطت في يد الشيعة سنة 297 هـ (909 م) ، فغادرها الى تقيوس (218) من بلاد قسطنطينية (219) .

وفي تقيوس عكف على تحفيظ الصبية (220) القرآن وتعليمهم المذهب النكارى في مكان عرف « بعين النكارة » (221) والراجح انه بدأ منذ ذلك الحين يعد العدة لجمع شمل الاباضية النكار تمهيدا للثورة على الفاطميين . ولو صح قول المقرئى (222) بأنه شرع في سنة 303 هـ (915 م) في تجميع الانصار لهذا الغرض ، لكان معناه انه قضى حول ثلاثة عشر عاما فى الاعداد للثورة ، لانه لم يجهر بدعوته الا فى عام 316 هـ (921 م) (223) . ففى ذلك العام كثر اتباعه وانصاره ، واظهر مذهب النكارى وبدأ « يحتسب على الناس في افعالهم ومذاهبهم » (224) . وانكر على الفاطميين سياستهم الدينية والمالية (225) .

كان طبيعيا ان يبعث المهدي الى عامله على تقيوس يأمره بالقبض

-
- (214) الشماخى : السير ص 279 .
(215) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(216) ابن حباد ص 20 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 478 .
(217) ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(218) نفس المصدر ص 40 .
(219) الاستبصار ص 156 .
(220) ابن حباد ص 19 ، ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(221) ابن حيان : المتنبى في اخبار بلد الاندلس ص 192 ، ابن النديم ص 265 .
(222) اتعاظ الحنفا ص 109 .
(223) ابن حباد ص 19 ، ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(224) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيحة .
(225) ابن الخطيب : رقم الحل ص 34 .

على أبي يزيد (226) . لكنه نجح في الهرب الى الشرق ، ولم يعد الى المغرب الا بعد وفاة المهدي سنة 322 هـ (934 م) .

نزل أبو يزيد بتقيوس مرة أخرى ، وشرع على الفور في الاعداد للثورة على القائم ، فبعث رسله الى جبل نفوسة مستنغرا الاباضية الوهبية لشد أزره (227) ، ثم انتقل الى توزر سنة 325 هـ (937 م) حيث ساندته اكثرية من الاباضية النكار — وأعلن الثورة من هناك (228) .

وبعث القائم الى والي تسطيلة ليواجه الخطر الاباضى ، فبعث بدوره الى عامله على توزر — ويدعى ابن فرقان — (229) بالقبض على أبي يزيد ، فاعتقله وأودعه السجن . وخاول شيوخ النكار الوساطة لدى ابن فرقان لاطلاق سراح أبي يزيد ، دون جدوى ، فأجمعوا الرأى على تحريره بالقوة (230) ، فكان لهم ما أرادوا (231) .

وعول أبو يزيد على استنفار سائر جماعات الاباضية وجمعهم في مكان آمن ، فنزل بوارجلان (232) وبعث الى الاباضية بجبال الاوراس يطلب التأييد ، فأجابوه . فغادر وارجلان الى الاوراس ، وانضم اليه بنو برزال — ومواطنهم جنوب المسيلة — وكذلك بنو زنداك من مغراوة (233) ، فضلا عن لواتة وبنو كملان (234) . واتفق شيوخ الاباضية — وهبيية ونكارا — على بيعه أبي يزيد سنة 331 هـ (944 م) « على محاربة الشيعة.

(226) الدرجيني : ج 1 ورقة 23 . وقد ذكر ابن خلدون ان القائم . وليس المهدي — هو الذى بعث الى عامله بالقبض على أبي يزيد . (انظر العبر ج 7 ص 13) ونعتقد ان المهدي كان على علم بنشاط أبي يزيد منذ البداية ، فلم يكن انشاؤه المهدي الا لخوفه من خطر ثورات الاباضية وهذا يفهم ضمنا من الروايات الاسطورية التى نسجت حول انشائها ويدهى ان يبادر بمواجهة ذلك الخطر قبل ان يدهمه ، فكان كتابه الى عامله بتقيوس للقبض على أبي يزيد ، انظر زهرة المعاني ص 69 ، ابن الاثير : ج 8 ص 30 ، Bernard : Op. Cit. P. 131 .

(227) وجه أبو يزيد الى اهل الجبل هذه الرسالة . . « قد فانتا منكم كثير ، وناتكم منا كثير ، وانه ليس لله علينا ان نشترى حجة » انظر : أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 .

(228) ابن حماد : ص 20 ، ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

(229) ابن خلدون : نفس المصدر والمصحفة .

(230) أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجيني : ج 2 ورقة 44 .

(231) تصور المصادر الاباضية ان أربعة من النكار اقتحموا السجن وقتلوا كل من تصدى لهم حتى تمكنوا من تحرير أبي يزيد ، وهى رواية تغلب عليها الطابع الاسطورى . انظر : أبو زكريا : ورقة 138 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 44 .

(232) ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

(233) نفس المصدر والمصحفة .

(234) نفس المصدر والمصحفة .

على أن يكون الامر شورى اذا ظفروا بالمهدية » (235) .

ويمكن تقسيم الصراع بين أبى يزيد والفاطميين الى ثلاثة مراحل أساسية ، بدأت المرحلة الاولى منها بحصار جيوش القائم لأبى يزيد بالاوراس سنة 331 هـ (944 م) وانتهت بحصار أبى يزيد للمهدية سنة 333 هـ (946 م) ، وفيها كانت الغلبة للشوار . اما المرحلة الثانية ، فكانت الحرب فيها سجالا ، اذ تبادل الطرفان النصر والهزيمة . بدأت هذه المرحلة باخفاق أبى يزيد فى افتتاح المهدية وانتهت بحصاره سوسة فى جمادى الآخر سنة 334 هـ (947 م) . وفى المرحلة الثالثة كان أفول نجم أبى يزيد وهزيمة جيوشه وانتهاء الامر بقتله ، وفشل ابنه الفضل فى الاخذ بثأره سنة 336 هـ (949 م) .

المرحلة الاولى :

من السمات البارزة لتلك المرحلة بزوغ نجم أبى يزيد واشتداد ساعده بانضمام جموع الإباضية كافة الى حركته فضلا عن مالكية القيروان . وبفضلهم دانت له غالبية مدن افريقية وحصونها بعد حروب حالفه النصر فيها . ولم تجد نفعا محاولات القائم استرداد نفوذه . فقيع بالمهدية متخذا موقف الدفاع . وكاد الحكم الفاطمى أن يزول نهائيا من بلاد المغرب لولا انضمام صنهاجة الى القائم ، اذ أدى انضمامها الى تحول كبير فى مسار الصراع .

فقد عول القائم بادية ذى بدء على مباغطة أبى يزيد بالاوراس سنة 331 هـ (944 م) ولما يشتد عوده بعد . الا أن أبى يزيد أفلح فى فك الحصار الذى ضربته جيوش القائم (236) حول مقره وأحرز نصرا على تلك الجيوش ذاع بعده صيته ، فأنضمت اليه كثير من القبائل منها مزاتة (237) . وعلى التو شرع أبى يزيد فى فتح مدن افريقية وحصونها الساحلية ، فاستولى على باغاية (238) — جنوبى الاوراس (239) — ومنها توجه الى قسطنطينية

(235) نلس المصدر والصحيفة .

(236) من حيل أبى يزيد فى فك الحصار . انظر : أبو زكريا ورقة 39 ، الدرجيني :

ج 1 ورقة 44 .

(237) نلس المصدرين والملحات .

(238) ابن حماد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص ١

(239) الاستيعار ص 163 .

مفتحتها (240) وانضمت اليه جموع النكار فيها ، ونجح في الحيلولة بينهم وبين مقاتلة الإباضية الوهبية (241) . ثم أمن أهلها وهدم أسوارها (242) .
 وواصل أبو يزيد فتوحاته فدانت له تبسا ومجاعة — بوسط افريقية —
 كما فتح مرماجنة — جنوبى مجاعة — وأهدى له رجل منها حمارا أصهب
 صار يركبه وبه كنى ، فقبل « صاحب الحمار » (243) . وتوجه الى الاربس
 — شمال غربى القيروان — مفتحتها وأضرع فيها النيران كما انفذ عسكرا الى
 سببية — قرب القيروان — استولى عليها بعد قتل عاملها (244) .

وأحدث سقوط الاربس هلعاً كبيراً في المهديّة (245) ، فأنفذ القائم
 جيوشاً للدفاع عن رقادة والقيروان ، كما بعث بقائديه ميسور الفتى
 وبشرى الفتى لئلا يؤذى أبو يزيد . غير أن بشرى هزم عند باجة فوقع في
 يد أبي يزيد وانصرف بشرى الى تونس فاستمال أهلها بالمال ، فبعث أبو
 يزيد عسكرا في أثره دارت الدائرة عليه . لكن أهل تونس ثاروا على بشرى
 وكتبوا أبا يزيد ، فأمّنهم وولى عليهم رجلاً منهم يدعى رحمون . ثم توجه
 أبو يزيد نحو القيروان . فسبّقه بشرى إليها وهزم طلائع الجيش الإباضى ،
 وبعث بالأسرى الى المهديّة حيث قتلوا (246) .

واستعان بشرى بكتامة للقاءة أبا يزيد والحيلولة دون وصوله الى
 القيروان — فخرجت للقاءة ، لكنها عادت مدحورة الى القيروان ، واستولى
 أبو يزيد على رقادة وعاث فيها في الوقت الذى كان فيه قائد أيوّب الزويلي
 يدق أبواب القيروان . ثم سقطت القيروان في صفر سنة 333 هـ (946 م)
 في يد أيوّب ، فقتل عاملها ، وأمن شيوخها ورفع النهب عنهم (247) . أما
 ميسور الفتى فقد هزم على يد أبا يزيد عند مكان يقال له الأخوان (248)
 عند ما حاول استنقاذ القيروان (249) . وطير أبو يزيد أنباء انتصاراته

-
- (240) المقرئى : اتعاظ الخفا ص 109 .
 (241) أبو زكريا : ورقة 39 .
 (242) ابن الأثير : ج 8 ص 138 .
 (243) ابن حباد ص 20 وذكر أبو زكريا أن أبا يزيد كان قد أحضر معه حماره المشهور
 من مصر . انظر : السيرة : ورقة 39 .
 (244) ابن الأثير : ج 8 ص 138 ، المقرئى : اتعاظ الخفا ص 110 .
 (245) المقرئى : نفس المصدر والصحيفة .
 (246) ابن حباد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 ، التجانى : رحلته ص 24 ، 25 .
 (247) ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
 (248) منزل بين القيروان والمهديّة . البكرى ص 31 .
 (249) ابن عذارى : ج 1 ص 310 ، ابن الأثير : ج 8 ص 139 ، ابن خلدون : ج 4
 ص 41 .

تلك الى عبد الرحمن الناصر في قرطبة (250) .

والواقع أن ابا يزيد بلغ قمة النصر بالاستيلاء على القيروان ، اذ انضم اهلها من المالكية اليه وكونوا جيشا قويا انضوى تحت لوائه (251) ، كما هوت مقاومة سوسة — ميناء بشمال شرقى القيروان — امام سرية من رجاله (252) ، لكن لم تدم سيادته عليها طويلا (253) ، وساد الهلع مدينة المهديّة اذ أصبحت مهددة بالسقوط ، ولم يستطع القائم مناهضة ابي يزيد ، فخذق على نفسه بالمهديّة وناشد زيرى بن مناد شيخ صنهاجة العون ، كما استنهض همة الكتامين للدفاع عن العاصمة (254) .

ورحل أبو يزيد من القيروان ميمما وجهه شطر المهديّة ، وخرجت جيوش القائم للقائه عند مكان يقال له « الوادى الملح » (255) فبدد أبو يزيد شملها (256) ولم يثأر تعقب قلولهم . بل آثر استجماع كافة قواه لاقتحام المهديّة ، فبعث فى استدعاء ابنه فضل الذى وصل مسرعا على رأس امداد هائلة من القيروان (257) . واتخذ أبو يزيد معسكره عند مكان يقال له « ثرنوط » على بعد ستة أميال من المهديّة (258) . لكن تحولا كبيرا فى الموقف افضى الى فشل محاولات ابي يزيد فى اقتحامها .

المرحلة الثانية :

كان الصراع فى هذه المرحلة سجالا ، نتيجة حدوث صدع فى معسكر

(250) تعتبر علاقة ابي يزيد الودية مع اموى الاندلس امتدادا لملاقات اباضية تاهرت مع امراء قرطبة ، وولاء زناتة لاموى الاندلس . غير أن ابن خلدون بالغ فى تقدير طبيعة هذه العلاقات ، فذهب الى أن ابا يزيد « كان يدعو للناصر صاحب الاندلس » وكان ملتزما لطامته والقيام بدعوته . والواقع أن الامر لم يتجاوز « ترحيب اموى الاندلس بثوار المغرب ضد الفاطميين » كما لم يقصد أبو يزيد سوى مناشدة الناصر العون ضد عدوهما المشترك . وجدير بالتنويه أن الرسل الذين أنلّهم أبو يزيد لهذا الغرض لاأوا ترحيبا فى قرطبة وأن لم تسفر اتصالاتهم عن نتائج ايجابية . انظر :

Variedades : Al-Hakam II y los berbers P. 316.

Fournel : Op. Cit. Vol 2. P. 338, Brunschrig : Op. Cit. P. 17.

(251) كان أحد بنودهم مكتوب عليه « نصر من الله وفتح قريب على يد ابي يزيد . اللهم انصره على ساب نبيك » انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 309 ، سعيد بن مقديش ص 126 .

(252) ابن حماد ص 20 .

(253) التجانى : رحلته ص 27 ، محمد الاندلسى : الحلال السندسية ص 115 .

(254) ابن حماد : ص 20 ، ابن الاثير : ج 8 ص 139 ، التجانى ص 324 .

(255) مكان بين المهديّة وتماجر . انظر : البكرى ص 29 .

(256) نفس المصدر والصحيحة .

(257) ابن حماد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 42 ، المقرئى : اتعاظ الحنفا ص 114 .

(258) البكرى ص 31 ، وقيل على بعد خمسة أميال من المهديّة . انظر : التجانى : ص 326 .

أبى يزيد ، وثدعيم جيوش القائم فقد دب الشقاق في صفوف الثوار ، وبارح الإباضية الوهبية والسنة المالكية ومعسكر أبى يزيد ، في الوقت الذى توافدت فيه جموع كتامة وصنهاجة للذود عن المهديّة . ولا غرو فقد أخفق الثوار في اقتحامها ، وعمدت جيوش القائم الى استرداد نفوذه في افريقية ، بينما عول أبو يزيد على محاولة إعادة تجبيح قواه والاعتماد أساسا على النكار بجبل الأوراس واتسم الصراع بينه وبين القائم بالقسوة والضراوة ، فكانت الحرب سجالا تبادل الطرفان فيها النصر والهزيمة .

فقد عسكر أبو يزيد بثرنوط كما سبق القول ، ومنها حاول مرارا غز والمهديّة دون جدوى .

ففى المرة الأولى ، وصلت جيوشه الى بابها — عند المصلئ — واضحت قاب قوسين من السقوط ، لكن انشغال عسكره بالمغانم واستبسال كتامة في الدفاع ، ووصول صنهاجة لنجدة القائم ، غير مسار القتال ، فدارت الدائرة على أبى يزيد وكاد أن يقتل في المعركة . لكنه نجا بأعجوبة ، وعادت جيوشه الى ثرنوط (259) .

وحفر أبو يزيد خندقا بثرنوط وأرسل يطلب المدد من نفوسة والزاب ، وانصأى المغرب . ولما وصلتته الأمداد ، كر الى المهديّة محاولا اقتحامها للمرة الثانية ، الا أنه عاد مدحورا أيضا . فبعث يستنجد بعامله على القيروان ، فخف الى نجدته ، وزحف أبو يزيد في آخر رجب سنة 333 هـ (946 م) على المهديّة لكنه هزم مرة أخرى . وفي آخر شوال قام بمحاولته الرابعة ، فشدد عليها الحصار ، وهدد من بداخلها بالموت جوعا . لكن القائم نجح في مواجهة المجاعة لما كان قد أذخره من حبوب ومؤن من قبل ، وأمر كتامة بمهاجمة قسنطينة — أكثر مدن افريقية حصانة ومنعة (260) — فاضطر أبو يزيد الى انفاذ جزء من جيشه للحيلولة دون استيلاء الكتاميين عليها .

ودب الشقاق في معسكر أبى يزيد ، ففارقه الإباضية الوهبية والمالكية ولم يبق معه سوى النكار من زناتة الأوراس وبنى كملان وهوارة (261) .

(259) ابن الأثير : ج 8 ص 140 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 ، المعري : انماظ الحنفا ص 114 .

(260) الاستبصار ص 165 .

(261) ابن الأثير : نفس المصدر والصحيحة ، التجاني ص 326 .

ورد بعض (262) المؤرخين ذلك الى ياسهم من اقتحام المدينة لمناعتها ، وحرمانهم من الاسلاب والمغانم التي كانوا يطمعون فيها .

ونعتقد ان ابن خلدون (263) اصدق في تفسير ذلك الانشقاق ، اذ ارجعه الى اظهار ابي يزيد حقيقة نواياه ، وغدره بالقيروانيين ، وتنكره لما اخذه على نفسه من عهود ومواثيق . فقد تنافس زعماء هذه الفرق في الظفر بالسلطة حين اضحى سقوط المهديّة وشيكا ، ومن ثم اوقع ابو يزيد بالسنة اثناء القتال مع جيوش القائم ، فأمر رجاله بالتخلي عن القيروانيين اثناء المعركة وتركهم هدفا لسيوف الشيعة « مقتل من شيوخهم أربعة آلاف ما بين عابد وعالم وصالح » (264) وأدرك الاباضية الوهبة مرأى ابي يزيد في الانتقام اذا ما دانت له المهديّة ، ففارقوه حتى « لا يتفرغ لافشاء كفره » (265) .

ولعل ذلك يفسر غضبة السنة على ابي يزيد ودعوتهم للخلافة العباسية ، وملاحقة ابي يزيد حركتهم ، وقتله زعيمها (266) ، كما يفسر ايضا طلبه الامداد من الاباضية النكار بالاوراس بعد مقاطعة سائر الفرق الاباضية الاخرى حركته (267) . وحين وصلت هذه الامدادات ضرب الحصار من جديد على المهديّة ، وكادت تسقط هذه المرة بعد ان غادرها كثيرون من اهله لانذين بصقلية وطرابلس ومصر ، لولا استبسال فرسان كتابة فسى الذود عنها (268) والحاquem الهزيمة بأبي يزيد الذي هرب الى القيروان تاركا معسكره غنيمة لجيوش القائم (269) .

لذلك ثارت معظم مدن افريقية على ابي يزيد ودخلت في طاعة القائم (270) . وحاول ابو يزيد استرداد نفوذه المفقود ، فاسترد تونس في صفر سنة 334 هـ (947 م) ، ثم فقدتها مرة أخرى بعد هزيمته عند اصطفورة — على مقربة من تونس — واستعادها أيوب بن ابي يزيد من

(262) نلس المصدين والصفحات .

(263) العبر : ج 4 ص 42 .

(264) سعيد بن مقديش ص 127 .

(265) الاستبصار ص 206 .

(266) ابن خلدون : ج 4 ص 42 .

(267) ابن حماد ص 23 .

(268) نلس المصدر والمصحفة ، القريري : اتعاظ الخنا ص 116 .

(269) ابن خلدون : ج 4 ص 42 .

(270) نلس المصدر والمصحفة .

جديد كما استرد باجة وأضرَم فيها النيران (271) .

وطلب القائم العون من عامله على المسيلة — من بلاد الزاب (272) — على بن حمدون (273) لاستنقاذ باجة ، لكن أيوب بن أبى يزيد بدد شمل جيشه . وفي تلك الاثناء نجح القائم فى دخول تونس واقصاء أبى يزيد عنها ، ففر الى القيروان . فى حين نجح على بن حمدون فى بسط نفوذ القائم على مدينتى تيجس (274) وباغاية (275) .

وكان لا بد لأبى يزيد ليسترد هيئته أن يحرز نصرا كبيرا يعوضه عن هزائمه السابقة ، فأعد جيشا ضخما مزودا بآلات الحصار والمنجنقات ، فضلا عن ثمانين ألف فارس واتجه نحو سوسة فى جمادى الآخرة سنة 334 هـ (947 م) وضرب عليها الحصار (276) ، دون جدوى .

المرحلة الثالثة :

دارت الحرب سجالا حول سوسة وفى تلك الاثناء توفى القائم فى رمضان من نفس العام (277) . وتولى بعده ابنه اسماعيل الملقب بالمنصور ، وكتب المنصور خبر وفاة والده ، ولم يغير شيئا من رسوم الخلافة كالسكة والخطبة والبنود (278) حتى لا يفت ذلك فى عضد اتباعه .

وبادر المنصور بانفاذ جيشه واسطوله الى سوسة لفك الحصار عنها . وبالفعل تمكن رجاله من هزيمة أبى يزيد واستباحة معسكره ، كما

(271) ابن الاثير : ج 8 ص 141 ، المتريزى : انماظ الحنا ص 116 .

(272) الاستبصار ص 171 .

(273) ابن حيان : المتببس فى اخبار بلد الاندلس ص 35 .

(274) مدينة تقع بين مجانة وقسنطينة . انظر البكرى ص 63 .

(275) ابن خلدون : ج 4 ص 42 ، المتريزى ص 118 .

(276) البكرى ص 35 ، ابن حباد ص 23 .

(277) تخطىء بعض الروايات حين تجعل وفاة القائم اثناء حصار المهدية وليس حصار سوسة . انظر : أبو زكريا : ورقة 40 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 45 .

(278) ابن خلدون : ج 4 ص 43 ويؤكد قول ابن خلدون أن العملة التى ضربها المنصور سنة 336 هـ هى أول عملة ضربها ، اذ ضربت بعد ظفره بأبى يزيد فى نفس العام . وهاك صورة لها :

الوجه الاول : الامام — لا اله الا الله — المنصور بالله .

دائرية : بسم الله ضرب هذا الدينر بالمهدية شهر ذى القعدة من سنة ست وثلاثين

وثلاثمائة ، الوجه الآخر ، اسماعيل — محمد رسول الله — أمير المؤمنين . انظر :

Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British museum. Vol 4 P. 8.

أبلى أهل سوسة في المعركة بلاء حسنا (279) .

ونزل أبو يزيد القيروان ، فثار أهلها عليه وطرده منها ، فلجأ إلى سببية (280) . وقدم المنصور إلى القيروان وأجرى على أهلها الأرزاق والعطايا (281) ونشب قتال بين أبي يزيد والمنصور في أرباضها دارت اندائرة فيه على أبي يزيد في أواخر ذي القعدة سنة 334 هـ (947 م) . غير أن أبا يزيد تمكن من إلحاق عدة هزائم بجيوش المنصور ، وبعث بسراياه لقطع الاتصال بين المهدية والقيروان وسوسة ، فوعده المنصور بأن يسلم إليه آله وحرمة بالقيروان على أن يرسل عنها ، فأجابته إلى ذلك ، لكنه أخلف وعده ، فقاتله المنصور وهزمه في خامس المحرم من عام 335 هـ (948 م) (282) .

وعتد المنصور العزم على استئصال شأفة الثوار ، فعبأ جيوشه والتحم معهم في معركة حاسمة في نهاية المحرم من نفس العام أجهز فيها على خيرة رجال أبي يزيد (283) ، وانتهب معسكره . وفر أبو يزيد تاركا أثقاله وأسلحته لا يلوى على شيء إلى باغاية . وتعبه المنصور ، فاعتصم ببني برزال من النكار (284) ومرض المنصور فاستقر بالمسيلة ، وقدم عليه زييري بن مناد فأغدق عليه (285) ، كما وأناه محمد بن خزر الذي كان مواليا لأبي يزيد ، فأكرم وفادته ، وعهد اليهما باقتفاء أثر أبي يزيد (286) . وبانضمام صنهاجة وعجيسة إلى المنصور قضى نهائيا على حركة أبي يزيد بالفشل (287) . فعول أبو يزيد على الهرب إلى بلاد السودان لكن أتباعه

(279) تفنى الشعراء بشجاعة أهل سوسة فقال أحدهم :
من طعمان السبر والاتدام
وجلال أسياك تطاير بينهما
في النقع دون الحصنات رجال
وقال آخر :
مدينة سوسة بالفرب ثغر
أناها الخارجون ليلكوها
انظر : التجاني ص 28 .

(280) ابن خلدون : ج 4 ص 43 .
(281) ابن حباد ص 26 .
(282) نفس المصدر ص 27 ، ابن خلدون : ج 4 ص 43 ، المقرئ : اتعاط الحنفا ص 121 .
(283) ابن حباد ص 27 .
(284) ابن خلدون : ج 4 ص 43 .
(285) ابن حباد ص 27 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 485 .
(286) الخزرجي : ورقة 45 .
(287) ابن حباد : ص 28 ، أحمد مختار المبادئ : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ص 202 .

منعوه من ذلك . فتحصن بجبل كيانة (288) .

وحاصر المنصور وزيرى بن مناد الجبل وضيقا الخناق على النكار ، فتخلت هواره عن أبى يزيد وانضمت الى المحاصرين ، وقتل كثيرون من النكار واسر بعضهم . وآوى أبو يزيد الى قلعة (289) برأس الجبل عليها تعصبه من الوقوع فى يد عدوه ، لكن المنصور اضرم النيران فى الشعراء المحيطة بها وحاول أبو يزيد الهرب ، فوقع مثنى بالجراح فى قبضة المنصور وظل بأسره حتى مات فى الحرم سنة 336 هـ (949 م) متأثرا بجراحه ، ومثل المنصور بجثته وشهر بها (290) . وأظهر اغتباطه بموت أبى يزيد فكتب الى سائر عماله بالمغرب بأنباء انتصاره . وأبهرى الشعراء فى امتداحه مهنئين بالقضاء على الثورة (291) .

وحاول فضل بن أبى يزيد استنغار فلول الإباضية ، وهبية ونكارا ، لناهضة المنصور . ونجح بالفعل فى جمع أخلاط شتى جعل على رأسهم معبد بن خزر الزناتى . وبادر المنصور بانفاذ جيش قاده مواليه شفيص وقيصر ، وجعل معهما زيرى بن مناد ، فبددوا شمل الحشود الإباضية (292) ، وهرب الفضل لائذا بمزاةة . ويبدو أن الإباضية الوهبية خذلوه فى حروبه ، والبوا عليه مزاةة أيضا ، فقاتلوه هو وأصحابه من النكار ، وقدموا رأسه قربانا للمنصور توددا اليه ، فأمنهم ، « وانطفا ذكر الفضل والنكار » (293) . وأغدق المنصور على زعماء مزاةة بالهدايا اعترافا بفضلهم (294) .

(288) ابن حماد ص 28 ، التجانى ص 327 .

(289) مرقت هذه القطعة « بقلعة الشاكر » من مبل لهيصة . انظر : ابن الخطيب : اعمال الاسلام : ج 3 ص 154 .

(290) ابن حماد ص 30 ، ابن الطيب : ج 3 ص 45 ، ابن خلدون : ج 4 ص 44 ، القرطبي : اتماظ الحنفا ص 125 ، التجانى ص 328 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 46 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 439.

(291) قال أحد الشعراء بهذه المناسبة :

حل الهلاء بمخلد
وجميع شيعه النواكر
وقال آخر :

أما التفلق فقد نسخ
وابو الكباير قد سلخ
انظر : ابن حماد
Cherbonneau : Op. Cit. P. P. 493, 498.

(292) ابن الاثير : ج 8 ص 145 .

ابن خلدون : ج 4 ص 44 .

(293) أبو زكريا : ورقة 41 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 46 .

(294) ابن حماد : ص 32 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 499.

وحاول أيوب بن أبي يزيد — الذي كان موفدا في سفارة من قبل والده الى الاندلس — رفع لواء الثورة على المنصور ، لكنه اغتيل على يد رؤساء مغراوة أيضا ، وتقربوا برأسه الى المنصور (295) .

هكذا — اخفقت ثورة الإباضية الكبرى ، ولو قدر لها النجاح لاضحى زعيمها من مشاهير التاريخ (296) .

لقد وصل أبو يزيد الى أعتاب النجاح (297) ، لكن عوامل شتى حالت دون تحقيقه . فاستبسال صنهاجة وكتامة في الذود عن الكيان الفاطمي كان عاملا جوهريا وراء فشل الثوار في الاستيلاء على المهديّة آخر معاقل الفاطميين (298) .

ومن المحقق أن أبا يزيد أسهم بسياسته التي أثارت الشقاق بين أنصاره في هذا الفشل ، حقيقة أنه نجح بدهائه في احتواء كافة العناصر الناقمة على الفاطميين وكسبهم الى جانبه ، لكنه لم يستطع الحفاظ على ولائهم لحركته بسبب تنافس هذه العناصر وأطماعهم في الاستئثار بالسلطة بعد هزيمة الفاطميين . فاعمل أبو يزيد الحيلة للتخلص من هذه القوى واحدة تلو الأخرى ليصفو له الجو ، فكانت النتيجة أن فارقتهم جميعا ، وتخلت عنه في وقت عصيب كان النصر فيه وشيكا .

ويتحامل المؤرخون جميعا إباضية وسنة وشيعية على الرجل ، ويعزون فشله الى فساد سيرته ، وسوء سياسته ، ومروته وزندقتيه . فالورجلاني (299) يعزو اليه « خراب افريقية » ويتهمه بأنه « صنع فيها الاتاويل ، واحتال على أهلها الإباطيل » . وأبو زكريا (300) يصفه بفساد الخلق ، فكان يببب كل ليلة على أربعة أ بكر حسب زعمه . والدرجيني (301) يشبه وحشيته في حروبه « بما فعله نافع بن الأزرق » « والفراعنة وملوك أهل انكفر » ومؤرخو السنة (302) فسجوا من القصص حول هذه المعاني بما لا يقل عن مؤرخي الإباضية « لأن مذهبه يستحل أهل السنة ونسبهم » (303)

-
- (295) ابن خلدون : ج 7 ص 17 .
(296) Fournel Op. Cit. Vol. 2. P. 275.
(297) ابن الخطيب : رقم الحل ص 34 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 79 .
(298) ابن حماد : ص 23 ،
Gautier : Op. Cit. P. 361.
(299) الدليل لاهل المغول : ج 2 ص 78 .
(300) السيرة : ورقة 40 .
(301) طبقات الإباضية : ج 1 ورقة 45 .
(302) انظر : ابن الأثير : ج 8 ص 141 ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام : ج 3 ص 54 ،
محمد بن محمد الاندلسي : الحل السندسية ص 115 .
(303) ابن الأثير : ج 8 ص 141 .

وبديهي أن يردد مؤرخو الشيعة نفس العبارات ، فهو في نظرهم سفاك
« كان يعمل اكواما من رؤوس المسلمين ويامر المؤمنين بالاذان عليها » (304)
كما كان « يستبيح نساء المسلمين » (305) أيضا

ولا يخامرنا شك في تجنى تلك المصادر جميعا على أبي يزيد ، محروب
الاباضية في المغرب — عموما — انطوت على مثالية مفرطة في معاملة
الخصوم . ونجد مصداقا لذلك في حروب أبي يزيد مما أورده أولئك المؤرخون
أنفسهم . نحسبه وفاؤه بالعهود التي كان يقطعها على نفسه ببذل الأمان
لسكان المدن المفتوحة . ولم يلجأ إلى أساليب القمع والبطش إلا حين تهرمت
عليه هذه المدن وانضمت لخصومه . والدارس لشخصية أبي يزيد ونشأته
وتربيته يلمس مقدار علمه وتفقهه وما انطوت عليه أخلاقه من شمائل
حميدة . وحسبنا زهده وتعففه وارتدائه الثياب الخشنة وركوبه الحمار
بدلا من الخيول المطهمة (306) ونعلم خروجه بدعوة الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر والاحتساب ، فضلا عن تقواه وورعه حتى كان من أهل الفتيا ،
ولا غرو فقد عرف « بشيخ المؤمنين » (307) ما اصدق لو تورئو (308)
حين قال عنه « كان رجلا مدهشا صاحب دعوة كرس لها حياته ، واستطاع
في سن الشيخوخة أن يصبح زعيما سياسيا نابها ، وقائدا عسكريا حاذقا
وحاكما فذا ، لقد كان أبو يزيد مثالا للرجل العظيم » .

وعلى الرغم من فشل ثورة الاباضية الكبرى سنة 336 هـ (949 م) ،
هتقد خلفت آثارا بعيدة الغور في تاريخ المغرب السياسي . فبالقدر الذي هزت
فيه النفوذ الفاطمي وهددت بزواله ، كان خروج الفاطميين من الصراع
ظافرين عاملا هاما في دعم نفوذهم في بلاد المغرب .

ومن ناحية أخرى نبهت ثورة أبي يزيد خلفاء الفاطميين إلى ضرورة
تغيير سياستهم في حكم بلاد المغرب تغييرا تاما (309) ، فشعروا بخطورة
النتائج المترتبة على انتهاج سياسة التعصب المذهبي ، ومن ثم ، جنحوا بعد

(304) ابن النديم : الفهرست ص 266 ، ابن حوقل ص 48 ، المبريزي : الخطط :

ج 1 ص 351 .

(305) ابن حباد ص 20 .

(306) ابن حباد : ص 20 .

(307) النويري : ج 26 ورقة 36 .

La revolte d'Abou-Yazid au Xme siecle. P. 123.

(308)

De goeje. Op ; Cit. 143.

(309)

الثورة الى تطبيق « عقيدة التقية » الشيعية (310) . فيخبرنا القاضي عبد الجبار (311) أن « اسماعيل المنصور الخليفة الفاطمي الثالث قد تظاهر بعد هزيمة أبي يزيد بالعودة الى الاسلام ، فقتل الدعاة ، ونفى بعضهم الى الاندلس والى بلاد أخرى . وقال للعامة ، من سمع منكم أحدا يسب النبي فليقتله ، وأنا من ورائه ، وقرب اليه الفقهاء والمحدثين ، واستمع اليهم . . كما خفف الضرائب وأظهر ولعا بالعفة » .

وفيما يتعلق بمصير الإباضية في المغرب بعد فشل ثورتهم الكبرى ، فالثابت أن ثورة أبي يزيد تعد آخر الحركات الكبرى لإباضية المغرب ، وبأخفائها لم تقم لهم قائمة ذات شأن بعد ذلك . فبالإباضية الوهبية بجبل نفوسة حاولوا في عهد بنى زيري معاودة الثورة ، وبايعوا أحد مشايخهم ويدعى أبو نوح سعيد بن زنفيل بإمامة الدفاع ، واتصلوا باخوانهم بوارجلان وأفريقية ، وحاولوا الاستعانة بالخلافة الأموية في الاندلس ، دون جدوى . فقد أدرك أبو نوح « أن البلاد قد تغيرت والمرور قد تمكث » واضطر الى طلب الامان من المنصور بن بلكين ، فأمنه وأكرم وفادته (312) . واعتصمت غلولهم بجبل نفوسة وواحة وارجلان وبعض نواحي بلاد الجريد (313) . وعلى اثر غزو المرابطين وارجلان هربوا في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الى وادي الميزاب ، كما تفرقوا الى بعض جهات مراكش وجبل دمر — شمال غربي جبل نفوسة — وظل قليل منهم بوارجلان (314) . أما النفاثية من زواغة ، فاستوطنوا جزيرة جربة — المواجهة لقابس — كما سكن بقايا الخلفية جبل نفوسة (315) . ولم يكن هناك ثمة رابطة بين هذه الجماعات ، فعاشت في شبه عزلة ، ولم تقم بعد ذلك بأدنى دور في تاريخ المغرب السياسي .

أما النكار ، فعلى الرغم من خفوت صوتهم في الحياة السياسية في

(310) برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ص 183 .

(311) كتاب تثبيت نبوة سيدنا محمد — مخطوط باسطنبول في مكتبة شهيد علي باشا برقم 1575 . وقد اقتبسنا النص السابق نفلا عن برنارد لويس في كتابه : اصول الاسماعيلية ص 183 .

(312) انظر : أبو زكريا : ورقة 49 وما بعدها .

(313) أبو زكريا : ورقة 115 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 43 ، السلاوي : ج 1 ورقة 116 ،

Bel : Op. Cit. P. 150, Farouhy : Op. Cit. P. 15, Basset : Recherches P. 336.

(314) الطنيس : بعض تواريخ وادي ميزاب ص 116 ، Masqueray : Op. Cit. P. LXXV ،

(315) أبو زكريا : ورقة 32 ، Lewcki : Melanges ... P. 270, Basset : Op. cit. P. 336.

بلاد المغرب لم « تنقطع آثار دعوتهم » — كما ذهب ابن خلدون (316) ، فقد ظل بنو برزال يدينون بمذهب النكار ويثيرون العرائيل في وجه بن زيري لصالح أموى الاندلس (317) . وتمركزت فلولهم بين طرابلس وتابس ، كما أقامت جماعات منهم بجبال بجاية وقسنطينة وبا ولاها ، فضلا عن بلاد الجريد ، وقد وصفهم التجاني (318) — في القرن الثامن — بسوء الخلق وحدة الطباع .

أما الخوارج الصفرية ، فقد ذوى شأنهم نهائيا من بلاد المغرب في أواخر القرن الرابع الهجرى (319) .

وهكذا — لم يرضخ الخوارج للحكم الفاطمى بسقوط دولتيهما فسى سجلها سنة وتاهرت سنة 297 هـ (909 م) وظلت ثوراتهم تقض مضاجع الفاطميين ابتداء من المهدي وانتهاء بالمعز ، وكادت احدى هذه الثورات ان تعصف بحكمهم نهائيا من بلاد المغرب . لكن فشل هذه الثورات انضى في النهاية الى انتهاء دور الخوارج السياسى في بلاد المغرب الاسلامى ، ذلك الدور الذى وجه احداث المغرب على مدار قرنين ونصف قرن من الزمان .

(316) المبر : ج 7 ص 17 .

(317) ابن حيان : المتعبس في ذكر بلد الاندلس ص 192 ،

Variedades : Op. Cit. P. P. 216, 217.

(318) رحلة التجاني ص 119 ، 120 .

Bel : Op. Cit. P. 169.

(319) ابن خلدون : ج 6 ص 1322 ،

انتهينا من ابراز دور الخوارج في
الحياة السياسية في بلاد المغرب .
لكن اثرهم كان عميقا في المجتمع
المغربى بجوانبه المتعددة في نواحي
الفكر السياسى ونظم الحكم فضلا
عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية
والثقافية .

وليس من شك في ان الخوارج
بفكرهم الثورى الديمقراطى احدثوا
نقطة هائلة في تاريخ المغرب نتج عنها
تطور واضح في نظمه السياسة ،
وازدهار في الحياة الاقتصادية فضلا
عن تغيير ملحوظ في جوانبه
الاجتماعية ، وهو ما سنفصله فيما
يلى :

الباب الخامس

أثر الحوار في المجتمع المغربي

أولا :

الفكر السياسي وتظم الحكم

لا شك أن نظرية الخوارج في الحكم أكثر نظريات الفرق الإسلامية ميلا إلى الديمقراطية . فعلى خلاف السنة الذين تصروا أحقية الإمامة على قریش ، والشيعية الذين جعلوها في علي بن أبي طالب وأعتابه (1) ، أقر الخوارج مبدأ جواز إمامة أي مسلم عالم بالكتاب والسنة (2) ونادوا بالغايتها إذا ما تحققت العدالة والمساواة (3) . ومن هنا نظر المحدثون (4) إلى فكر الخوارج السياسي باعتباره فكرا جمهوريا بالمفهوم الحديث .

ونعتقد أن تصارع الأحزاب الإسلامية حول الزعامة السياسية وما نتج عنه من فتن ومحن أملت بالمسلمين ، زهد جماعة القراء الذين (5) أصبحوا فيما بعد زعماء الخوارج في منصب الإمامة على أساس أنها سبب البلاء والنكبات التي حلت بالجماعة الإسلامية على أثر مقتل عثمان . والواقع أن سباحة نظرية الخوارج في الحكم مستمدة من شدة تدينهم وحرصهم على مراعاة تعاليم الإسلام وما تدعو إليه من مساواة وعدالة . فقد ظهروا

(1) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة 87 - مخطوط ، أساس التاويل ورقة 188 ، 189 ، 194 .

(2) النوبختي : فرق الشيعة : ص 31 ، الاسفرائيني : التبصير في الدين ص 46 .

(3) الشهرستاني : الملل والنحل : ص 67 .

(4) انظر : Biquet : Op. Cit. P. 35, Smith : Op. Cit. P. 279.

Faroughy : Op. Cit. P. 12.

(5) ابن تينبة الإمامة والسياسة : ج 2 ص 206 ، الدينوري : الأخبار الطوال ، ص 191.

كفرقة سياسية دينية أثناء قضية التحكيم بين على ومعاوية ، فانكروا تحكيم الرجال ونادوا بأن « لا حكم الا لله » (6) ، ورفضوا امامة على ومعاوية ، وانكروا احتكار قریش لها ودعوا الى الثورة على مخالفيهم باعتبارهم كفر مارقين (7) . وينفى هذا دعاوى البعض (8) بأن فكر الخوارج السياسى محصلة ظروف قبلية كامنة فى كونهم من بدو تميم الذين يتقدسون الحياة البدوية ويرفضون الخضوع لسلطان الدولة السياسى. فلم يكن الخوارج جميعا من تميم ، انما انتشر مذهبهم بين قبائل بكر وهمدان والازد وغيرها من القبائل العربية الاخرى (9) .

ففكر الخوارج السياسى اذن مصدره الدين وليس العصبية وهو ما عبر عنه ابن خلدون (10) بقوله « . . الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم امرهم لمزاحمتهم العصبية القوية » انما تولد عن « خلاف اجتهدى فى مسائل دينية ظنية » (11) متعلقة بالامامة ، ذلك هو ما اجمع عليه جمهوره من الدارسين الثقات (12).

وكان الطابع الدينى سمة مميزة لنشاط الخوارج ونظمهم السياسية فى المشرق ، فقد التزموا بتعاليم المذهب فى اختيار الائمة ، وجباية الاموال والجهاد ومعاملة الخصوم . . الخ . كما كان التطرف الشديد من خصائص فكرهم السياسى ومن اسباب فشلهم ايضا حتى قيل بأن « سياستهم غير سياسية » (13) ، وليس ادل على ذلك من قولهم بالاستعراض ورفض الثقة وتشددهم فى قبول المهاجرة (14) . الخ .

الا ان الطابع الدينى وسمة التطرف فى فكر الخوارج السياسى خفت

-
- (6) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ، ص 46 .
(7) ابن الاثير : ج 3 ص 135 ، احمد امين : فصحى الاسلام ج 3 ص 330 .
(8) راجع آراء بارتولد وكايتانى وماسينيون فى هذا الصدد بجملة عدد 1 سنة 1953 فى مقال لبرنارد لويس بعنوان :
Some observations on the
Significance of hersey in the history of Islam P.P. 47, 48.
عمر ابر النمر : الخوارج فى الاسلام ص 18 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية . ج 2 ص 78 .
(9) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص 364 ، الدينورى : الاخبار الطوال . ص 197 .
(10) انظر : المقدمة - ج 2 ص 69 .
(11) انظر المقدمة ، ج 2 ص 178 ، 179 .
(12) راجع : لويس : اصول الاسماعيلية " ص 5 ، طهوزن : الخوارج والشيعة : ص 29 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 140 .
(13) طهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 372 .
(14) قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 .

حدثهما في أواخر القرن الأول الهجري ، فأتخذت مبادئهم طابعا عمليا وجنحت نحو الاعتدال . وظهر ذلك بشكل واضح في عقائد الإباضية والصفيرية متمثلا في تجويز التقية (15) والتوسع في قبول المهاجرة عن طريق الدعوة والتنظيم السياسي (16) ، ثم معاشية الجماعة الإسلامية بترك فكرة تكفير المخالفين في المذهب (17) .

ووجد فكر الخوارج السياسي في شكله المتطور طريقه الى بلاد المغرب بانتشار مذهبي الإباضية والصفيرية بين البربر في أوائل القرن الثاني الهجري . والتزم خوارج المغرب بتطبيق تعاليم المذهب حتي السبعينات من القرن الثاني الهجري فيما قاموا به من نشاط سياسي وما اقروه من نظم في الحكم والادارة . فقد كانت تعاليم الخوارج تحض على « الثورة على ائمة الجور » (18) ، وتدعو انصار المذهب الى العمل لاقامة « امامة الظهور » (19) ، اذا ما توافر ما يوجب التولية من العدة والعهد من الرجال (20) ، لذلك شرع خوارج المغرب في « المجاهرة بالعمل » (21) واعلنوا الثورة على ولاية المغرب طوال نصف قرن من الزمان .

وتجلى التزام خوارج المغرب بفكرهم السياسي في عدة مظاهر ، فقد اختار الصفيرية ميسرة اماما لا لانه رئيس مطهرة وانما لعلبه وفقته وسابقتها (22) . ولم يقم ميسرة بثورته الا بعد وقوفه على مسؤولية الخلافة عن مفاسد عمالها في المغرب (23) وتيقنه من ان خلفاء بني أمية « ائمة الجور » . وضمت الحركة عناصر مستضعفة من غير البربر كالافارقة (24) تطبيقا لمبدأ اللانصرية . وخلع الصفيرية ميسرة لما اخل بشروط الامامة « وتغير عما كانوا بايعوه عليه » (25) .

ولعل من أهم آثار فكر الخوارج السياسي في المجتمع المغربي تطبيق

-
- (15) الرازي : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 .
(16) أبو زكريا : ورقة 6 ، الشباخي : السير ص 124 .
(17) الشهرستاني : صفحة 123 .
(18) البغدادي : صفحة 273 ، Provencal : Op. Cit. P. 41.
(19) نصوص من كتاب متن عقيدة التوحيد . انظر : Motylinski : l'Aqida des Ibadites. P. 510.
(20) أبو زكريا : ورقة 5 .
(21) مجهول : كشف الغمة ورقة 307 مخطوط .
(22) ابن خلدون : ج 6 ص 150 ، السلاوي : ج 1 ص 97 .
(23) الطبري : ج 2 صفحة 264 .
(24) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
(25) الرقيق : ص 110 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي . ص 259 .

مبدأ وجود امامين في وقت واحد ، فقد تولى الحارث بن تليد وعبد الجبار ابن قيس المرادي امامة الاباضية في طرابلس سنة 132 هـ (750 م) أحدهما للصلاة والآخر للحرب (26) على غرار المحكمة الاولى حين اقتسم المنصيين عبد الله بن وهب الراسبي وحرثوص بن زهير . وفي احتكام امامي الاباضية الى السيف حين دب الخلاف بينهما حتى قتل كل منهما الآخر — لو صحت رواية البرادي (27) — ما يذكر بخلافات زعماء الخوارج في المشرق لاسباب فقهية . وفي انقسام جماعة المذهب بالمغرب واقتتالهم بسبب ما نسج حول الحادث من قضايا فلسفية وفقهية (28) ما يؤكد أثر الفكر السياسي للخوارج في نشاطهم ببلاد المغرب . ومن مظاهر ذلك أيضا اجماع الاباضية على امامة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح سنة 140 هـ (757 م) على الرغم من كونه عربيا (29) وثوراتهم كانت ضد الحكم العربي ، وقد حرص ابو الخطاب على مراعاة اصول المذهب فيما استنته من نظم ادارية ومالية ، واسترشد في ذلك بمشورة ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة شيخ فقهاء المذهب بالبصرة (30) .

ونعتقد ان فكر الخوارج السياسي قد تأثر بنظرية الشيعة عن الامامة الظاهرة والامامة المستترة ، فقد فرق فقهاء المذهب (31) الاباضي بين امامة الدفاع وامامة الظهور . اذ حينما يتعرض الخوارج لمحن سياسية ، يختارون اماما في الخفاء تكون مهمته جمع شمل الانصار وتسيير امورهم والفصل في قضاياهم واعداد العدة للظهور اذا ما واتت الظروف وانقشعت المحنة . هذا هو ما حدث بعد مقتل ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح سنة 142 هـ (759 م) وتعرض الخوارج لبطش الجند العباسي فاختروا ابا حاتم المزوزي اماما للدفاع في الوقت الذي كان فيه عبد الرحمن بن رستم يعد العدة لامامة الظهور (32) . وتكرر الامر بعد سقوط دولة بني رستم وتكامل الفاطميين بالخوارج فاجتمع الاباضية في نفوسة على ابي يحيى الارجاني وبايعوه بامامة الدفاع على امل ان يلتئم شمل انصار المذهب

-
- (26) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .
 (27) انظر : الجواهر المنقاة : ورقة 87 ،
 (28) انظر : الشماخي : السير ، ص 125 .
 (29) نفس المصدر والصحيفة .
 (30) انظر ملحق رقم : (1)
 (31) انظر : نصوص من متن عقيدة التوحيد —
 Motylinski : L'Aqida des Ibadites. P. 510
 (32) ابو زكريا : ورقة 11 .

في بلاد المغرب فيقيموا امامة الظهور (33) .

وظهر اثر فكر الخوارج السياسى فيما قام به الصفرية والاباضية من ثورات وما خاضوه من حروب التزموا فيها جميعا بتعاليم المذهب . فالخوارج الصفرية في المغرب كانوا يقتدون بأهل النهروان « في التحكيم ورفع المصاحف وحلق الرعوس » (34) في حروبهم . ونظر التطرف مبادئهم في معاملة الخصوم (35) ، اتسمت حروبهم بالعنف والقسوة (36) فكانوا « يقتلون الاطفال والولدان » (37) ويستحلون سبى النساء والذراى (38) . اما الاباضية فكانوا اقرب الى الاعتدال سواء في خوض الحروب او معاملة الخصوم ، فكانوا لا يشهرون الحرب على أعدائهم الا بعد اعلامهم واخذ الحجة عليهم ، ولم يتبعوا المدبر او يجهزوا على الجرحى ، كما لم يخربوا الزروع ولم يهدموا سوى الحصون والاسوار وتعففوا عن الغنائم من غير السلاح والعتاد ، ولم يقتلوا الاطفال أو يسبوا النساء ، تمسكا بتعاليم المذهب (39) . يظهر ذلك في حروب الحارث وعبد الجبار في طرابلس (40) ، ومعاملة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السبح للقيروانيين (41) ، ومعاودة أبى حاتم المزوزى مع جميل بن صخر (42) .

وظل التزام خوارج المغرب بعقائد المذهب في سياساتهم ونظمهم خلال السنوات الاولى من حكم ائمة بنى مدرار بسجلماسة وببى رستم بتاهرت ، اذ طفت تعاليم المذهب على دوافع العصبية والعنصرية .

فالخوارج الصفرية بايعوا عيسى بن يزيد الاسود من موالى العرب بالامامة سنة 140 هـ (43) (757 م) انطلاقا من مبدأ جواز تولية غير العرب من المسلمين . وفي انشاء سجلماسة ما ينم على بروز العامل الدينى المذهبى ، اذ شيدت لتكون مجمعا للخوارج الصفرية « (44) من سائر

(33) نفس المصدر : ورقة 115 . Lewcki : Etudes Ibadites. P.P. 50, 98.

(34) مجهول : اخبار مجموعة . صفحة 32 .

(35) الشهرستاني : صفحة 121 .

(36) Gautier : Op. Cit. P. 269.

(37) اخبار مجموعة : صفحة 29 .

(38) الرقيق : صفحة 117 ، 141 .

(39) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ، الشهرستاني : ص 121 .

(40) انظر : ابن عبد الحكم : ص 301 .

(41) ابو زكريا : ورقة 8 ، الشباخى : السير : ص 129 .

(42) ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

(43) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .

(44) المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 .

العناصر وكافة العصبية المغربية . ونفس الشيء يقال عن الإباضية ، فقد بايعوا عبد الرحمن بن رستم بالامامة — وهو من الفرس — لفضله وعلمه وسابقتها وكفاءته وسلامة حواسه وأعضائه (45) . لقد بويغ ابن رستم اماما للدفاع سنة 144 هـ (761 م) — على اثر مقتل أبى الخطاب — في المغرب الاوسط في نفس الوقت الذي كان فيه أبو حاتم المزوزي اماما للدفاع أيضا في طرابلس وجبل نفوسة (46) . اذ ان الفقه الإباضى يجوز بيعة امامين في وقت واحد « ما وجد بين حوزتيهما عدو يخشى بأسه ، او لشقة البعد بينهما » (47) . ولم يحل ذلك دون تعاونهما لاقامة امامة الظهور التى تقلدها ابن رستم سنة 162 هـ (179 م) ، فقد كان أبو حاتم يبعث الى عبد الرحمن بركة أمواله (48) . وبيعة ابن رستم الثانية تمت بموافقة «أهل الحل والعقد » من مشايخ المذهب واجماع جمهور الإباضية (49) ، ووفقا لشروط الامامة في الفقه الاسلامى (50) .

وكما أسست سجلماسة لتكون مقرا للخوارج الصفرية ، اقيمت تاهرت لتكون « حصنا وحرزا للمذهب الإباضى » (51) الذى كانت تعاليمه مرعية في سياسة الدولة ونظمها في عهد عبد الرحمن بن رستم حتى اطلق عليها بعض الدارسين (52) « مملكة الله » .

والواقع انه ليست لدينا معلومات عن النظم الادارية والمالية فى سجلماسة ، لكن المصادر حفلت باشارات عن نظم الدولة الرستمية . ويتضح منها أن عبد الرحمن بن رستم راعى تعاليم المذهب الإباضى فى سياسته الداخلية . لقد استفاد عبد الرحمن من خبرة الفرس فى هذا الصدد (53) لكنه لم يسمح لهم بأى تفوق سياسى أو تمييز اجتماعى فى دولته (54) ، فكان يختار عماله وقضاة وأصحاب شرطته ومحتسبيه ممن يثق فى علمهم وصلاحتهم . وكان نظام الجباية والصدقات ونواحي انفاذها كل ذلك يجرى حسب شرائع المذهب ووفقا لتعاليمه . وليس أدل

(45) ابن خلدون : المقدمة ج 2 ص 522 .

(46) البردای : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .

(47) الطيفيش : الامكان ص 107 ، 108 .

(48) أبو زكريا : ورقة 115 .

(49) نفس المصدر : ورقة 11 .

(50) الماوردى : الاحكام السلطانية : ص 6 .

(51) أبو زكريا : ورقة 13 .

(52) انظر : Mercier : l'Etablissement des Arabes P. 133.

(53) ابن الصنمير : ص 16 ، محمد بن تاويت : دولة الرستبيين ص 113 .

(54) Smith : Op. Cit. P. 279.

على ذلك من قول ابن الصغير (55) المالكى « . . وقضاته مختارة وبيوت امواله ممثلة ، واصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب ، واهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون فى اوان الطعام فيقبضون اعشارهم فى كل هلال . . (هكذا بالاصل) من اهل الشاة والبعر يقبضون ما يجب على اهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون . فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء ويبيع الثقات والبغير ، فاذا صارت اموالا ، دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ، ثم نظر فى باقى سائر المال ، فاذا عرف مبلغه ، امر باحصاء من فى البلد وفيها حول البلد ، ثم امر باحصاء الفقراء والمساكين فاذا علم عددهم امر باحصاء ما فى الاهراء من الطعام ، ثم امر بجميع ما بقى من مال الصدقة فاشتري منه اكسية صوفيا وجبابا صوفيا وفراء وزيتا . ثم دفع فى كل اهل بيت بقدر ذلك ، ويؤثر باكثر ذلك اهل الفاقة من مذهبه ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين ، وما اشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته واصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكتفيهم فى سنتهم ، ثم ان فضل فضل صرفه فى مصالح المسلمين .»

وفى تصرف عبد الرحمن بن رستم فى الاموال التى بعثها اليه خوارج المشرق مع بعثتهم الاولى اليه ، واجتماعه برؤساء القبائل وشيوخ المذهب فى المسجد الجامع وانفاته هذه الاموال وفقا لنصيحة اهل الراى منهم « ثلث فى الكراع وثلث فى السلاح وثلث فى فقراء المسلمين » (56) ما يقيم الدليل على مراعاته تعاليم المذهب فى سياسته الداخلية . ولا غرو فقد حظى حكمه برضى الشراة فى المغرب وشيوخ المذهب فى المشرق « فوصلوه بكتبهم ووصاياهم » (57) .

على ان خوارج المغرب لم يلتزموا بالفكر السياسى عند الخوارج ، ولم يراعوا تعاليم المذهب وشرائعه بعد انتهاء حكم مؤسسى دولتيهما فى سجلماسة وتاهرت . ففى سجلماسة برزت النعرات العنصرية والعصبية وتحكمت فى مقاليد الحكم ونظم الادارة . اذ ان الامامة تحولت الى ملك وراثى احتكرته قبيلة مكناسة فى أسرة بنى مدرار (58) بعد صراع مع زنوج السودان وتنحية

(55) سيرة الائمة الرستبيين : ص 15 ا 16 .

(56) النسوى : صفحة 91 .

(57) الشباخى : السيرة . صفحة 141 .

(58) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، Bel : Op. Cit. P. 167.

عيسى بن يزيد الاسود وقتله سنة 155 هـ (59) (772 م) . ومنذ ذلك الحين درج أمراء البيت المدرارى على انتهاك تعاليم المذهب وتقاليد الامامة حتى ان احدهم خلع نفسه ليظفر أحد ابنائه بالحكم كيدا في ابنه الآخر (60). وبلغ الخروج على المذهب مذاه بتولية الاطفال والنساء مقاليد الحكم ، فقد تولى المنتصر سمكو بن محمد الحكم سنة 332 هـ (945 م) ولما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره تحت وصاية جدته (61) . ولعل مما يؤكد تحول الامامة في سجلماصة الى ملك وراثى اتخاذ أمراء سجلماصة القابا على غرار العباسيين كالمنتصر والمعتز ، وتخليهم عن حياة الزهد والبساطة التى اتسم بها أئمة الخوارج واقبالهم على حياة البذخ والثراء واقتناء الاموال (62) والتشبه بالملوك والامراء .

وقد حدث في تاهرت بعد موت عبد الرحمن بن رستم نفس ما حدث في سجلماصة بعد مقتل عيسى بن يزيد الاسود ، اذ تحولت الامامة الى ملك وراثى (63) واتخذ الائمة الوزراء والحجاب (64) . وغدت وظائف الدولة حكرا على عصبيات بعينها استأثرت بها من دون العناصر الاخرى .

والصادر الاباضية (65) تحاول اظهار شرعية امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فتذكر انه « أجمع عليه اهل الشورى ، ثم بويع بعد ذلك بيعة عامة لم يتخلف عنها أحد » التزاما بنصيحة والده الذى اشار قبل موته بجعل الامامة شورى بين سبعة اشخاص (66) يختارون الاصلح من بينهم على غرار ما فعله عمر بن الخطاب .

-
- (59) البكرى : صفحة 149 .
(60) راجع : البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(61) البكرى : صفحة 151 .
(62) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام . ج 3 ص 143 .
(63) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .
(64) وزير لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم السبع بن ابي الخطاب ومزور بن عمران . انظر : النفوسى : ص 165 . وهذا ينفى زعم هوبكنز ان بنى رستم لم يعرفوا نظام الوزارة على أساس ان ابن الصغير - حسب قوله - لم يشر الى ذلك . انظر Hopkines : Medieval Moslem government. P. 5 والواقع ان ابن الصغير يذكر « . . . وقد ابتدر اليه (يعنى أحد الذين رشحوا لتولى القضاء) اصحابه فاحاطوا به وقالوا له ان فلان بن فلان القاضي توفى ، وقد اجمع رأى المسلمين ووزراء الامام عليك . . . » مما يدحض زعم هوبكنز . انظر : سيرة الائمة الرستميين . ص 47 .
(65) انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، النفوسى : ص 99 .
(66) وكان هؤلاء السبعة هم : مسعود الاندلسى وأبو قدامة اليفرنى ويزيد بن فنديش ومهران ابن واران الاندلسى وسعدوس بن عطية وشكر بن صالح الكتانى ومصعب بن سديمان . انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .

والواقع أن اختيار عبد الوهاب لم يكن على سنة ما فعله عمر بن الخطاب ذلك أن عمرا أوصى قبل موته بأن يكون ابنه عبد الله حكما في مجلس الشورى دون أن يكون له أحقية تقلد الخلافة . أما عبد الوهاب فقد اختير للإمامة تسرا ، ذلك أن رأى أهل الشورى كان في جانب مسعود الاندلسي ، فقد « مال الاكثرون والعامّة الى تولية مسعود وبادروا الى مبايعته » (67) . لكن تعصب بنى يفرن وحرصهم على اختيار عبد الوهاب افضى الى تنصيبه . ذلك أن أم عبد الوهاب كانت يفرنية ، واستطاع أبو تدامة اليفرنى أن يحول جماعة الشورى عن مسعود الاندلسي ليجعل الإمامة من نصيب عبد الوهاب وما تسوقه المصادر (68) الإباضية من تبرير عدم اختيار مسعود الاندلسي بأنه اختفى زهدا في الإمامة وهربا من مهامها ، أمر غير مقبول .

وقد اثار تنصيب عبد الوهاب حفيظة الجانب المتشدد في جماعة الشورى والذي مثله يزيد بن فندين ، إذ اعتبر تولية عبد الوهاب انتهاكا لتعاليم المذهب وخروجاً على سنن السلف . وبذلك لم يجمع جماعة الشورى على إمامة عبد الوهاب « لان الاجماع الذى هو شرط الامامة معناه اتفاق مجتهدى الامة » كما تنص تعاليم المذهب الإباضى (69) . وقد مثل جماعة ابن فندين الذين عرفوا بالنكار الفرقة المحافظة على تعاليم المذهب والملتزمة بحدوده ، فنادوا بوجوب جماعة يسترشد الامام برأيها ولا يقطع أمرا الا بمشورتها وبذلك تكون الإمامة « مشروطة » (70) كما نادوا بضرورة مراعاة اصول المذهب في اختيار الولاة والعمال ، وانكروا احتكار الفرس ونفوسة وظائف الدولة (71) . ودعوا الى اختصاص أهل الخبرة والحصافة بها من بين جمهور الإباضية دونما تفرقة أو تمييز عملا بشرائع المذهب (72) . وكان

-
- (67) الشباخى : السير : ص 145 .
(68) أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 21 ، النفوسى : ص 99 .
(69) الشباخى : مقدمة اصول الفقه . ورقة 64 .
(70) أبو زكريا : ورقة 14 ، الشباخى : السير : ص 145 .
(71) ابن الصغير : ص 22 ، النفوسى : ص 114 .
(72) ذكر أبو غانم الصنرى في مدونته أنه سأل أحد فقهاء المذهب الإباضى هذا السؤال :
أى الرجلين أحب أن يستعمل ، الرجل الصالح الذى لا قوة له بالعمل ، أو الرجل الذى هو دونه في الصلاح وهو أقوى على العمل ، فاجابه القوى العالم بالعمل أحب أن يستعمل . (انظر : مدونة أبى غانم ورقة 1) وهذا يندد دعوى مؤرخى الإباضية الذين حاولوا تبرير اختصاص عبد الوهاب ذويه واتباعه بوظائف الدولة « لانهم من أهل العلم والبصيرة في الدين » . انظر : أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 102 .

انتصار الامام عبد الوهاب على جماعة النكار يعنى التغلب على الطابع الدينى فى نظم الحكم الرستمى وتحول الامامة الى سلطة مركزية اشبه ما تكون بالملكية المطلقة .

فقد آلت الامامة الى افلح بن عبد الوهاب بعد وفاة ابيه تلقائيا وتسد حاول مؤرخو الاباضية (73) تبرير ذلك ، فذهبوا الى ان اهل الحل والعقد بادروا بتنصيب افلح اثر موت والده مخافة خطر العدو المتريص بتاهرت . وجدير بالتنويه انهم لم يذكروا شيئا عن هذا العدو المزعوم الا انه مقيم بجبال تاهرت . والواقع ان جماعة النكار التى كانت تسكن تلك الجبال كانت قد تشتت شملها وعادت فلولها الى مواطنها الاولى منذ عهد عبد الوهاب . كما لم يحدث فى آخر سنن حكمه سوى تمرد خلف بن السمع الذى لم يكن خطرا مباشرا على مركز الامامة فى تاهرت ذلك ان حركته اقتضت على نواحى طرابلس وجبل نفوسة وقد فأت هؤلاء المؤرخون ان عبد الوهاب عقد ولاية العهد لافلح قبل وفاته ، وعقب انتصاره على بدو هواره حيث قال « لقد استحق افلح الامامة » وبعدها « انقطع اليه المنقطعون ودارت الحوائج والعطاء من تحت يديه » (74) ، كما كان افلح صاحب السلطة فى تاهرت اثناء غياب والده بجبل نفوسة وصراعه مع الاغالبية حول طرابلس ، الامر الذى يؤكد ثبوت مبدأ التوريث فى الامامة الرستمى .

كما جرى افلح على سنة والده فى « استعمال العمال والجباية ومطالب بيت المال » (75) ، مما اثار حفيظة الفقهاء فثاروا بقيادة نفاث بن نصر لانتهاك الامام رسوم الامامة وتقاليدها (76) . الا ان افلح ارغم — امام ظهور خطر القبائل والعصبيات — على التراجع فى سياسته ، وعاد الى تطبيق مبدأ اللامركزية والمساواة — فآخذ بنصائح اهل الراى والمشورة من شيوخ القبائل فى تعيين الولاة والعمال (77) كما لزم عماله ضرورة مراعاة فقه المذهب فى نظام الجباية فى نفس الوقت الذى اأناح لهم فيه مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (78) . يتضح ذلك من رسالة له لاحد عماله

(73) انظر ابو زكريا : ورقة 26 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 32 ، الشماخى : السمر ، صفحة 192 .

(74) ابن المنير : صفحة 23 .

(75) النفوسى : صفحة 195 .

(76) ابو زكريا : ورقة 30 .

(77) ابن المنير : صفحة 23 .

(78) النفوسى : صفحة 188 .

جاء فيها :

« واما ما ذكرته من ان اجعل لك سبيلا وأطلق يدك ، وأن الحاضر يرى مالا يراه الغائب فلعمري أنه لكذلك ، ولكن ليس في هذا (يقصد الخراج) ، إنما هي أسهم جعلها الله وأوقفها ، وهي وسخ أموال الناس وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهى الا على قدر الاجتهاد » (79) فاتباع أفلح هذه السياسة لا يرجع الى حرص منه على مراعاة تعاليم المذهب بقدر اضطراره الى الأخذ بالتقاليد والاعراف البدوية .

ومن مظاهر ذلك اضراره الى تعيين محكم الهواري قاضيا على الرغم من « أنه أنشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه » (80) وكان رؤساء القبائل هم الذين « أنزلوه في الدار المعرونة بدار القضاء ، وأجروا عليه من بيت المال قوته » (81) .

لقد أخذت الامامة الرستمية منذ ذلك الحين توفق بين مطالب الحكم وبين الاعراف البدوية والتقاليد الفارسية وتعاليم الطوائف المذهبية المختلفة في تاهريت . وتجلى الاثر الفارسي في الاصرار على مبدأ الوراثة والاخذ بالنظم والرسوم الفارسية في الحكم والادارة . فبعد موت أفلح بن عبد الوهاب آلت الامارة الى ابنه ابي بكر رغم اعتراض الفقهاء (82) . وليس كما يذهب النفوسى (83) بأنه اختير نتيجة اجماع اهل الحل والعقد من رؤساء القبائل والعصبيات وشيوخ المذهب . كما تولى أبو حاتم يوسف الامامة بعد أن عهد والده اليه بولاية العهد (84) . ومن مظاهر التأثير بالتقاليد الفارسية ايضا تعويل أئمة بنى رستم على اتخاذ الكتاب والحجاب والحراس ، فضلا عن نظم السجلات واستخدام الخاتم وغيرها من النظم التي تأثرت بالتقاليد الفارسية في الادارة (85) .

ثم ازداد اثر الطوائف غير الاباضية في أواخر عصر بنى رستم . فاضطر أبو اليقظان محمد الى الانتقاص عن سلطات بعض القبائل التي

(79) نفس المصدر والمحيطة .

(80) ابن الصغير : صفحة 24 .

(81) نفس المصدر صفحة 25 .

(82) نفس المصدر : صفحة 31 ، 47 .

(83) الازهار الرياضية : ج 2 ص 222 .

(84) ابن الصغير : صفحة 50 .

(85) نفس المصدر : صفحة 42 ، 47 .

كانت تستأثر بالمناصب العامة (86) وجعلها مشاعا بين كافة الفرق والطوائف من غير الإباضية ، كما اتخذ مجلسا للمشورة يضم الى جانب شيوخ القبائل واعلام المذهب الإباضي ، كثيرين من الكوفيين والمالكية والواصلية (87) . ولا شك ان سلطان هذه الطوائف قد زاد ابان امامة يعقوب بن افلح الذي تولاهما بفضل رؤساء تلك الطوائف وخاصة الكوفيين (88) . كما اضطر أبو حاتم يوسف الى اشراك كافة رؤساء الفرق في الحكم « اباضية وغير اباضية » (89) .

ومع ذلك لم تجد سياسة الرستميين الاواخر في التوفيق بين مطالب الحكم وبين مصالح القوى المختلفة في تاهرت في تحقيق الاستقرار السياسي، اذ ان القبائل البدوية طمعت في تولي السلطة وقدر لها ان تحقق هدفها بنجاح محمد بن مسالة الهواري في اغتصاب الحكم في تاهرت مدة ثمانية اعوام (90) كذلك تربص الفرس للاستيلاء على الحكم ابان الصراع بين الامام أبي بكر ابن افلح وبين الجند والعرب لكن خاب أملهم (91) . ولا يخفى دور الفرق والطوائف غير الإباضية في احداث تاهرت في العصر الرستمي الاخير من أجل « تببيت خبر الإباضية » (92) .

ووقف الرستميون مكتوفي الايدي أحيانا امام هذه المؤامرات ، اذ لم يكن للامامة جيش ثابت يتصدى لتلك المشكلات . ويذهب بل (93) الى ان افتقار بني رستم الى مثل هذا الجيش يعزى الى انشغال الائمة بالمسائل العلمية والفقهية ، وميلهم للمسالة وزهدهم في اثاره الحروب . والواقع ان السبب الحقيقي يكمن في استحالة تكوين جيش موحد في ظل عصبية وعناصر مختلفة ومتناحرة « فكان لكل قبيلة رجالها وخيلها وسلاحها وكراعها » (94) . لذلك كان « الاجناد هم بطانة السلطان واولاده وحشمه » (95) فضلا عن أحلافه من القبائل وخاصة نفوسة التي كانت

(86) ابن الصغير : ص 41 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(87) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : نفس المصدر والصحيفة .

(88) ابن الصغير : ص 56 ، الننوسى : ص 275 .

(89) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 103 .

(90) ابن الصغير : ص 39 ، الننوسى : ص 236 .

(91) ابن الصغير : صفحة 37 .

(92) نفس المصدر : صفحة 51 .

(93) انظر : La religion Musulmane .. P. 149 .

(94) الشماخى : السير : صفحة 148 .

(95) ابن الصغير : صفحة 27 .

موالية للامامة وتوافق الاثمة بالامداد في اوقات الخطر والازمات (96) .

ثم تضاعف نفوذ اتباع الاثمة من « الرستمية والسحبية » (97) وانهارت قوة نفوسة بعد موقعة مانو سنة 269 هـ (883 م) التي قضى فيها الاغلبية على خيرة الجند النفوسى ، فأصبحت الامامة الرستمية لعبة في أيدي يد القوى المتنازعة في تاهرت .

وبسبب افتقار ائمة بنى رستم الى جيش ثابت لجأوا الى وسائل مختلفة لمواجهة الثورات الداخلية ولو كان ذلك خروجاً على الفكر الإباضى فقد درجوا على اصدار نداءات الى الرعية يدعون فيها الى الكف عن الفتن والتزام « سنة السلف الصالح » فى نفس الوقت الذى كانوا فيه ينتهكون تعاليم المذهب ويخرجون على سنة أسلافهم من اقطابه .

فمعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رغم التزامه ببدا الوراثية فى الحكم لنفسه ولابنائهم من بعده بعث نداء الى اهل جبل نفوسة وناحية طرابلس يحضهم فيه على « تقوى الله والاتباع لما امر به » (98) وحرم عليهم ما استحلته لنفسه ونهاهم عن طاعة خلف بن السبح الذى خلف والده فى ولاية تلك النواحي .

وافلح بن عبد الوهاب اقتفى اثر والده حين ثار عليه نفاث بن نصر لخروجه عن تعاليم الإباضية فكتب خطاباً « الى سائر المسلمين فى شأن نفاث » يخاطبهم فيه بقوله : « .. وانتم محتقون باتباع آثار سلفكم والسلوك على مناهجهم ، وأن تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما كان يفعله سلفكم بمن كان قبله » (99) . كذلك كان شأن محمد بن أفلح الذى وجه نداء الى رعاياه يحضهم فيه على « اتباع الماضيين من السلف والمتقدمين من الاثمة والصالحين من اهل الدعوة » (100) .

وضرب بنو رستم صفحاً عن جوهر التعاليم الإباضية التى تدعو الى « الامر بالمعروف وبالنهي عن المنكر » ولجأوا الى الاساليب السياسية الملتوية كالتجسس وبذل الرشاوى والخداع فضلاً عن الاغتيال السياسى . فمعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حين اعيتة الحيل فى قمع ثورة خلف

(96) الشباخى : السير : صفحة 155 .

(97) ابن الصغير : صفحة 27 ، 36 .

(98) انظر : ملحق رقم (3) .

(99) النفوسى : صفحة 199 .

ابن السمع بـث عيونه وجواسيسه للوقيعة بين خلف واتباعه (101) ، كما بعث سرا الى بعض رجال خلف يؤلبهم عليه ويمنيهم بالاموال والضياح (102) . واخذ ابنه افلح من بعده بهبدا « فرق تسد » فأرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها (103) « وألقى موجبات التخالف بين كل مقدم واتباعه ، وبث الجواسيس بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مؤونة القتال » (104) . وعول الرستميون الاواخر على « استعمال السدرهم والدينار بدل الرمح والسنان » (105) في كسب الانصار ومواجهة الخصوم . وشاع الاغتيال كاسلوب جديد اتبعه بنو رستم للتخلص من مناورتهم ، واستشرى هذا الداء ولم يسلم منه افراد البيت الرستمى نفسه ، فقد اغتال أبو بكر بن افلح محمد بن عرفة صهره وساعده في ادارة شؤون دولته وسط سخط الفقهاء وتبرمهم (106) ، كما لقي أبو حاتم يوسف بن محمد حتفه على أيدي بعض المتآمرين من افراد أسرته من أجل الوصول الى الحكم (107) .

وهكذا اختفى — تقريبا — أى اثر لفكر الإباضية فى نظم الحكم الرستمى بعد موت عبد الرحمن بن رستم (108) مؤسس الدولة ، وتحولت الامامة الإباضية الى ملك وراثى غلب عليه الطابع البدوى ، وتأثر بالتقاليد الفارسية وتعاليم الفرق والمذاهب الاخرى غير الإباضية .

ومع ذلك فقد ترك الخوارج آثارا واضحة فى الفكر السياسى ونظم الحكم ببلاد المغرب ، خاصة فى الفترة ما بين اوائل القرن الاول الهجرى ومنتصف القرن الثانى .

(100) انظر : ملحق رقم (5) .

(101) ينهم ذلك من رواية للنفوسى تقول ان شخصا من انصار الامام عبد الوهاب كثر يندس بين اصحاب خلف ويكتب الامام بكل ما يسمعه . انظر : الازهار الرياضية

ج 2 صفحة 155 .

(102) الوسيانى : سير ابن الربيع ورقة 30 .

(103) ابن الصغير : صفحة 27 .

(104) النفوسى : صفحة 183 .

(105) نفس المصدر : صفحة 278 .

(106) ابن الصغير : صفحة 34 .

(107) ابن مذارى : ج 1 ص 278 .

(108) ابن الصغير : صفحة 56 .

ثانياً :

الحياة الاقتصادية

أحدث الخوارج أثارا بعيدة المدى في أحوال بلاد المغرب الاقتصادية. والشائع أن هذا هذه الآثار كانت سيئة للغاية ، إذ تمخض عنها خراب وركود وكساد في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة . غير أن مسؤولية الخوارج في هذا الصدد مبالغ فيها ، ذلك أن أحوال المغرب الاقتصادية كانت سيئة ، منذ حكم البيزنطيين ، وزادت سواء نتيجة استنزاف طاقاته وموارده في الحروب الطويلة التي استغرقته الفتوح العربية وما ارتبط بها من ثورات ضد الفاتحين ، كتلك التي قام بها كسيلة والكاهنة ، وما تمخض عن هذه الثورات من تخريب المزارع وإحراق الأشجار ، فضلا عما أزهق فيها من أرواح (109) مما زاد في تفاقم أحوال البلاد الاقتصادية .

وليس من شك في أن سياسة بعض عمال بنى أمية في المغرب زادت الأمر سوءا (110) ، فقد أرهقوا الأهليين بالمغارم والجبايات ، وحفلوا بأشباع نهم الخلفاء في دمشق ، وأهملوا سبل الإصلاح الاقتصادي . وحسبنا أن البربر اعتنقوا مذهب الخوارج لتخليصهم من جور بنى أمية وسوء سياستهم الاقتصادية (111) .

غير أن ثورات الخوارج زادت — دون شك — في تفاقم الأزمات

(109) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .

(110) نفس المصدر : صفحة 52 .

(111) نفس المصدر والصحيفة .

الاقتصادية ، اذ استمرت قرابة نصف قرن من الزمان أرهقت خلاله خزائن الولاة برواتب الجند وأعطياتهم (112) ، وخربت المزارع والمناجم ، وكسدت التجارة وتهددت الطرق بالآخطار .

ومن الانصاف ان نذكر ان مسؤولية الولاة في هذا الصدد لا تقلل عن مسؤولية الخوارج ، وان الصفرية من دون الإباضية (113) أسهموا بنصيب كبير فيما حل بالبلاد من تخريب ، فقد درجوا في حروبهم على نهب الاموال واحراق الزارع والضياع . وليس ادل على ذلك من تخريب الزروع على مسيرة يومين من طنجة اثناء حصارهم يلج بن بشر ورجاله بطنجة سنة 123 هـ (114) (741 م) . وفظائمهم بالقيروان سنة 139 هـ (756 م) سبق التنويه بها :

الا ان ثورات الخوارج عموما — صفرية وإباضية — ، استنزفت جهود الولاة ومواردهم المالية ، فقد أنفقوا الكثير على اعداد الجيوش ومضاعفة الاعطيات لمواجهة هذه الثورات (115) . كما أسفرت عن هدم المبائر والاسوار مما جشم الولاة عناء ترميمها او اعادة بنائها . وفضلا عن ذلك فقد أرهقت اعداد من البشر اجمع المؤرخون على كثرتها ، فضلا عما كان يحدث من امراض واوبئة أودت بحياة الكثيرين نتيجة تعفن جثث القتلى (116) .

وأدى ذلك كله الى حدوث الازمات والمجاعات (117) ، حتى الف الناس اكل الاعشاب والدواب والكلاب (118) وخاصة اثناء فتبرات الحصار الطويل (119) .

وليس ادل على سوء احوال بلاد المغرب الاقتصادية آنذاك من استعانة ولاة المغرب بأموال مصر لمواجهة خطر الخوارج ، فكانت ترد اليهم اعانة سنوية قدرها مائة الف دينار (120) . ومع ذلك لم يكن بوسعهم

(112) البلاذري : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تغري بردي : ج 2 ص 20 .

(113) الدرجيني : ج 1 ورقة 14 .

(114) مجهول : أخبار مجبوعة : صفحة 35 .

(115) الرقيق : ص 119 ، ابن عذاري : ج 1 ص 59 .

(116) الرقيق : صفحة 125 .

(117) نفس المصدر : صفحة 118 .

(118) أخبار مجبوعة : صفحة 37 ، 38 .

(119) ابن عذاري : ج 1 صفحة 76 .

(120) ابن الاثير : الكامل : ج 5 صفحة 63 .

القيام بأعباء الحكم والنهوض بأحوال البلاد الاقتصادية ، واقتصرت جهودهم على النواحي العسكرية كبناء الاسوار واقامة الحصون والقلاع (121) . وغنى عن البيان أنه لم يقدر لولاة القيروان الاهتمام بالنواحي الاقتصادية الا بعد ضعف شوكة الخوارج بها ، فلم نسمع عن جهود لهم في هذا الصدد الا في عهد محمد بن الاشعث أول من قمع حركات الخوارج في العصر العباسي ، لكن الازدهار الاقتصادي الذي أحدثه لم يستمر طويلا (122) اذ سرعان ما اندلعت ثورات الخوارج بعد رحيله الى المشرق .

وتتضح الآثار السيئة لثورات الخوارج على أحوال المغرب الاقتصادية من جهود يزيد بن حاتم في مواجهة المجاعات والازمات الاقتصادية ، فقد اهتم بزراعة الاراضي وجعل غلتها مباحة للناس (123) ، وكانت مراعية الخاصة ومراعى أسرته تقدم ذبائح الأبل والغنم للرعية (124) . واليه يرجع الفضل في الاهتمام بالحرف والصناعات واقامة الاسواق ، وتنسيقها (125) للخروج بالبلاد من الكبوة الاقتصادية التي أحدثتها ثورات الخوارج . لكن هذه الجهود الكبيرة لم تحقق للبلاد النهضة الاقتصادية المرجوة ، وحسبنا على ذلك دليلا أن كثيرين من ولاة القيروان من بعده كانوا يعجزون عن دفع رواتب الجند واعطيائهم (126) .

كان التدهور الاقتصادي اذن يعزى الى الاضطراب السياسى ممثلا في ثورات الخوارج . فلما انتهت تلك الثورات واستقرت أحوال بلاد المغرب السياسية بقيام الدول المستقلة ، قدر للبلاد أن تشهد ازدهارا ملموسا في كافة النواحي الاقتصادية . ونحن في غنى عن رصد هذا الازدهار الاقتصادي في دولتي الاغالبة والادارسة ، انما نقرر ان هذا الازدهار شمل ايضا دولتي الخوارج الصفرية والاباضية .

لقد قامت دولتي الخوارج في مناطق صحراوية ، ومع ذلك واكبت ثيابهما ازدهارا في الزراعة والصناعة ورواجا في التجارة . ففى مجال

-
- (121) الرقيق : ص 24 ، البكرى : ص 24 ، 25 .
(122) ابن عذارى : ج 1 صفحة 84 .
(123) نفس المصدر ص 93 .
(124) نفس المصدر والمحيطة .
(125) الرقيق : ص 149 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 111 .

الزراعة ، استفاد بنور مدرار من مياه نهر ملوية (127) في تحويل البقعة التي أقاموا فيها عاصمتهم الى سهل فيضي (128) صيروا فيها الخلجان وشقوا القنوات لتوصيل المياه الى مساحة واسعة (129) قسموها الى حياض تشبه حياض البساتين (130) ومهدوها للزراعة . واستكثروا من الغروس فزرعوا اشجار النخيل والاعناب (131) على مساحة بلغت اربعين ميلا (132) . فاشتهرت سجلماسة لذلك بوفرة كرومها وفاكهتها (133) .

وفضلا عن ذلك زرعوا سائر المحاصيل « حسب زرع مصر » وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت الشقوق بالمياه فكلما اغدقت الارض سنة في عقب أخرى ، حصدوا الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، بحب صلب المكسر لذيد المطعم ، وخلق ما بين القمح والشعير « (134) . واشتهرت سجلماسة الى جانب ذلك بالحنطة والشعير والتطن والكمون والكرامية وغيرها (135) ، حتى لقد وصفها الادريسي (136) بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . ولا شك ان اعدادا هائلة من البربر في سجلماسة تحولوا الى مزارعين (137) وان بقى بعضهم على حرفة رعى الماشية والابقار (138) .

كما اهتم ائمة بنى رستم بالزراعة ايضا ، فاختراروا موضع عاصمتهم في مكان « جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الارض » (139) وقد توافرت المياه لاقليم تاهرت لوقوعه بين نهري هما مينة وتاتش ويصبان في وادي شلف (140) . فضلا عن مياه الامطار التي اشتهرت بها تاهرت حتى

-
- (127) البكري : صفحة 148 .
(128) نفس المصدر : صفحة 149 .
(129) ابن الخطيب : اعيال الاعلام ج 3 ص 139 .
(130) مجهول : الاستبصار : صفحة 201 .
(131) نفس المصدر والصحيفة .
(132) ابن حوقل : صفحة 65 .
Julien : Op. Cit. P. 339.
(133) الاستبصار : صفحة 201 ،
(134) ابن حوقل : صفحة 90 .
(135) الادريسي : صفة المغرب ص 60 ، ابن مقديش : ص 11 ، القلتشندي : ج 5 صفحة 164 .
(136) الادريسي : نفس المصدر والصحيفة .
(137) البكري : صفحة 148 .
Fournel : Op. Cit. Vol I. P. 352.
(138) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ،
(139) النفوسي : صفحة 6 .
(140) البكري : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 ،

صارت مضرب الامثال (141) . وقد عنى الرستميون بالاستفادة من هذه المياه فشقوا القنوات واتاموا الطواحين على الأنهار (142) . فزرعوا الكتان والسمسم وسائر الحبوب على اختلافها ، الى جانب غرس الاشجار واقامة البساتين على مساحات رحبة (143) ، حتى عرفت تاهرت بأنها « بلخ المغرب » (144) . كما ازدهرت الزراعة أيضا في واحة وارجلان اعتمادا على مياه الآبار ، فاشتهرت بأشجار النخيل والزيتون والحبوب (145) . أما الزراعة في جبل نفوسة ، فقامت على مياه الأمطار ، لكن رعى الأغنام والماشية كانت الحرفة السائدة بين سكانه (146) . كما اشتهرت الدولة الرستمية بمراعيها الواسعة وكانت تاهرت منتجعا للقبائل الرعوية في شمالي الصحراء (147) . ولكثرة مراعيها وصفها ابن حوقل (148) بأنها « أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين » .

وقيام دولتي الخوارج في سجلماسة وتاهرت واحتوائهما عناصر غير مغربية كاليهود والاندلسيين والفرس والعرب المشاركة ، ووفرة المناجم وخاصة في درعة الغنية بالذهب والفضة (149) ساعد على استغلال مقدرات البلاد الاقتصادية استغلالا طيبا فقد احسن اليهود استغلال تلك المناجم (150) . كما أن امراء بنى مدرار حرصوا على الافادة من الاندلسيين في دعم دولتهم « واقامة المصانع والقصور » (151) .

ويخيل لنا أن الاندلسيين المقيمين بسجلماسة لعبوا دورا واضحا في هذا الصدد اذ كانت طوائف منهم تحتكر حرف الحدادة ، والصناعات المرتبطة بأعمال البناء (152) ، وقد شاركهم اليهود هذه المهن في العصر

-
- (141) ابن عذارى : ج 1 ص 280 .
(142) ابن الصغير : صفحة 10 .
(143) اليعقوبي : البلدان : ص 358 ، البكري : ص 67 .
(144) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص 228 .
(145) الادريسي : صفحة 121 .
(146) أبو زكريا : ورقة 26 .
Bernard : Op. Cit. P. 134.
(147) الادريسي : صفحة 87 ،
(148) المسالك والممالك : صفحة 86 .
(149) ابن النقيه مختصر البلدان ص 80 .
(150) مجهول : الاستبصار ص 202 .
(151) السلاوي : ج 1 صفحة 112 .
(152) البكري : صفحة 149 ،
Fournel : Op. Cit, Vol I, P. 553.

الفاطمي (153) . وعرفت سجلماسة في عهد بنى مدرار بصناعة الفيساب والازر الصوفية حتى كانت تضارع مثيلاتها المصرية كما يقول البكري (154) هذا الى جانب الصناعات الاخرى كصناعة السكر وتكرير الملح (155) ، والاحذية (156) .

واستفاد بنو رستم من خبرة الفرس ، فاشتهرت تاهرت بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والقوارير الزجاجية وأوانى الخزف البراقة، والتحف المعدنية والعطور (157) . وكانوا يسكون النقود والذهب المجلوب من بلاد السودان (158) ، وان كنا نفتقر الى وجود عملات رستمية كتلك التى خلفها بنو مدرار ... وقد استعاض بنو رستم عن كثير من السلع المصنوعة باستيرادها من بلاد الاندلس (159) .

أما الدور البارز الذى لعبه الخوارج في حياة المغرب الاقتصادية ، فكان في مجال التجارة ، اذ قامت الدولتان المدراية والرستمية بدور الوسيط في التجارة عبر الصحراء شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . فلم تحل العلاقات السياسية غير الودية بين دولتى الخوارج وبين اعدائهم السياسيين والمذهبيين دون استثمار الصلات التجارية مع سائر دول المغرب والاندلس فضلا عن المشرق الاسلامى وبلاد السودان .

فكانت القوافل تترى من بغداد والبصرة الى بلاد المغرب مارة بالانبار وهيئ والرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والاسكندرية ، ومنها الى برقة ثم الى الدولة الرستمية ودولة بنى مدرار (160) . كما كان الطريق البحرى بين موانئ دولة بنى مدرار على ساحل الاطلنطى وبين موانئ الاندلس كاشبيلية وشاطبة (161) غاصا بالسفن من الدولتين . أما دولة بنى رستم فكان اتصالها بالاندلس عن طريق مرسى فروع (162) على البحر المتوسط الذى

(153) مجهول : الاسبصار صفحة 202 .

(154) المغرب : صفحة 148 .

(155) التلشندي : ج 5 صفحة 164 .

(156) الشباخي : ص 248 .

(157) النوسى : صفحة 137 .

(158) نفس المصدر : صفحة 89 .

(159) البكري : صفحة 81 .

(160) انظر : تدامة بن جعفر : الخراج : ص 227 ، 228 .

(161) الحبرى : ص 21 ، ابن الدلائى : ص 18 ، 19 ،

Provençal : Op. Cit. Vol. I. P. 248.

(162) البكري : ص 81 ، الادريسي : ص 100 .

يواجه موانئ شاطبة وتدمير ومرسى اقله الاندلسية (163) .

لذلك ربطت دولتي الخوارج بين دول المشرق والمغرب والاندلس وبين افريقية جنوبى الصحراء عن طريق منافذها المنتشرة على حافة الصحراء والتي تعتبر محطات لرحيل القوافل الى بلاد السودان . فكانت سجلماصة همزة الوصل بين بلاد المغرب والاندلس وبين بلاد السودان الغربى كما قامت الدولة الرستمية بنفس الدور بين هذه البلاد وبين السودان الاوسط .

فعلى الرغم من سوء العلاقات السياسية بين تاهرت وسجلماصة وبين بغداد والقيروان وفاس ، فان قوافل انتجار المشاركة كانت تجتاز بلاد المغرب الى سجلماصة التى غصت بالعراقيين من بغداد والكوفة والبصرة ، وكانت هذه القوافل تحمل سلع المشرق الى بلاد المغرب وتعود محملة بالمتاجر السودانية فى صحبة اهل سجلماصة (164) . كذلك اقام بتاهرت طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم واسواقهم الخاصة (165) . وقد اهتم ائمة بنى رستم بتجارة المشرق فشاركوا فيها واشرفوا عليها بانفسهم ، واولوا التجار رعايتهم ، وكفلوا لهم الحماية والامان (166) .

وتوطدت الصلات التجارية بين القيروان وسجلماصة وتاهرت ، فكانت القوافل تخرج من تاهرت الى القيروان مارة بهاز والمسيلة وادنة وطبنة وباغاية ومجانة ومرمجة وسببية (167) وفى سجلماصة كانت القوافل تخرج الى تاهرت ومنها الى القيروان ، والمسافة بين سجلماصة وتاهرت تقرب من خمسين مرحلة ، وبينها وبين القيروان تبلغ نحواً من ثمانين مرحلة (168) . وعلى ذلك فقد كان فستق قفصة يباع فى أسواق سجلماصة (169) ، كما لاقت سلع سجلماصة — كالسكر والكمون والكراوية والاحذية — رواجاً فى أسواق القيروان (170) . ووفدت السلع

(163) اليعقوبى : البلدان : ص 354 ، البكرى : ص 18 ، ابن الدلائى : ص 18 .

(164) ابن حوتل : صفحة 43 .

(165) ابن الصغير : صفحة 13 .

(166) نئس المصدر : صفحة 50 .

(167) البكرى : صفحة 143 ، 146 .

(168) الاصطخرى : صفحة 37 ، 38 .

(169) البكرى : صفحة 41 .

(170) الادريسي : صفحة 61 .

السودانية الى دولة الاغالبية عن طريق تاهرت وسجلماسة . ولا غرو لمقد
وفدت الى تاهرت جموع غفيرة من تجار القيروان حيث حظوا بحرية
المتاجرة في أسواقها (171) وكان عدل الائمة الرستميين ، وترحيبهم بالتجار
وشهرة تاهرت التجارية مما حجب كثيرين من هؤلاء التجار في الاقامة
بتاهرت (172) .

ولم نعدم وجود صلات تجارية بين دولتي الخوارج والادارسة .
حقيقة ان العلاقات التجارية بين تاهرت وفاس كانت في نطاق محدود ،
لكن المصادر (173) تشير الى انتظام القوافل بين سجلماسة وفاس
فالتريق كان مهذا بين المدينتين ، ويبدأ من فاس الى صفرو فقلعة
مهدى ، فتادلة ، فوادي شعب الصفا ، ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب
حيث توجد سجلماسة (174) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق ،
فتخرج من باب الفوارة بفاس الى مدينة سجلماسة (175) . وقد وفد
كثيرون من صفرية فاس الى سجلماسة عاصمة صفرية المغرب طلبا للعلم
والتجارة (176) . كما كان للتجار المدينيين نشاط واسع في أسواق
مدينة فاس (177) .

وكان طبيعيا ان تتوثق الصلات التجارية بين دولتي الخوارج
والدولة الاموية بالاندلس لما كان بين الطرفين من علاقات سياسية ودية .
وحسبنا ان غلال سجلماسة وتاهرت كانت تسهم في حل الازمات
الاقتصادية بالاندلس (178) . وقد تبادل بنو مدرار مع أموى الاندلس
السلع والمتاجر ، فكان المديريون يصدرون القمح والسكر والكرم
والتمر (179) في مقابل الثياب والطرز القطنية والكتانية والحريية التي
اشتهرت بها قرطبة (180) .

هذا فضلا عن التسهيلات الواسعة التي قدمها حكام تاهرت

-
- (171) ابن الصغير : صفحة 13 .
(172) الشماخي : السير : صفحة 158 .
(173) ابن حوقل : ص 72 ، الادريسي : ص 76 ، ابن ابي زرع : ص 53 .
(174) ابن ابي زرع : صفحة 53 .
(175) ابن حوقل : صفحة 65 .
(176) الادريسي : صفحة 60 .
(177) الجزنائي : زهرة الاس : ص 29 .
(178) جغرافية المامون : ورقة 197 ،
(179) جغرافية المامون : ورقة 199 .
(180) الحميدي : هنة جزيرة الاندلس : صفحة 21 .
- Conde : Op. Cit. P. 291.

وسجل ماسة لتجار الاندلس أثناء رحلاتهم الى بلاد السودان (181) . وكثيرا ما أثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين الإقامة في تاهرت والعمل في أسواقها وجوانبها (182) . بينما كان البعض الآخر يعمل في نقل المتاجر بين الدولتين ، اذ في مقابل القمح الذي كان يصدر الى قرطبة استورد الرستميون كثيرا من السلع والامتعة المصنوعة في بلاد الاندلس (183) .

أما عن تجارة الخوارج مع بلاد السودان ، فقد شكلت حجر الزاوية في نشاطهم الاقتصادي . وجدير بالذكر ان شعوب السودان كانوا أخلاطا شتى من العناصر الزنجية القاطنة بين البحر الاحمر شرقا والبحر المحيط غربا (184) ، وبين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال وبين نطاقات الغابات الاستوائية في الجنوب (185) . ويمكن التمييز بين هذه العناصر ، فمن الشرق الى الغرب توجد شعوب النوبة — جنوبى مصر — ثم زغاوة وصوصو وكوكو — بالسودان الاوسط (186) — أما شعب السودان الغربى ، فقد سكنه شعب التكرور واهل غانة . أما شعب التكرور فقد استوطن ضفتى السنغال ، بينما كان شعب غانة يتكون من عناصر متعددة . فعلى طول الضفة اليسرى لنهر النيجر نزل شعب سنغى وبين السنغى والتكرور تقع ديار الشعوب المتكلمة بلغة الماندى ، وبين السنغى في الشمال ونطاق الغابات في الجنوب عاش اجداد الشعوب المتكلمة بلغة الجور حاليا (187) . ويصف صاعد الاندلسى (188) هذه الشعوب بالفوضى والهمجية على الرغم من « وجود سياسة ملوكية تضبطهم وناموس الهى يحكمهم . فقد كانت هذه الشعوب تعيش في شكل جماعات يرأسها اكبر الرجال سنا . ولكل منها كهنوته وطواطمه (189) .

-
- (181) ابن الدلائى : صفحة 18 ، 19 .
(182) ابن القوطية : ص 110 ، ابن الفرضى : ج 1 ص 179 ، ابن بشكوال : الملة . ج 1 صفحة 76 .
(183) ابن الدلائى : ص 19 ، Provencal : Op. Cit. P. 245.
(184) البكرى : صفحة 149 .
(185) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية : ج 1 ص 218 .
(186) اليعقوبى : تاريخه ج 1 ص 156 ، المقدسى : ج 1 ص 241 ، ابن خلدون : ج 6 صفحة 199 .
(187) انظر : حسن محمود المرجع السابق : ص 223 ، 224 .
(188) طبقات الاسم : صفحة 12 .
(189) حسن محمود : المرجع السابق ص 225 .

اذ كانوا « على المجوسية وعبادة الدكاكير (190) » .

تقع مواطن هذه الشعوب بمحاذاة الصحراء الكبرى ، ويفصلها عن بلاد البربر سلسلة من الفواصل الجبلية تتخللها بعض المفاوز التي تعد وسيلة الاتصال الوحيدة بينها وبين بلاد المغرب (191) ومن الطبيعي أن تدعم العلاقات بين البربر والسودان بقيام دولة بنى مدرار فسي سجلهاسة وبديهي أن تتوطد صلاتها خاصة ببلاد التكرور وغانة المعروفة ببلاد السودان الغربى (192) . وحسبنا أن عناصر سودانية أسهمت في اقامة هذه الدولة وتصدت لزعامتها حتى كان أول أمرائها سودانيا يدعى عيسى بن يزيد . واستقرت هذه العناصر في سجلهاسة ، وكان لهم حصن خاص يعرف « بحصن السودان » (193) . ولا شك في أنهم ساعدوا على توثق الصلة بين وطنهم الام وموطنهم الجديد ، فكانت سجلهاسة حلقة اتصال بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربى (194) . وجدير بالذكر أن القوافل كانت تقطع الطرق بين سجلهاسة وغانة في زمن يتراوح بين شهرين (195) وثلاثة (196) ، وكان بربر زويلة ومسوفة وجدالة يصحبون هذه القوافل (197) بين سجلهاسة وسائر بلاد السودان الغربى عبر المفاوز والقفار (198) . ومن المعروف أن درعة كانت مركز خروج القوافل من دولة بنى مدرار (199) ، بينها عرفت « أبو الاتن » بأنها أولى المراكز السودانية التي تنزلها هذه القوافل (200) .

وقد عقد بنو رستم الصلات مع شعوب السودان جميعا ابتداء

-
- (190) مجهول : الاستبصار ص 217 .
(191) الاصطخرى : ص 35 ، حابد عمار : علاقات الدولة الملوكية بالدول الافريقية : ص 7 ،
(192) المامون : جغرافيته ورقعة 198 ، سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان : صفحة 25 .
(193) المقدسى : ص 219 .
(194) الاصطخرى : ص 35 ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام في القارة الافريقية : صفحة 75 .
(195) البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 200 ، 201 .
(196) ابن النقيه : مختصر كتاب البلدان ص 87 .
(197) ابن بطوطة : تحفة النظار ج 1 ص 295 : حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية في افريقية . ج 1 ص 222 .
(198) اليعقوبى : البلدان . ص 360 .
(199) البكرى : صفحة 149 .
(200) ابن بطوطة : ص 298 ، وجدير بالذكر أن طريقا آخر كان يصل بين مصر وغانة لكنه اهل بسبب تعرض القوافل فيه لسواقي الرياح وقطاع الطرق واصبح طريق سجلهاسة لذلك اشهر الطرق واكثرها ارتيادا . انظر : ابن حوقل : ص 42 .

من زغاوة (الكانم) شرقا جتى ساحل غانة غربا ، لكن هذه العلاقات توطدت بشكل أساسى مع شعوب السودان الاوسط وخاصة مع الكانم وساعد الامتداد العريض للدولة الرستمية على تعدد الطرق والمسالك الى السودان (201) ، فلم يعدم الرستميون وجود مدن عديدة متناثرة على حدودهم الجنوبية كزالة (202) ووارجلان (203) أو أجلة (204) وغدامس وزويلة (205) ، كانت مراكز لانطلاق القوافل الى هذه البلاد .

وزالة مدينة صغيرة تقع على عشرة مراحل غربى وارجلان ، أهلها من هواره ، معروفة بأسواقها العامرة (206) . وكانت مدخل القوافل الى ساحل غانة فيها عرف « بمملكة الدمدم » (207) أما وارجلان فمدينة صغيرة لكنها متحضرة ، اشتهرت بوفرة نخيلها وغلاتها ، وغصت بالاسواق والتجار ، ومنها توجه التجار الى بلاد كوكو (208) والتكرور (209) وغانة (210) . وغدامس ، بلد كبير كثير النخيل أيضا ، أهلها من اللثمين كلمتونة ومسوفة ، وهى محطة للعبور الى بلاد السودان الاوسط حيث يربطها طريق مهده ببلدة تادمكة (211) . وكانت زويلة مركزا للتجارة مع بلاد الكانم ، واشتهرت بتجارة الرقيق حيث غصت أسواقها بالعبيد الزواغيين (212) .

من هذه المنافذ أو الموانئ الداخلية — ان صح القول — خرجت قوافل المدراريين والرستميين الى بلاد السودان محملة بالملح والنحاس والودع (213) ، لتعود بالذهب والابنوس وسن الفيل والجلود الشريكية ، فضلا عن الرقيق الاسود (214) .

-
- (201) ابن الصغير : ص 13 ، النفوسى : ص 88 .
(202) الادريسي : صفحة 132 .
(203) بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية ص 160 .
(204) الادريسي : صفحة 132 .
(205) اليعقوبى : البلدان : صفحة 345 .
(206) الادريسي : صفحة 132 .
(207) الاستبصار : صفحة 225 .
(208) جغرافية المامون ورثة 201 ، ابن بطوطة : ص 318 .
(209) الشماخى : السير ص 273 .
(210) الادريسي : صفحة 121 .
(211) الاستبصار : صفحة 145 .
(212) اليعقوبى : البلدان : صفحة 345 .
(213) التلشندي : ج 5 صفحة 164 .
(214) ابن النقيه : 87 ، جغرافية المامون ورقة 198 ، الاصطخرى : ص 35 .

والى سجلماسة وتاهرت كانت تفد القوافل وتخرج محملة بتلك السلع الى المشرق وسائر دول المغرب والاندلس (215) .

وجدير بالذكر أن أئمة بنى رستم شاركوا رعاياهم هذا الدور « فكان عبد الوهاب في أيام أبيه تاجرا » (216) ، وكانت قوافله تسافر الى بلاد كوكو (217) . ولدينا من الروايات ما يؤكد اشتغال أفلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان محمد بن أفلح (218) وأبى حاتم يوسف بن محمد (219) بالتجارة كذلك . كما رحب أئمة بنى رستم وعمالهم بتجار السودان ، ففتحوا لهم الأسواق واحسنوا معاملتهم وقدموا اليهم التسهيلات التجارية ، فأعفوا بضائعهم وسلمهم من الضرائب والرسوم (220) . وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل ، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الأمان للتجار . ويحدثنا ابن الصغير (221) أن الإمام أفلح أوفد سفارة من قبله الى أحد ملوك السودان ، وبعث اليه بالهدايا السنية حفاظا على مصالحه التجارية .

هذه الصلات التجارية دعمت علاقات المودة ووشائج الصداقة بين الطرفين ، فكان رعاياهم يختلطون ببعضهم البعض ، ووجدت أقليات لكل منهما في بلاد الآخر (222) ، ويرجح لويسكي (223) وجود جماعات من السودان بجبل نفوسة في القرن الثاني الهجري اعتمادا على نص أورده الشماخي ذهب فيه الى أن كثيرين من أهل الجبل أجادوا لغة الكانم .

ولا غرابة اذا ما أدركنا تسامح الخوارج مع أعدائهم السياسيين والمذهبيين ، وترحيبهم بالغرباء في بلادهم . وليس أدل على ذلك من وجود طوائف اليهود في سجلماسة وتاهرت مفي دولة مدرار احتكر اليهود

(215) Bernard : Op. Cit. P. 134.

(216) الشماخي : السير : صفحة 158 .

(217) أورد الوسياني رواية ذكر فيها أن أفلح بن عبد الوهاب أراد مرافقة قوافل والده الى بلاد كوكو ، فأخذ الإمام عبد الوهاب يختبره في الفقه وخاصة في مسألة الربى ، فأجاب عن كافة الأسئلة فيما عدا سؤال واحد . فأمره أبوه بعدم السفر حتى تزداد خبرته بأمور التجارة . انظر : سيرة أبي الربيع . ورقة 25 .

(218) انظر : الدرجيني : ج 2 ورقة 136 .

(219) انظر : ابن الصغير : صفحة 50 .

(220) الشماخي : السير : صفحة 273 ، 274 .

(221) سيرة الأئمة الرستميين : صفحة 31 .

(222) الوسياني : ورقة 4 .

(223) انظر : Etudes Ibadites. P. 96.

استغلال مناجم الفضة والذهب في درعة (224) وفي تاهرت عاش الرهادنة في احيائهم الخاصة — الجيتو — وهيموا على كثير من مناشط التجارة (225) ولا غرو فقد ذكر ابن الصغير (226) أن عاصمتي دولتي الخوارج غصتا بجموع التجار من سائر أرجاء العالم الاسلامي على اختلاف مللهم ونحلهم.

ولا شك في أن الخوارج جنوا أطيب الثمار من التجارة ، فيخبرنا ابن حوقل (227) أن أهل سجلماسة حققوا ثراء عريضا بزوا به « سائر أهل المغرب » ولا غرو ، فقد كانت معاملاتهم التجارية تصل الى آلاف الدنانير (228) . كما ذكر ابن الصغير (229) أن « سكان تاهرت علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية ، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى » .

وليس ادل على هذا الازدهار الاقتصادي من طيب العملة التي سكها ائمة الخوارج وجودتها (230) ، مما يؤكد أن الخوارج وان تسببوا في تفاقم ازمت بلاد المغرب الاقتصادية في عصر الثورات يعزى الفضل اليهم في انعاش احوالها الاقتصادية في عصر الاستقرار السياسي .

على أن سقوط دولتي الخوارج على أيدي الفاطميين سنة 297 هـ (909 م) واندلاع ثورات الخوارج من جديد ضد الحكم الفاطمي أصاب الازدهار الاقتصادي الذي شهدته البلاد . وتفاقمت الاحوال وازدادت سوءا بسياسة العسف الاقتصادي التي اتبعها الفاطميون . فقد انسابت جيوش أبي عبد الله الشيعي في تاهرت بعد فتحها ، « وأهلك الحرت والنسل » (231) ، ولما سقطت سجلماسة نهب الفاطميون أهلها واستولوا على أموال بني مدرار (232) ، ثم أضرموها فيها النيران (233) وفرض

(224) الاستبصار : صفحة 202 .

(225) ابن الصغير : صفحة 46 ، 57 .

Farouhy : Op. Cit. P. 14.

(226) سيرة الائمة الرستيين ص 16 ،

(227) المسالك والممالك . ص 42 ، ياقوت : ج 3 ص 46 .

(228) نقل القلقشندي من ابن سعيد نصا يقول فيه « رأيت صكا لاحدهم على آخر مبلغه أربعون ألف دينار » وذكر ابن حوقل أنه رأى صكا كتب بدين على أحد التجار موقع عليه بشهادة المدول ، قيمته اثنين وأربعين ألف دينار . انظر : صبح الاعشى :

ج 5 ص 164 ، المسالك والممالك ص 42 .

(229) سيرة الائمة الرستيين : صفحة 13 .

La voix : Op. Cit. P. 402.

(230) السلاوي : ج 1 صفحة 119 ،

(231) أبو زكريا : ورقة 37 .

(232) البهاسي : سيرة جعفر : صفحة 130 .

Biquet : Op. Cit. 71.

(233) ابن عذارى : ج 1 ص 210 ،

عمال الفاطميين سياسة مالية جائرة على البلاد التى فتحوها « فاستولوا على اموال الاحباس والحصون (234) » ، واشتطوا فى فرض المغارم والجبايات فأثقلوا صفرية درعة بالاعباء ، كما لقي اباضية نفوسة عننا شديدا وارغموا على دفع الاموال الباهظة والرشاوى لعمال القيروان (235) .

وكانت سياسة العسف الاقتصادى تلك من أسباب اندلاع ثورات الخوارج على الفاطميين . ولا شك أن هذه الثورات استنزفت جهود الطرفين معا ، ونتج عنها مزيد من تخريب الطرق واحراق المزارع وتدمير المدن الى جانب ازهاق الارواح والدماء ، مما تسبب فى حدوث المجاعات وانتشار الاوبئة التى أدت الى تفاقم الازمات الاقتصادية .

لكن ثورات الخوارج — برغم فشلها — اجبرت الفاطميين على التخلّى عن سياستهم الاقتصادية الجائرة « مخففوا الضرائب والجبايات » (237) وجنحوا الى الاعتدال فى حكم المغاربة .

وهكذا اثر الخوارج فى احوال بلاد المغرب الاقتصادية تأثيرا عميقا فبسببهم تفاقمت هذه الاحوال وازدادت سوءا فى عصر الثورات ، وبفضلهم ازدهرت كافة النواحي الاقتصادية فى عصر الاستقرار السياسى .

(234) سعيد بن مقديش : نزهة الايتار ص 123 .
(235) ابن حيون : المجالس المسيرات ج 1 ورقة 28 .
(236) الشماخي : السير : صفحة 320 ، 323 .
(237) لويس : اصول الاسماعيلية : ص 183 . نقلنا من كتاب تثبيت نبوة سيدنا محمد — مخطوط باسطنبول فى مكتبة شهيد على باشا برقم 1575 .

الحياة الاجتماعية

ترك الخوارج آثارا هامة في كيان المجتمع المغربي ، وأحدثوا تطورات واضحة في مواقف قواه الاجتماعية ذلك لان فكر الخوارج السياسى قوامه المساواة بين كافة العناصر والاجناس دون تفرقة أو تمايز . وانتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب في النصف الاول من القرن الثانى الهجرى احدث انقلابا في موازين القوى الاجتماعية ببلاد المغرب ، اذ هوت بعض العناصر التى كانت تحتكر السلطة السياسية وصعدت عناصر كانت مغلوطة على امرها لتتقف على قدم المساواة مع القوى الاخرى أو نالت حظها في بعض الاحيان في قيادة الثورات وتولى مقاليد الحكم والسياسة .

لقد كان المجتمع المغربى قبيل انتشار مذهب الخوارج مجتمعا متمایزا غير متجانس . وكانت قواه وعناصره في صراع طائفى وعنصرى دائم ، فالعرب تمتعوا بوضع ممتاز باحتكارهم شؤون الحكم وهيمنتهم على السلطة . ومع ذلك دب الشقاق والصراع على الصدارة بين العرب اليمنية والعرب القيسية مما اضعف العنصر العربى عموما في اواخر العصر الاموى .

اما البربر — سكان البلاد الاصليين — فعلى الرغم من انهم يمثلون السواد الأعظم من السكان لم يكن لهم وزن كبير في الحياة السياسية ورغم ما كان بينهم وبين العرب من عدااء لم يسلخوا من آفة الخصومات القبلية كالصراع بين « بربر الوبر » و « بربر المدر » ، أى بين عنصرى البتر والبرانس ، وهو صراع قديم متوارث ظل قائما طوال العصر الاسلامى .

الى جانب العرب والبربر وجدت ببلاد المغرب اقلية ضئيلة من الافارقة والسودان واليهود ولم يكن لتلك الاقلية كبير وزن في الحياة السياسية في عصر السيادة الاموية والتعصب للعرب . فالافارقة اصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم واعتنقوا ديانتهم ، او من الاجانب الذين طال استيطانهم في بلاد المغرب حتى أصبحوا « افارقة » . وقد اعتنق هؤلاء واولئك الاسلام على امل الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المتميزة التي تمتعوا بها في العصر البيزنطي ، لكن بعض ولاة بنى امية اضطهدوهم وعاملوهم معاملة الموالى (238) .

أما السودان ، فكانوا يجلبون من افريقية جنوبى الصحراء عن طريق الغزوات العربية لاطراف بلادهم ، او يجلبون كرتيق عن طريق التجارة (239) . وقد اختلط كثيرون منهم بالبربر ، واعتنق بعضهم الاسلام.

وكانت ببلاد المغرب اعداد غفيرة من اليهود هاجروا اليها في العصر الرومانى . وظل هؤلاء يعيشون عيشة العزلة عن المجتمع المغربى ، وشكلوا اقلية كان لها دور كبير في النشاط الاقتصادى . واذا كانوا قد تمتعوا بالحرية الدينية بعد الفتح الاسلامى باعتبارهم اهل ذمة ، فقد تعرضوا لكثير من مظالم الولاة الامويين (240) .

كانت ثورات الخوارج في المغرب تمثل في بعدها الاجتماعى صراعا بين العرب والبربر بسبب سياسة بنى امية في التعصب للعنصر العربى ، ولهذا حرص ثوار الخوارج على « الفتك بأمر العرب » (241) عموما ، والقرشيين منهم بوجه خاص (242) . ولعل في قول هشام بن عبد الملك عقب هزيمة العرب في موقعة الاشراف سنة 123 هـ (741 م) « والله لاغضبني غلبة عربية » (243) ما يشير الى ذلك الطابع العنصرى للصراع .

والذى يؤكد ان هذا الصراع تمخض عن اضعاف شوكة العرب ، فقد قتل كثيرون منهم في معارك الاشراف « التى فنى فيها حماة العرب

(238) انظر : البكرى : المغرب : ص 6 ، مؤنس : ثورات البربر ص 153 .

(239) انظر : اليعقوبى : البلدان ص 345 .

(240) Julien : Op. Cit. P. 203

(241) ابن خلدون : العبر ج 6 صفحة 111 .

(242) ابن عذارى : ج 1 ص 70 ، ابن خلدون : المرجع السابق ص 112 .

(243) الرقيق : ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .

وفرسانها وكماتها وأبطالها » (244) وبقدورة التي كان فيها مصير الجيش العربي « ثلث مقتول وثلث منهزم ، وثلث مأسور » (245) والقيروان سنة 139 هـ (756 م) التي أجهزت فيها ورفجومة « على كل من بالمدينة من القرشيين » (246) .

ثم كان سقوط الخلافة الاموية وقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ (750 م) واعتماد العباسيين على الجند الخراساني والفارسي في مواجهة ثورات الخوارج في البلاد (247) اذ الثابت أن أعدادا كبيرة من الجند الخراساني والفارسي وفدت الى بلاد المغرب في حملات محمد بن الاشعث سنة 142 هـ (759 م) ويزيد بن حاتم سنة 154 هـ (771 م) وهرثمة بن أعين سنة 179 هـ (765 م) وقد نافس هؤلاء الجند العرب مكان الصدارة .

أما البربر فان اعتناقهم مذهب الخوارج ساعد على توحيد شملهم تحت لواء واحد . فقد جمعتهم جميعا بترا وبرانس مبادئ الخوارج التي تحض على العدل والمساواة . واختفت — الى حين — نزعات الخصومة والتناحر بين بربر الوبر وبربر المدر واشتركوا جنبا الى جنب في الثورة على العرب (248) . وقيام دولتي الخوارج أكد هذه الوحدة للبربر ، فدولة بنى مدرار ضمت صفريّة المغرب من البتر والبرانس على النساء ، وتكاثفت مكناسة وزناتة من البتر مع صنهاجة وزويلة ومسوفة ولتونة من البرانس على تأسيسها (249) . والدولة الرستمية عاشت في كنفها قبائل هواره ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية وغيرها (250) .

كما أدى انتشار مذهب الخوارج الى ظهور عنصرى الافارقة والسودان بعد أن كانا على هامش الحياة السياسية من قبل . فاعتناق الافارقة المذهب الصفري ، اهل زعيمهم عبد الاعلى بن جريج لتولى حكم طنجة من قبل ميسرة (251) وتغلغل المذهب ذاته بين السودان افضى الى

-
- (244) ابن عبد الحكم : ص 294 ، الرقيق : ص 111 .
 - (245) مجهول : أخبار مجبوعة : صفحة 34 .
 - (246) المالكي : رياض النفوس : صفحة 107 .
 - (247) الرقيق : ص 159 ، ابن عذاري : ج 1 ص 83 .
 - (248) راجع : ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .
 - (249) البعقوبي : البلدان : ص 359 ، ابن خلدون : ج 6 ص 129 .
 - (250) ابن خلدون : ج 6 صفحة 121 .
 - (251) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذاري : ج 1 ص 52 .

تقلد زعيمهم عيسى بن يزيد الاسود رئاسة دولة بنى مدرار سنة 140 هـ (757 م) (252) .

وقد ادى قيام دول الخوارج المستقلة في بلاد المغرب الى انشاء مدن اسهمت في تحقيق الاستقرار الاجتماعى والبشرى (253) .

ففى واحة تافيلالت أسس الصفرية سجلماسة سنة 140 هـ (254) (757 م) وأخذت المدينة الصغيرة التى لم تكن عند نشأتها سوى « مجمع للصفرية » تتسع ويزداد عمرانها شيئا فشيئا ، اذ اقبلت القبائل على سكناها ، فبنت الضواحي والارياض (255) ، واعتادت حياة الاستقرار ، وترك معظمها حرفة الرعى الى الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة . وادى ذلك الى عمران اقليم تافيلالت بعد ان كان يعاني نقصا فى السكان .

فقد جذبت المدينة الجديدة بطون مكناسة الضاربة فى وادى ملوية (256) ونواحي تازا وتسول بالمغرب الاقصى (257) فهجروا مواطنهم واستقروا بها . كما وفدت اليها بطون من صنهاجة اللثام من مسوفة ولتونة (258) وزويلة (259) وغيرها . كذلك نزحت جماعات من الجنوب من بلاد السودان لتسهم فى عمران الاقليم وتقيم فيه بصفة دائمة . وقد اغرى ازدهار المدينة بعض العناصر الاندلسية ، فهجرت بلادها واقامت بسجلماسة أيضا (260) ونظرا لاهمية موقعها التجارى الممتاز ، ولوفرة مناجم الذهب والفضة باقليم تافيلالت ، فقد تصدها اليهود طمعا فى الثراء وطلباً للامن والاستقرار (261) .

ولا شك ان هجرة القبائل الى سجلماسة ادى الى تحولها من حياة البداوة الى حياة الاستقرار وغيرت الكثير من مظاهر حياتها الاجتماعية فى عاداتها وتقاليدها (262) واختلعت بعناصر أخرى وافدة كالسودان

-
- (252) البكرى : صفحة 149 ،
(253) ابن خلدون : المقدمة : صفحة 112 .
(254) البكرى : صفحة 148 .
(255) الادريسي : صفحة 160 .
(256) اليعقوبى : البلدان : صفحة 359 .
(257) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،
(258) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 271 .
(259) المقدسى : صفحة 231 .
(260) أبو العرب تميم : صفحة 80 .
(261) الاستبصار : صفحة 202 .
(262) البكرى : صفحة 148 .

والاندلسيين .

وقيام الدولة الرستمية سنة 162 هـ (779 م) كان له آثاره الاجتماعية في حياة سكان بلاد المغرب الاوسط ، فقد تحول اقليم تاهرت من غابات وغياض وآجام للوحوش والزواحف (263) الى مدينة عامرة أهلة بالسكان مزدانة بالعمائر والزروع . كما تحولت غدامس ووارجلان وودان وزويلة من مجرد قرى مغمورة على حافة الصحراء الى منافذ وثغور داخلية أهلة بالحركة والنشاط بفضل تجارة بنى رستم مع بلاد السودان (264) . وترتب على ذلك انتقال السكان من حياة البداوة والترحال الى حياة الحضارة والاستقرار . فقبائل هواراة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية أنفت معظم بطونها احترام الرعى وأقدمت على الاشتغال بالزراعة والتجارة وتركت مواطنها الاصلية لتستقر في تاهرت وما حولها « واتخذت العير والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة » (265) . وما لبثت أن تطلعت الى السلطة فشاركت في الفتن والثورات على أئمة بنى رستم ، وقدر لبعضها الظفر بالحكم كما حدث بالنسبة لمحمد بن مسالة الهواري (266) .

ولما كان أئمة بنى رستم من الفرس ، فقد جذبت تاهرت كثيرا من العناصر الفارسية حيث شكلوا قوة اجتماعية لها وزنها حتى كانوا أشبه « بدولة داخل الدولة » وليس ادل على نفوذهم من أن زعيمهم ابتنى سوقا « لم يكن صاحب شرطة الامام أفلح ليحجرا على دخوله أو يتخلله ، هيبة وخوفا » (267) .

هذا وقد احتوت دولة بنى رستم جماعات كبيرة من العرب نزحوا الى تاهرت لشهرتها التجارية ، او فرارا من الاضطهاد المذهبي او هربا من افريقية بعد فشل ثوراتهم على الامارة الاغلبية . وكان لهم دور بارز في أحداث الدولة الرستمية في عصرها الاوسط (268) . الامر الذي اثر تأثيرا عميقا في حياة المجتمع الرستمي . ونعتقد أن العناصر الاباضية

(263) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 99 .
(264) انظر : الادريسي : ص 132 ، اليعقوبي : البلدان ص 345 .
(265) ابن الصغير : صفحة 27 .
(266) انظر : النفوسي : صفحة 336 .
(267) ابن الصغير : صفحة 27 .
(268) النفوسي : ج 2 صفحة 182 .

الوافدة لعبت دورا بارزا في هذا الشأن باعتبارها أكثر حضارة ورقيا من القبائل البدوية سكان البلاد الاصليين ، ومن مظاهر ذلك تحول البلاط الرستمي عن حياة الزهد والتقشف الى حياة الترف والدعة لقد كان عبد الرحمن بن رستم — أول أئمة بني رستم — ورعا زاهدا ، فبيته لم يكن به الا « حصيرا فوقه جلد ووسادة ينام عليها ، وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره » (269) أما خلفاؤه فقد عاشوا حياة خلفاء المشرق وملوك الفرس ، فامتلكوا القصور والضياع والمنازل والحصون التي اقاموها بنواحي تسلونت خارج تاهرت (270) ، واقتنوا الجوارى والغلمان (271) والعبيد والحشم (272) وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن نماليت خارج المدينة (273) . وانصرف معظم الرستميين الى حياة الترف والدعة والولع بالفنون والآداب (274) كما تطرق الفساد الى « الرستمية » فكانوا يخالطون العياريين والشنطار وينادمون الفتيات ، ويعتدون على الحرائر (275) .

كما تشبه بنو رستم بالمشاركة في اقامة الاسمطة « والجفان » لاطعام الفقراء أيام الاعياد والمناسبات الهامة (276) . فكانت تقام الاحتفالات اننى يحضرها وفود من كافة انحاء الدولة ، وكان عمال الامام ورؤساء القبائل ينزلون في « دار الضيافة » ويعودون الى عمالاتهم او الى مضاربهم بعد ان تجرى عليهم الارزاق وتوزع عليهم الهدايا والالطاف (277) .

ومفضلا عن ذلك كان اختلاط البربر بالعناصر الوافدة له حسناته كما كان له مساوئه ايضا ، فقد اقام البربر في ظل الحكم الرستمي « قصورا منظمة وابنية مبهجة وتبابا مرتفعة ، واسواقا مزدحمة ، ومساجد متعددة بمنارات عالية ، وحمائم متقنة . واتخذوا الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوعت الالبسة وتعددت اللغات والازياء » (278) يقابل

-
- (269) ابن الصغير : صفحة 11 .
 (270) نفس المصدر : صفحة 48 .
 (271) نفس المصدر : صفحة 25 .
 (272) ابن الصغير : ص 34 ، النفوسى : ص 266 .
 (273) ابن الصغير : صفحة 52 .
 (274) نفس المصدر : صفحة 31 .
 (275) نفس المصدر : صفحة 49 .
 (276) نفس المصدر : صفحة 26 .
 (277) نفس المصدر : صفحة 47 .
 (278) نفس المصدر : ص 56 ، النفوسى : ص 85 .

ذلك تحلل المجتمع الرستمي وتفشي الرذائل فيه « فقد ظهر المنكر ، وكثر
الفسق وشرب الخمر » (279) وهو ما عبر عنه ابن الصغير (280) بقوله
« فسد البلد وفسد أهلها . . فاتخذوا للمسكر أسواقا والغلمان أخذنا »
وعجت الطرق بمناسر اللصوص وخاصة « من سفهاء زناتة » (281) وهذا
هو الذي أثار ثائرة شيوخ المذهب فتبرموا بهذه المفاصد وأظهروا
سخطهم عليها (282) .

وجدير بالذكر أن من أهم أثار الخوارج في المجتمع المغربي بروز دور
المرأة ، فكما اشتهرت بعض نساء الخوارج في الشرق — كغزالة أم شبيب
ابن يزيد الشيباني (283) — في فنون السياسة والحرب ، وإسهام بعضهن
في النشاط السري الخاص بالتنظيم والدعوة (284) ، برزت كثيرات من
نساء الخوارج في المغرب في نواحي السياسة والثقافة . فقد تولت جدة
المنتصر سمكو بن محمد الوصاية عليه وامسكت بزمام السلطة في سجلهامة
حين كان قاصرا (285) : وأخت الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم
برزته في علم الفلك وتفوقت عليه في قراءة الطوالع والنجوم (286) . وكانت
غزالة زوجة أبي اليقظان محمد « مالكة لامره » (287) حتى لقد أرغمته
على تقليد ابنها أبي حاتم يوسف ولاية العهد (288) . ولا يخفى دور دوسر
ابنة أبي حاتم يوسف في أحداث العصر الرستمي الأخير ، تلك التي أودت
بالدولة الرستمية (289) .

-
- (279) الشماخي : السير : صفحة 263 .
(280) سيرة الائمة الرستمين : صفحة 55 .
(281) نفس المصدر : صفحة 49 .
(282) تأنف أحد هؤلاء الفقهاء من تبرز نساء قسطنطين قائلا « ما أكثر اماء هذا البلد » .
انظر : الشماخي : السير : ص 281 .
(283) الطبري : ج 6 صفحة 275 .
(284) الشماخي : السير : صفحة 108 ، 109 .
(285) البكري : صفحة 151 .
(286) الشماخي : السير : صفحة 193 .
(287) النفوسي : صفحة 264 .
(288) ابن الصغير : صفحة 50 .
(289) أبو زكريا : ورقة 36 .

رابعاً :

الحياة الثقافية

ترك الخوارج آثاراً واضحة في الحياة الثقافية ببلاد المغرب . إذ أن مذهب الخوارج تضمن آراء خاصة تفرد بها عن سائر المذاهب الإسلامية الوافدة إلى المغرب . ولما كانت هذه الآراء تمثل في جوهرها عودة إلى تعاليم الإسلام الصحيحة ، فقد أقبل المغاربة على اعتناقها أكثر من اقبالهم على أي مذهب آخر . وقد سبق التعريف بدور دعاة الخوارج في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم حتى عمت الدعوة سائر بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الثاني الهجري .

وانتشار مذهب الخوارج استلزم تبصير المغاربة بفقاهه وآرائه وعقائده ولم يقدر لدعاة الخوارج الأول كعكرمة مولى ابن عباس وسلمة بن سعيد وابن مغيطر أن يقوموا بهذا الدور . فاختار المغاربة بعض رجالهم وأوفدوهم في بعثة إلى البصرة للدراسة والتعلم والتعمق في أصول المذهب وفروعه . واستمرت مهمتهم خمس سنوات عادوا بعدها إلى المغرب « حملة للعلم » . ثم قاموا بتدريس ما حصلوه بالشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى وأفريقية . وفي تلك الحلقات تلقى الاتباع الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق

الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (290) ، فكانت بمثابة مدارس للعلوم العقلية والعقلية في آن واحد ، ومراكز لتعريب البربر ونشر الحضارة العربية أيضا .

ولم تنقطع الصلة بين خوارج المشرق والمغرب فكانت كتب فقهاء المذهب في الشرق وتصانيفهم تفد الى المغرب بشكل دائم (291) . كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم الى المغرب للتدريس والافتاء (292) . وفي نفس الوقت لم تنقطع بعوث المغاربة الى المشرق للاخذ عن اعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز (293) .

ولا شك ان ذلك الاتصال الثقافي بالشرق اثري الحياة الثقافية في بلاد المغرب . فظهر كثيرون من الاعلام المغاربة في العلوم الدينية والدنيوية . كالشيخ مهدي النفوسي المتكلم (294) وابن يانس ذائع الصيت في التفسير والفقه وأبو حسن الابدلاني (295) وعبد العزيز بن الاوز (296) ، ويعتوب بن سيلوس قاضي وارجلان (297) وغيرهم ممن أثروا بتأليفهم ومصنفاتهم انحية الثقافة ببلاد المغرب وقد ألف هؤلاء بالعربية والفارسية ومنهم من ترك كتباً بلغة البربر كابن سهل الفارسي (298) .

ولا شك ان انتشار آراء الخوارج بين البربر أحدث ثورة فكرية في بلاد المغرب ، وساعد على ذلك التنافس الفكري بين الخوارج وبين غيرهم

(290) الدرجيني : ج 1 ورقة 3 ، البرادي : الجواهر المنتقاة : ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IXI.

(291) ذكر مؤرخو الإباضية ان إباضية البصرة نسخوا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم آلاف الكتب لتزويد المكتبة المعصومة بتاهرت . وأورد بعضهم أن ديوان نفوسة كان يحوي ثلاثمائة وثلاثين ألف جزء من مؤلفات المشاركة . انظر : الشباخي : السير . ص 162 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 26 ، البرادي : رسالة في بعض كتب الإباضية . ورقة 207 .

(292) الوسياني : سير أبى الربيع ورقة 2 .
(293) نفس المصدر ورقة 13 . كانت مواسم الحج فرصة مواتية للقاء الإباضية من كافة الابصار الاسلامية ، وقد حرص المغاربة على الاستفادة من لقاءهم باعلام المذهب فيما يمن لهم من مسائل علمية وفقهية كان يفتى فيها مشاهير الفقهاء كشعيب بن المعرف في مصر ومحبوب بن الرحيل ببكة والربيع بن حبيب وغيرهم من العراق .

(294) أبو زكريا : ورقة 20 .

(295) الشباخي : السير : صفحة 155 .

(296) النفوسي : صفحة 70 .

(297) نفس المصدر : صفحة 48 .

(298) نفس المصدر : صفحة 68 .

من اتباع المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى التى وجدت الى بلاد المغرب .
واهم الملاحم الفكرية التى جرت فى هذا الصدد كانت مع السنة المالكية
والمعتزلة ، ثم مع الشيعة الفاطميين .

فقد غلب مذهب مالك على افريقية وساد ما عداه من المذاهب
الأخرى . الا أن مذهب الخوارج تسرب اليها بشقيه الصفرى والاباضى
وتذكرت كتب الطبقات (299) أن حلقات الصفرية والاباضية كانت تعتد
فى مساجد افريقية ، بل فى جامع القيروان ذاته . حيث دأب فقهاء الخوارج
على تدريس تعاليم المذهب ومناظرة مخالفه ومع ما عرف عن المالكية
من تعصب وبغض لمخالفهم ، فقد سمحوا للخوارج بممارسة نشاطهم
فى افريقية حتى تولى سحنون القضاء فحظر عليهم ذلك ، وبدد حلقاتهم
وشنت شملهم (300) . ودرج من جاء بعده من القضاة المالكية على
اضهاد الخوارج فى افريقية واذلالهم .

وعلى خلاف ذلك حظى المالكية فى دول الخوارج بتسامح الى أبعد
الحدود حتى أن بعض شيوخهم تولوا المناصب العامة فى تاهرت فى أواخر
حكم بنى رستم (301) وليس أدل على هذا التسامح مما يرويه ابن
الصغير (302) — وهو مالكي عاصر أئمة بنى رستم الأواخر — عن الحرية
التامة التى تمتع بها المالكية فى ممارسة شعائرهم فى كافة مساجد تاهرت
فيها عدا المسجد الجامع . ويحكى ابن الصغير (303) كثيرا عن محاوراته

(299) أبو العرب تميم : ص 120 ، الدباغ : ج 2 ص 55 .

(300) المالكي : ج 1 ص 409 ، الدباغ : ج 2 ص 192 .

(301) الشياخي : السير : ص 263 ، البرادى : الجواهر المنتقاة : ورقة 103 .

(302) سيرة الأئمة الرستميين ص 57 .

(303) وهك مثالا لمناظرة بين ابن الصغير مع أبى الربيع سليمان الهوارى الاباضى يقول
ابن الصغير : « قال الاباضى : من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين
والمراقيين أن الرجل إذا زوج ابنته البكر وهى صغيرة وأدركت أن لا خيار لها فى
نفسها ، وأنتم تقولون أن الرجل إذا زوج أمته وعنتت أن لها الخيار . ولا فرق بين
الامة والصغيرة لأن الامة لم يكن لها حكم فى نفسها وإنما كان الحكم لسيدها ، فلما
عنتت وصار الحكم اليها جعلتم لها الخيار ، والصغيرة لم يكن لها حكم فى نفسها
وأن الحكم لابنها ، فلما أدركت صار الأمر اليها ، فلم منعتوها ما أجزتم للامة
والمعنى واحد »

فقلت له : إنما أجزنا نكاح الصغار لأن النبى (ص) تزوج عائشة بنت أبى بكر
بنت سبع وبنى بها وهى بنت تسع .

فقال لى : دعنى من هذا ، فانى لا أجامعك عليها ، ولكن كلمنى من القرآن أو من
باب النظر مع أنى لو منيت لك الخبر ما كان لك فيه حجة لآنك تعلم أن الله أحل
لرسوله من النساء ومن عدهن أكثر مما أحل لأمته ، فإن كان عندك حجة غير هذه
فأذكرها ، ولا فلا تقم لك حجة =

ومساجلاته مع مشايخ الاباضية في كثير من المسائل الفقهية والمذهبية دون
أن يتعرض لارهاب أو بطش .

ولما كان المذهب الاباضى اقرب مذاهب الخوارج الى مذهب اهل
السنة ، فلم يجد فقهاء القيروان ما يحاولون التحالف مع الاباضية
لنأوة المذهب الشيعى (304) . وقد ظهر هذا الائتلاف بشكل واضح في
ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد .

أما المعتزلة أو الواصلية فكانت مضاربيهم بالمغربين الاوسط والاقصى
حيث شكلوا اقلية لها ثقلها في دول الادارسة وبنى مدرار وبنى رستم .
ففى سجنهم اقامت اعداد غفيرة منهم وتمتعوا بحرية وتسامح في رحاب
بنى مدرار على الرغم من تطرف المذهب الصفري (305) . وليس أدل
على ذلك من سماح المدرارين لهم بأن « يبعثوا بزكاة أموالهم الى رئيسهم
بتاهرت يصرعها حيث شاء » (306) .

و في تاهرت وما حولها كان يقيم ما يربو على ثلاثين ألف من

-
- == قلت له : فان أوجدتك صحة عقدها من القرآن اترجع .
نقال : فاذا ذكر لي ذلك .
قلت له : قال الله تبارك وتعالى : « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم الى
واللائي لم يحضن » .
نقال لي : مجبا منك ، أنا أسالك عن عقد النكاح وفسخه وانت تخبرني من عدد
المويسات وعدة اللائي لم يحضن .
قلت : هيهات أبا الربيع غاب عنك المراد .
وما غاب عنى من ذلك .
قلت : أخبرني عن هذه العدد الموضعات من طلاق أم من غيره .
قال من طلاق .
قلت : فهل يقع طلاق من غير أن يكون عقد نكاح ؟
قال : لا .
قلت : في المويسات فمتن اللائي قد بلغن من السنين مالا يحضن مثلهن ؟
قال : نعم .
قلت : واللائي لم يحضن من الصغى ؟
قال : نعم .
قلت : ما وجب الله عليهن مددا ؟
قال : نعم .
قلت : أمن طلاق أم من غير طلاق .
قال : من طلاق .
قلت : فيكون طلاق من غير عقد نكاح ؟ فسكت ولم يرد جوابا . انظر : سيرة الائمة
الرستبيين : صفحة 50 ، 51 .
(304) سعيد بن مقديش : صفحة 125 .
(305) البغدادي : صفحة 103 .
(306) البرادي : الجواهر ورقة 93 .

الواصلية (307) . وعلى الرغم مما قاموا به من دور معاد لائمة بنسى رستم وتمردهم في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فقد حظوا بتسامح ديني الى ابعد الحدود . وحسبنا ما كان يحدث بين شيوؤهم وزعماء الاباضية من محاورات على غرار ما كان يحدث بالشرق بين زعيمهم واصل بن عطاء وبين ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة شيخ اباضية الشرق (308) . ونستشف من المصادر الاباضية أن فقهاء المعتزلة بزوا مشايخ الاباضية في تاهرت ، وافحموا الامام عبد الوهاب ذاته في مساجلاتهم معه . فلم يستطع عبد الوهاب محاجاتهم في كثير من المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع ، بدليل استعانتهم بمشايخ المذهب في جبل نفوسة في هذه المساجلات (309) . وكانت الممارك الجدلية بين الاباضية والمعتزلة لا تفتت ابدأ (310) . ومع ذلك نعم المعتزلة في العصر الرستمي الاخير بتسامح كبير فكانوا يلتقون في مناظرات ومساجلات مشهورة مع مشايخ الاباضية على نهر مينة خارج تاهرت ، وكان قطب الاباضية المدافع عن مذهبهم ويدعى عبد الله بن اللطى له معهم مواقف مشهودة ، اشاد بها ابن الصغير المالكي (311) .

أما التشيع فقد أخذ سبيله الى دولتي الخوارج في عصرهما الاخير ، فالمذهب الشيعي وفد الى سجماسة قبل وصول المهدي اليها (312)، ولم يعد المهدي وجود انصار واتباع في سجماسة كانوا يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم ابان وجوده بها (313) .

وتحدث أبو زكريا (314) عن وجود كثير من الشيعة في تاهرت في عصر الرستميين الاواخر . والحق — أننا لم نقف على أى نشاط فكري واضح للشيعة في تاهرت . وان كانت كتب الاباضية تحفل بكثير من

(307) البكري : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .

(308) الدرجيني : ج 1 ورقة 105 .

(309) الشماخي : السير : صفحة 155 .

(310) أبو زكريا : ورقة 20 .

(311) في احدى المساجلات سال شيخ المعتزلة عبد الله بن اللطى : هل تستطيع الانتقال

من مكان لست فيه الى مكان لست فيه ، فقال ابن اللطى : لا . فقال : هل

تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان أنت فيه ، قال : لا . فقال : هل

تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه ، فقال : خرجت منها . .

انظر : ابن الصغير : ص 45 ، الشماخي : السير : ص 223 .

(312) اليماني : سيرة جعفر : ص 120 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(313) أبو زكريا : ورقة 36 .

(314) نفس المصدر والمصينة .

المساجلات والمناظرات بين الاباضية والشيعة بعد سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) ولعل من أكثرها طرافة ما حدث بين أبى نوح وسعيد بن زنفيل الاباضى وبين أبو تميم المعز لدين الله الفاطمى من مواقف تدل على حصافة الشيخ الاباضى من ناحية وتبجيل المعز للعلماء والفقهاء من ناحية أخرى (315) .

ولا شك ان المحاورات والمساجلات بين شيوخ تلك المذاهب وبين فقهاء الخوارج أثرت الحياة العقلية في بلاد المغرب بوجه عام . وهذا ما عبر عنه النفوسى (316) بقوله :

« .. وكثرت الآراء والاقوال ، وانتحل البحث في المذاهب وعظم الجدل حول مسألة الامامة ، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها ويدعى أنه أولى وأحق بها ، ويقيم على ذلك الحجج والادلة » . والفضل يعزى الى حكام الخوارج في اتاحة الحرية الدينية لتنافس تلك الطوائف وتصارع آرائها . وكان من اثر ذلك أن كثرت الفرق المنشقة على الاثمة كالنكار والخلفية والنفائية ، لكن هذه الانشقاقات غذت فكر الخوارج ، وامتدته بآراء واجتهادات جديدة . كآراء يزيد بن غندين في الامامة المشروطة ، واجتهادات مرج بن نصر (317) المعروف بنفاث في تطوير العقائد الاباضية (318) .

(315) لما قبض على أبى نوح وجرى به الى المعز مكبلا بالاصناد ، قال المعز : ان القيود دخلت في رجلك بالعلم ولا تخرج الا بالعلم . قال أبو نوح : عسى الله ان يجعل ذلك كنارة لذنوبى . فغضب المعز وقال : افنحن مسيتون فيك ، قال أبو نوح : قلت ليس في ذلك ما يدل على اساءتك ، الا ترى ان الله يبتلى عباده فيصبروا فيؤجروا ، وليس في ذلك ما يثبت الاساءة لله . فزال غضبه ، فطلبته العفو ، فعفى . . وقربه . . وفى احدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبى نوح ، سأل المعز : ما الدليل ان لهذه الصنعة صانعا ، ، واجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية . فقال أبو نوح ، فرايت أبا تميم كأنه يريد الجواب . وتأدب أبو نوح وقال : جوابك مفهوم من سؤالك ، لان الصنعة بنفسها دليل الصانع ، ولا صنعة بغير صانع . فاعجب المعز بلباقته . انظر الشماخى : السير ص 352 وما بعدها .

(316) انظر : الازهار الرياضية : ج 2 ص 115 .
(317) وليس أدل على مكانة مرج بن نصر العلمية من رحلته الى بغداد ومواقفه ومحاوراته في بلاط المباسيين مع فقهاءهم وعلمائهم ومحدثيهم ، وظفروه لذلك بصرى الخليفة ورعايته . عن هذه الرحلة انظر : أبو زكريا : ورقة 29 ، 30 . وجدير بالذكر ان نفائنا نسخ اiban وجوده ببغداد ديوان جابر بن زيد في الفقه وعاد به الى المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 30 .

(318) راجع : النفوسى : الازهار الرياضية : ج 2 ص 195 .
Lewcki : Melanges Berberes Ibadites. P. 280.

وكان أئمة الخوارج يقدرون العلم والعلماء ، فثد عرف عن حكام سجلماسة « حب العلم والرغبة في طلبه وتحصيله » (319) . كما كان البيت الرستمي « بيت العلوم جامعا بفنونها من علوم التفسير والحديث ، وعلم اللسان وعلم النجوم ، والاصول والفروع والفرائض » (320) . وعبد الرحمن بن رستم بويج بالامامة « لعلمه وفضله » وحسبه انه كان من « حملة العلم الخمسة » الى المغرب . وعبد الوهاب بن عبد الرحمن كان له خلواته العلمية الخاصة الى جانب مجالسه العامة التي كان يرتادها طلبة العلم من سائر أرجاء دولته (321) . وأبو بكر بن أفلح عرف بشغفه بالآداب والتواريخ (322) وكان أبو اليتظان محمد « يدرس في حلقات ثلاث ثلاثة أنواع من العلم » (323) . وكانت مكتبة الاسرة الرستمية — المعروفة بالمعصومة تحوى امهات الكتب الدينية الى جانب مصنفات الفنون والرياضيات والصنائع (324) .

وقد اوضحت سجلماسة وتاهرت من المراكز الثقافية الكبرى في بلاد المغرب وامها طلاب العلم من سائر انحاء وخاصة تاهرت « التي تعددت بها اللغات واللهجات (325) وجاب علماءها مدن الشرق والمغرب رغبة في طلب العلم وتحصيله (326) كما خرج منها أيضا طلاب العلم الى القيروان وقرطبة (327) .

والى الخوارج يعزى الفضل في وضع البذور الاولى لنشر الاسلام في بلاد السودان الواقعة جنوبي الصحراء ذلك أن الجهود السابقة التي بذلها عقبة بن نافع لم يقدر لها النجاح (328) ، كما أن غزوات عبد الرحمن ابن حبيب وعبيد الله بن الحبحاب لاطراف بلاد السودان لم تتمخض عن شيء

-
- (319) اسماعيل حامد : نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7 .
(320) الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .
(321) النفوسي : صفحة 197 .
(322) ابن الصغير : صفحة 31 .
(323) الدرجيني : ج 1 ورقة 136 .
(324) أبو زكريا : ورقة 42 .
(325) الشماخي السير : صفحة 263 .
(326) من هؤلاء بكر بن حباد التاهرتي الذي سمع بالشرق وساجل شعراء العراق كدعبل الخزاعي وعلى بن الجهم ثم نزل القيروان وفاس وناظر علماءها وترك أشعار تنم من ملو مكانته العلمية والادبية . انظر : النفوسي : ص 71 وما بعدها .
(327) الضبي : بغية الملتبس ص 364 ، ابن بشكوال : الصلة ج 1 ص 86 .
(328) عبيد الله بن صالح : نص جديد : ص 218 .

سوى الحصول على المغنم (329) . كما قام أبو القاسم سمكو بن وأسول أمير سجلماسة بنشر الاسلام على المذهب الصفرى بين الجماعات السودانية التى كانت تعمل فى نقل التجارة عبر الصحراء ، ومعروف ان كثيرين منهم آثروا الاستقرار بسجلماسة بعد اسلامهم . وبفضل بنى مدرار انتشر الاسلام بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولتونة التى كانت تضرب بنواحي سجلماسة على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة (330). وقد ازدادت اعداد هؤلاء بسجلماسة حتى وصف البكرى (331) سكانها « بأنهم يلتزمون النقب » . ولما كان لهم دورهم الهام فى الوساطة بين بلاد المغرب من ناحية وبين اقاليم افريقية الغربية من ناحية أخرى تسرب الاسلام عن طريقهم الى تلك الجهات وانتشر لأول مرة بين جماعات التكرور وأهل غانة (332) .

أما الاجزاء الوسطى من بلاد السودان — وهى بلاد الكانم أو زغاوة — فقد بلغت الدعوة الاسلامية عن طريق تجار بنى رستم ، اذ ان الرستميين كانوا على صلات تجارية وطيدة مع هذه البلاد ، ومن المحقق ان تلك الصلات أسفرت عن انتشار الاسلام بين بعض الزواغيين على خلاف ما هو شائع عن بقاء زغاوة على « الشرك » حتى قيام دولة المرابطين (333) وما ذهب اليه بعض الدارسين (334) من ان انتشار الاسلام فى بلاد الكانم كان على يد المصريين . والواقع ان بنى رستم وضعوا البذور الاولى لحركة انتشار الاسلام فى تلك النواحي (335) . ولدينا من الادلة ما يؤكد ذلك ، اذ نعلم ان قاضى جبل نفوسة — ويدعى عمرو بن فتنح — « بعث عالما كبيرا من اهل الدعوة » الى زغاوة استقر هناك

(329) ابن خلدون : ج 4 صفحة 189 .

(330) الاستبصار : ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .

(331) المغرب : صفحة 148 .

(332) الاشعرى : مقالات الاسلاميين : ص 128 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية . ص 221 . والواقع ان انتشار الاسلام لم يتم بصورة واسعة فى هذه الجهات الا فى عهد المرابطين . انظر : الاستبصار . ص 217 ، حسن محمود : المرجع السابق . ص 234 .

(333) المأمون : جغرافيته 1 ص 204 .

(334) حامد أمار : علاقات الدولة الملوكية بالدول الافريقية ص 12 .

(335) الطنيسى : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب : ص 116 .

وطاب له المقام (336) . كما أورد الشماخي (337) رواية تدل على اعتناق أحد ملوك زغاوة الاسلام على يد أحد مشايخ نفوسة . وقد أخذ لويسكي (338) بهذه الرواية وكذلك ماسكراي (339) الذي أكد أن الاسلام وصل حتى بلاد غانة عن طريق التجار الاباضية من رعايا الدولة الرستمية. ولعل من أهم آثار الخوارج في الحياة الثقافية في بلاد المغرب تصديهم لمواجهة حركة التشيع التي قام بها الفاطميون الذين حاولوا نشر مذهبهم بوسائل العنف والشدة .

يتضح ذلك من سياستهم في محاولة طمس معالم تراث الخوارج ببلاد المغرب كاحراق المكتبة المعصومة بقاترت واهدار كتبهم بها (340) . وقد اشترك السنة مع الخوارج في محاربة التشيع وكان انتصارهم وشيكا لولا فشل ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد ، واخفاق حركة الشاكر لله بسجلماسة . اذ لو قدر نجاح هاتين الحركتين لزالَت الدعوة الشيعية الاسماعيلية من بلاد المغرب . وبنهاية نفوذ الخوارج السياسي في بلاد المغرب انحسرت ثقافتهم وتراثهم ، وانحصر في بقاع مغلقة في جبل نفوسة وواحة وارجلان ووادي الميزاب .

واذا كانت المادة تعوزنا لدراسة اثر الخوارج في العمارة والفنون في بلاد المغرب ، فالراجح انهم تأثروا في هذا الصدد بمؤثرات شرقية (341)، واندلسية (342) . فكانت عمائر سجلماسة وابنييتها على نمط اندلسي نتيجة جهود العناصر الاندلسية الوافدة اليها في تعميرها . وقد وصف ابن

(336) الوسياني : سير ابي الربيع : ورقة 4 .

(337) تنص هذه الرواية على أن « ابا يحيى النفوسي سائر الى بلاد السودان ، فالى ملكهم ناضل الجسم ضعيف القوى . فقتل له : ما يك في قال خوف الموت . قال فاختبرته عن الله وصفاته سبحانه والجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصي فكذبني وقال : لو صح عندك ما تقول لما بلغت اليها تطلب الدنيا . فما زلت أذكر نعم الله وآلائه حتى أسلم وحسن اسلامه » . انظر : الشماخي : السير ص 312 .

(338) Etudes Ibadites. P. 71.

(339) التقى ماسكراي بأحد كبار مشايخ وادي ميزاب الاباضية واسمه الشيخ عبد الله . وقد أكد له الشيخ الاباضي تلك الحقيقة ، وأخبره أن جماعات من الاباضية لا تزال موجودة في غانة حتى الوقت الحاضر . انظر :

Chronique d'abou Zakaria. P. 279.

(340) ابو زكريا : ورقة 42 :

(341) Marçais, G : La Berberie musulmane .. P. 116.

(342) ابو العرب تميم : صفحة 80 .

حوقل (343) الكثير منها بأنها قريبة الشبه بأبنية الكوفة . وتفويض كتب الرحالة (344) بوصف روعة هذه العمائر من قصور وأسوار وحصون ومساجد .

كذلك تأثر فن العمارة الرستمى بمؤثرات فارسية (345) سواء فى انشاء المدن وتخطيطها (346) ، أو فى تشييد المساجد والعمائر والقصور (347) . بينما ظهر الاثر الاندلسى واضحا فى القلاع والحصون التى انتشرت خارج تاهرت (348) ابان الصراع بين القبائل والعناصر المختلفة فى العصر الرستمى الاخير ، ومن ناحية أخرى ذهب جورج مارسيه (349) الى ان بعض المؤثرات المغربية فى العمارة انتقلت الى مصر عن طريق الحجاج المغاربة .

تم بحمد الله

-
- (343) المسالك والممالك : صفحة 65 .
(344) انظر : المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 ، سعيد بن مقديش : نزهة الانظار : صفحة 11 .
(345) Farouhy : Op. Cit. P. 14.
(346) أبو زكريا : ورقة 13 .
(347) ابن الصغير : صفحة 26 . وقد كشفت اثار بناء يعتقد انه مسجد فى سدراته بصحراء الجزائر فى عصر متأخر تدل على تأثر الرستميين بالفن الفارسى . انظر : السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 582 .
(348) ابن الصغير : صفحة 38 ، 39 .
(349) انظر : La Berberie musulmane .. P. 116.

الخاتمة

تمخضت الدراسة عن عرض لتاريخ الخوارج السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . ونعتقد انه بفضل المادة التاريخية الجديدة التى توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع وجمع شتاته للمرة الاولى فيما نعلم .

فدعوة الخوارج فى بلاد المغرب لم تحظ من قبل بعناية الدارسين وقد تناولنا هذا الموضوع فى ضوء اعتبارين أساسيين ، أحدهما متعلق بالتطور السياسى الذى حدث للخوارج فى الشرق فى اواخر القرن الاول الهجرى والانتقال الى مرحلة الدعوة والتنظيم السرى فى أطراف العالم الاسلامى بعد فشل ثوراتهم وملاحقتهم فى قلب الدولة الاسلامية . والثانى يكمن فى ملائمة ظروف بلاد المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لتقبل مذهب الخوارج وانتشاره بين البربر ، فقد كان الفكر السياسى للخوارج فى صورته المتطورة اواخر القرن الاول الهجرى متسقا مع ظروف بلاد المغرب وآمال البربر وأهدافهم . وقد أمكن الوقوف على طبيعة التنظيم السياسى لخوارج الشرق ونظامه وقياداته ودعائه وأساليب الدعوة والبلاد التى توجه الدعوة اليها . كما حددنا توقيت نزول دعاة الخوارج - الصفريّة والاباضية - الى بلاد المغرب وتوضيح جهودهم فى نشر المذهب بين البربر ، مع اسباب التنافر بين الفرقتين وعدم تعاون دعائهم فى بلاد المغرب ، فالصفريّة اتجهوا الى المغربين الاوسط والاقصى والاباضية مارسوا نشاطهم فى المغرب الادنى 'واغريقية' .. ثم ابرزنا دور دعاة الصفريّة فى نشر المذهب بين قبائل مطغرة ومكناسة وزناتة وبعض قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولتونة وجدالة فضلا عن بعض العناصر

من غير البربر كالعرب والافارقة وزنوج السودان . كذلك اتضح دور دعاة الاباضية في بث دعوتهم بين قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة ومطماطة ، وجهودهم في تثبيت دعائم المذهب وتفقيسه معتنقيه والاستعانة في ذلك برأس تنظيمهم في البصرة . كما نوقشت آراء المستشرق جوتييه في تفسير انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب وقد كشفنا عن نسبة تلك الآراء الى المستشرق اميل ماسكراي ، كما اوضحنا ما انطوت عليه من غلو واسراف .

أما عن ثورات الخوارج في عصر الولاة ، فقد تعرض بعض الدارسين لها ، غير انه تسنى لنا الوقوف على مادة جديدة لم يطلع احد عليها من قبل سواء ما كان منها متعلقا بمصادر السنة أو ما كتبه مؤرخو الخوارج وفقهاءهم ، وبفضلها ربطنا بين أسباب ثورات الخوارج في المغرب وبين فكرهم السياسي المتمثل في الدعوة « لامامة الظهور » من ناحية ، وبين تفاقم المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب من ناحية أخرى . وفي عرضنا لثورات الصفرية والاباضية ، أمكن سد كثير من الثغرات في تاريخ هذه الثورات فضلا عن تصويب العديد من التواريخ المتعلقة بتوقيت الوقائع والاحداث ، أو الخاصة بتسلسلها مع توضيح العلل وتقصي الاسباب . وقد راعينا تتبع تطور هذه الثورات وفق منهج موضوعي دون اخلال بالاطار الزمني والمكاني للاحداث . وأثبتنا النتائج التي تمخضت عن ثورات الخوارج مع تحليل عوامل نجاحها أو فشلها ، فربطنا بين هذه العوامل وبين موقف الخلافة في الشرق واهتمامها بشؤون المغرب أو انصرافها عنه . كذلك أمكن الربط بين تاجع هذه الثورات أو خفوتها وبين شخصية ولاية القيروان وسياساتهم وما كانوا عليه من قوة أو ضعف . وأوضحنا عوامل القوة والضعف في ثورات الخوارج معرضنا لقياداتهم وخططهم وأسلحتهم، كما تحدثنا عن خلافاتهم وتعليلها تعليلا اجتماعيا ومذهبيا ، وعدم التعاون بين فرقتي الخوارج واسبابه ، ثم بين زعماء الفرقة الواحدة منها ، وبين كل منها وبين نظيرتها في الشرق وما ترتب على ذلك كله من نتائج وآثار .

أما عن دولتي الخوارج في بلاد المغرب فقد أمكن توضيح الظروف التي قامت فيها وقد استرشدنا بمنهج ابن خلدون في التاريخ لدولة بنى مدرار من حيث قيامها اعتمادا على عصبية ممثلة في قبيلة مكناسة ، مع ابراز العامل المذهبي الكائن في تجمع صفرية المغرب الاقصى تحت زعامة امام من

الزئوج تطبقا لبدأ المساواة فى فكر الخوارج السىاسى . وعرضنا لانشاء سجلماسة ، وحققنا الكثر من الروايات التى نسلجت حول اختطاطها ، وكذلك اختيار الامام ودلالته المذهبية والاجتماعية . وعللنا سبب الثورة على الامام الاول وكيف انتقلت الائمة الى مكناسة ، واوضحت أن ذلك يمثّل نقلة هامة فى الفكر السىاسى عند الخوارج وخروجا على تعاليم المذهب ، وانتصارا لعامل العصبية من جديد . ثم عرضنا لجهود أبى القاسم سلكو ابن واسول المكناسى ثانى الائمة والمؤسس الحقيقى للدولة فى تثبيت دعائم دولته .

وعالجا سىاسة بنى مدرار الداخلية فى ضوء الصراع الاجتماعى من ناحية والمذهبى من ناحية أخرى ، اما اولهما فيمكن فى الصراع بين مكناسة وزئوج السودان ، بينما يمثّل الصراع المذهبى فى ثورات الاباضية على آل مدرار الصفرية . وأبرزنا كيف كان عهد اليسع بن أبى القاسم سلكو يمثّل العصر الذهبى للدولة المدرارية التى ظلت قوية بعد موته حتى بلغت شأوا قوتها على عهد اليسع بن مدرار الذى حاول التوسع ومد رقعة دولته على حساب جيرانه الادارسة . لكن مشروعاته توقفت لظهور الخطر الشيعى الذى دهم سجلماسة سنة 297 هـ (909 م) . كما أرخنا لعلاقات بنى مدرار الخارجية فى ضوء طابع دولتهم الصحراوى الداخلى وظروفها السىاسية ومذهبها الدينى ومصالحها الاقتصادية ، وكيف انتهج بنو مدرار سىاسة عدائية مع العباسيين والاغالبة والادارسة ، وعقدوا أواصر الود والصداقة مع بنى رستم وأموى الاندلس . وناقشنا عديدا من الروايات القديمة والآراء المستحدثة التى تعرضت بالاشارة أحيانا الى علاقات بنى مدرار مع بعض هذه القوى بشكل مخالف لما ذهبنا اليه .

وفى تناول دولة بنى رستم أوضحنا ظروف قيامها فى ضوء محنة الخوارج الاباضية فى بلاد المغرب اذ ذاك ، وأبرزنا دور عبد الرحمن بن رستم فى تجميع اباضية المغرب الاوسط بعد تشتت شمل اباضية افريقية والمغرب الادنى على ايدى الولاة العباسيين . ثم جهودده فى تأسيس تاهرت وما تضمنه تأسيسها من مغزى سىاسى ومذهبى وحشينا مشكلّة امامة عبد الرحمن بن رستم التى اختلف حولها القدامى والمحدثون ، وانتهينا الى انه بوىع بالامانة مرتين — استرشادا بفقه الاباضية — الاولى على انه « امام دفاع » قبل اختطاط تاهرت ، والثانية « كامام ظهور » بعد اختطاطها . ثم عرضنا لجهودده فى تثبيت دعائم دولته بقرير نهج سىاستها الخارجية القائم على سىاسة المهادنة ، ومواجهة مشاكلها الداخلية من

حيث فرض سلطان الامامة على القبائل داخل حدودها ، وانمام عمران تاهرت ، وارساء نظم الحكم والادارة .

وفي دراسة سياسة بنى رستم الداخلية ، اوضحنا ما تفردت به من شيوع الفتن والقلاقل الداخلية بصورة اكثر بروزا من اية دولة من دول المغرب الاخرى المعاصرة لها . وارجعنا هذه الاضطرابات السياسية الى اسباب فقهية مذهبية ، او عوامل عنصرية وقبلية ، او نتيجة لموقف الفرق والطوائف المذهبية غير الاباضية وكلها تنطوى على اسباب اقتصادية . وانتبهنا الى تحديد ادوار ثلاثة واضحة في تاريخ التطور السياسى لدولة بنى رستم ، كان الدور الاول فيها — ويشمل عهدهى عبد الوهاب بن رستم وابنه افلح — يمثل سطوة الامامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبى سواء بالقوة كما فعل عبد الوهاب ، او عن طريق السياسة كما فعل افلح . اما الدور الثانى ، فيشمل عهدهى أبى بكر بن افلح وأخيه أبى اليقظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى . وفيه خفت صوت الامامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت . ولم يحل دون سقوط الامامة سوى ضعف العصبيات من جراء الصراع بينها واسلوب الموازنة الذى اتبعه ابو اليقظان محمد فى موقفه من هذه العصبيات . اما الدور الثالث من حكم بنى رستم — ويشمل امامتى أبى حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن أبى اليقظان — فيتسم بتداعى الامامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليبيها الشرقية . كما زاد الحالة سوءا تفاقم الخلافات داخل البيت الرستمى وقيام افراد البيت بتدبير المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتولى الحكم . وقد تضاعفت هذه العوامل جميعا على سقوط الدولة الرستمية سنة 297 هـ (909 م) .

اما علاقات بنى رستم الخارجية فقد تأثرت — شأنها شأن بنى مدرار — بوضع الدولة الجغرافى ومذهبها الدينى وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وانتبهنا الى ان سياسة بنى رستم الخارجية فى جوهرها سياسة دفاعية ، فلم يتناولوا على جيرانهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع عن حدودهم بل ثاقلوا فى بعض الاحيان عن رد خطر جيرانهم الادارسة . كما أن صلاتهم الودية لم تتعد مجرد تبادل السفارات والهدايا ولم تصل قط لدرجة التحالف او التعاون لمواجهة العدو المشترك . ومع

ذلك أمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية . لعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغالبية والادارسة كانت ذات طابع عدائى . أما علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى أمية بالاندلس واباضية الشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودى . وقد ناقشنا الكثير من الروايات والآراء لقدامى المؤرخين ومحدثيهم فى هذا الصدد .

وقد أمكن الربط بين ظهور الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب وبين سقوط دولتى الخوارج فى تاهرت وسجلماصة سنة 297 هـ (909 م) . فأتضح ان التشيع وجد طريقه الى سجلماصة قبل قدوم المهدي اليها واقامته بها . وان المهدي عاش طليقا بالمدينة حتى تيقن أميرها اليسع بن مدرار من أن أبى عبد الله الشيعى يدعو اليه ، فقبض عليه وأودعه السجن ، على خلاف ما ذكره بعض المؤرخين من أن اليسع نفذ بذلك مشيئة الخليفة العباسى والامير الاغلبى فى القيروان . وقد فندنا هذا الزعم وأثبتنا أن اليسع فعل ما فعله بالمهدي خوفا من الخطر الشيعى على دولته . وتتبعنا الاتصالات بين أبى عبد الله الشيعى وبين المهدي بسجلماصة حتى فرغ الشيعى من القضاء على دولة الاغالبية ، وتوجه الى سجلماصة لتحرير المهدي . وقد عرضنا لروايات المتضاربة حول مصير المهدي فى ضوء المادة التاريخية المتاحة . ثم أشرنا الى تخريب الشيعة الفواطم لسجلماصة والقبض على اليسع بنى مدرار وقتله سنة 297 هـ .

وبعد ذلك تناولنا ثورات الصفرية على الحكم الفاطمى مع بيان اسبابها وأرجعناها الى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية وجغرافية . ثم سياسة الفاطميين فى مواجهة ثورات الصفرية وما انطوت عليه من تهديد وترغيب وفشل تلك السياسة فى دعم نفوذهم بسجلماصة . وعرضنا هذه الثورات ابتداء بالثورة على ابراهيم بن غالب المزاتى سنة 297 هـ وانتهاء بثورة الشاكر لله الذى توفى سنة 352 هـ . ولحملتى الفاطميين اللتين قمعتا الثورتين ، الاولى بقيادة مصالة بنى حبوس سنة 309 هـ ، والثانية بقيادة جوهر الصقلى سنة 347 هـ ، وما درج عليه الفاطميون فى الفترة ما بين الحملتين من اصطناع بعض أفراد البيت المدرارى ليحكموا سجلماصة باسمهم ، وفشلهم فى ذلك . وقد بينا ما وقعت فيه بعض الروايات من خطأ فى تحديد سنى حكم بنى مدرار فى العهد الفاطمى ، واسمائهم والقابهم ودرسنا ذلك فى ضوء كتب السكة ، ومقارنة الروايات المتضاربة . ثم ناقشنا آراء البعض حول حركة الشاكر لله المدرارى وفندنا

الزعم بأنه لم يكن خارجيا صغريا ، واثبتنا أن ثورته تمثل رد الفعل الصفري للسياسة الفاطمية في المغرب الأقصى . وأوضحنا كيف انتهى الامر في سجلماسة بضعف النفوذ الفاطمي ثم انقراض بنى مدرار بعد ذلك . كما تناولنا سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين سنة 297 هـ بعد أن أوضحنا بإيجاز مظاهر الفوضى السياسية والاجتماعية والمذهبية في تاهرت في العصر الرستمي الأخير الامر الذي جعلها لقمة سائغة للشيعفة الفواطم ، فقد سقطت تاهرت على يد أبى عبد الله الشيعى دون قتال . الا أننا خطانا بعض الروايات القائلة بفتح الشيعة تاهرت قبل سقوط دولة الاغلبة ، واثبتنا أن ذلك الفتح لم يتم الا بعد سقوط دولة الاغلبة نفسها . وخلال مناخزة الشيعى للاغلبة كانت الطوائف والفرق غير الاباضية وبعض العناصر الرستمية المعادية لحكم اليقظان بن أبى اليقظان دائبة الصلة بأبى عبد الله تستحثه القدوم لفتح تاهرت . وبالفعل عرج أبى عبد الله على المدينة في طريقه الى سجلماسة وفتحها وخربها وقتل من وقع في يده من بنى رستم . لكن جيوشه فشلت في اسقاط بعض المعازل الاباضية الاخرى كوارجلان وجبل نفوسة .

وقد استرشدنا بفكر الخوارج السياسى فيما يتعلق بامامة الدفاع في اوقات المحن والملمات في دراسة الاباضية وثوراتهم على الفاطميين . وأوضحنا فشل هذه الثورات نتيجة تفتت شمل الاباضية من ناحية ، ومناهضة الفاطميين لنشاط الاباضية في افريقية والمغرب الأدنى من ناحية اخرى . ثم عرضنا للثورة الاباضية الكبرى التى تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيداد وفسرنا دوافعها السياسية والاقتصادية والدينية ، وفندنا الروايات التى تنفى عن الحركة طابعها الاباضى . وناقشنا موقف أبى يزيد من الاباضية غير النكار والسنة ونجاحه في ضمهم لحركته في مقاومة الشيعة الفواطم . كما تناولنا نشأته وثقافته ورحلته الى الشرق وإعداده للثورة وقيامه بها . وقد حددنا مراحل ثلاثة أساسية في مسارها كانت المرحلة الاولى في صالح أبى يزيد والثوار ، بينما كانت الحرب سجالا بين الفاطميين والثوار في المرحلة الثانية . اما الثالثة فقد تبدد فيها شمل أبى يزيد وأبنائه الذين تصدوا لقيادة الحركة من بعده حتى قضى عليها بالفشل . ثم عرضنا لدوافع تحامل المؤرخين على أبى يزيد واتباعه سواء أكان هؤلاء المؤرخون سنة أم شيعة أم اباضية وهبية واثبتنا تعصبهم وتجنيتهم على الرجل وحركته . ثم تناولنا النتائج والآثار التى تمخضت عن ثورة أبى يزيد على سياسة الفاطميين في المغرب وعلى مصير نشاط الخوارج . وانتهينا الى أن حركة

الشاعر للمدارى الصفري وثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الإباضى النكارى كانتا آخر حركات الخوارج البارزة فى تاريخ المغرب الاسلامى . واختتمنا البحث بدراسة اثر الخوارج فى المجتمع المغربى ، وقد أمكن تتبع تطور فكر الخوارج السياسى وأثره على ما قام به الخوارج من نشاط فى مجالات الحكم والادارة . وانتهينا الى أن الخوارج التزموا بتعاليمهم المذهبية فى هذا الصدد حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ثم تحولوا عن فكرهم السياسى فيما بعد واتخذت نظمهم ورسومهم وسياساتهم طابعا دينويا صرفا متأثرين بالانماط الشرقية العربية والفارسية والاعراف البدوية والقبلية المغربية .

وفىما يتعلق بأثرهم فى حياة بلاد المغرب الاقتصادية ، ناقشنا الرأى الشائع عن مسئولية الخوارج وحدهم عما حدث ببلاد المغرب من خراب اقتصادى ، وأوضحنا أن جذور تفاقم الاحوال الاقتصادية فى المغرب ترجع الى الحكم البيزنطى ، والفتح الاسلامى ثم سياسة بعض الولاة الامويين . لكننا لم ننكر اسهام ثورات الخوارج فى سوء الاحوال الاقتصادية فى المغرب فى عصر الولاة . غير أن قيام دول الخوارج أفضى الى ازدهار هذه الاحوال وانتعاشها فى نواحي الزراعة والصناعة والتجارة . ثم عرضنا لموقف الخوارج من سياسة الفاطميين المالية وأثر ثوراتهم فى حمل الفاطميين على انتهاج سياسة معتدلة .

أما عن أثر الخوارج فى الحياة الاجتماعية فى بلاد المغرب فقد أبرزنا التحولات الكبرى التى أحدثتها آراء الخوارج فى المساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية من اعادة تشكيل مواقف القوى والعناصر المختلفة فى المجتمع المغربى من عرب وبربر فضلا عن الاقليات الاخرى كالاندلسيين والانارقة وزنوج السودان واليهود ، ثم أوضحنا الآثار والنتائج التى ترتبت على قيام دولتى الخوارج من حيث التحول من حياة البداوة الى حياة الاستقرار ، وهجرات القبائل واعادة توطينها ، وأنشاء المدن وامتداد العمران ، وقدم عناصر شرقية واندلسية للانتامة فى كنف الدولتين الجديدتين ، وما نتج عن ذلك من تلاحم أنماط الحياة البدوية فى المغرب واختلاطها بالانماط الحضارية الوافدة ، وانصهارها جميعا فى بوتقة مغربية ، وما تمخض عن ذلك كله من آثار طيبة أو سيئة فى المجتمع المغربى .

وفىما يتعلق بأثر الخوارج فى الحياة الثقافية ببلاد المغرب ، فقد أفضى انتشار مذهب الخوارج بصورة واسعة الى نتائج ثقافية غاية فى

الاهمية فقد وفدت مؤثرات اسلامية شرقية لتسهم في دعم الاسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب . واخذت هذه الافكار تتصارع مع التيارات الاخرى الوافدة ممثلة في فكر السنة والمعتزلة والشيعة ، ونجم عن ذلك اثرات الحياة الثقافية في المغرب . وقد عرضنا للمساجلات والمنظرات بين اقطاب هذه الفرق ووقفنا على كثير من نصوص تلك المساجلات بين فقهاء الخوارج ومشايخ الفرق الاخرى اثبتناها في الحواشي . كذلك عرضنا للانشقاقات المذهبية في فرق الخوارج نفسها في جوانبها الفكرية وأوضحنا اثرها في اثرات افكار الخوارج ومعتقداتهم ، وما أضافته بيئة المغرب الى رصيد هذه الافكار والمعتقدات . كما عرضنا لاعلام المفكرين في صنوف العلم المختلفة ، ودور ائمة الخوارج في تشجيع النشاط الثقافي ، والصلات الثقافية بين عاصمتي دولتي الخوارج وبين مراكز الثقافة في المغرب والاندلس ، فضلا عن بلاد الشرق الاسلامي . ثم ابرزنا دور الخوارج في وضع البذور الاولى لحركة انتشار الاسلام في افريقية جنوبى الصحراء ، وهو امر لم يفتن اليه الدارسون من قبل . وعرضنا في ايجاز لدور الخوارج في مجال الفن والعمارة في المغرب ، وتأثيرهم بمؤثرات شرقية فارسية واندلسية .

الملاحى

ملحق رقم (1)

رسالة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة الى شيوخ الاباضية بالمغرب

بسم الله الرحمن الرحيم (1) . صلى الله على سيدنا محمد النبي

الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

اتانى كتابكم تذكرون فيه ما من الله به عليكم من جمع كلمتكم واتلاف
امركم فى كثرة من حضرتكم من اهل الخلاف لكم . ولعمري ما اكثرتهم وان
كثروا باكثر ممن كان قبلهم على من كان قبلكم من سلفكم ، فاقصدوا بهم
يهون عليكم كثرتهم على اخلافكم . نسأل الله العون والتوفيق فى جميع
اموركم ، وان يكفنا واياكم بأسهم ، وان يجعل لنا ولكم ولجميع المسلمين
الدائرة عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . فلعمرى لقد
أسرنى ما انتهيتم اليه من امركم ، وان كان ذلك لم يخف عنا ، غير انا لم
نظن الذى كتبتم به الى . والله يستتم لكم الخير كله بعونه وتوفيقه .

اتانا كتابكم بمسائل ، فمنها ما رأيت ان اجيبكم فيها ، ومنها ما رأيت

(1) ابو عبيدة مسلم بن أبى كريمة . رسالة فى احكام الزكاة . مخطوط بدار الكتب المصرية
— رقم 21582 ب ورقة 114 .

ألا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقتصر إلا الذي رأيته أصلح لجماعتكم
وأقوم لشأنكم وأرفق لضعيفكم وأعطف في الذي أجيبكم فيه ، فمما كان
من صواب فمن الله ، وما كان من خطأ في رواية أو خبر أو غير ذلك
فمن نفسي .

استغفر الله من جميع ما ليس هو له رضى . .

ذكرتم في كتابكم العشر وكيف جمعه ، واعلموا رحمكم الله أنه (1) ..
السخ .

ملحق رقم «(2)»

رسالة حنظلة بن صفوان الى الخوارج الصفرية بطنجة

بسم الله الرحمن الرحيم .

من حنظلة بن صفوان الى جميع اهل طنجة :

أما بعد — فان اهل العلم بالله ويكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله
عليه وسلم قالوا انه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل الى عشر آيات :
أمره ، وزاجره ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومشتبهة ،
وحلال ، وحرام ، وأمثال .

فأمره بالمعروف ، وزاجره عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة
بالنار ، ومخبرة بخبر الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة
يؤمن بها ، وحلال أمر أن يؤتى ، وحرام أمر أن يجتنب ، وأمثال واعظة .

(2)

فمن يطع الأمرة وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالمبشرة ، وأنذرت
المنذرة . ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، ويرو العلم فيها اختلف فيه الناس
الى الله ، مع طاعة واضحة ونية سالحة ، فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة
الدنيا والآخرة .

(1) يستلزم في الإجابة على تساؤلاتهم ولغا لتعاليم المذهب الإباضى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (1) .

(3)

رسالة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الى اباضية طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم .
من أمير المؤمنين عبد الوهاب الى جماعة المسلمين بحيز طرابلس
اما بعد — فاني آمركم بتقوى الله تعالى والاتباع لما أمركم به ،
والانتهاء عما نهاكم عنه . وقد بلغني ما كتبتم الى به من وفاة السبع ،
واستخلاف بعض الناس خلفا ، ورد أهل الخير ذلك . فان من ولى خلفا من
غير رضى امامه فقد اخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته فقد أصاب .
فاذا أتاكم كتابي هذا ، فليرجع كل عامل استعمله السبع الى عمله
الذي ولى عليه ، الا خلف بن السبع حتى يأتيه امرى . وتوبوا الى ربكم
لعلكم تفلحون (2) .

(4)

رسالة الربيع بن حبيب الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويزيد بن فندين

بسم الله الرحمن الرحيم — وصلى الله على بنينا محمد وآله الطاهرين
اما بعد — فقد بلغنا يا اخواننا ما كان قبلكم ، وفهمنا ما كاتبتمونا به .
اما ما كتبتم به من أمر الشرط ، فليس من سيرة المسلمين أن يجعلوا الشرط
في الامامة ان لا يقضى أمرا دون جماعة .
ولو صح في الامامة شرط لما أقيم لله حق ولا حد ، ولعطلت الحدود ،
وبطلت الاحكام وضاع الحق . على أن الامام اذا قدم اليه سارق فلا يصيب
أن يقيم عليه حدا فيقطع يده حتى تحضر الجماعة التي ذكرناها ، او زنى
أحد فلا يرجم ولا يجلد حتى تحضر أيضا ، ولا يجاهد الامام عدوا الا ينهى

(1) المالكي : رياض النور : ج 1 ص 67 .
(2) انظر : أبو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة 25 . مخطوط بدار الكتب المصرية
— رقم 9030 ح ، الشماخي : السير : ص 180 ، 181 ، الدرجيني : طبقات
الاباضية : ج 1 ورقة 31 وجه — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح .

عن فساد إلا بحضرة الجماعة المعلومة ، والجماعة يتعذر أنفاتها ، فالإمامة صحيحة والشرط باطل .

وأما ما ذكرتم من تولية رجل من المسلمين إذا كان فيهم من هو أعلم منه ، فذلك جائز إذا كان الثانى من القناعة والفضل . فقد ولى أبو بكر وزيد ابن ثابت افرض منه ، وعلى بن أبى طالب اقضى منه ومعاذ بن جبل أعلم منه ، وهذا ليس فيه اختلاف ، لقول الرسول (ص) افرضكم زيد واقضاكم على واقراكم أبى ، واعلم امتى بالحلال واكرام معاذ بن جبل . وقوله (ص) معاذ بن جبل سيد العلماء سيحشر غدا يوم القيامة أمام العلماء وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (1) .

(5)

رسالة محمد بن افلح الى رعاياه

من محمد بن افلح الى جميع من بلغه كتابنا هذا من المسلمين .
سلام الله عليكم . فانى احمد الله اليكم الذى لا اله الا هو ، واسأله الصلاة على نبي الرحمة وهادى الامة صلى الله عليه .

أما بعد — فان افضل ما يتواصى به العباد وتحاضوا عليه ، تقوى الله ولزوم طاعته والزجر عن معصيته والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهىء للقدوم على الله والتأهب والاعداد ليوم تشخص فيه الابصار وتتغير فيه الالوان ، ويشيب فيه الولدان ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . واعلموا رحمكم الله ان أهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلت الخلوف منهم ، فرحم الله امرىء مسلم احتسب نفسه وارصد لله فى طلب العلم ، والنقص على من حاد الله وعدل عن منهاج رسوله (ص) وطريق المحققين من عباده حتى تكون كلمة الله هى العليا . والباطل زهوقا .

وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضين من اسلافكم والمتقدمين من ائمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فاقفوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ،

(1) أبو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة 16 .

واحذروا الزيف عن طريقهم والميل عن منهاجهم ، وخالفوا أهل البدع المضلة والاهواء المزلّة . فمن اراد أن يبدل دينكم ، ويلبسكم شيئا ، ويلبس عليكم أمركم ممن اتبع هواه واستحوذ عليه الشيطان ونبد ما جاء به القرآن ، فالبس على الضعفاء أمرهم وزين بدعته في قلوبهم فأخدع من لا بصيرة له ولا علم له بما مضى عليه الائمة الراشدون رحمة الله عليهم ، والسلف الصالحون من أهل دعوتكم ، فأضل كثيرا ، وضل عن سواء السبيل . ونحن ذاكرون لكم ما فيه الكفاية ان شاء الله . وبه نستعين وعليه نتوكل وما توفيتنا الا بالله (1) .

(6)

خطبة المعز لدين الله الفاطمي في مشايخ كتامة يحضهم على قتال الشاكر لله المدرارى .

« .. وهذا الذى كنت ذكرته لكم من غير مجلس ومقام انى لو ندبت من عسيت أن اندبه منكم لوجدت فيه ما أريده .. »

بارك الله فيكم وأحسن صحابتكم والخلافة عليكم ، فقد صدقتم ظنى فيكم وأملى عندكم وأنتم من معدن البركة وعنصر الخير . بكم بدأ الله اظهار أمرنا ، وبكم يتم ويصلحه بحوله وقوته . وقد علمت مسارعتم الى ما ندبتكم اليه . وأجابتم لما أردتم له ، وأرجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ، ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم ويعلى به ذكركم . أنتم البنون والاخوة والاقربون ، ما يعد لكم عندى أحد ولا يبلغ مبلغكم من قلبى بشر ، وما ذلك الا لئالى فى قلوبكم . وما نصر الله وليا من أوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا ، على ذلك مضى أمركم ، وعليه أنتم على محبتنا ونصرتنا وموالائنا تتناسلون وتنشؤون ، وبها غديتم وعليها فطرتكم ، فأبشروا بما قسم الله عز وجل من الفضل لكم ، فأنتم حزب الله وأنصاره وجنده وأحباؤه .

والله ما أردت بهذا البعث الذى بعثكم فيه شرا أستدفعه ، ولا دفع مكروه أخافه ولا استكثارا من الدنيا أصيبها . أما المكروه ، فقد علم الخاص والعام والقريب والبعيد أن غاية أمانى من حولنا من أهل الارض بن المتغلبين ممن دان بملة الاسلام والمشركون أن يسلموا منا ، ويعانوا أمر بأسنا ، وما أحد منهم أمسى وأصبح اليوم — بحمد الله — يطمع فى شيء

(1) البرادى : الجواهر المنتقاة فى انباء ما اخل به كتاب الطبقات لابی العباس الدرجينى ورقة 93 ، 94 — مخطوط بدار الكتب المصرية — رقم 21791 ب .

مما عندنا . وأما اكتساب حطام الدنيا ، فهذا نحن نثفق من أموالنا على هذا البعث ما لا نرى نرتجع مثله ، وإن مكفنا الله وأيدنا ونصرنا . ولكننا أردنا بذلك وجوها منها : ما افترضه الله عز وجل علينا من جهاد من خالف أمرنا وتسمى بأسمائنا ، وادعى ما جعل الله عز وجل لنا . ومنها أن الله عز وجل قد امتحن عباده بالجهاد في سبيله معنا ، فنحن ننبذهم إليه لنعلم المجاهدين منهم والصابرين وليرفع الله عز وجل به درجاتهم ويجزل مآثرهم وينقل حالاتهم فكم منكم اليوم من ينفذ في هذا الجيش تابعا يعود متبوعا ، ومرعوسا يصير رئيسا . انما ترفعكم عندنا وعند ربكم نياتكم وأعمالكم ، وبها تتوسلون إلينا وإلى بارئكم . لولا السنة التي أمر الله عز وجل باتباعها — التي لا يصلح العبادة إلا بها — ما قدمت عليكم أحد منكم ولا من غيركم ، إذ كل واحد منكم عندي يستحق أن يكون المقدم . ولكن لا يصلح الناس إلا برئيس ، وقد قدمت عليكم من علمتموه . أتمته فيكم مقام نفسي ، وجعلته معكم كأذنى وعينى ، وكل امرئ منكم على نفسه بصير . وقد أمرت لكم بأجل العطاء ، أعطيته من قبلكم إلى أبعد من مسافتكم ، وقد علمتم أنه لم يعط من قبلكم أحد قبلى مثل ما أعطيتكم . ولا استكثر لكم ذلك ، بل استقله أقلكم والذي لكم عند الله وعندى فى الذى تستقبلونه أجل وأكبر .

فسيروا على بركات الله وبهنة وسعاداته ونصره وتأييده . كونوا عندما رجوتكم له من العناء والكفاية وصلاح الحال بينكم . احسنوا عشرة بعضكم لبعض ، وعشرة من تصحبونه من غيركم . وانزلوا من ينفذ معكم من عبيدى منازل أخوانكم . واجمعوا معهم كلمتكم ، فهم لكم عضد ولحمة ، وموالئى تجمعكم وإياهم ، فلا تجعلوا بينكم وبينهم فرقا .

أحسن الله لكم الصحابة وعليكم الخلافة .. » (1)

(7)

حديث المعز لدين الله الفاطمى الى المنتصر لله المدرارى

وشيوخ الصفرية بسجلماسة

« .. يا أهل سجلماسة ، فعلتم ما فعلتم فى أيام المهدي بالله واقتدر

(I) ابن حيون : المجالس والمسائرات : ج 1 ورقة 27 — 31 مخطوط بجامعة القاهرة
رقم 26060 .

عليكم مرة بعد أخرى ، فعفا عنكم ، وأحسن اليكم لحلوله فيكم ومجاورته إياكم مدة إقامته فيكم ، كما يرحاه من أحله الله محله من كرم الطباع وحسن صنيع من غير يد كانت له عنده ، ولا فعل من انجميل تقدم لكم لديه . فصفح وأحسن ، وعفا وأجل ، فما رعيتم ذلك حق رعايته ، ولا فهتم بشكره .

ثم لفق فيكم ناعق من الشيطان فليبتموه ، ودعاكم اليه داع فأجبتموه فقام فيكم دعى فيما ادعاه يتوثب على ما تولاه ، قد عرفتم نسبه وديرتهم سببه فتغلب على ظاهر أمركم ، وتحلى بالرياسة والتصنع لكم ، وتسمى بأمير المؤمنين وإمام المسلمين لكم . على علم لا تشكون ويقين لا تمترون أن ذلك لا يجوز ولا يحل تسليمه . فسلمتموه لمثله له وأطعتموه وتوليتموه وابتعتموه ، ففارقتم جماعة المسلمين ، وخرجتم من حزب المؤمنين ، وأحدثتم حدثا عظيما في الدين . وانتهى إلينا من أمركم وأمره ما لم يسعنا تركه والغفلة عنه ، لما افترضه الله علينا عز اسمه من القيام بحقه في أرضه ، وجهاد من صدف عن دينه وعن سنة رسوله . وحل محلكم ومحل هذا الفاسق فيكم . فأنهضنا اليكم جيشا من أوليائنا وأنصار دولتنا وعبيدنا مع عبد أمرناه عليهم وتقدمنا اليه في الاعتذار والإنذار اليكم في الانابة والتوبة قبل الوقوع بكم . فلم يزل مع طي المراحل نحوكم يتابع الكتب مع رسوله كيذا في الحجة عليكم ، مرة بالوعد ومرة بالوعيد ، وتارة باللين وتارة بالتشديد ، يدعوكم الى الطاعة والنزوع عما أنتم عليه من المعصية والضلال ، والقبض على عدو الله فيكم أن تمادى على ما هو عليه من الغى والضلال أن استطعتموه ، والبراءة منه وتركه بجانب أن لم تقدرُوا عليه . ووصلت كتبه اليكم ؛ وأدى اليكم من اختار به منكم . وكل ذلك وأنتم على باطلكم مصرون ، وبالفاسق المضل لكم متمسكون . الى أن وصلت جيوشنا بقرىكم ، وانتشرت عساكرنا ببلدكم ، وعاین من عاینكم من عیون عدو الله من جمعها وعتادها وقوتها ما أنهاه اليه ، وقد علم أنه لا طاقة لكم ولا له بعسكر من عسكرها . فلما نزلت بداركم وأنتم مع الفاسق على ما أنتم عليه . نهض موليا وهاربا متسللا بين أظهركم ، وقد كنتم تتقدرون على أخذه لو أردتموه ، ويمكنكم منعه من ذلك ومن حصاره في داره متى أحببتموه لو أخذتم بحظيكم في ذلك ففعلتموه . لكنكم أنتم مصرين على طاعته وتوليه الى أن نزع عنكم وأقدرنا الله بفضلله وأحسنه عليه كعادته الجميلة بلا صنع ولا غيركم في ذلك ، وأقدرنا عليكم وأمكننا منكم ، وأنتم على ما أنتم عليه من غيركم وضلالكم وما تستوجبون به اجتياحكم ودماركم . فسار عبدنا فيكم بما أمرناه

من العفو والصفح والرحمة وانصرف عنكم ، فأحدثتم بعده ما أحدثتم . فماذا تستحقون أن يفعل بكم ؟ فقال قائلهم : أن يعاقب أمير المؤمنين فنحن أهل العقوبة ، وإن يعفى فهو أهل العفو والفضل والرحمة . . ندعا منتصر بن أحمد بن المعتز فقربه اليه وأمره بالجلوس . فقبل الأرض مرارا وشكر لامير المؤمنين . ثم عطف على الوفد فقال : قد كنتم تستحقون اليوم العذاب والنكال ، ولكننا للذي جبلنا عليه من الصفح والعفو والرحمة قد عفونا ما سلف من ذنوبكم ما استقمتم وأصلحتم ، وقد استعملنا عليكم عبدنا هذا — وأومى الى منتصر — فقبل وقبلوا الأرض مرارا . . وأمر بصرفهم الى موضع أنزلهم فيه وخلع على منتصر وفعل كذلك بجماعة من وجوههم . . « (1)

(1) ابن حيون : المجالس والمسائرات : ج 1 ورقة 298 — 304 .

المصادر

١ - المراجع العربية المخطوطة :

- 1 - **ابن أبى كريمة** : أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة (تاريخ اواخر القرن الثانى الهجرى) : رسالة فى أحكام الزكاة . مخطوط بدار الكتب - رقم 21582 ب .
- 2 - **ابن حيون المغربى** : القاضى أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور ابن حيون (ت 363 هـ) : شرح الاخبار فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الاخيار من الائمة الاطهار عليهم السلام . مخطوط بدار الكتب رقم 7062 ح .
- 3 - **ابن حيون المغربى** : اساس التأويل الباطنى . مخطوط بدار الكتب رقم 24346 ح .
- 4 - **ابن حيون المغربى** : المجالس والمسائرات . ج 1 ، 2 . مخطوط بجامعة القاهرة - رقم 26060 .
- 5 - **ابن العربى** : أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى (ت 543 هـ) . القواصم والعواصم - مخطوط بدار الكتب - رقم 22031 ب .
- 6 - **ابن فضل الله العمرى** : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 749 هـ) . مسالك الابصار ج 5 - مخطوط بدار الكتب رقم 4376 ج .
- 7 - **ابن وردان** : تاريخ الاغلبة فى مملكة تونس - مخطوط بدار الكتب - رقم 2199 تاريخ - يتمورية .

- 8 — **أبو زكريا** : يحيى بن أبى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . السيرة وأخبار الأئمة — مخطوط بدار الكتب — رقم 9030 ح .
- 9 — **الانصارى** : أحمد بن الحسين النائب الانصارى : نفحات النسرين والريحانى فيمن كان بطرابلس من الاعيان — مخطوط بدار الكتب — رقم 1071 ح .
- 10 — **البرادى** : أبو القاسم بن ابراهيم البرادى (ت 697 هـ) . الجواهر المنتقاة فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى . مخطوط بدار الكتب . رقم 8456 ح .
- 11 — **البرادى** : رسالة فى ذكر كتب الإباضية . مخطوط بدار الكتب — رقم 21791 ب .
- 12 — **البياسى** : يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصارى (ت 653 هـ) الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام مخطوط بدار الكتب — رقم 8739 ح .
- 13 — **جعفر بن أحمد بن عبد السلام** : (ت اواخر القرن الحادى عشر الهجرى) . ابانة المناهج فى نصيحة الخوارج . مخطوط بدار الكتب — رقم 25499 ب .
- 14 — **الخرزجى** : جمال الدين أبو الحسن على بن ظافر (ت 623 هـ) اخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب — رقم 890 تاريخ .
- 15 — **الدرجينى** : أبو العباس أحمد (ت منتصف القرن السابع الهجرى) طبقات الإباضية ج 1 ، 2 . مخطوط بدار الكتب — رقم 2561 ح .
- 16 — **الشماعى** : أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ) : شرح مقدمة اصول الفقه . مخطوط بدار الكتب — رقم 21587 ب .
- 17 — **السوفى** : أبو عمر عثمان بن خليفة المرغنى (ت اواخر القرن السادس الهجرى) : شرح السؤالات — مخطوط بدار الكتب — رقم 21789 ب .
- 18 — **الصفرى** : أبو غانم : مدونة أبى غانم الصفرى — مخطوط بدار الكتب — رقم 21582 ب .

- 19 — **العيسى** : بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد (ت 855 هـ) :
عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان . ج 11 ، 13 ، 15 مخطوط
بدار الكتب — رقم 1584 تاريخ .
- 20 — **القاضى عياض** : عياض موسى اليحصبى (544 هـ) : ترتيب
المدارك وتعريب المسالك لمعرفة اعيان مذهب مالك . قسم 1 من
ج 2 . مخطوط بدار الكتب — رقم 96730 ح .
- 21 — **المأمون** : الخليفة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد : جغرافية
المأمون . مخطوط بدار الكتب — رقم 1949 ط .
- 22 — **مجهول** : تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والاندلسيين
— مخطوط بدار الكتب — رقم 4419 ح .
- 23 — **مجهول** : قطعة من كتاب فى الاديان والفرق . مخطوط بدار
الكتب — رقم 22298 ب .
- 24 — **مجهول** : كشف الغمة لآخبار الامة . مخطوط بدار الكتب —
رقم 12968 ح .
- 25 — **مجهول** : محاوراة بنى شيمى وخارجى فى شأن الشيخين أبى
بكر وعمر وشأن الحكمين وما قيل فى ذلك — مخطوط بدار الكتب
— رقم 19882 ب .
- 26 — **محمد الشطى المغربى** : الجمان فى آخبار الزمان — مخطوط بدار
الكتب — رقم 1416 تاريخ .
- 27 — **المنصورى** : ركن الدين يبيرس الدوادار (ت 729 هـ) : زبدة
الفكرة فى تاريخ الهجرة . ج 4 ، 5 — مخطوط بجامعة القاهرة
— رقم 24027 .
- 28 — **الناصرى** : عثمان بن عبد العزيز بن منصور (ت 1259 هـ) :
منهج المعارج لآخبار الخوارج — مخطوط بدار الكتب — رقم
2144 تاريخ — تيمورية .
- 29 — **النويرى** : شهاب الدين أحمد (ت 732 هـ) : نهاية الارب فى
فنون الادب . ج 22 ، 26 — مخطوط بدار الكتب — رقم 549
معارف عامة .
- 30 — **النيسابورى** : أحمد ابراهيم (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) :
استتار الامام — مخطوط بدار الكتب — رقم 11497 ح .

31 — **الوسيانى** : أبو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ) : سير أبى الربيع بن عبد السلام الوسيانى — مخطوط بدار الكتب — رقم 9113 ح .

ب — المراجع العربية المطبوعة :

32 — **ابن الآبار** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت 658 هـ) : الحلة السراء ج 1 ، 2 القاهرة 1963 .

33 — **ابن أبى دينار** : أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم القيروانى (ت 1092 هـ) ، المونس فى اخبار افريقية وتونس . تونس سنة 1350 هـ .

34 — **ابن أبى زرع** : أبو الحسن بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى (ت 720 هـ) : الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ج 1 . الرباط سنة 1936 م .

35 — **ابن الاثير** : محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (ت 630 هـ) : الكامل ج 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 . القاهرة سنة 1303 هـ .

36 — **ابن بشكوال** : أبو القاسم خلف بن مالك (ت 578 هـ) : الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم — ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1955 م .

37 — **ابن بطوطة** : محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى (ت 1377 م) : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج 2 .

38 — **ابن تغرى بردى** : جمال الدين أبى المحاسن يوسف (ت 874 هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1963 م .

39 — **ابن حزم** : على بن احمد بن سعيد (ت 456 هـ) : جمهرة انساب العرب . القاهرة سنة 1962 م .

40 — **ابن حزم** : الفصل فى الملل والنحل . القاهرة سنة 1317 .

41 — **ابن حزم** : نقط العروس فى تاريخ الخلفاء . القاهرة سنة 1951

42 — **ابن حماد** : محمد بن على (ت 628 هـ) : اخبار ملوك بنى

- عبيد وسيرتهم . الجزائر سنة 1346 هـ .
- 43 - **ابن حوقل** : أبو القاسم بن حوقل (ت النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك . ليدن سنة 1873 م .
- 44 - **ابن حيان** : حيان بن خلف بن حسين (ت 469 هـ) : المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس نشر منشور انطونيا . باريس سنة 1937 م .
- 45 - **ابن حيان** : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس تحقيق الحجر التونسى بيروت سنة 1965 م .
- 46 - **ابن خرداذبة** : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حول سنة 300 هـ) المسالك والممالك . ليدن سنة 1889 م .
- 47 - **ابن الخطيب** : لسان الدين محمد بن الخطيب السليماني (ت 940 هـ) اعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام . ج 2 . بيروت سنة 1956 م .
- 48 - **ابن الخطيب** : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط . وهو الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام . الدار البيضاء سنة 1964 .
- 49 - **ابن الخطيب** : رقم الحل فى نظم الدول . تونس سنة 1316 هـ .
- 50 - **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) : العبر ديوان المبتدا والخبر . المقدمة ، ج 3 ، 4 ، 6 ، 7 . بولاق سنة 1284 هـ ، القاهرة سنة 1957 م .
- 51 - **ابن خلكان** : شمس الدين أبو العباس احمد (ت 681 هـ) : وفيات الاعيان ج 1 القاهرة سنة 1910 م .
- 52 - **ابن الداية** : سيرة احمد بن طولون . برلين سنة 1894 م .
- 53 - **ابن الدلائى** : احمد بن عمر بن انس العذرى (ت 478 هـ) : نصوص من الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتفريع الآثار ، والمسالك . الى جميع الممالك . مدريد سنة 1965 م .
- 54 - **ابن رسته** : أبو احمد بن عمر : الاعلاف النفسية ج 7 ليدن سنة 1891 م .
- 55 - **ابن سعيد** : على بن موسى بن محمد (ت 673 هـ) : المغرب فى حلى المغرب ج 1 . القاهرة سنة 1964 م .
- 56 - **ابن الصغير المالكى** : انظر : Motylinski

- 57 — **ابن طباطبغا** : محمد بن على . الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية . القاهرة سنة 1938 م .
- 58 — **ابن عبد الحكم** : عبد الرحمن بن عبد الحكم بن أعين (ت 257 هـ) : فتوح مصر والمغرب . القاهرة سنة 1961 م .
- 59 — **ابن عبد ربه** : أحمد بن محمد (ت 327 هـ) : العقد الفريد ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 . القاهرة سنة 1940 م .
- 60 — **ابن عذارى** : محمد بن عذارى المراكشى (نهاية القرن السابع الهجرى) : البيان المغرب فى اخبار المغرب ج 1 ، 2 بيروت سنة 1950 م .
- 61 — **ابن غلبون** : محمد بن خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخير . القاهرة 1349 هـ .
- 62 — **ابن فرحون** : برهان الدين بن على (ت 799 هـ) : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب 1351 هـ .
- 63 — **ابن الفرضى** : عبد الله بن محمد بن يوسف (ت 304 هـ) : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1954 م .
- 64 — **ابن الفقيه** : أبو بكر أحمد بن محمد : مختصر كتاب البلدان ليدن سنة 1302 هـ .
- 65 — **ابن قتيبة** : عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) : الامامة والسياسة ج 1 ، 2 . القاهرة .
- 66 — **ابن قتيبة** : المعارف . القاهرة سنة 1960 م .
- 67 — **ابن القوطية** : محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت 267 هـ) : تاريخ افتتاح الاندلس بيروت سنة 1957 م .
- 68 — **ابن كثير** : عماد الدين أبى الفدا اسماعيل بن عمر (ت 774 هـ) البداية والنهاية ج 9 .
- 69 — **ابن النديم** : محمد بن اسحق (ت 385 هـ) : الفهرست القاهرة سنة 1348 هـ .
- 70 — **أبو العرب** : محمد بن أحمد بن تميم (ت 333 هـ) : طبقات علماء افريقية . باريس سنة 1915 م .

- 71 — **أبو الفدا** : عماد الدين اسماعيل (ت 732 هـ) المختصر في أخبار البشر ج 1 ، 2 . القاهرة .
- 72 — **أبو الفرج الاصفهاني** : على بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت 356 هـ) : مقاتل الطالبين . النجف الاشرف سنة 1353 هـ .
- 73 — **أحمد أمين** : ضحى الاسلام ج 3 القاهرة سنة 1936 م .
- 74 — **أحمد مختار العبادي** : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس — صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد — مجلد 5 — عدد 1 ، 2 سنة 1957 م .
- 75 — **الادريسي** : الشريف محمد الادريسي (ت 558 هـ) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر . ليدن سنة 1894 م .
- 76 — **ارثيبيبا لدلونس** : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الابيض المتوسط . القاهرة سنة 1960 .
- 77 — **ارنولد** : سير توماس : الدعوة الى الاسلام . القاهرة سنة 1957 م .
- 78 — **الازدي** : محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله (ت 488 هـ) : جذوة المتنبس في ذكر ولاية الاندلس . القاهرة سنة 1966 م .
- 79 — **الاسفرائيين** : أبو المظفر الاسفرائي (ت 471 هـ) : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين . القاهرة سنة 1955 م .
- 80 — **اسماعيل حامد (ناشر)** : نبذة في تاريخ الصحراء القصوى . باريس سنة 1911 م .
- 81 — **الاشعري** : أبو الحسن الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين . بفرنسا سنة 1963 م .
- 82 — **أطفيش** : محمد بن يوسف (ت 1304 هـ) : الامكان فيما جاز ان يكون أو كان . الجزائر سنة 1304 هـ .
- 83 — **أطفيش** : بعض تواريخ أهل وادي ميزاب . الجزائر سنة 1326 هـ .
- 84 — **الاندلسي** : محمد بن محمد الاندلسي : الحلال السندسية في الاخبار التونسية . تونس سنة 1287 هـ .
- 85 — **الانصاري** : أحمد النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ج 1 . بيروت .

- 86 — **الباجي المسعودي** : محمد الباجي المسعودي (ت 1253 هـ) :
الخلاصة النقية في أمراء افريقية . تونس سنة 1283 هـ .
- 87 — **باسيه : رينيه** : R. BASSET : مادة ادريس بدائرة المعارف
الاسلامية . مجلد 1 .
- 88 — **برنارد لويس** : أصول الاسماعيلية . القاهرة سنة 1947 م .
- 89 — **البغدادي** : عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429 هـ) : الفرق
بين الفرق . القاهرة .
- 90 — **البكري** : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 460 هـ) :
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب باريس سنة 1911 م .
- 91 — **البلاذري** : أحمد بن يحيى بن جابر (ت 248 هـ) : أنساب
الاشراف ج 11 . جريزفالد سنة 1883 م .
- 92 — **البلاذري** : أنساب الاشراف ج 1 . القاهرة سنة 1959 م .
- 93 — **البلاذري** : فتوح البلدان ج 1 . القاهرة سنة 1956 م .
- 94 — **البلاوي** : أبو عبد الله بن محمد المديني (ت حول منتصف القرن
الرابع الهجري) : سيرة أحمد بن طولون دمشق سنة 1358 هـ .
- 95 — **البوعياشي** : أحمد بن عبد السلام . الريف بعد الفتح الاسلامي .
تطوان سنة 1954 م .
- 96 — **بوفيل** : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا واثرها في تجارة
الذهب عبر الصحراء . القاهرة سنة 1968 م .
- 97 — **التجاني** : عبد الله بن محمد بن أحمد (ت 717 هـ) رحلته
تونس سنة 1958 م .
- 98 — **الجربي** : محمد أبو راس (ت 1222 هـ) : مؤنس الاحبة
في أخبار جربة . تونس سنة 1958 م .
- 99 — **الجزنائي** : علي الجزنائي (ت أواخر القرن الثامن الهجري) :
زهرة الآس في بناء مدينة فاس . الجزائر سنة 1923 م .
- 100 — **حامد عمار (دكتور)** : علاقات الدولة المملوكية بالدولة الافريقية
— رسالة ماجستير .
- 101 — **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : انتشار الاسلام في القارة الافريقية
القاهرة سنة 1964 م .
- 102 — **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة

- سنة 1958 م .
- 103 — حسن إبراهيم حسن (دكتور) : تاريخ الاسلام السياسى :
ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1958 م .
- 104 — حسن إبراهيم حسن (دكتور) : عبيد الله المهدي . القاهرة
سنة 1947 م .
- 105 — حسن أحمد محمود (دكتور) : انتشار الاسلام والثقافة العربية
في افريقية . القاهرة سنة 1963 م .
- 106 — حسن أحمد محمود (دكتور) : قيام دولة المرابطين . القاهرة
سنة 1957 م .
- 107 — حسن الباشا (دكتور) : الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق
والآثار . القاهرة سنة 1957 م .
- 108 — حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية
التونسية ج 1 ، 2 . تونس سنة 1966 م .
- 109 — حسن على حسن عبد العواد : دولة الادارسة بالمغرب — رسالة
ماجستير .
- 110 — حسين مؤنس (دكتور) : فجر الاندلس .
- 111 — حسين مؤنس (دكتور) : ثورات البربر في افريقية والاندلس —
مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول مجلد 10 ج 1 . مايو
سنة 1948 م .
- 112 — الحميرى : محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت القرن التاسع
الهجرى) : صفة جزيرة الاندلس القاهرة سنة 1937 م .
- 113 — الخشنى : محمد بن الحارث بن اسد (366 هـ) : طبقات
علماء افريقية . باريس سنة 1915 م .
- 114 — الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى (ت
696 هـ) : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ج 1 ، 2 ، 3 .
تونس سنة 1320 هـ .
- 115 — ديمومبين : G. Dymombyne : مادة بنى الاغلب بدائرة
المعارف الاسلامية — مجلد 2 .
- 116 — الدينورى : أحمد بن داود (ت 282 هـ) : الاخبار الطوال .
- 117 — الرازى : فخر الدين الرازى (ت 606 هـ) : اعتقادات فرق

- المسلمين والمشركون . القاهرة سنة 1938 م .
- 118 — **الرفاعى** : عبد الله محمد سراج الدين (ت 885 هـ) : صحاح الاخبار فى نسب السادة الفاطمية الاخير بى سنة 1306 هـ .
- 119 **الرفيق** : ابراهيم بن القاسم القيروانى (ت النصف الاول من القرن الخامس الهجرى) : تاريخ افريقية والمغرب . تونس سنة 1968 م .
- 120 — **سر الختم عثمان** : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى رسالة ماجستير .
- 121 — **سعد زغلول عبد الحميد (دكتور)** : تاريخ المغرب العربى القاهرة سنة 1965 م .
- 122 — **سعيد بن بطريق** : البطريرك افيتشيوس (ت 328 هـ) : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت سنة 1905 م .
- 123 — **سعيد بن مقديش** : نزهة الانظار .
- 124 — **السلوى** : احمد بن خالد الناصرى (ت 1319 هـ) : الاستقصا لخبار دول المغرب الاقصى ج 1 . الدار البيضاء سنة 1954 م .
- 125 — **سلفاتور كوسا (ناشر)** : تواريخ مدينة فاس .
- 126 — **سهر القلماوي (دكتور)** : ادب الخوارج من العصر الاموى — رسالة ماجستير — القاهرة سنة 1945 م .
- 127 — **السيد عبد العزيز سالم (دكتور)** : المغرب الكبير . القاهرة سنة 1966 م .
- 128 — **السيد عبد العزيز سالم (دكتور)** : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس . القاهرة سنة 1962 م .
- 129 — **السيوطى** : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت 911 هـ) : تاريخ الخلفاء . القاهرة سنة 1964 م .
- 130 — **الشماعى** : احمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ) : السير . القاهرة — طبع حجر .
- 131 — **الشهرستانى** : محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ) : الملل والنحل ج 1 . القاهرة سنة 1956 م .
- 132 — **صاعد الاندلسى** : صاعد بن احمد (ت 462 هـ) : طبقات الامم . القاهرة سنة 1915 م .
- 133 — **الضبى** : احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة (ت 599 هـ) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس . مدريد سنة 1884 م .

- 134 — الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة سنة 1963 م .
- 135 — الطبرى : محمد بن جرير (ت 310 هـ) : تاريخ الرسل والملوك ج 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 . القاهرة سنة 1963 م .
- 136 — طه حسين (دكتور) : الفتنة الكبرى ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1959 م . سنة 1961 م .
- 137 — عبد الرحمن بن زيدان : اتاحف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج 1 ، 2 . الرباط سنة 1929 ، سنة 1930 م .
- 138 — عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج 1 . الدار البيضاء سنة 1965 م .
- 139 — عبد المنعم ماجد (دكتور) : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 القاهرة سنة 1957 .
- 140 — عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلاميه بمديرى — مجلد 2 سنة 1954 م .
- 141 — عريب بن سعد القرطبى : (ت 366 هـ) : صلة تاريخ الطبرى . القاهرة سنة 1939 م .
- 142 — على يحيى معمر : الاباضية فى موكب التاريخ ج 1 . القاهرة سنة 1964 م .
- 143 — عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام . بيروت سنة 1956 م .
- 144 — فلهـوزن : يوليوس ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية . القاهرة سنة 1958 م .
- 145 — فلهـوزن : احزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الاسلام الخوارج والشيعه ، القاهرة سنة 1958 .
- 146 — قدامة بن جعفر (ت 320 هـ) : الخراج وصناعة الكتابة . ليدن سنة 1889 م .
- 147 — القلقشندى : أبو العباس احمد (ت 821 هـ) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا . ج 3 ، 5 ، 13 . القاهرة سنة 1922 م .
- 148 — الكتامى : محمد بن ادريس الحسنى (ت 1345 هـ) : الازهار

- العاطرة الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس
- 149 — **الكركسى** : ابراهيم بن محمد الفارس الاصطرخى (ت النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك . القاهرة سنة 1961 م .
- 150 — **كولين** : G. S. Colin : مادة سجلاسة بدائرة المعارف الاسلامية .
- 151 — **الكندى** : محمد بن يوسف (ت 350 هـ) : الولاة والقضاة . بيروت سنة 1908 م .
- 152 — **ليفى ديلا فيدا** : G. Levi. Della Vida : مادة الصفرية بدائرة المعارف الاسلامية .
- 153 — **مارسييه** : G. Marcais : مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية .
- 154 — **المالكى** : عبد الله بن ابي عبد الله (نهاية القرن الرابع الهجرى) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان و افريقية ج 1 القاهرة سنة 1951 م .
- 155 — **الموردي** : على بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ) الاحكام السلطانية والولايات الدينية . القاهرة سنة 1960 م .
- 156 — **مبارك الميلى** : تاريخ الجزائر فى التقديم والحديث ج 1 ، 2 . الجزائر سنة 1350 هـ .
- 157 — **المبرد** : ابو العباس محمد بن يزيد (ت القرن الثالث الهجرى) الكامل فى اللغة والادب والنحو والتصريف . ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1936 م .
- 158 — **مجهول** : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس . مدريد سنة 1867 م .
- 159 — **مجهول** : العيون والحدائق فى اخبار الحقائق ليدن .
- 160 — **مجهول** : (ت القرن السادس الهجرى) : الاستبصار فى عجائب الامصار . الاسكندرية سنة 1958 م .
- 161 — **مجهول** : (ت القرن الثامن الهجرى) : نبذ تاريخية فى اخبار البربر فى القرون الوسطى . الرباط سنة 1934 م .
- 162 — **محمد ابو زهرة** : المذاهب الاسلامية . القاهرة سنة 1959 م .

- 163 — محمد بن ناويت التطواني : دولة الرستميين أصحاب تاهرت —
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد مجلد 5 — عدد
1 ، 2 — سنة 1957 م .
- 164 — محمد جمال الدين سرور (دكتور) : الحياة السياسية في الدولة
العربية الاسلامية . القاهرة سنة 1960 م .
- 165 — محمد جمال الدين سرور (دكتور) : الدولة الفاطمية في مصر .
القاهرة سنة 1965 م .
- 166 — محمد ضياء الدين الرئيس (دكتور) : النظريات السياسية الاسلامية
القاهرة سنة 1967 م .
- 167 — محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الاندلس ج 1 . القاهرة
سنة 1943 م .
- 168 — محمد على دبور : تاريخ المغرب الكبير ج 2 ، 3 . القاهرة سنة
1963 م .
- 169 — محمد على السنوسي (ت 1272 هـ) : الدرر السندسية في اخبار
السلالة الادريسية . ليبيا سنة 1349 هـ .
- 170 — محمد كامل حسين (دكتور) : في ادب مصر الفاطمية . القاهرة
سنة 1963 م .
- 171 — محمود اسماعيل عبد الرازق : سياسة الاغلبة الخارجية —
القاهرة سنة 1972 م .
- 172 — محمود على مكي (دكتور) : التشيع في الاندلس الى نهاية ملوك
الطوائف صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد —
مجلد 2 — سنة 1954 م .
- 173 — المراكشي : عبد الواحد بن علي التميمي (ت 647 هـ) : المعجب
في تلخيص اخبار المغرب . القاهرة سنة 1949 م .
- 174 — المسعودي : علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ) : مروج
الذهب ومعادن الجواهر ج 2 ، 3 ، 4 . القاهرة سنة 1964 م .
- 175 — المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد (ت 388 هـ)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ليدن سنة 1909 م .
- 176 — المقرئ : أحمد بن محمد (ت 1041 هـ) : نفح الطيب من

- غصن الاندلس الرطيب ج 1 ، 4 . القاهرة سنة 1946 م .
- 177 — **المقريزى** : تقى الدين أحمد بن على (ت 845 هـ) : اتعاط الحنف بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . القاهرة سنة 1948 م .
- 178 — **المقريزى** : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج 1 ، 2 . بولاق سنة 1270 هـ . .
- 179 — **نصر بن مزاحم المنقرى** : أخبار صفين .
- 180 — **النفوسى** : سليمان بن عبد الله البارونى (ت 1359 هـ) : الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ج 2 .
- 181 — **النوبختى** : الحسن بن موسى (ت 288 هـ) : فرق الشيعة . النجف سنة 1951 م .
- 182 — **النيسابورى** : أحمد بن إبراهيم (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) استتار الامام . مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية مجلد 4 ، ج 2 — ديسمبر سنة 1936 م .
- 183 — **الورجلانى** : يوسف بن إبراهيم : الدليل لاهل العقول . ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1306 هـ .
- 184 — **ياقوت الحموى** : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت 636 هـ) : معجم البلدان — مجلد 1 ، 3 . طهران سنة 1965 م .
- 185 — **اليعقوبى** : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 284 هـ) : انبلدان . ليدن سنة 1891 م .
- 186 — **اليعقوبى** : تاريخه ج 2 ، 3 . النجف الاشرف سنة 1358 هـ .
- 187 — **اليمانى** : محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى (ت حول أواسط القرن الخامس الهجرى) : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة . القاهرة سنة 1955 م .
- 188 — **اليمانى** : محمد بن محمد : سيرة جعفر الحاجب . نشر ايفانوف تحت عنوان مذكرات فى حركة المهدي الفاطمى . مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية — مجلد 4 — ج 2 — سنة 1936 م .

ج - المراجع الأوربية :

- 189 — **Basset, Rene** : Les sanctuaires du Djebel Nefousa.
Journal Asiatique, Tome 13,14 Paris, 1899.
- 190 — **Basset, Rene** : Recherches sur la religion des Berberes.
Revue de l'histoire des religions. Tome 61, Paris 1910
- 191 — **Bel, Alfred** : La religion musulmane en Berberie. Vol.
1, Paris, 1938.
- 192 — **Bernard, Augustin** : Les capitales de la Berberie.
Recueil de memoires et de textes publie en l'honneur du
14e congres des Orientalistes. Alger. 1905.
- 193 — **Biquet, Faure** : Histoire de l'Afrique septentrionale sous
la domination musulmane. Paris.
- 194 — **Bonet, Maury** : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique
Paris, 1906.
- 195 — **Brockelmann, Karl** : History of the Islamic people.
London, 1949,
- 196 — **Brunschvig, R** : La tunisie dans le haut moyen age. Le
Caire, 1948.
- 197 — **Cambridge Medieval** : history, Vol. 2.
- 198 — **Cherbonneau, M** : Documente inedits sur l'heretique
Abou-Yezid Mokhalled Ibn Kaidad de Tademket Traduits
de la chronique d'Ibn Hammad. Journal Asiatique, Tome
20 Paris, 1852.
- 199 — **Conde** ; History of the dominion of the Arabs in Spain
Vol. I, London.
- 200 — **Dachraoui, Farhat** : La captive d'Ibn Wasul, Le rebelle de

Sidjilmassa d'après le cadî An-Numan. Les Cahiers du
Tunisie, 1956.

- 201 — **De goeje M.J.** : Memoires sur les Carmathes de Bahrin et
les Fatimids Leiden, 1886.
- 202 — **Despois, Jaan** : Le Djebel Nefousa. Paris, 1935.
- 203 — **Dozy, E.** Spanish Islam. London, 1913
- 204 — **Drague, G** : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc.
Paris, 1951.
- 205 — **Faroughy, Dr. A** : A Persian dunasty in North Africa ; The
Rustamides.
. The Islamic review, April, 1952, England.
- 206 — **Fournel** : Les Berberes. Vols. 1, 2, Paris, 1895.
- 207 — **Gibb** : Mohammedanism. London, 1945.
- 208 — **Hassan Ibrahim** ; Relations between the Fatimids in North
Africa and Egypt and the Omayyads in Spain during the
4 th century A.H. Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo
University. Vol 10, Part, 2 Cairo 1948.
- 209 — **Hitti, P. K.** : History of the Arabs. London, 1964.
- 210 — **Hopkins** : Medieval Moslem government in Barbary unitill
the 6 th century of Hijra. London, 1958.
- 211 — **Houdas, O.** Essai sur l'écriture Maghrebine. Nouveau melanges
Orientaux. Publications de l'ecole des langues
Orientales vivantes, 2 serie, Vol. 19
- 212 — **Huart, C.** Histoires des Arabes. Vol. I. Paris, 1912
- 213 — **Idris, H.R.** : Contribution a l'histoire de l'Ifrikiya'
Revue des etudes Islamiques, Année, 1935,
Cahier 2 Paris, 1935.
- 214 — **Ivanovv, W** : Ismaili tradition concerning the rise of the
Fatimids. Bombey, 1942.
وبملاحق الكتاب نصوص من الجزء الخامس عشر من كتاب شرح الاخبار ،
وكتاب انفتاح الدعوة ، وكتاب زهرة المعاني .
- 215 — **Julien, Andre** : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1931

- 216 — **Lammens, H** : Etudes sur le siècle des Omayyades. Beyrouth, 1930.
- 217 — **Lane-Poole, S** : Catalogue of the collection of Arabic coins in the British museum, Vol. 4. London, 1879.
- 218 — **Lane-Poole, S** : Catalogue of the collection of Arabic Coins presented in the Khedivial library of Cairo. London, 1897,
- 219 — **Lavoix, M.H** : Catalogue des monnaies Musulmane de la Bibliothèque Nationale. "l'Espagne et Afrique" Paris, 1891.
- 220 — **Le Tourneau, R** : La revolte d'Abou-Yazid au Xme siècle Les cahiers de tunisie, 1953 Tunis, 1953.
- 221 — **Lewicki, T** : Etudes Ibadites Nord Africaine. Warszaw, 1955.
- 222 — **Lewicki, T** : De quelques textes inedits en vieux Berberes provenant d'une chronique ibadites anonyme.
Revue des etudes Islamiques, Annee 1934,
Cahier 3 Paris, 1934.
- 223 — **Lewicki, T** : Melanges Berberes Ibadites, Revue des etudes Islamiques Annee 1936, Cahier 3, Paris, 1936.
- 224 — **Lewicki, T** : Une chronique Ibadites "Kitab-as-syar" d'as-Samachi. Revue des etudes Islamiques, Annee 1934 Tome 8 Paris, 1937.
- 225 — **Mamour, P.H.** Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs London, 1934.
- 226 — **Marcais, G** : L'Afrique du Nord Francaise dans l'histoire. Paris, 1937.
- 227 — **Marcais, G** : La Berberie Musulmane et l'orient au moyen age, Paris, 1946.
- 228 — **Marcais, W** : Comment l'Afrique du Nord a ete arabise Annales de l'institut d'etudes orientales, Annee, 1938 Tome 4
- 229 — **Masqueray, E.** Chronique d'Abou Zakaria Alger, 1878.
- 230 — **Mercier, E.** Histoire de Constantine, 1903.
- 231 — **Mercier, E.** Histoire de l'Afrique septentrionale Vol. I, Paris, 1888.

- 232 — **Mercier, E.** Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale Constantine, 1875.
- 233 — **Motylinski, A. De. C.** : Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostimides de Tahert. Actes du 14 congrès international des orientalistes. Alger, 1905, Vol. 3, Part 2.
- 234 — **Motylinski, A. De. C.** : L'Aqida des Abadhites Actes du congrès international des orientalistes, Alger, 1905.
- 235 — **Muir, W** : The caliphates ; its rise, decline and fall. Beirut, 1963.
- 236 — **O' Leary. de lacy** : A short history of the Fatimid Khalifate. London, 1923.
- 237 — **Provencal, E.L.** : Histoire de l'Espagne musulmane Vol. I, Alger, 1950.
- 238 — **Scott, S.P.** : History of the Moorish empire in Europe Vol. 2, London, 1904.
- 239 — **Smith, P** : The Ibadites. The Moslem world, Vol. 12 July, 1922.
- 240 — **Van Berchem, Max** : Titres Califiens d'Occident. Journal Asiatique, Tome, 9 Paris, 1907.
- 241 — **Variedades** : Al-Hakam II y los berbers regum untexoto inedito de Ibn Hayyan. Al-Andlus, Vol. 13, Madrid, 1948.
- 242 — **Vonderheyden, M** : La Berberie orientale sous la synastie de Benou' L'Arlab. Paris, 1927.
- 243 — **Zaki. M. Hassan** : Les Tulunides Paris, 1933.

الفهرس

5 المقدمة

الباب الاول :

- 23 دعوة الخوارج في بلاد المغرب
1) احوال الخوارج في المشرق الاسلامى حتى اوائل القرن
24 الثانى الهجرى
31 بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج
42 انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب

الباب الثانى :

- 59 ثورات الخوارج في بلاد المغرب في عصر الولاة
62 1) ثورات الخوارج الصفريية
82 2) ثورات الخوارج الاباضية
96 3) نتائج ثورات الخوارج في بلاد المغرب

الباب الثالث :

- 109 دول الخوارج في بلاد المغرب
1) دولة بنى مدرار الصفريية .
112 ا) قيام دولة بنى مدرار
122 ب) سياسة بنى مدرار الداخلية
128 ج) علاقات بنى مدرار الخارجية
2) دولة بنى رستم الاباضية .
144 ا) قيام دولة بنى رستم

154 (ب) سياسة بنى رستم الداخلية
183 (ج) علاقات بنى رستم الخارجية

الباب الرابع :

209 الخوارج والفاطميون في بلاد المغرب
	(1) الصفرية والفاطميون .
210 (أ) الفاطميون وسقوط دولة بنى مدرار
219 (ب) ثورات الصفرية على الحكم الفاطمي
	(2) الإباضية والفاطميون .
229 (أ) الفاطميون وسقوط دولة بنى رستم
235 ب — ثورات الإباضية على الحكم الفاطمي

الباب الخامس :

255 اثر الخوارج في المجتمع المغربي
257 (1) الفكر السياسى ونظم الحكم
271 (2) الحياة الاقتصادية
285 (3) الحياة الاجتماعية
292 (4) الحياة الثقافية
303 الخاتمة
311 الملاحق
319 المصادر